Wasit University Repository

Wasit University Repository

repository.uowasit.edu.iq

# الخطابُ اللّـغويّ الاستشراقيّ دراسةٌ في التّكوينِ والمادّةِ والمنهجِ

Orientalist Linguistic Discourse A Study of Its Origins, Content, and Methodology

عبد الحسين, سجى قاسم

إشراف: الأُستاذ الدّكتور عليّ حَسَن عبد الحسين الدّلِفيّ

جامعة واسط — 2026

https://repository.uowasit.edu.iq/handle/123456789/280

https://doi.org/10.31185/uowasit-123

حُمِّل هذا الملف من مستودع جامعة واسط

Downloaded from the Wasit University Repository — repository.uowasit.edu.iq

جمهوريّةُ العراقِ

وزارةُ التّعليمِ العالي والبحثِ العلميّ

جامعةُ واسط/كلّيّةُ التّربيةِ للعلومِ الإنسانيّةِ

قسمُ اللُّغة العربيّة

# الخطابُ اللُّغويّ الاستشراقيّ

# دراسةٌ في التّكوينِ والمادّةِ والمنهجِ

أطروحةٌ تقدَّمتْ بِها الطّالبةُ

سجى قاسم عبد الحسين

إلى مجلسِ كلّيّة التّربية للعلومِ الإنسانيّةِ/ جامعةُ واسط

وهي جزْءٌ مِنْ متطلّباتِ نيلِ شهادةِ الدّكتوراه في فلسفة اللُّغة العربيّة وآدابها/لغة

بإشـرافِ

الأُستاذ الدّكتور

علـيّ حَسَن عبد الحسين الدِّلِفيّ

١٤٤٧هـ ٢٠٢٦م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ




صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

**[الحُجُرات: ١٣]**

## إقرار المشرف

أشهدُ أنَّ هذه الأطروحة الموسومة بـ (**الخطابُ اللُّغويّ الاستشراقيّ دراسةٌ في التكوين والمادّة والمنهج**)، المقدمة من الطّالب (**سجى قاسم عبدالحسين الغيثاوي**) قد جرت بإشرافي في قسم اللُّغة العربيّة -كلّيّة التّربية للعلوم الإنسانيّة -جامعة واسط، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في اللُّغة العربيّة وآدابها.

إمضاء المشرف

**أ. د. عليّ حسن الدّلفيّ**

التّاريخ ١٥/٦/ ٢٠٢٦ م

بناءً على التّوصيات المتوافرة، أُرشّح هذه الأطروحة للمُناقشة.

الإمضاء نهلة عبدالله خلف الوائلي

**أ . د. نهلة عبدالله الوائلي**

رئيس قسم اللُّغة العربيّة

التّاريخ ١٦/٦/ ٢٠٢٦ م

جامعة واسط
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم اللغة العربية

# إقرار لجنة المناقشة

نشهد أنّنا رئيس وأعضاء لجنة المناقشة قد اطّلعنا على هذه الأطروحة الموسومة بـ(**الخطاب اللّغويّ الاستشراقيّ دراسةٌ في التّكوينِ والمادّةِ والمنهجِ** ) التي قدّمتها الطّالبة (**سجى قاسم عبد الحسين**) وقد ناقشناها في محتوياتها، وفيما له علاقة بها ونرى بأنّها جديرة بالقبول لنيل شهادة الدّكتوراه في اللّغة العربيّة وآدابها/ لغة بتقدير ( جـيـد جـدًا عـالٍ ).

التّوقيع

أ .د . جبار اهليل زغير

رئيسًا

التاريخ : ٣ / ٩ / ٢٠٢٦

التّوقيع

أ . د . ولاء صادق محسن

عضوًا

التاريخ : ٣ / ٩ / ٢٠٢٦

التّوقيع

أ . د . لطيف عبد السادة سرحان

عضوًا

التاريخ : ٣ / ٩ / ٢٠٢٦

التّوقيع

أ . د . أحمد جعفر داود

عضوًا

التاريخ : ٣ / ٩ / ٢٠٢٦

التّوقيع

أ . م. د . ناطق نجم عبد الله

عضوًا

التاريخ : ٣ / ٩ / ٢٠٢٦

التّوقيع

أ . د . علي حسن عبد الحسين

عضوًا ومشرفًا

التاريخ : ٣ / ٩ / ٢٠٢٦

صدّقتْ من مجلس كلّيّة التّربية للعلوم الإنسانيّة / جامعة واسط .

التّوقيع :

أ . د . محمود حمود عراك

عميد كلية التّربية للعلوم الإنسانيّة

التاريخ: ٢٣ / ٩ / ٢٠٢٦

# شكرٌ وعرفانٌ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، أهلِ الحمدِ والثّناء، أحمده واستعينُ به في كلِّ أمر، والصّلاة والسّلام على خيرِ البريَّةِ، وسيِّدِ الخليقةِ، نبيِّنا محمدٍ، وعلى آله وصحبِه أجمعين.

وبعد، لعلَّ من أولى النّاس بالفضل بعد الباري (عزَّ وجلَّ) أساتذتي الكرام في قسمِ اللُّغة العربيّة، وفي مقدّمتهم أستاذي الدّكتور (عليّ حسن الدِّلِفيّ)، لما أحاطني به من رعايةٍ علميّة، ومتابعةٍ دقيقةٍ، وتوجيهٍ سديدٍ، فكان خيرَ عونٍ وسندٍ للبحثِ وللباحثة، لم يبخل بوقته أو نصحه ومشورته، فله منّي خالص الشّكر والامتنان، وأسأل الله أن يوفّقه لخدمة العلم وطلّابه، وأنْ يجزيه خيرَ جزاء المحسنين.

واتقدّم أيضًا بخالصِ شكري وتقديري لرئاسةِ قسمِ اللُّغة العربيّة مُتمثّلةٍ بالأستاذة الدّكتورة (نهلة عبد الله الوائليّ)، ولا يفوتني أنْ اتقدّم بالشكر والتقدير إلى الأستاذ الدّكتور (جبّار إهليل الزيديّ)، لما قدّمه من دعمٍ علميٍّ، وتوجيهاتٍ قيّمةٍ كان لها أثر في مسيرتي العلميّة منذ البدايات الأولى، وإلى جميع أساتذة القسم الذين نهلتُ من علمهم، وكان لتوجيههم أثر كبيرٌ في مسيرتي، فأناروا لي طريق المعرفة، ولم يبخلوا عليَّ بجهدهم العلميّ، فأسأل الله لهم دوام التّقدّم والعطاء.

وأسجّل امتناني لكلّ من أعانني، ولو بحرفٍ أو نصيحةٍ علميّة أو مصدرٍ أفادني في إتمام هذه الدّراسة، فلهم منّي وافر الشّكر وعظيم الامتنان.

وفي الختام، أتوجه بخالصِ الشكرِ إلى عائلتي الكريمةِ وأصدقائي الأعزّاء، الذين وقفوا إلى جانبي طوال مدّة الدّراسة، فحفظهم الله وبارك فيهم.

# قائمة المحتويات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الآية القرآنيّة | أ |
| شكرٌ وعرفانٌ | ب |
| المقدِّمة | ١-٩ |
| **الفصل الأوّل التّمهيديّ: الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ واللُّغة العربيّة** | ١٠ - ٥٣ |
| **المبحث الأوّل: الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ١٠- ٢٩ |
| أوّلًا: الخطاب | ١٠ - ١٤ |
| ثانيًا: الاستشراق | ١٤_٢٣ |
| ثالثًا: الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ | ٢٤ - ٢٩ |
| **المبحث الثّاني: أهمّ المدارس الاستشراقيّة** | ٣٠_٣٨ |
| **المبحث الثّالث: عناية المستشرقين بالدِّراسات اللُّغويّة العربيّة** | ٣٩_٥٣ |
| أوّلًا: الغايات المحرّكة والمنطلقات المعرفيّة للبحث اللُّغويّ الاستشراقيّ | ٤١_٤٤ |
| ثانيًا: التّحليل النّقديّ لدوافع الاستشراق ومواقف المفكّرين الغربيّين | ٤٤_٤٥ |
| ثالثًا: أثر العربيّة بوصفها حلقة وصل حضاريّة وتأثيرها في النّظم المعرفيّة. | ٤٥_٤٧ |
| رابعًا: إسهامات المستشرقين في توثيق أمّات الكتب وفهرستها | ٤٧_٤٩ |
| خامسًا: المؤسّسات الاستشراقيّة وحركة النّشر والطباعة للتّراث العربيّ. | ٤٩_٥١ |
| سادسًا: تقويم منهجيّ نقديّ لتدوين الدِّراسات اللُّغويّة الاستشراقيّة. | ٥١_٥٣ |
| **الفصل الثّاني: تكوين الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ الدّوافع والمرتكزات والتأثيرات** | ٥٤_٩٠ |

| | |
|---|---|
| توطئة | ٥٤_٥٥ |
| **المبحث الأوّل: تكوين الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ٥٦_٦٠ |
| أوّلًا: مرحلة الاحتكاك الأوّل بالشّرق الإسلاميّ | ٥٧ |
| ثانيًا: مرحلة الانبهار الحضاريّ والتّرجمة العلميّة | ٥٧_٥٨ |
| ثالثًا: مرحلة الصّراع العقديّ والتّوظيف الدّينيّ | ٥٨ |
| رابعًا: مرحلة المأسّسة الأكاديميّة | ٥٨ |
| خامسًا: مرحلة التّوسّع العلميّ والتّحرر النّسبيّ من اللّاهوت | ٥٩ |
| سادسًا: مرحلة الاستشراق العلميّ الحديث | ٥٩ |
| سابعًا: الاستشراق في العصر الحديث | ٦٠ |
| **المبحث الثّاني: أهمّ أسباب تكوين الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ٦١_٨٣ |
| أوّلًا: البعد العقديّ والتّبشيريّ ( المركزيّة الكنسيّة) | ٦٢_٧٤ |
| ثانيًا: البعد الاستعماريّ والسّياسيّ | ٧٤_٧٩ |
| ثالثًا: البعد العلميّ والأكاديميّ لنشأة الخطاب الاستشراقيّ | ٧٩_٨٣ |
| **المبحث الثالث: تأثّر الخطاب اللُّغويّ بالدّراسات الاستشراقيّة** | ٨٤_٩٠ |
| أوّلًا: بواعث العناية الاستشراقيّة باللُّغة العربيّة وتحوّلاته المنهجيّة | ٨٤_٨٥ |
| ثانيًا: التّجسير المعرفيّ وأثره في تكوين الأجيال اللُّغويّة العربيّة | ٨٥ |
| ثالثًا: نقد المنهج المعياريّ وإشكاليّة عصور الاحتجاج | ٨٦ |
| رابعًا: ثنائيّة الفصحى والعامّيّة ودعوات الإحلال اللُّغويّ | ٨٦_٨٧ |
| خامسًا: قضيّة الإعراب ودعوات تيسير النّحو | ٨٧_٨٨ |

| | |
|---|---|
| سادسًا: نقض نظريّة العامل والبحث عن بدائل سياقيّة | ٨٨_٨٩ |
| سابعًا: الجدل حول أصالة الفكر النّحويّ العربيّ | ٨٩_٩٠ |
| **الفصل الثّالث: المادّة اللُّغويّة في الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ٩١-١٩٣ |
| توطئة | ٩١ |
| **المبحث الأوّل: المادّة الصّوتيّة في الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ٩٢_١٤٠ |
| أوّلًا: ريادة علماء العربيّة في الدّرس الصّوتيّ بمنظار استشراقيّ | ٩٢_ ٩٩ |
| ١_ نشأة الفكر الصّوتيّ العربيّ ودوافعه الدِّينيّة واللُّغويّة | ٩٣_٩٥ |
| ٢_ معالم الرّيادة في البناء الصّوتيّ (الخليل، وسيبويه، وابن جنّي، وابن سينا) | ٩٥_٩٧ |
| ٣_ شهادات المستشرقين والاعتراف بالأصالة والعبقريّة اللُّغويّة | ٩٧_٩٩ |
| ثانيًا: المنهج الفيزيولوجيّ والتّشريحيّ عند المستشرقين في دراسة المخارج والصّفات | ٩٩_١٣٠ |
| ١_ البعد الفيزيائيّ والتّشريحيّ لأعضاء النّطق | ١٠٠_١٠١ |
| ٢_ قراءة المستشرقين لمخارج الأصوات وترتيب الخليل وسيبويه | ١٠١_١٢٨ |
| ٣_ الصّراع الاصطلاحيّ (بين المسمّيات القديمة والمصطلحات العربيّة الحديثة) | ١٢٨_١٣٠ |
| ثالثًا: الدّرس الصّوتيّ اللّهجيّ وتأصيل الظّواهر الصّوتيّة في الميزان الاستشراقيّ | ١٣٠_١٤٠ |
| ١_ دوافع رصد اللّهجات العربيّة عند المستشرقين وموقفهم من جهود القُدماء | ١٣١_١٣٣ |
| ٢_ تحليل الظّواهر الصّوتيّة اللّهجيّة (العنعنة، والتّلتلة، والعجعجة) | ١٣٣_١٣٩ |
| ٣_ تقييم الأثر الاستشراقيّ في اللّسانيّات العربيّة الحديثة | ١٤٠ |
| **المبحث الثّاني: المادّة الصّرفيّة في الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ١٤١_١٧٣ |
| توطئة | ١٤١_١٤٢ |

| | |
|---|---|
| أوّلًا: أصل الكلمة (بين الثّنائيّة والثّلاثيّة في الفكر العربيّ والاستشراقيّ) | ١٤٣_١٦١ |
| ١_ موقف الفكر اللُّغويّ العربيّ القديم | ١٤٣_١٥٠ |
| ٢_ موقف الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ | ١٥٠_١٦١ |
| ثانيًا: طبيعة الزّيادة الصّرفيّة | ١٦١_١٦٣ |
| ١_ الزّيادة الأصليّة البنيويّة | ١٦٢ |
| ٢_ الزّيادة غير الأصليّة (الزّوائد الصّرفيّة) | ١٦٢_١٦٣ |
| ثالثًا: أصل الاشتقاق ( بين المصدر والفعل) | ١٦٣_١٦٧ |
| ١_ تيّار الانتصار لأصالة المصدر | ١٦٣_١٦٤ |
| ٢_ تيّار الانتصار لأصالة الفعل | ١٦٤_١٦٥ |
| ٣_ تيّار الموازنة والتّحليل الصّرفيّ التّاريخيّ | ١٦٦_١٦٧ |
| رابعًا: زمن الفعل (بين الصّرف والنّحو) | ١٦٧_ ١٦٩ |
| ١_ النّظرة العربيّة الكلاسيكيّة | ١٦٧ |
| ٢_ النّقد والتّحليل الاستشراقيّ | ١٦٧_١٦٩ |
| خامسًا: ظاهرة التّذكير والتّأنيث ( بين الحقيقة والمجاز اللُّغويّ) | ١٦٩_١٧٣ |
| ١_ جدليّة علامة التّأنيث | ١٦٩_١٧٠ |
| ٢_ ظاهرة علامة التّأنيث غير الإلحاقيّ | ١٧٠_١٧١ |
| ٣_ اللّواحق التّأنيثيّة وإشكاليّة التّبويب | ١٧١_١٧٢ |
| ٤_ المقاربة البنيويّة والكونيّة عند (وليام رايت) | ١٧٢ |
| ٥_ الثّنائيّة الجنسيّة الصّارمة عند (سبستينو موسكاتي) | ١٧٢_١٧٣ |

| | |
|---|---|
| **المبحث الثّالث: المادّة النّحويّة في الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ١٧٤_١٩٣ |
| **توطئة** | ١٧٤_١٧٥ |
| أوّلًا: بواكيرُ عناية الغربيّينَ بالنّحو التّراثيّ العربيّ | ١٧٥_١٧٩ |
| ثانيًا: أقسام الكلام بين الأصالة العربيّة والادّعاءات الاستشراقيّة | ١٧٩_١٨٥ |
| ثالثًا: أصل ظاهرة الإعراب بين الوظيفة الدّلاليّة والنّزعة الاستشراقيّة | ١٨٥_١٨٧ |
| رابعًا: الجملة العربيّة في المنظور اللّسانيّ والاستشراقيّ | ١٨٧_١٩٣ |
| **الفصل الرّابع: المناهج اللُّغويّة في الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ١٩٤_٢٨٠ |
| توطئة | ١٩٤ |
| **المبحث الأوّل : إسهامات المستشرقين في المناهج اللُّغويّة.** | ١٩٥_٢٠٥ |
| **المبحث الثّاني : المنهج التّاريخيّ في الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ٢٠٦_ ٢٤٨ |
| أوّلًا: بداية النّشأة | ٢٠٩_٢١٣ |
| ثانيًا: التّغيّر اللُّغويّ | ٢١٣_٢٤٨ |
| ١_ التّغيّر الصّوتيّ | ٢١٥_٢٢٠ |
| ٢_ السّهولة والتّيسير | ٢٢١_٢٢٦ |
| ٣_ التّغيّر الصّرفيّ | ٢٢٦_٢٣٨ |
| ٤_ التّغيّر النّحويّ | ٢٣٨_٢٤٨ |
| **المبحث الثالث: المنهج المقارن في الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ٢٤٩_٢٦٧ |
| أوّلًا: نشأته وتجذيره في الدّراسات اللُّغويّة | ٢٤٩_٢٥٢ |
| ثانيًا: بواكير المنهج المقارن في الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ والمدوّنات الكبرى | ٢٥٢_٢٥٧ |

| | |
|---|---|
| ثالثًا: موقع اللُّغة العربيّة في الدِّراسات الاستشراقيّة المقارنة | ٢٦٣_٢٥٧ |
| رابعًا: الدّوافع الاستشراقيّة لتبنّي المنهج المقارن | ٢٦٤_٢٦٣ |
| خامسًا: الميزان العلميّ للمنهج المقارن (الإيجابيّات والسّلبيّات) | ٢٦٧_٢٦٥ |
| **المبحث الرّابع: المنهج الوصفيّ في الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ** | ٢٨٠_٢٦٨ |
| أوّلًا : التّكوين المعرفيّ للمنهج الوصفيّ في الفكر اللُّغويّ | ٢٧٤_٢٦٨ |
| ثانيًا : مميزات المنهج الوصفيّ وخصائصه عند المستشرقين | ٢٧٦_٢٧٤ |
| ثالثًا : البنية المنهجيّة والنّظام الدّاخليّ للوصف الاستشراقيّ | ٢٧٩_٢٧٧ |
| رابعًا : أثر المنهج الوصفيّ الاستشراقيّ في الدّرس اللُّغويّ العربيّ الحديث | ٢٨٠_٢٧٩ |
| **الخاتمة** | ٢٨٥_٢٨١ |
| **المصادر والمراجع** | ٣٢٩_٢٨٦ |
| **الملخص باللُّغة الإنكليزيّة** | A_D |

# المُقدّمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# المُقدِّمة

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى أَشْرَفِ المُرْسَلينَ وَأَفْصَحِ الخَلْقِ أَجْمَعينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الأَخْيارِ المُنْتَجَبينَ، وَمَنْ سارَ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَاقْتَدَى بِهَدْيِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدّين.

أَمَّا بَعْدُ...

فقد حَظِيتِ اللُّغة العربيّة بِعناية الدَّارِسينَ مِنْ غَيرِ أَبنائِها مُنذُ وَقتٍ مُبَكِّرٍ، إلّا أنَّ هذه العناية لَمْ تتَّخِذْ طابِعًا مَنهَجِيًّا مُنظَّمًا إلَّا مَعَ نَشأَةِ الاِستِشراقِ؛ إذْ تَشَكّلَ خِطابٌ لُغَويٌّ استِشراقِيٌّ اتَّخَذَ مِنَ العربيّة موْضُوعًا للدِّراسةِ والتّحليل، فَتنوّعتْ دَوافِعُهُ بَيْنَ ما هُوَ دِينيٌّ، وَما هُوَ سِياسِيٌّ، وَما هُوَ عِلْميٌّ، إلَّا أَنَّ الخِطابَ عَلَى اخْتلافِ مَقاصِدِهِ أَسهَمَ فِي تَوْسيعِ دائِرَةِ البَحثِ فِي اللُّغة العربيّة، وَالاِلتفاتِ إِلَى خَصائِصِها وَأَنْظِمَتِها.

وَلَمَّا كانَتِ اللُّغةُ ظاهِرَةً إِنْسانِيَّةً تَرْتَبِطُ بِتَطَوُّرِ المُجْتَمَعاتِ وَتَبايُنِ الثَّقافاتِ، وَشَهِدَتْ عَبْرَ التّاريخِ تَحَوُّلَاتٍ مُتَعَدِّدَةً بِفِعْلِ الهِجراتِ وَالاِحتِكاكِ الحَضارِيِّ، الأمرُ الذي أَفضَى إلى تَنوُّعِ اللُّغاتِ واختلافِها، كانَ مِنَ الطَّبيعيِّ أنْ تَحْظَى اللُّغاتُ بِعِنايةِ الدّارسينَ وبحثِهِم. وقد بَرَزَتِ العربيّةُ بوصفِها إحدى اللُّغاتِ العالميّةِ ذاتِ الحضورِ الحضاريِّ المتميِّزِ؛ لِما ارتبطتْ بهِ مِنْ نصٍّ مقدَّسٍ، ألا وهو القرآنُ الكريمُ، وما حملتْهُ كذلكَ مِنْ تراثٍ علميٍّ وثقافيٍّ واسعٍ.

وَلِهذا اسْتَقطَبَتِ اللُّغة العربيّة المُستَشرِقينَ لِلعِنايَةِ بِها، حتّى تَجلَّتْ جُهُودهمُ اللُّغويّة فِي دِراسَتِهِمْ لِمُختَلفِ مُسْتَوياتِها؛ إذْ تَناوَلُوا الأَصواتَ، وَبِنيَةَ الكَلِمةِ، وَنِظامَ الجُملَةِ، وَالدّلالة وَالمُعجَمَ، وَسَعَوْا إِلَى تَحليلِ ظَواهِرِها اللُّغويّة فِي ضَوءِ ما تَيَسّرَ لَهُمْ مِنْ مَعارفَ وَأَدَواتٍ علميّة،

وعَمِلُوا عَلَى تَحْقيقِ عَدَدٍ مِنَ النّصوص التّراثيَّةِ وَنَشرِها، مُساهِمِينَ فِي التَّعرِيفِ بِالتّراث اللُّغويّ العربيّ فِي الأَوساطِ الغَربيَّةِ.

وَلَمْ تَنحَصِرْ جُهودُ المُستَشرِقِينَ فِي جَمعِ المادَّةِ اللُّغويّة وَوَصفها، بَلِ اتَّسمتْ أَيضًا بِتنوّع مَناهجِها؛ فَقَدْ أَفادُوا مِنَ المَنهَجِ التّاريخيِّ فِي تَتَبُّعِ تَطوُّرِ العربيّة، وَمِنَ المَنهَجِ المُقارَنِ فِي مُوازنَتِها بِاللُّغات السّاميّة وَغَيرِها، فَضلًا عَنْ اعتِمادهِمُ المَنهَجَ الوَصفِيَّ فِي تَحلِيلِ بِنيَتِها الدَّاخِلِيَّةِ، الأَمرُ الذي أَدَّى إِلَى تَبايُنِ نَتائِجهمْ وَاختلافِ رُؤاهُمْ فِي تَفسِيرِ الظَّواهرِ اللُّغويّة تَبَعًا لِاختِلافِ مَناهجِهِمْ.

ومِمَّا زَادَ مِنَ الرَّغبَةِ فِي خَوضِ غِمارِ هذَا البَحثِ أَنَّ مَوضُوعَهُ جَاءَ مُقترَحًا وَتَوجِيهًا كَرِيمًا مِنْ أُستَاذِي المُشرِفِ الأُستَاذِ الدُّكتُورِ (عَليِّ حَسنِ عبدِالحُسَينِ الدِّلفِيِّ) الذِي أَنَارَ لِي طَرِيقَ البَحثِ بِاختِيارِهِ هذَا العُنوَانَ، وتَلَتْ ذلكَ رَغبَةٌ ذَاتِيّةٌ فِي التَّعرُّفِ علَى مَكَانةِ اللُّغة العربيّة فِي دِراسَاتِ المُستَشرِقِينَ، والكَشفِ عَنْ أَبرَزِ القَضَايَا والظّوَاهرِ اللُّغويّة التِي حَظِيَتْ بِعنايتِهِمْ..

وهَدفَتْ هذِهِ الدّراسة إِلَى تَتَبُّعِ جُهودهِمْ، وَبَيانِ مَواقِفِهِمْ مِنَ التّراث العربيّ والدِّراسات اللُّغويّة العربيّة؛ إِذْ تَبايَنتْ آراؤُهمْ بَينَ ناقِدٍ لِجُهودِ القُدماء اللُّغويّة، وَمُتّفِقٍ مَعها، وَمؤيّد لها، مَعَ إبرازِ مَكانَةِ اللُّغة العربيّة فِي إِطارِ تِلْكَ الدِّراسات، وَلا سِيَّما أَنَّ الخِطابَ اللُّغويّ الاستشراقيّ حَظِيَ بِحُضُورٍ بارِزٍ فِي الدِّراسات اللّسانيَّةِ الحديثَةِ.

جاءَتْ خُطَّةُ البَحثِ عَلَى أربعةِ فُصولٍ، سَبَقتْها مُقَدّمةٌ، وَلَحِقتْها خَاتِمةٌ وَقائمَةٌ بِالمَصادرِ وَالمَراجِعِ. ووُسِمَ الفصلُ الأوّلُ بالفصلِ التّمهيديّ؛ لاضطلاعه بوظيفةٍ تأسيسيّةٍ في البحثِ، إِذْ تطرق إلى الإطارَ المفاهيميَّ والتّاريخيَّ للخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ وتكوينَه ودوافعَه واتجاهاتِه، تمهيدًا لدراسة مادّتهِ اللُّغويّة ومناهجه في الفصولِ اللاحقة؛ ومن ثَمَّ كان وصفُه بالتّمهيديّ دالًّا على وظيفته في بناءِ البحث، لا على كونه خارجًا عن بنيته الأساسيّة، وتَضمّنَ الفَصلُ الأَوّلُ التَّمهيدِيُّ المُوسومُ بـ(الخِطابِ الاستشراقيّ وَاللُّغة العربيّة) ثَلاثةَ مَباحثَ؛ اختصَّ المَبحَثُ الأَوّلُ بِبيانِ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ وَما يَعنيهِ الخِطابُ وَالاِستِشراقُ. أَمَّا

المبحَثُ الثّاني فَوقفَ عَلَى أَهمِّ المَدارسِ الاستشراقيّةِ، ولا سيَّما المدرَسَةَ الأَلمانِيّةَ وَالفَرَنسيَّةَ وَالبِريطانيَّةَ، كونها مِنْ أَكثَرِ المدارِسِ أَثَرًا فِي الجُهُودِ اللُّغويّة لِلمُستَشرقِينَ، فَضلًا عَنْ مَعرِفَةِ أَبرَزِ أَعلامِ هذِهِ المَدارِسِ وَنبذَةٍ مُختَصرَةٍ عن إسهامَاتِهِمْ فِي الدّرس اللُّغويّ العربيّ. أَمّا المَبحثُ الثَّالثُ فَتطرق إلى عناية المُستَشرقِينَ بِالدِّراسات اللُّغويّة العربيّة، مُبيّنًا دَوافِعهُمْ وَمُنطَلَقاتهِمُ المَعرِفيّةَ، ومَكانَةَ العربيّة فِي نَقلِ المَعرِفَةِ، كَما عَرضَ إِسهاماتِهِمْ فِي تَحقِيقِ التّراث اللُّغويّ وَتَوثيقهِ، وَأَثر المؤسّسات الاستشراقيّةِ فِي خِدمَتهِ، مَعَ تَقويمٍ نَقدِيٍّ لِجُهودهِمُ اللُّغويّة.

وَتطرق الفَصلُ الثّاني المُوسومُ بـ(تكوين الخِطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ) إلى الدّوافع وَالمُرتكَزاتِ والتّأثيرات، فَجاءَ عَلى ثَلاثةِ مَباحِثَ؛ عُنِيَ المَبحَثُ الأَوّلُ بتكوينِ الخِطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ، مُبيِّنًا كَيفَ تكوّن هذا الخِطابُ، وما السّياقاتُ والمَراحلُ التِي أَحاطَتْ بِبَداياتهِ، والعَواملُ التِي أَسهَمتْ فِي تَشكُّلهِ. أَمَّا المَبحثُ الثّاني فَقَدْ خُصّصَ بعَرضِ أَهمِّ أَسبابِ تكوين الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ، مُوضّحًا أَهمَّ الدّوافع والأَبعادِ العقَديَّةِ وَالتّبشيريّةِ وَالإِستِعمارِيَّةِ وَالعلميّة التِي أَسهَمتْ فِي ظُهورهِ. وَفي حينِ تطرق المَبحثُ الثَّالثُ إلى تأثّر الخِطابِ اللُّغويّ بِالدِّراسات الاستشراقيّةِ، مُبيِّنًا دَوافعَ العناية بِالعربيّة وَتَحوُّلاتهِ المَنهَجِيَّةَ، ومُناقشًا قَضايا الفُصحَى والعامِّيَّةِ، وَتَيسيرَ النّحو، وَنَقدَ نَظرِيَّةِ العَاملِ، وَالجدلَ حَولَ أَصالةِ الفِكرِ النّحويِّ العربيّ.

أَمَّا الفَصلُ الثَّالثُ، فَقَدْ خُصِّصَ بدراسَةِ المَادَّةِ اللُّغوِيَّةِ فِي الخِطَابِ اللُّغَوِيِّ الِاستِشرَاقِيِّ، وَقَدِ استُهِلَّ بِتَوْطئَةٍ بَيَّنَتْ مَفهُومَ المَادَّةِ اللُّغويَّةِ وَمَنزِلَتَهَا في الدِّرَاسَاتِ الِاسْتِشْرَاقِيَّةِ، وَأَهَمِّيَّتَهَا فِي بِنَاءِ الخِطَابِ اللُّغَوِيِّ الِاسْتِشْرَاقِيِّ، ثُمَّ تَفَرَّعَ الفَصْلُ إِلَى ثَلَاثَةِ مَبَاحِثَ. تطرق المَبحثُ الأَوَّلُ إلى المَادَّةَ الصَّوتِيَّةَ فِي الخِطَابِ اللُّغوِيِّ الِاستِشرَاقِيِّ، فَوقَفَ على رِيادَةِ عُلماءِ العَرَبِيَّةِ فِي تَأسِيسِ الدّرسِ الصَّوتيِّ، وعَرَضَ نَشأَةَ الفِكرِ الصَّوتيِّ العربِيِّ وَدوافِعَهُ، وَأَبرَزَ إِسهَامَاتِ الخَلِيلِ بنِ أَحمدَ، وسيبَوَيهِ، وابنِ جِنِّي، وابن سِينَا فِي تَأْصِيلِ هذَا العلمِ وَتَطويرِهِ. وبَحثَ كذلِكَ فِي منهَجِ المُستَشرِقِينَ في دراسةِ المخارِجِ والصِّفَاتِ، واعتِمَادِهِمُ المنهَجَ

الفيزيُولوجِيَّ وَالتَّشرِيحِيَّ فِي تَفسِيرِ آلِيَّةِ تكوُّنِ الأَصوَاتِ، مع بَيَانِ كَيفيَّةِ قِرَاءتِهِم لِلتُّرَاثِ الصَّوتِيِّ العَرَبِيِّ وقَضايَاهُ الِاصطلاحِيَّةِ. وتطرق إلى الدَّرسَ الصَّوتيَّ اللَّهَجِيَّ، وَتَأْصِيلَ الظَّوَاهِرِ الصَّوتِيَّةِ في الميزَانِ الِاسْتِشْرَاقِيِّ، مِنْ خِلالِ دِرَاسَةِ اللَّهجَاتِ العَرَبِيَّةِ وتَحلِيلِ ظَوَاهِرِهَا الصَّوتِيَّةِ، وَتَقوِيمِ أَثَرِ الدِّراساتِ الِاستشرَاقِيَّةِ في تَطَوُّرِ الدَّرسِ اللِّسانِيِّ العربِيِّ. وخُصّصَ المبحَثُ الثَّاني بدراسَةِ المادَّة الصَّرفِيَّةِ فِي الخطابِ اللُّغَوِيِّ الِاسْتِشْرَاقِيِّ، فَعَالَجَ قَضِيَّةَ أَصْلِ الكَلِمَةِ بَيْنَ الثُّنَائِيَّةِ والثُّلَاثِيَّةِ فِي الفِكْرَيْنِ العَربيِّ وَالِاستِشرَاقِيِّ، مُستَعرِضًا آرَاءَ عُلماءِ العربِيَّةِ وَالمُستَشرقِينَ واتِّجاهاتِهِمْ فِي تَفسِيرِ نشأَةِ الجُذُورِ وتَطَوُّرِهَا. وتطرق إلى طَبيعَةَ الزِّيادَةِ الصَّرفِيَّةِ، وَأَنوَاعَهَا ووظَائِفِهَا وأَثَرِهَا فِي بِنيَةِ الكَلِمَةِ ودلَالَاتِهَا، وبَحَثَ في قَضيَّةِ أَصلِ الِاشتِقَاقِ بَينَ المَصدَرِ والفِعلِ، وَعَرَضَ أَبرَزَ الاتِّجَاهاتِ التِي دَارَتْ حَولَهَا، ثُمَّ دَرَسَ زمَنَ الفِعلِ بَيْنَ التّصَوُّرِ الصَّرفِيِّ العَرَبِيِّ والقِرَاءَاتِ الِاستِشرَاقِيَّةِ، وَاختَتَمَ بِدرَاسَةِ ظَاهِرَةِ التَّذكِيرِ والتَّأنِيثِ، ومَا يتَّصِلُ بِهَا مِنْ إِشكَالِيَّاتٍ صَرفِيَّةٍ وبِنيَوِيَّةٍ فِي الدَّرسَينِ العَرَبِيِّ وَالِاستِشرَاقِيِّ. أَمَّا المَبحَثُ الثَّالِثُ، فَقَدْ خُصِّصَ بدراسَةِ المادَّةِ النَّحوِيَّةِ فِي الخِطَابِ اللُّغوِيِّ الِاستِشرَاقِيِّ، فَاستعرَضَ مَظَاهِرَ عناية المُستَشرِقِينَ بِالنَّحوِ العربِيِّ، وَتَتَبَّعَ نَشأَةَ الدِّرَاسَاتِ الِاستشرَاقِيَّةِ فِي هذا المِيدَانِ وَأَبرَزَ اتِّجاهَاتِهَا. وتطرق إلى قَضِيَّةَ أَقسَامِ الكَلَامِ بَيْنَ الأَصَالَةِ العَرَبِيَّةِ والدَّعَاوَى الِاستِشرَاقِيَّةِ، مَعَ مُنَاقَشَةِ الآرَاءِ التي نَسبَتْ هَذَا التَّقسِيمَ إِلَى مَصَادِرَ غَيرِ عَرَبِيَّةٍ وتَقوِيمهَا. وبحَثَ أَيضًا ظَاهِرَةَ الإِعرَابِ مِنْ حَيثُ وظِيفَتُهَا الدَّلالِيّةُ فِي الفِكرِ النَّحوِيِّ العَرَبِيِّ، ومَا قَدَّمَهُ المُستَشرِقُونَ مِنْ تَفسِيرَاتٍ لِنَشْأَتِهَا وتَطَوُّرِهَا، ثُمَّ اخْتُتِمَ المَبحَثُ بِدِرَاسَةِ الجُمْلَةِ العَرَبِيَّةِ فِي ضَوءِ التَّصَوُّرَينِ العَرَبِيِّ والِاستِشرَاقِيِّ، مَعَ بَيَانِ أَبرَزِ التَّحلِيلَاتِ التي تَنَاولَتْ بِنيَتَهَا التَّركِيبِيَّةَ ووَظَائِفَهَا الدَّلالِيّةَ.

أَمَّا الفَصلُ الرّابعُ، فَقَدْ عَالجَ أَهمَّ مَنَاهجِ المُستَشرقِينَ اللُّغويّة فِي دِراسةِ العربيّة، وَتَوزّعَ عَلَى أَربعةِ مباحثَ؛ تطرق المبحَثُ الأَوّلُ إلى إسهاماتِ المُستَشرقِينَ فِي المنَاهِجِ اللُّغويّة، فِي حينِ درسَ المَبحثُ الثّاني المَنهجَ التّاريخيَّ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ، مُشيرًا إِلَى نَشأَتِهِ، وَأَثَرِهِ فِي تَفسيرِ التّغيّراتِ اللُّغويّة، سواءٌ أَكانتْ صَوتِيَّةً أَمْ صرفِيَّةً أَم نَحويّةً، مَعَ الوُقوفِ عَلَى مَظَاهِرِ التّغيّر المُختَلفَةِ. وَجاءَ المَبحثُ الثَّالثُ لِبَحثِ المَنهجِ المُقَارنِ في الخطابِ اللُّغويّ

الاستشراقيّ، فَقدْ بَحثَ فِي نَشأَتهِ وَتَأْصيلهِ فِي الدِّراسات اللُّغويّة والخطَابِ الاستشراقيّ، ومكانَةِ العربيّة فِي الدِّراسات الاستشراقيّةِ المُقَارنةِ عَلى المُستوَياتِ الصّوتيّة والصّرفيّة وَالنّحويَّةِ والدّلاليّة، معَ بَيَانِ دَوافِعِ تَبنّيهِ وَتَقوِيمِ أَبرزِ إِيجابِيَّاتِهِ وَسَلبيَّاتهِ. أَمَّا المَبحثُ الرّابِعُ والأَخيرُ، فتطرق إلى المنهجَ الوصفِيَّ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ، مُبيِّنًا تَكوينهُ المَعرفيَّ فِي الفِكرِ اللُّغويّ، ومُتطرّقًا إلى الإرهاصاتِ المُبكِّرةِ لِتَشكيلِ الرّؤية الوَصفيَّةِ، ومُمَيِّزاتِ المنهجِ وَخَصائصهِ عِندَ المُستشرِقينَ، وتَطرَّقَ أَيضًا إلى البنيةِ المَنهجيَّةِ والنّظام الدَّاخِليِّ لِلوصفِ الاستشراقيّ، وَأَثرِ المَنهَجِ الوَصفيِّ الاستشراقيّ فِي الدّرس اللُّغويّ العربيّ الحديثِ.

أَمَّا بِالنِّسبَةِ إِلَى طَبيعةِ المَنهجيّةِ المُتَّبعةِ فِي هَذهِ الأُطرُوحةِ، فَقَدِ اعتمدَتُ مَنهجًا وَصفِيًّا تَحليلِيًّا، مَدعُومٍ بِالمَنهَجِ التّاريخيِّ والمقارن؛ إِذْ تَنهضُ بوَصفِ القَضايَا اللُّغويّة مَوضوعِ الدّراسة، وَتَحليلهَا تَحلِيلًا عِلميًّا دَقيقًا، ثُمَّ مُقَارنتِهَا بَينَ الرّؤية العربيّة وَالرّؤية الاستشراقيّةِ، مَعَ تَقويمِ تِلكَ الرّؤَى تَقويمًا نَقدِيًّا فِي ضَوءِ تَطَوّرِهَا التّاريخيِّ وَمُعطياتِ الدّرس اللُّغويّ الحَديثِ. وَأَسهمَ هَذا الإِطارُ المَنهجِيُّ فِي إِبْرَازِ أَوْجُهِ الاِتِّفَاقِ وَالاِخْتِلَافِ بَيْنَ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ، وَالكَشْفِ عَنِ الخَلْفِيَّاتِ المَنهجيَّةِ وَالمَعرفيَّةِ التي أَسهَمَتْ فِي تَشكُّلهَا وَتَوجيههَا.

أَمَّا فِيما يَتعلَّقُ بِمصادِرِ الدّراسة المُعتمدَةِ، فَقَدْ تنوّعتْ بَينَ مَصادِرِ التّراث اللُّغويّ العربيّ، وَمُؤَلّفاتِ المُستَشرقينَ، وَالدِّراسات اللُّغويّة العربيّة الحَديثَةِ؛ إِذ اعتَمدتْ عَلَى مَصادرِ عُلَماءِ اللُّغة القُدماء لِمَا شَكّلتْهُ مُؤَلَّفاتهُمْ مِنَ التّراث اللُّغويّ العربيّ، وَمنهُمْ: الخَليلُ، وَسِيبوَيْهِ، وَالمُبرِّدُ، والزَّمخشَرِيُّ، وَابنُ يعيشٍ، فَضلًا عَنْ مُؤَلَّفاتِ السّيُوطيِّ وَغَيرهَا مِنَ المَصادِرِ التّراثيَّةِ. واعتَمدَتِ الدّراسة عَلَى مُؤَلَّفاتِ عَددٍ كَبيرٍ مِنَ المُستَشرِقِينَ مِنْ مَدارسَ وَاتِّجاهاتٍ مُختَلفَةٍ مُتنوّعةٍ، منهم: .(بْرُوكِلمانَ: مُستَشرِقٌ ولُغَوِيٌّ أَلمانِيٌّ، مِن أَبرَزِ المُتَخَصِّصينَ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ واللُّغاتِ السّامِيَّةِ، عُنِيَ بالدِّراساتِ التّاريخِيَّةِ والمُقارَنَةِ، ومِن أَشهَرِ آثارِهِ تاريخُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ ودراساتُهُ في فِقهِ اللُّغاتِ السّامِيَّةِ، وَهِنري فليشٍ: مُستَشرِقٌ ولُغَوِيٌّ فَرَنسِيٌّ، عُنِيَ بالدِّراساتِ اللُّغَوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، ولا سِيَّما عِلمَ الأَصواتِ والصَّرفَ واللَّهَجاتِ، واتَّسَمَت دراساتُهُ بالإِفادةِ مِن

مَناهِجِ اللِّسانِيّاتِ الحَديثَةِ في تَحليلِ العَرَبِيَّةِ، وَبرجستراسر: مُستَشرِقٌ ولُغَوِيٌّ أَلمانِيٌّ، تَخَصَّصَ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ واللُّغاتِ السّامِيَّةِ، واهتَمَّ بالدِّراساتِ الصَّوتِيَّةِ والنَّحوِيَّةِ واللَّهَجِيَّةِ، ولَهُ إسهاماتٌ بارِزَةٌ في دِراسَةِ التَّطَوُّرِ التّاريخِيِّ للعَرَبِيَّةِ، وَجَانَ كَانتِينُو: مُستَشرِقٌ ولُغَوِيٌّ فَرَنسِيٌّ، تَخَصَّصَ في الدِّراساتِ السّامِيَّةِ واللَّهَجاتِ العَرَبِيَّةِ، وعُنِيَ بِصورَةٍ خاصَّةٍ بالدِّراسَةِ الصَّوتِيَّةِ ووَصفِ مَخارِجِ الأَصواتِ وصِفاتِها وتَحليلِ الظَّواهِرِ اللَّهَجِيَّةِ، وَمُوسكَاتِي: عالِمٌ إيطالِيٌّ مُتَخَصِّصٌ في الدِّراساتِ السّامِيَّةِ وحَضاراتِ الشَّرقِ القَديمِ، عُنِيَ بالدِّراسَةِ التّاريخِيَّةِ والمُقارَنَةِ لِلُّغاتِ السّامِيَّةِ، وبَحَثَ عَدَدًا مِن قَضاياها الصَّوتِيَّةِ والصَّرفِيَّةِ والنَّحوِيَّةِ، وَبلَاشيرَ: مُستَشرِقٌ فَرَنسِيٌّ، عُنِيَ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وآدابِها والدِّراساتِ القُرآنِيَّةِ، ولَهُ إسهاماتٌ في دِراسَةِ تاريخِ العَرَبِيَّةِ وفِقهِها، فَضلًا عن تَرجَمَتِهِ القُرآنَ الكَريمَ إلى الفَرَنسِيَّةِ، وَمَكسِيمَ رُودَنسونَ: مُستَشرِقٌ وباحِثٌ فَرَنسِيٌّ في الدِّراساتِ العَرَبِيَّةِ والإسلامِيَّةِ، تَناوَلَ التّاريخَ والمُجتَمَعاتِ الإسلامِيَّةَ وَفقَ مَناهِجَ تاريخِيَّةٍ واجتِماعِيَّةٍ، واهتَمَّ بِدِراسَةِ الظَّواهِرِ الحَضارِيَّةِ والفِكرِيَّةِ في العالَمِ الإسلامِيِّ، وجوناثان أُونز: لِسانِيٌّ وباحِثٌ أَمرِيكِيٌّ مُعاصِرٌ، مُتَخَصِّصٌ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ ولِسانِيّاتِها، عُنِيَ بِتاريخِ العَرَبِيَّةِ واللَّهَجاتِ والنَّظَرِيَّةِ النَّحوِيَّةِ والتُّراثِ النَّحوِيِّ العَرَبِيِّ، ولَهُ دِراساتٌ في تَطَوُّرِ العَرَبِيَّةِ وعَلاقَتِها بالمَناهِجِ اللِّسانِيَّةِ الحَديثَةِ)، وَغَيرِهِمُ كَثير مِنَ المُستَشرِقِينَ، وَلَا سِيَّمَا مَا تُرجِمَ مِنْ أَعمَالِهِمْ إِلَى العربيّة، فَضلًا عَمّا نُشرَ لَهمْ مِنْ بُحوثٍ فِي المَجلَّاتِ وَالدَّورِيَّاتِ العلميّة، أَو مَا تَضمَّنتْهُ بَعضُ الكتُبِ وَالدِّراسات المُترجَمَةِ مِنْ فُصولٍ تَنَاولتْ قَضايَا هَذهِ الدّراسة.

وفي التّعامل مع المصادرِ الأجنبيّةِ، اعتمدتِ الباحثةُ التّرجماتِ العربيّةَ المتاحة للنصوص التي سبق نقلها إلى العربيّةِ، مع توثيق مصادرها، أمّا النّصوص التي لم تتوافرْ لها ترجمةٌ عربيّةٌ فقد نُقلتْ إلى العربيّةِ ترجمةً دلاليّةً تراعي المعنى والسّياق، مع العنايةِ بضبط المصطلحات اللّغويّة ومقابلتها بأصولِها الأجنبيّةِ، ومراجعة النّصّ المترجَم بما يضمنُ سلامةَ المعنى ودقّة الاستعمالِ الاصطلاحيّ.

وَلمْ تَغفُلِ الباحثَةُ عَنِ الرُّجوعِ إِلَى دِراساتِ المُحدثينَ مِنَ اللُّغويّينَ العربِ الذينَ كَانوا مُتأثّرينَ بِالدِّراسات الاستشراقيّةِ، فَناقَشوهَا في مُؤَلَّفاتِهِم، وَمِنْهُم: الدّكتور إِبرَاهيمُ أَنيسٍ، وَالدّكتور رمضَانُ عَبدِ التَّوّابِ، والدّكتور كمالُ بشرٍ، و الدّكتور إِسماعيلُ أَحمد عُمايرةَ، والدّكتور غَانِمُ قَدُّوريُّ الحمدِ، فضلًا عن عَددٍ مِنَ الرَّسائلِ الجَامعيَّةِ التِي تطرقت إلى مَوضوعَ الاستِشراقِ فِي مَكتبَاتٍ مُختَلفَةٍ، منها:

١_البحث اللُّغويّ في دراسات المستشرقين الالمان، عبد الحسن عباس حسن الجمل الزوينيّ، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ١٤٣١هـ_٢٠١٠م.

٢_البديل المنهجيّ لدراسة العربيّة عند المستشرقين هنري فليش في كتاب "العربيّة الفصحى" نموذجًا، رسالة ماجستير، كريمة بوكرش، كلية الآداب واللُّغات والعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، جامعة زيان عاشور بالجفلة، ٢٠٠٩م_ ٢٠١٠م.

٣_التّراث اللُّغويّ العربيّ في كتابات المستشرقين، نادية معاتقي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللُّغات، جامعة مولود معمري_ تيزي وزو، ١٤٤٢هـ_ ٢٠٢١م.

٤_ظاهرة التّطوّر اللُّغويّ عند يوهان فك من خلال كتابه العربيّة، بن يوسف شتيح، رسالة ماجستير، جامعة زيان عاشور_ الجلفة، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم الآداب، ٢٠٠٩م.

٥_قراءة الخطاب الاستشراقيّ في الثّقافة العراقية المعاصرة: مجلّة الاستشراق العراقية إنموذجا، محمّد جاسم محمّد الأسدي، أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة_ كليّة التّربية للعلوم الإنسانية، قسم اللُّغة العربيّة، ٢٠١٦م.

٦_المنهج التّاريخيّ والمقارن في الدِّراسات النّحويّة الحديثة عند العرب، عدي حسين عليّ، أطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصريّة، كلية التربية_ قسم اللُّغة العربيّة، ٢٠١٣م.

٧_المنهج التّاريخيّ والمنهج المقارن في الدِّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة، عليّ حسن السّرايّ، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية ابن رشد، ١٤٣٠هـ_ ٢٠٠٩م.

وعَلى الرّغم مِنْ تَعدُّدِ تِلكَ الدِّراسات التي عَالجَتْ جَوانبَ مُختَلفةً مِنَ النّشاط الاستشراقيّ، إلَّا أَنَّها لَا تَتعارضُ مَع موضُوعِ هَذهِ الأطرُوحةِ، بَل شكَّلتْ مُنطلَقًا عِلميًّا أَسهَمَ فِي تَوجِيهِ مَسَارِ البَحثِ وَإغنَائهِ، وَكانَتْ هَذهِ المَصادرُ مُجْتمعةً الأَساسَ الذي قَامَتْ عليهِ هَذِهِ الدّراسة، فِي مُحَاولةٍ لِلإحاطَةِ بِجوانِبِ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ وتحليلهِ وتَقويمِهِ.

أَمَّا الصُّعوباتُ التِي وَاجهتْ هَذِهِ الدّراسة، فَقدْ تَمَثَّلتْ فِي أَنَّ دِراسةَ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ تُعَدُّ مُحاولةً علميّةً مُمتِعةً مِنْ جِهةٍ، وَشَاقّةً مِنْ جِهَةٍ أُخرَى؛ وَذلكَ لِتعدُّدِ مَصادرِ المُستَشرِقِينَ وَتنوّعها، وَكثرَةِ المدارسِ الاستشراقيّةِ التِي تَطرقت إلى التّراث العربيّ مُحاولةً تَحليلَهُ، واتَّسمَتْ دِراساتُهمْ بِتنوّع الآراءِ وَالتَّفسيراتِ المُتعلِّقَةِ بِمُستويَاتِ اللُّغة العربيّة المُختلفَةِ، يُضافُ إِلَى ذَلكَ أَنَّ بَعضَ هَذهِ الدِّراسات تطرقت إلى القرآن الكريمَ فِي مُحَاولةٍ لِتَحلِيلِ مُستَوياتِهِ اللُّغويّة، الأَمرُ الذي زَادَ مِنْ تنوّع القضايَا وَتَعدُّدِ المَناهجِ، فَتبايَنتْ آراءُ المُستَشرِقِينَ وَمَواقِفهُم بَينَ الاِتِّفاقِ وَالمُعارضةِ، فَضلًا عَنْ تَشتّتِ مُؤَلّفاتِهِمْ وَتَفرُّقِهَا فِي عَددٍ كَبيرٍ مِنَ الكُتبِ وَالمصادِرِ، وَنُدرةِ بَعضهَا أَو صُعوبَةِ الحُصولِ عَلَيهِ، إِذْ لَم يَتيسّرِ الحُصولُ عَلى بَعضِهَا إِلَّا شَذراتٍ مُتناثِرةً فِي بُطونِ الكُتبِ وَالدّوريّاتِ وَالأبحاثِ المَنشورةِ فِي المجلّاتِ العلميّة.

وَمِمّا يَحسنُ التّنبيهُ إِلَيهِ أَنَّ عَدمَ التّوسّع فِي عرض بَعضِ المسائل اللُّغويّة التِي عَالَجهَا المُستَشرقونَ، مِثلَ: الضّمائرِ، وأَسماءِ الإِشارَةِ، ومفهُومِ المناهِجِ، وغيرهَا مِنَ القضايَا الأُخرَى، لَمْ يكُنْ إِغفالًا لِأَهَمّيَّتهَا، وَإِنَّما جاءَ رَغبةً فِي اختصَارِ البحثِ وَضبطِ حُدودِهِ، وَالتّركيزِ عَلَى المَوضُوعاتِ الأَكثرِ اتِّصالًا بِأَهْدافِ الدّراسة وَإِشْكاليّاتهَا.

وَأَخيرًا، لَا يَفُوتنِي أَنْ اتَقدّمَ بِخالصِ الشُّكرِ وَالاِمتنَانِ إِلَى أُستاذِي الفاضلِ الأُستَاذِ الدُّكتورِ (عَليِّ حَسنِ عبدالحسين الدِّلِفِيِّ) عَلَى مَا شَمَلنِي بِهِ مِنْ عِنايةٍ وَمُتابعةٍ، ويَكفينِي فَخرًا وَاعتِزَازًا أَنْ يَكونَ هَذا الجُهدُ قَدْ حَظيَ بِإِشرَافِهِ الكرِيمِ، إِذْ أَحاطَهُ بِعنَايتِهِ، وبذَلَ فِي سبيلِ

إنضاجِهِ مِنَ التَّوجيهِ وَالإرشادِ وَالمُتابعةِ مَا كانَ لَهُ الأَثَرُ البالغُ فِي إخرَاجهِ عَلَى الوجهِ المَأمُولِ. وَلمْ يَكنْ مُشرِفًا فَحسبُ، بَلْ كانَ مُعينًا وَمُؤَازرًا، يُخفِّفُ مِنْ وَعْثاءِ الطَّريقِ، وَتشاطِرُه تِلْمِيذَتهُ عَنَاءَ الأَيَّامِ وَتَحدِّياتِ الرِّحلةِ العلميّة، بَاعثًا فِي النَّفسِ رُوحَ التَّفاؤُلِ وَالثِّقةِ وَالمُضيِّ قُدُمًا. فَلهُ مِنِّي خَالِصُ الامتِنَانِ، وإِجْلَالٌ يَليقُ بِمقَامِهِ، وعِرفَانٌ تَعجِزُ العِباراتُ عَنِ الوفَاءِ بِحقِّهِ، مَقرُونًا بِصادقِ الدُّعاءِ أَنْ يَجزِيَهُ اللهُ خَيرَ الجزاءِ، وأَنْ يَمُدَّ فِي عُمرِهِ، وَيُبارِكَ فِي عِلمِهِ وَعَطائِهِ، وَأَنْ يُديمَ نَفعَهُ لِطُلّابِهِ والبَاحِثِينَ. ولَئِنْ عَجَزَتِ الكَلماتُ عَنِ الإحاطَةِ بِفَضلِهِ، فَإِنَّ مَا يَكُنّهُ لَهُ تِلميذُهُ مِنْ تَقدِيرٍ ووفَاءٍ سَيظَلُّ شَاهِدًا عَلَى جَميلِ صَنِيعِهِ، وَعَظيمِ أَثَرِهِ، وَصِدقِ عَطَائِهِ. والشُّكرُ مَوصُولٌ إِلَى جَميعِ أَسَاتذتِي الفُضلاءِ فِي قِسمِ اللُّغة العربيّة الذينَ تَتَلمَذتُ عَلَى أَيدِيهِمْ، وَاتقدّمُ أَيضًا بِالشّكرِ الجزِيلِ لِلسَّادةِ أَعضاءِ لَجْنَةِ المُناقَشةِ عَلَى مَا قدموهُ مِنْ جُهدٍ فِي قِراءةِ الأُطرُوحةِ لِتَقوِيمِهَا، فَجزاهمُ اللهُ خَيرَ الجَزاءِ، وَلَا أَنسَى أَنْ أَشكُرَ كُلَّ مَنْ كَانتْ لَهُ يَدُ العَونِ والمُسَاهمةِ فِي إِثراءِ هَذا البحثِ العلميّ ولَوْ بِكلمةٍ.

وَالحَمدُ وَالشُّكرُ أَوَّلًا وآخِرًا للهِ ربِّ العَالَمِينَ، والصَّلَاةُ وَالسّلامُ عَلَى أَشرَفِ الخَلقِ أَجمعينَ، أَبِي القَاسمِ محمّد، وَعَلى آلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرِينَ.

الباحثة

# الفصل الأوّل التّمهيديّ

## الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ واللُّغةُ العربيّة

المبحث الأوّل: الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ

المبحث الثّاني: أهمّ المدارس الاستشراقيّة

المبحث الثّالث: عناية المستشرقين بالدّراسات اللُّغويّة العربيّة

## المبحثُ الأوّلُ

## الخِطابُ اللُّغويّ الاستشراقيّ

نظرًا إلى أنَّ موضوعَ الدّراسةِ في أساسِهِ متعلق بالخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ؛ فإنَّ الأمرَ يقتضي منَّا في البدايةِ الوقوفَ عند مفهومِ الخطابِ وبيانَ دلالاتِهِ، وفهمَ ما يعنيهِ وما يشملُهُ من دراساتٍ وأبعادٍ علميّةٍ وفكريّةٍ وسياسيّةٍ، ومِنْ ثَمَّ الانتقالَ إلى توضيحِ مفهومِ الاستشراقِ، ليعقُبَ ذلك تحديدُ ما يرمي إليهِ الخطابُ اللُّغويّ الاستشراقيّ بوصفهِ محورَ هذه الدّراسةِ، الذي يشكّلُ جانبًا محدّدًا داخل الدِّراساتِ الاستشراقيّة، ومن المهمِّ استعراضُ أهمِّ المدارسِ الاستشراقيّةِ للمستشرقينَ، لبيانِ الاتّجاهاتِ الفكريّةِ والمناهجِ العلميّةِ المعتمدةِ في دراسةِ الشّرقِ، وسنبيّنُ هذه المفاهيمَ مع محاولةِ تحديد معانيها، بحسب ما يأتي:

**أوّلًا: الخطابُ:**

الخطابُ مجموعةٌ من النّصوصِ التي تربطُها علاقةٌ مشتركةٌ، فهو تتابعٌ مترابطٌ من صورِ الاستعمالِ النّصّيّ الذي يُمكنُ الرّجوعُ إليهِ في وقتٍ لاحقٍ، ويتضمّنُ مجموعةً من المعلوماتِ التي تَنتقلُ وتُنشَّطُ في الذّاكرةِ من خلالِ الاستعمالِ النّصّيّ وتَداولهِ بين أفرادِ الجماعةِ اللُّغويّةِ؛ ولهذا فهو جملةٌ من الأحداثِ الكلاميّةِ المُرتبطةِ ببعضها، التي تظهرُ داخلَ جماعةٍ لغويّةٍ أو مُجتمعٍ مُعيّنٍ، وتعبّرُ عن مجموعةٍ من الاهتماماتِ والهُمومِ المعرفيّةِ التي يُرادُ التّعبيرُ عنها ضمنَ إطارٍ محدّدٍ(١).

ومن الممكن أنْ يكونَ الخطابُ نصًّا ملفوظًا أو مكتوبًا ينتقلُ من مُرسلٍ إلى مُتلقٍّ،

(١) ينظر: النّصّ والخطاب والإجراء: ٦.

ويتضمّنُ عادةً معلوماتٍ أو أخبارًا مرتبطةً بسياقٍ مُعيّنٍ(١).

وقد نظرَ اللّسانيّون إلى الخطابِ بوصفهِ ملفوظًا لغويًّا يتجسّدُ في أثناءِ تحقّقِ النّصّ ضمنَ سياقاتهِ المرجعيّةِ؛ ولذلك يتكوّنُ من مجموعةٍ من القيمِ الدّلاليّةِ التي تحكمُها أنظمةُ التّأليفِ والعلاقاتُ التي تُنظّمُ بناء النّصِّ(٢).

و(هاليدي) من المستشرقينَ الذين عَرّفُوا الخطابَ بأنّهُ إبرازٌ وتأويلٌ للعلاقاتِ القائمةِ بينَ انتظامِ اللُّغةِ ومَدلولها والأهدافِ التي تسعى إلى تحقيقِها(٣).

وأمّا (هاريس) فنظرَ إليهِ بوصفهِ توسيعًا للطّرائقِ التّوزيعيّةِ التّقليديّةِ لتشملَ الوحداتِ التي تَتجاوزُ حدودَ الجملةِ، مُمهّدًا لاستعمالِ منطقِ اللّسانيّاتِ النّصّيّةِ في تحليلِ الخطابِ(٤)، فقد عرّفهُ بأنّهُ الملفوظُ الطّويلُ الذي يتكوّنُ من جملٍ متتاليةٍ تُشكّلُ مجموعةً مُغلقةً، يُمكنُ من خلالها مُعاينةُ بنيةِ سلسلةٍ من العناصرِ اللُّغويّةِ اعتمادًا على المنهجيّةِ التّوزيعيّةِ، ومُشيرًا إلى أنّ الخطابَ قد يكونُ في صورةِ جملةٍ واحدةٍ أو في صورةِ متواليةٍ من الجملِ المترابطةِ(٥)، وتعريفهُ هذا هو ما يضعُ الخطابَ في إطارِ اللّسانيّاتِ التّوزيعيّةِ، فـ(هاريس) يَتّفقُ مع ما ذهبَ إليهِ (دي سوسير) ومن اتّبعهُ من الدّارسينَ الذين وضّحوا بأنَّ الخطابَ يُمثّلُ ملفوظًا يتحدّدُ من خلالِ اشتغالهِ في عمليّةِ التّواصُلِ، وما يقتضيهِ السّياقُ الخِطابيّ من عناصرَ أساسيّةٍ؛ مثلَ: المتكلّمِ، والمخاطبِ، والرّسالةِ، والمقامِ، والموقفِ، والقناةِ التّواصليّةِ، بينما يتقاطعُ هذا الطّرحُ مع (جاكوبسون) و(ريفاتير) اللذين بيّنا أنَّ النّصَّ لا يقتصرُ على كونهِ مجموعةً من الوحداتِ

---

(١) ينظر: معجم المصطلحات العربيّة في اللُّغة الأدب: ٩٠.
(٢) ينظر: قراءة الخطاب الاستشراقيّ في الثّقافة العراقيّة المعاصرة : مجلة الاستشراق العراقيّة إنموذجًا: ١٠.
(٣) ينظر: معجم تحليل الخطاب: ٤٥.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٤.
(٥) ينظر: الأسلوبيّة وتحليل الخطاب دراسة في النّقد العربيّ الحديث تحليل الخطاب الشّعريّ والسّرديّ: ١٨.

الخبريّةِ المُتعاقبةِ حسبُ، بل هو بنيةٌ دلاليّةٌ مُتكاملةٌ تَنتظمُ داخل سياقٍ تواصليّ محدّدٍ(١).

ويرى (إميل بنفنيست) أنَّ الخطابَ يُمثّلُ فِعلَ التّلفّظِ الذي يفترضُ وجودَ متحدثٍ ومستمعٍ، فتكونُ للمُتحدّثِ أولويّةُ التّأثيرِ في المتلقّي بشكلٍ من الأشكالِ(٢).

ونظرَ (تودروف) إليهِ بأنَّه المنطوقُ أو الفعلُ الكلاميّ الذي يقومُ على وجودِ مرسلٍ ومتلقٍّ، فيكونُ موجّهًا بقصدِ التّأثيرِ في المخاطبِ أو في المجتمعِ بصورةٍ ما، ضمنَ سياقٍ تَواصليّ يحدّدُ طبيعةَ هذا التّأثيرِ وأبعادَهُ(٣)، وبهذا المعنى فالخطابُ يُعدُّ فعلًا من أفعالِ الإنتاجِ اللّفظيّ للنّصِّ، وتمثّلَهُ الملموسَ في الواقعِ اللُّغويّ(٤).

وأمّا (ميشيل فوكو) فيرى أنَّ الخطابَ ظاهرةٌ معقّدةٌ تنطلقُ في ظاهرها من أقوالٍ قيلَتْ، لكنّها ترتبطُ في عُمقِها بما هو خفيّ أو غيرُ مصرّحٍ به، فالخطابُ عنده لا يقتصرُ على كونِهِ جملةً تُلفظُ أو نصًّا يُكتبُ، بل هو مَنظومةٌ من الأقوالِ والمعاني التي تتشكّلُ داخلَ سياقاتٍ معرفيّةٍ وثقافيّةٍ محدّدةٍ، فيمثّلُ بنيةً معرفيّةً تتجاوزُ ظاهرَ الكلامِ إلى ما يتضمّنُهُ من أنساقٍ فكريّةٍ ومعرفيّةٍ كامنةٍ خلفهُ(٥).

وأمّا قاموسُ أكسفورد للغةِ الإنجليزيّةِ فربطَ مفهومَ الخطابِ بمجالِ تحليلِهِ، مع مراعاةِ المحتوى والسّياقِ الذي يُنتجُ فيه النّصُّ، فنظرتهُ للخطابِ كانت بكونه طريقةً لتنظيمِ النّصوصِ أو التّلفّظاتِ التي تتجاوزُ حدودَ الجملةِ المفردةِ، أي بوصفهِ وحدةً لغويّةً أكبرَ من الجملةِ،

---

(١) ينظر: قضايا الشّعريّة، رومان جاكسون: ٢٤.
(٢) ينظر: إنشائيّة الخطاب في الرواية العربيّة الحديثة:١.
(٣) ينظر: اللُّغة والخطاب الأدبيّ: ٤٨.
(٤) ينظر: الخطاب والنّصّ المفهوم العلاقة السّلطة: ٩٠.
(٥) ينظر: حفريات المعرفة: ٢٥.

تتحدّدُ دلالتُها من خلالِ سياقِها التّداوليّ والاجتماعيّ[١].

وأمّا في الثّقافةِ العربيّةِ فإنَّه يُعدُّ مصطلحًا شائعًا واسعَ الدّلالةِ، اختلفَ الباحثونَ في تحديدِ مفهومِهِ لاختلافِ توجّهاتِهِمُ النّظريّةِ، فمنهم من جعلَهُ مرادفًا للملفوظِ أو الجملِ[٢]، بينما وسّعَ آخرونَ دلالتَهُ ليشمل كلّ إنتاجٍ لغويّ يرتبطُ فيهِ البناءُ الدّاخليّ للنّصّ بظروفِهِ المقاميّةِ في معناها الواسعِ[٣].

والخطابُ في أبسطِ معانيهِ يمثّلُ عمليّةَ تبادلِ الكلامِ بين طرفينِ: متكلّمٍ ومخاطَبٍ أو متلقٍّ، ويفترضُ حضورَ المتكلّمِ بوصفهِ الذّاتَ المنتجةَ للخطابِ، ووجودَ المخاطَبِ الذي يوجَّهُ إليهِ الكلامُ[٤].

وبهذا المعنى فلا يكونُ الخطابُ مجرّدَ تعبيرٍ لغويّ بسيطٍ، بل نظامٌ من الأفكارِ والممارساتِ التي تنتجُ المعرفةَ وتُوجّهها داخلَ المجتمعِ، فاتّفقَ أغلبُ الباحثينَ على أنَّهُ يُمثّلُ النّصَّ الملفوظَ والمكتوب الذي يتجاوزُ حدودَ الجملةِ المفردةِ؛ إذْ إنَّه يتكوّنُ من متتاليةٍ لغويّةٍ مترابطةٍ من الجملِ المنتظمةِ في سياقٍ تواصليّ واحدٍ، مشكّلةً وحدةً دلاليّةً متكاملةً تتجاوزُ المستوى النّحويّ للجملةِ الواحدةِ إلى مستوى أوسعَ هو مستوى الخطابِ[٥]، ولا ننسى اللُّغةَ التي تمثّلُ النّشاطَ الذي يقومُ بهِ الأفرادُ داخلَ تلك السّياقاتِ المحدّدةِ، فيتشكّلُ الخطابُ نتيجةَ

---

(1) see: Oxford English: Dictionary Oxford University, Press, 1989, Page: 751.

(٢) ينظر: قاموس اللّسانيّات، عبد السلام المسدي: ٤٧ _ ٥٣ .

(٣) ينظر: قضايا اللُّغة العربيّة في اللّسانيّات الوظيفيّة بنية الخطاب من الجملة إلى النّصّ: ١٦.

(٤) ينظر: في سيسيولوجيا الخطاب من سيسيولوجيا التّمثيلات إلى فسيولوجيا الفعل: ٢٠.

(٥) ينظر: الأسلوبيّة وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربيّ الحديث تحليل الخطاب الشعريّ والسرديّ: ١١، والخطاب دراسة إجرائيّة: ٦٢.

تفاعلهِم اللُّغويّ والفكريّ في مواقفَ تواصليّةٍ مختلفةٍ(١).

وعندما انصبَّت عناية المستشرقين على دراسةِ العربيّةِ، أصبحَ الشّرقُ في نظرِ الغربِ مرادفًا للحضارةِ الإسلاميّةِ، جاعلًا الأنظارَ تتوجَّهُ إلى لغتهِ حتّى زادت هذه العناية، فلم تنحصرْ دراستُهم في العربيّةِ وكُتبها، بل اتّجهوا إلى طبعِ كثير من كُتبِ تاريخِها وجغرافيتِها، وترجمُوها، وبحثوا في أصولِ شعوبِها، فأسهمَ نشاطهُم هذا في انتشارِ العديدِ من المؤلّفاتِ، من بينها طبعةُ القرآنِ الكريمِ باللُّغةِ العربيّةِ، مِمّا يعكسُ شُموليّةَ الجهودِ الاستشراقيّةِ في دراسةِ مختلفِ جوانبِ الثّقافةِ الشّرقيّةِ(٢).

ومن هنا يمكنُ القولُ إنَّ الخطابَ مجموعةٌ من النّصوصِ الملفوظةِ أو المكتوبةِ التي تَربطُها علاقاتٌ مشتركةٌ، وتقومُ بين نصوصِهِ روابطُ دلاليّةٌ واستعماليّةٌ تجعلُ من عالمِ الخطابِ جملةً من الأحداثِ المتّصلةِ ضمنَ جماعةٍ لغويّةٍ ومجتمعٍ معيّنٍ.

**ثانيًا: الاستشراق:**

قبلَ التوغّلِ في موضوعِ الاستشراقِ لا بُدَّ من عرضِ أبرزِ التّعريفاتِ التي تناولهَا الباحثونَ لهُ؛ إذْ حاولُوا تقديمَ تعريفٍ يبرزُ جانبًا من جوانبِ الاستشراقِ المُتعدّدةِ، والغايةُ المرجّوةُ من بيانِ هذا المفهومِ؛ هي تعريفه للمتلقّي، ليتمكّن من فهمِ ما يعنيهِ، ومعرفةِ أبعادهِ العِلميّة والفكريّةِ والسّياسيّةِ، ولا ننسى أنَّ مفهومَ الاستشراقِ يُعدُّ بدايةَ الطريقِ لمعرفةِ ما يعنيهِ الخطابُ اللُّغويّ الاستشراقيّ، الذي يعنى بتحليلِ اللُّغةِ واستعمالاتها في سياقِ الدِّراساتِ الشّرقيّةِ.

---

(١) ينظر: المصطلحات الأدبيّة الحديثة دراسة ومعجم انجليزيّ عربيّ: ١٩.

(٢) ينظر: غرائب الغرب: ١/ ٢٤٤.

لم يكنْ من السّهلِ الإحاطةُ بمصطلحاتِ الاستشراقِ إحاطةً دقيقةً؛ إذْ يُعدُّ تحديدهَا من أشقِّ الأمورِ التي تواجهُ الباحثَ، فلا يمكنُ التماسُ تعريفٍ واحدٍ للاستشراقِ؛ إذْ أحاطه قدرٌ من الغموضِ والإبهامِ؛ لتعدّدِ المحدّداتِ المكانيّةِ والثقافيّةِ التي اختلفتْ باختلافِ الدّارسينَ لهُ، فتباينَتْ مقارباتُ الاستشراقِ تبعًا لمواقعِ الباحثينَ وخلفيّاتهِم الفكريّةِ، مِمّا أدّى إلى اختلافِ طرائقِ تناولهِم له، ويتغيّرُ مفهومُ الاستشراقِ تبعًا لدرجةِ المعرفةِ التّاريخيّةِ وتَطوّرهَا لدى الدّارسِ الغربيّ؛ فالمفهومُ ليس ثابتًا، بل يَتبدّلُ ويَتطوّرُ كلّما اتّسعتْ دائرةُ الدِّراساتِ والبُحوثِ التّاريخيّةِ، ومن ثَمَّ فإنّ تطوّرَ المعرفةِ التّاريخيّةِ يُسهمُ في إعادةِ تفسيرِ مَفهومِ الاستشراقِ وتحديدِ أبعادِهِ وفقَ ما يستجدُّ من مناهجَ ودراساتٍ علميّةٍ، فتباينتْ آراؤهُم تبعًا لاختلافِ مشاربهِمُ الفكريّةِ ومذاهبهِم العلميّةِ، وأنَّ مُنطلقاتهِم وغاياتهِم لم تكن واحدةً، ويضافُ إلى ذلك أنَّ الاستشراقَ لم يَمُرَّ بمرحلةٍ واحدةٍ عبرَ تاريخِهِ، بل شهدَ مراحلَ مُتعدّدةً انمازَتْ كلٌّ منها بخصائِصَ وسماتٍ مختلفةٍ، انعكست على الأهدافِ والغاياتِ التي سعى إليها المستشرقون في دراساتِهم، ولذلك كان لا بُدَّ من الكشفِ عن جوانبِهِ المجهولةِ أو البعيدةِ عن الأذهانِ، ووضعِ تعريفٍ جامعٍ مانعٍ لهُ في ضوءِ ما يتوافرُ من معرفةٍ، إلّا أنَّ تعريفَ الاستشراقِ من الممكنِ أنْ لا يكون دقيقًا في كثيرٍ من الأحيانِ، وذلك تبعًا للطبيعةِ المؤقّتةِ والمتغيّرةِ للمعرفةِ[1].

يُطلَقُ الاستشراقُ _عادةً_ على اتّجاهٍ فكريٍّ يُعنى بدراسةِ الحياةِ الحضاريّةِ للأممِ الشّرقيّةِ بوجهٍ عامٍّ، ودراسةِ حضارةِ الإسلامِ والعرب بوجهٍ خاصٍّ[2]، ولكن كلَّما توسّعنا في دراسةِ مفهومِهِ وجدنا تعريفًا مختلفًا لهُ؛ إذْ إنَّه يتوسّعُ بحسبِ نظرةِ الباحثِ لهُ، فهناك من بيّن أنّهُ عنايةَ علماءِ الغربِ بدراسةِ علومِ المسلمينَ وتاريخِهم ولغاتِهم وآدابِهم وعلومِهم وعاداتِهم

(١) ينظر: الرّؤية الاستشراقيّة للسيرة النّبويّة: ٢٤.

(٢) ينظر: الاستشراق والمستشرقون، عدنان محمّد: ١٥.

ومعتقداتِهم وأساطيرِهم[١]، وباحثٌ آخرُ ذهبَ إلى أنّهُ دراسةٌ يقومُ بها الغربيّون للتّراثِ الشّرقيّ، ولا سيّما ما يتّصلُ بتاريخِه ولغاتِهِ وآدابِهِ وفُنونِهِ وعلومه وتقاليدهِ وعاداتهِ[٢]، بينما هناك من نظرَ إليهِ بأنّهُ تيّارٌ فكريّ تَجلّى في دراساتٍ متعدّدةٍ تناولتِ الشّرقَ الإسلاميّ، وشملتْ كلَّ ما يتعلّقُ بهِ[٣]، فكان لهذا التّيّارِ أثرٌ مهمٌّ في تشكيلِ التّصوّراتِ الغربيّةِ عن العالمِ العربيّ الإسلاميّ، عاكسًا في بعضِ الأحيانِ الخلفيّةَ الفكريّةَ للعلاقةِ بل الصّراعِ بينَ الشّرقِ والغربِ[٤].

ومِنهُم من وضّحَ بأنَّ الاستشراقَ ما هو إلّا أقربُ إلى المهنِ والحرفِ التّقليديّةِ؛ مثلَ: الطبِّ، والهندسةِ، والمحاماةِ، مُشيرًا إلى أنَّ هذه الدّراسةَ تُشبهُ من ناحيةِ الهدفِ مهنةَ التّبشيرِ أكثرَ من كونها نشاطًا فكريًّا مستقلًّا[٥]، فنظرَ للاستشراقِ كأنّهُ مهنةٌ كالمهنِ الأخرى، فلم تتّسمْ حركةُ الاستشراقِ بالحيادِ الكامل، بل ارتبطتْ في بعضِ الأحيانِ بأهدافٍ دينيّةٍ أو تبشيريّةٍ، حتّى اقتربَتْ غايةُ الدِّراساتِ من نشاطِ التّبشيرِ أكثرَ من اقترابِها من النّشاطِ الفكريّ المُستقلِّ القائمِ على البحثِ العلميّ الخالصِ، مِمّا يعكسُ هذا الاتّجاهُ النّقديّ الرّؤيةَ النّقديّةَ التي ترى أنَّ بعضَ الجهودِ الاستشراقيّةِ لم تنطلقْ من دوافعَ معرفيّةٍ بحتةٍ، بل تأثّرتْ بسياقاتٍ دينيّةٍ وسياسيّةٍ صاحبتِ التّوسّعَ الأوربيّ في الشّرقِ، ولهذا ارتبطتْ بعضُ دراساتِهِ بمؤسّساتٍ كنسيّةٍ وحركاتٍ تبشيريّةٍ كانت أهدافهَا دينيّةً وثقافيّةً في المُجتمعاتِ الشّرقيّةِ وسنبيّنُ لاحقًا هذا الاتّجاهَ في موضوعِ تكوينِ الاستشراقِ وبدايتهِ في الشّرقِ.

---

(١) ينظر: أجنحة المكر الثّلاثة وخوافيها: ٥.

(٢) ينظر: المستشرقون والدِّراسات القرآنيّة: ١٠.

(٣) ينظر: الغزو الفكريّ والتّحديّ والمواجهة: ٢١٤.

(٤) ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة:٢٣، والاستشراق والخلفية الفكريّة للصراع الحضاريّ:١٨.

(٥) ينظر: نحن والمستشرقون: ٢٨.

وأصبحَ الاستشراقُ فيما بعدُ مجالًا علميًّا يتناولُ المجتمعاتِ الشّرقيّةَ بالدّراسةِ والتّحليلِ، واضطلعَ بهذه الدِّراساتِ عددٌ من علماءِ الغربِ الذين عنوا ببحثِ شؤونِ الشّرقِ المختلفةِ(١).

واتّجهَ الغربُ لدراسةِ تاريخِ الشّرقِ وأممِهِ؛ إذْ كانت عنايتهم في العصورِ الوسطى تتّجهُ أساسًا إلى دراسةِ العبريّةِ؛ لصلتِها بالنّصوصِ الدِّينيّةِ، ثمَّ اتّجهوا إلى دراسةِ العربيّةِ لصلتها بالعلومِ والمعارفِ التي ازدهرتْ في الحضارةِ الإسلاميّةِ(٢).

وأغلبُ التّعريفاتِ بيّنتْ أنّهُ المحاولةُ التي يقومُ بها عددٌ من المفكّرينَ الغربيّينَ للوقوفِ على معالمِ الفكر الإسلاميّ، والتّعرّفِ على حضارتِهِ وثقافتِهِ وعلومِهِ المختلفةِ(٣).

وهناك من أوضحَ بأنَّ الاستشراقَ على الرّغمِ من ظهورِهِ بوصفه دراسةً علميّةً للشّرقِ إلّا أنّهُ في داخلهِ يُريدُ الاستعمارَ، فهو من أقدمِ الحركاتِ الفكريّةِ في الغربِ؛ إذْ استُعملَ فيه العلمُ أداةً لدراسةِ الشّرقِ من جهةٍ، واستُغِلَّ بوصفه وسيلةً لتحقيقِ أهدافٍ أخرى تمثّلتْ في محاولةِ تغريبِ الشّرقِ وفرضِ الهيمنةِ عليه من جهةٍ أخرى(٤).

وهذا الرّأيُ تَضامنَ مع ما ذهبَ إليهِ المستشرقُ (بارت) الذي أشارَ إلى أنّ الاستشراقَ ارتبطَ في بداياتهِ بدراسةِ فقهِ اللُّغةِ؛ إذْ إنَّ لفظةَ الاستشراقِ مشتقّةٌ من كلمةِ الشّرقِ التي تعني مشرقَ الشّمسِ، ومن ثمَّ ارتبط المُصطلحُ بدراسةِ العالمِ الشّرقيّ ومعارفهِ المختلفةِ(٥).

ومن أبرزِ الباحثينَ الذين تناولوا تعريفَ الاستشراقِ، حتّى حظي تعريفهُ بانتشارٍ واسعٍ

---

(١) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها في الدِّراسات الإسلاميّة: ١/ ٢٠.
(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربيّ، أحمد حسين الزيات: ٥١٢.
(٣) ينظر: الاستشراق ماهيّته، فلسفته ومناهجه: ١٨ .
(٤) ينظر: أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر: ١٩٣.
(٥) ينظر: الدِّراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه: ١١.

في الأبحاثِ والدِّراساتِ إدوارد سعيد؛ فهو من المفكّرينَ الذين نظروا إلى الاستشراقِ بأنّهُ نمطٌ من الإسقاطِ الغربيّ على الشّرقِ، عاكسًا إرادةَ الهيمنةِ والسّيطرةِ عليهِ(١).

لقد اختلفتْ نظرةُ الباحثينَ إلى الاستشراقِ فهناك من رأى أنّهُ أسلوبٌ في التّفكيرِ يقومُ على تمييزٍ مرتبطٍ بوجودِ المعرفةِ بينَ الشّرقِ والغربِ، ولكنّ هناك من نظرَ إليه على أنَّهُ موضوعٌ سياسيّ أو حقلٌ بحثيّ، تتغيّرُ الآراءُ فيهِ باختلافِ الثّقافاتِ والدِّراساتِ والمؤسّساتِ؛ ولهذا لا يمكنُ عدّه مجرّدَ تراكمٍ لمجموعةٍ كبيرةٍ من النّصوصِ حول الشّرقِ، بل هو توزيعٌ للوعي الجغرافيّ والثقافيّ، يتجاوزُ الجانبَ الجماليّ أو العلميّ أو الاقتصاديّ أو الاجتماعيّ، ويَشملُ أيضًا دراسةَ اللُّغةِ وفهمَها في سياقِها الثّقافيّ(٢).

ولهذا فكثير من الدِّراساتِ التي تناولتْهُ نظرتْ إليه بوصفِهِ ظاهرةً ارتبطتْ بالسّياقِ الاستعماريّ، إلّا أنّهُ محاولةٌ لفهمِ جوانبِ الحضاراتِ على نحوٍ جامعٍ ومانعٍ، يجمعُ بينَ دراسةِ التّاريخِ واللُّغةِ والثّقافةِ والاجتماعِ والسّياسةِ والفكرِ(٣)؛ ولهذا عُدَّ في بعضِ الأحيانِ أداةً معرفيّةً لخدمةِ الأهدافِ الاستعماريّةِ، من خلالِ تقديمِ تصوّراتٍ وصورٍ معيّنةٍ عن الشّرقِ وثقافاتهِ.

فتعريفُ الاستشراقِ تباينَ بين الباحثينَ؛ لتعدّدِ موضوعاتِهِ وتشعّبِ مجالاتِهِ؛ إذْ إنَّ دراساتِهِ لم تكن متجانسةً، بل امتدّتْ إلى ميادينِ علميّةٍ وثقافيّةٍ متعدّدةٍ، وأدّى هذا التّنوّعُ إلى أنْ يرى بعضُ الباحثينَ أنّ تحديدَ تعريفٍ جامعٍ مانعٍ للاستشراق أمرٌ صعبٌ، بل هو ضربٌ من المحالِ(٤).

---

(١) ينظر: الاستشراق، إدوارد سعيد: ١٢٠.

(٢) ينظر: الاستشراق والاستغراب: ٣٢٠.

(٣) ينظر: الاستشراق الفرنسيّ ضرورة مثيره للجدل: ٢١.

(٤) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها في الدِّراسات الإسلاميّة: ١٧/١.

ولم يختلفْ في معنى الاستشراقِ الباحثونَ العربُ حسب، بل تنوّعَ عند المستشرقينَ أيضًا، فارتبطَ مفهومُهُ لدى (بارت) وبعضِ المستشرقينَ بالدِّراساتِ اللُّغويّةِ المتعلّقةِ بالعالمِ الشّرقيّ، مبيّنين أنّهُ نشاطٌ علميّ يقومُ بهِ الباحثُ الغربيّ لدراسةِ الشّرقِ، سواءٌ أكان هذا الشّرقُ العالمَ العربيّ أم الصين[١]، ووضّحَ أنّه في البلدانِ الأوربيّةِ؛ ولا سيّما ألمانيا، أصبحَ مادّةً علميّةً معترفًا بها في الأوساطِ الأكاديميّةِ، حتّى بلغَ هذا الاعترافُ حدًّا جعلَ الدِّراساتِ الاستشراقيّةَ ممثّلةً في معظمِ الجامعاتِ الغربيّةِ من خلالِ مقاعدَ علميّةٍ يشغلها أساتذةٌ متخصّصون، وظهرَ إلى جانبِهم عددٌ كبيرٌ من الباحثينَ المساعدينَ في هذا المجالِ[٢].

وأمّا (رينو) فكان يتّفقُ مع بعضِ الباحثينَ العربِ بأنَّ دوافعَ الاستشراقِ كانتْ دينيّةً وأنّهُ في حقيقتِهِ يمثّلُ تيّارًا فكريًّا وثيقَ الصّلةِ بدراسةِ الشّرقِ بوجهٍ عامٍّ، وبالفكرِ الإسلاميّ بوجهٍ خاصٍّ، فكان انتشارُ الإسلامِ السّريعُ في مناطقَ واسعةٍ من العالمِ أحدَ الدّوافعِ التي أسهمتْ في إثارةِ عنايةِ الدّوائرِ المسيحيّةِ في أوربا، ودفعِها إلى محاولةِ فهمِ هذا الدّينِ الجديدِ، وما يرتبطُ بهِ من حضارةٍ وثقافةٍ، لما كان لهُ من تأثيرٍ في المجتمعاتِ المختلفةِ[٣].

وفي حين يرى المستشرقُ الفرنسيّ (مكسيم رودنسون) أنَّ الاستشراقَ يدلُّ على ظهورِ فرعٍ متخصّصٍ من فروعِ المعرفةِ الذي يُعنى بدراسةِ الشّرقِ؛ إذْ برزتِ الحاجةُ إلى وجودِ متخصّصينَ يتولّونَ إنشاءَ المجلّاتِ العلميّة والجمعيّاتِ والأقسامِ الأكاديميّةِ التي تعتني بالدِّراساتِ الشّرقيّةِ[٤]

بينما تناولَ بعضُهُم الاستشراقَ من زاويةٍ نقديّةٍ، فرفضوه بوصفه سؤالًا قبل أنْ يحاولوا

---

(١) ينظر: حوار مع المستشرق فلاديمير شغال: ١٨٩.
(٢) ينظر: الدِّراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة: ١٣.
(٣) ينظر: المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربيّة: ١١٠ – ١١١.
(٤) ينظر: الاستشراق ماهيّته فلسفته ومناهجه: ٢٤.

الإجابةَ عنهُ، ومنهم: (برنارد لويس)، الذي أخذ يتساءلُ: ما هو الاستشراقُ؟ وما الذي تعنيهِ تلك الكلمةُ قبلَ أنْ تُصبحَ مشوبةً بما أسماهُ (التّلوّث الفكريّ)، الذي أدّى إلى فقدانِ كثير من الكلماتِ لمعانيها الأصليّةِ وصعوبةِ استعمالها في خطابِ عقلانيّ، مشيرًا وموضّحًا بأنّ كلمةَ (استشراق) كانت في الماضي تُستعملُ بمعنيينِ: الأوّل: مدرسةٌ فنّيّةٌ، التي تضمُّ مجموعةً من الفنّانينَ، مُعظمُهم من أوربا الغربيّةِ، كانوا بمثابةِ رحّالةٍ إلى الشّرقِ، يقيمون لمددٍ محدّدةٍ في الشّرقِ الأوسطِ وشمالي أفريقيا، ويرسمون ما يَرونَهُ أو يتخيّلونَهُ، حتّى كانت أعمالُهم تتّسمُ بالجانبِ الرّومانسيّ والغرائبيّ المدهشِ، أمّا الثّاني: فهو الأكثر شيوعًا في الاستعمالِ العلميّ، ويشيرُ إلى اختصاصٍ علميّ ارتبطَ في أساسهِ بدراسةِ حضاراتِ الشّرقِ، وبرزَ هذا المعنى مع عصرِ النّهضةِ والتّوسّعِ العلميّ في أوربا الغربيّةِ، فقد كان هناك مختصّونَ بدراسةِ الحضارةِ الهلنستيّةِ* واليونانيّةِ، وآخرون اختصّوا بدراسةِ اللّاتينيّةِ، وبالتّراثِ العبريّ ودراسةِ اللُّغةِ العبريّةِ، وكان يُتمُّ _أحيانًا_ تصنيفُ المختصّينَ بالمجموعتينِ الأوّليتينِ بالإنسيّينَ، بينما يُطلقُ على المختصّينَ بالتّراثِ العبريّ لقبُ (المستشرقينَ)، لكن مع مرورِ الوقتِ توسّعَت عناية هؤلاء المستشرقينَ ليشملَ دراسةَ لغاتٍ وحضاراتٍ غيرَ أوربيّةٍ، بما في ذلك لغاتُ الشّرقِ الأوسطِ وآدابُهُ وتراثُهُ الثقافيّ(١).

فـ(برنارد لويس) بيّنَ وجودَ بُعدينَ للاستشراقِ؛ الأوّلُ: يعتمدُ على الخيالِ الغربيّ الأوربيّ الذي أدى دورًا بارزًا في تصوّرِ الشّرقِ، وأمّا الآخر ؛ فهو الاختصاصُ العلميّ المرتبطُ بدراسةِ الشّرقِ بشكلٍ أكاديميّ، وقد ينطبقُ هذا المعنى على بعضِ المراحلِ التّاريخيّةِ للاستشراقِ، لكنّهُ مع ذلك لا يمكنُ أنْ يكونَ مرادفًا كاملًا للمصطلحِ في مجملِهِ.

---

* الحضارة الهلنستيّة: حضارة نشأت بعد فتوحات الإسكندر الأكبر نتيجة امتزاج الثقافة اليونانيّة بحضارات الشّرق، ولا سيما المصريّة والفارسيّة، بخلاف الحضارة اليونانيّة التي اتّسمت بطابع يونانيّ خالص.

(١) ينظر: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه: ١٦١ _ ١٦٣.

وعلى الرّغمِ من الشّهرةِ الواسعةِ التي نالها مصطلح الاستشراقُ فإنّهُ لم يحظَ بقبولٍ تامٍّ من جميعِ المستشرقينَ؛ إذْ كان محلَّ رفضٍ أو عند تحفّظٍ بعضِهم، فرفضوا أنْ يُطلقَ عليهم هذا الوصفُ، ويظهرُ ذلك في موقفِ المستشرقِ (فلاديمير) الذي رفضَ أنْ يُنسبَ إلى هذا المصطلحِ، مؤكّدًا أنّهُ ليس (مستشرقًا)، بالمعنى الشّائعِ، بل باحثٌ في الأدبِ العربيّ الذي استهواهُ فسعى إلى دراستِهِ والتّعمّقِ فيهِ(١).

وهناك من ذهبَ إلى القولِ بأنَّ حركةَ الاستشراقِ بمعناها التّقليديّ قد انتهتْ، ولذلك تغيّرتْ تسميةُ بعضِ المؤتمراتِ العلميّةِ التي كانت تُعرفُ بمؤتمراتِ الاستشراقِ إلى مؤتمراتِ العلومِ الإنسانيّةِ أو الدِّراساتِ الشّرقيّةِ(٢)؛ ولهذا دعا بعضُ المستشرقينَ إلى ضرورةِ استبدالِ مصطلحِ الاستشراقِ بتعبيرِ الدِّراساتِ الشّرقيّةِ، ومن هؤلاء (مكسيم رودنسون) الذي رأى أنَّ هذا المصطلحَ أكثر حيادًا وأقربُ إلى الطّابعِ العلميّ(٣)

ولكنّ من جهةٍ أخرى؛ نجدُ (رودي بارت) يشيرُ إلى وجودِ نوعٍ من الاضطرابِ في مفهومِ الاستشراقِ، وهو ما يعكسُ عدم اتّساقِ الفهمِ لدى بعضِ المستشرقينَ أنفسِهِم حولَ طبيعةِ هذا المجالِ ومناهجِهِ(٤)، يُسلّطُ (رودي بارت) _هنا_ الضّوءَ على الطّبيعةِ المعقّدةِ والمتعدّدةِ الأبعادِ في مجالِ الاستشراقِ، فلا يوجدُ تعريفٌ موحّدٌ يرضي جميعَ المستشرقينَ، وهو يكشفُ عن وجودِ صعوباتٍ منهجيّةٍ وفكريّةٍ في حصرِ الاستشراقِ ضمنَ قالبٍ واحدٍ.

ويرى (فرانسيسكو غابرييلي) أنَّ الاستشراقَ في بداياتِهِ كان يُمثّلُ علمًا واحدًا مُتكاملًا، ولكنّه سرعانَ ما انقسمَ على فروعٍ متعدّدةٍ وتخصّصاتٍ مستقلّةٍ بعضِها عن بعض، وترتبطُ هذه

(١) ينظر: حوار مع المستشرق فلاديمير شغال: ١٩٤.
(٢) ينظر: من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب حوار الاستشراق: ١٦٠.
(٣) ينظر: حوار مع المستشرق مكسيم رودنسون: ١٩٥.
(٤) ينظر: الاستشراق الإسرائيليّ في المصادر العبريّة: ١٤_ ١٣.

التّخصّصاتُ بدراسةِ مختلفِ حضاراتِ الشّرقِ، سواءٌ في أفريقيا أم آسيا، وتَشملُ جوانبَ لغويّةً وتاريخيّةً وعرقيّةً للحضاراتِ المدروسةِ(١)

فالاستشراقُ بحسبِ رأي (فرانسيسكو) يَتضمّنُ هويّةَ المستشرقِ، أي الباحثِ الذي يختارُ عن قصدٍ وتركيزٍ أنْ يوجّهَ عنايته العلميّ إلى أحدِ قطاعاتِ المعرفةِ المتعلّقةِ بالشّرقِ، مع مراعاةِ المكانِ والزّمان بوصفها جزءًا من شروطِ الدّراسةِ، مِمّا يُبرزُ الطّابعَ الشّخصيّ والمنهجيّ في مُمارسةِ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ(٢).

و(فرانسيسكو) يؤكّدُ أنَّ الباحثَ هو الذي يختارُ التّركيزَ العلميّ على قطاعٍ محدّدٍ من المعرفةِ، مع مراعاةِ أبعادِ المكانِ والزّمانِ، ورأيُهُ يُضيفُ قيمةً أكاديميّةً واضحةً؛ إذْ إنَّهُ يُقرُّ بالجانبِ الشّخصيّ والمنهجيّ في الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ، ويؤكّدُ أنَّ ممارساتِ الاستشراقِ ليستْ مجرّدَ محاكاةٍ أو خيالٍ، بل ترتبطُ بخياراتٍ علميّةٍ واعيةٍ ومنهجيّةٍ دقيقةٍ.

والتّعريفاتُ السّابقةُ للاستشراقِ وتعدّدُها تبيّنُ أنَّ موضوعَ الاستشراقِ قد اتّسمَ بالاتّساعِ؛ إذْ شملَ كلَّ من تناولَ الإسلامَ من هذا المنظورِ، غير أنَّهُ في المقابلِ لم يقتصرْ على الباحثينَ الذين تخصّصوا في دراسةِ التّراثِ العربيّ والإسلاميّ دراسةً علميّةً منهجيّةً.

وقد حاولتُ قدرَ الإمكانِ عدم التّوسُّعِ في تقديمِ تعريفٍ لمصطلحِ الاستشراقِ؛ لكثرةِ التّعريفاتِ التي تطرقت إليه؛ إذْ إنّهُ من المفاهيمِ التي أحاط بها قدرٌ من الغموضِ والإبهامِ لدى كثير من الباحثينَ، وذلك للاختلاف الذي كان في مواقعِ الباحثينَ وبيئاتِهم الفكريّةِ والثقافيّةِ، مِمّا أدى إلى تباينٍ في فهمِ مفهومِ الاستشراق وتحديدِ دلالاتِهِ؛ إذْ إنَّ مفهومَ الشّرقِ نفسهُ مفهومٌ نسبيّ، يختلفُ تحديدهُ تبعًا لزاويةِ النّظرِ والموقعِ الجغرافيّ للباحثِ؛ فقد يتّسعُ أحيانًا ليشملَ

(١) ينظر: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه: ٢١_ ٢٢.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢١.

مناطقَ واسعةً من آسيا وشماليّ أفريقيا، وقد يضيقُ في أحيانٍ أخرى بحسبِ منظورِ الدّارسينَ وعنايتهم العلميّةِ(١).

وبالاعتمادِ على التّعريفاتِ السّابقةِ يمكنُ القولُ بأنَّهُ ذلك النّشاطُ العلميّ والفكريّ الذي قامَ بهِ عدد من الباحثينَ الغربيّينَ لدراسةِ الشّرقِ وما يتّصلُ به من لغاتٍ وآدابٍ وتاريخٍ وأديانٍ وثقافاتٍ وحضاراتٍ، وقد اتّخذَ هذا النّشاطُ طابعًا علميًّا منظّمًا، معتمدًا على مناهجِ بحثٍ مختلفةٍ في دراسةِ تراثِ الشّرقِ ومجتمعاتِهِ، ولا سيّما اللُّغةَ العربيّةَ وعلومَها، حتّى تنوّعتْ دوافعُ الاستشراقِ وأهدافُه بين أغراضٍ علميّةٍ ومعرفيّةٍ تسعى إلى فهمِ الشّرقِ وثقافتِه، وأغراضٍ أخرى ارتبطتْ أحيانًا بالدّوافعِ الدِّينيّةِ أو السّياسيّةِ أو الاستعماريّةِ، مِمّا أدّى إلى تباينِ المواقفِ حولَ هذه الحركةِ بين مؤيّدٍ يرى فيها جهدًا علميًّا أسهمَ في خدمةِ التّراثِ الشّرقيّ، ومعارضٍ يَعدُّها وسيلةً للتأثيرِ في الشّرقِ وإعادةِ تشكيلِ صورتِهِ في الفكرِ الغربيّ.

وقد رفضَ _أيضًا_ عددٌ من الباحثينَ الغربيّينَ في العصرِ الحديثِ استعمالَ مصطلحِ الاستشراقِ، ودَعَوا إلى استبدالِهِ بمصطلحاتٍ أخرى تتناسبُ وطبيعةَ الدِّراساتِ العلميّةِ المعاصرةِ حولَ الشّرقِ وثقافاتِه، لذلك اتّجَهَ بعضُهم إلى استعمالِ تسمياتٍ بديلةٍ مثلَ: المستعربينَ أو المتخصّصينَ في الدِّراساتِ الإسلاميّةِ، مبيّنين أنَّ مصطلحَ الاستشراقِ قد يحملُ في ظاهرِهِ دلالاتٍ أيديولوجيّةً ارتبطتْ في بعضِ الأحيانِ بحقبِ الاستعمارِ والنّظرةِ غيرِ الموضوعيّةِ إلى الشّرقِ، الأمر الذي جعلَهُ عند بعضِهم مصطلحًا غيرَ مرغوبٍ فيهِ(٢).

---

(١) ينظر: روح الحضارة العربيّة: ٧.

(٢) ينظر: حول الاستشراق الجديد :٨٠ _ ٨١.

**ثالثًا: الخطابُ اللُّغويّ الاستشراقيّ:**

قبلَ الشّروعِ في بيانِ المقصودِ بالخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ، لا بُدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ الغايةَ من التّطرّقِ لهذا المفهومِ ليس الإحاطةَ بجميعِ حيثياتِهِ بجوانبِها المختلفةِ، بل تقديم فكرةٍ واضحةٍ عن مدلولهِ الاصطلاحيّ، لتحديدِ إطارِ البحثِ ورؤيتِهِ العامّةِ.

وبعد أنْ اتّضحَ لنا أنَّ الاستشراقَ لا يقتصرُ على البعدِ السّياسيّ أو الاستعماريّ، بل ينطوي في جوانبِهِ المتعدّدةِ على أبعادٍ علميّةٍ وثقافيّةٍ ومعرفيّةٍ، ارتبطَ كثيرُ منها بالمنهجِ العلميّ الموضوعيّ في دراسةِ الشّرقِ؛ ولهذا ينبغي الابتعاد عن الالتباسِ في الحكمِ عليهِ، ولو نظرنا إليهِ نظرةً موضوعيّةً شاملةً، لبرزتْ لنا مناهجهُ العلميّةُ المعتمدةُ في دراسةِ العربيّةِ وغيرها من لغاتِ الشّرقِ، بعيدًا عن الصّورةِ المقدّمةِ لهُ بوصفهِ أسلوبًا غربيًّا للسيطرةِ على الشّرقِ وفرضِ الهيمنةِ عليهِ، وأنّنا لا ننكرُ أنّ بعضَ دراساتِهِ الاستشراقيّةِ ارتبطتْ بتوجّهاتٍ استعماريّةٍ أو دينيّةٍ، ولا يمنعُ في الوقتِ نفسِهِ من الاعترافِ بالجهودِ العلميّةِ الموضوعيّةِ في دراسةِ الشّرقِ وثقافتِهِ وحضارتِهِ؛ ولهذا يتوجّبُ معرفةُ الأسسِ التي قامتْ عليها تلك الدِّراساتُ، ولا سيّما ما يتعلّقُ بالخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ الذي انمازَ بعنايتِهِ بدراسةِ العربيّةِ واللُّغاتِ الشّرقيّةِ الأخرى من جوانبِها المختلفةِ[1].

والاستشراقُ علمٌ يُعنى بدراسةِ كلِّ لغةٍ على حدةٍ؛ إذْ إنَّهُ فرعٌ متخصّصٌ بالمعرفةِ[2]، وتعدّدتْ أبعادُهُ بين العلميّةِ والفكريّةِ والسّياسيّةِ، ولهذا فهو ليس مجرّدَ دراسةٍ علميّةٍ، بل خطابٌ أو إنشاءٌ فكريٌّ، إلّا إنّهُ لا يعكسُ بالضرورةِ الحقائقَ أو الوقائعَ مباشرةً، بل يصوّرها تمثّلاتٍ وألوانًا، فتغيبُ فيهِ القوّةُ والمؤسّسةُ والمصلحةُ، حتّى صارَ عمليّةَ خلقٍ وإعادةِ إنتاجٍ معرفيّ

---

(١) ينظر: الاستشراق في ميزان الفكريّ الإسلاميّ: ٩ _ ١٠

(٢) ينظر: الدِّراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة: ١١.

جديدٍ للآخرِ، مِمّا جعلهُ موضوعَ معرفةٍ مستقلًّا عن الواقعِ الموضوعيّ للشرقِ، فلا يرتبطُ بهِ ارتباطًا مطابقًا أو انعكاسيًّا(١).

وقد ارتبطَ الخطابُ اللُّغويّ الاستشراقيّ بالدِّراساتِ الاستشراقيّةِ التي أُطلقتْ على الاتّجاه الفكريّ الذي اعتنى بدراسةِ الحياةِ الحضاريّةِ للأممِ الشّرقيّةِ بوجهٍ عامٍّ، فأولى عنايةً خاصّةً بدراسةِ حضارةِ الإسلامِ والعربِ، فاقتصرَ نطاق تلك الدِّراساتِ في بداياتها على الإسلامِ وحضاراتهِ، فضلًا عن العربيّةِ وآدابها، لكن مع مرورِ الوقتِ توسّعتْ مجالاتها لتشملَ الشّرقَ بأسرهِ، بما في ذلك لغاتهُ وأديانُهُ وتقاليدهُ وآدابهُ، إلّا أنَّ الدّينَ الإسلاميّ كان أبرزَ ما ركّزَ عليه المستشرقونَ، وأصبحتْ دراسةُ العربيّةِ محورَ العناية الأوّلى، كونها مرآةَ النّزاعِ الفكريّ والسّياسيّ والعقائديّ المميّزِ للعصورِ المختلفةِ، ولا سيّما العصرُ الحاليّ(٢).

فـ(الخطابُ الاستشراقيّ) هو جملةُ الدِّراساتِ والأبحاثِ التي قامَ بها المستشرقونَ الغربيّونَ بقصدِ معرفةِ الشّرقِ وفهمِ مختلفِ جوانبِهِ، ومن هذا المنطلقِ يمكنُ النّظرُ إليهِ بوصفهِ أسلوبًا فكريًّا مارسهُ الغربُ في تعاملِهِ مع الشّرقِ، محاولًا من خلالِهِ تحليلَ ظواهرِهِ الحضاريّةِ والثقافيّةِ والاجتماعيّةِ والدِّينيّةِ(٣).

ولم يختصَّ الخطابُ الاستشراقيّ بمجالٍ معرفيّ واحدٍ، بل تعدّدتْ مستوياتُهُ الدّراسيّةُ، فتطرق المستشرقونَ إلى مختلفَ جوانبِ الحياةِ في المجتمعاتِ الشّرقيّةِ، من اللُّغةِ والأدبِ والتّاريخِ إلى الدّينِ والفكرِ والحضارةِ، ولهذا تعدّدتْ أهدافُ دراساتِهِ وتباينتْ تبعًا للمراحلِ التّاريخيّةِ التي مرَّ بها الاستشراق، وحكمَ اختلاف الدّوافع الفكريّة والعلميّة على مراحلهِ

(١) ينظر: حفريات الاستشراق: ٨.
(٢) ينظر: ماهيّة الخطاب الاستشراقيّ في فكر إدوارد سعيد: ١٣_ ١٦.
(٣) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها في الدِّراسات الإسلاميّة: ٢٢.

المتنوّعةِ، ولهذا مثّلَ الخطابُ الاستشراقيّ المفهومَ العلميّ أو الأكاديميّ للاستشراقِ، وأسهمَ تعدّدُ فروعِهِ المعرفيّةِ المرتبطةِ بالشّرقِ، واختلافُ عناية الباحثينَ الغربيّينَ واختصاصاتهم العلميّةِ في تنوّعِ الاتّجاهاتِ والمقارباتِ في الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ(١).

ولم يتّفقِ الباحثونَ على مفهومٍ واحدٍ للخطابِ الاستشراقيّ، بل اختلفوا فيهِ ولا سيّما فيما يتعلّقُ بمجالِ الاستشراقِ وحقولِهِ المعرفيّةِ التي عالجها، فمنهم من رأى أنّهُ يشملُ كلَّ من يتناولُ الشّرقَ بالدّراسةِ والبحثِ، وإنْ لم يكن متخصّصًا في الدِّراساتِ الإسلاميّةِ أو الشّرقيّةِ، ما دامَ يعالجُ قضايا تتعلّقُ بالشّرقِ ومجتمعاتِهِ، وإنْ كان لا ينتمي إليها من حيثُ الأصلُ أو البيئةُ، في المقابلِ هناك من بيّنَ أنَّهُ يقتصرُ على الدِّراساتِ التي تطرقت إلى الشّرقَ، ولا سيّما موضوعاتِهِ الإسلاميّةَ والشّرقيّةَ، من خلالِ مناهجَ علميّةٍ اعتمدها الباحثونَ الغربيّونَ في دراسةِ الحضاراتِ والثقافاتِ المختلفةِ(٢)، ووفقَ هذا الاتّجاهِ، يُنظرُ إلى الخطابِ الاستشراقيّ بوصفهِ حقلًا معرفيًّا يختصُّ بدراسةِ قضايا الشّرقِ وتاريخهِ وثقافتهِ وحضارتهِ، معتمدًا في ذلك على المناهجِ والأدواتِ البحثيّةِ التي طوّرها الباحثونَ الغربيّونَ في دراساتِهم الأكاديميّةِ.

وأغلبُ البحوث تتّفقُ على أنَّ الخطابَ اللُّغويّ الاستشراقيّ في بداياتِ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ كان مهتمًّا بعلومِ الشّرق بصفةٍ عامّةٍ، وبعلومِ المسلمينَ خاصّةً، حتّى امتدَّت عنايتُهُم ليشملَ الثّقافةَ والأدبَ والعاداتِ والتّقاليدَ وغيرها من مظاهرِ الحياةِ في المجتمعاتِ الشّرقيّةِ(٣)، بعد أنْ توسّعتِ الدِّراساتُ الاستشراقيّةُ انكبَّ كثير من علماءِ الغربِ على دراسةِ العربيّةِ، باختلافِ تخصّصاتِهم وتوجّهاتِهُم العلميّةِ، مُتّجهين إلى دراسةِ التّراثِ العربيّ بهدفِ

---

(١) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها في الدِّراسات الإسلاميّة: ٢٣، ولمَ الاهتمام بالاستشراق: ٦٠_٦١.

(٢) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها في الدِّراسات الإسلاميّة: ٢٤.

(٣) ينظر: الاستشراق والدِّراسات الإسلاميّة: ٦٥.

إثراءِ المعرفةِ الغربيّة وتوسيعِ آفاقِها، وسعوا إلى التّعرّفِ على الثّقافةِ الشّرقيةِ في إطارِ العلاقةِ المعرفيّةِ بين الشّرقِ والغربِ؛ ولهذا كرّسَ عددٌ منهُم جهودَهُ لدراسةِ العلومِ العربيّةِ، وظهرتْ دراساتهُم في السّاحةِ الفكريّةِ على هيئةِ مؤلّفاتٍ متعدّدةٍ، تتفاوتُ من حيثُ الكمِّ والكيفِ، فتطرقت إلى التّراثَ العربيّ في ضوءِ مناهجَ علميّةٍ مختلفةٍ، وكانتِ العربيّةُ الرّكيزةَ الأساسيّةَ لفهمِ الشّرقِ والتّعرّفِ عليهِ، فسعى المستشرقونَ للإلمامِ بها بكافّةِ علومِها المختلفةِ، وقامَ كثير منهُم برحلاتٍ للبحثِ العلميّ في البلادِ العربيّةِ، حاملين حرصًا شديدًا على تعلّمِ اللُّغةِ العربيّةِ والتّعمّقِ فيهَا من أجلِ الاطّلاعِ على مصادرِها والاستفادةِ من تراثِها، ولهذا كتبَ كثير منهُم في علومِ العربيّةِ، وحلّلوا نُصوصها، عاكسينَ أهمّيّتها في الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ(١).

ويفسّرُ الخطابُ اللُّغويّ الاستشراقيّ طريقةَ تعامُلِ المستشرقِ مع النّصوصِ والخطاباتِ التي تحتَ يديهِ؛ إذْ يَستندُ في تحليلِهِ إلى تمثّلاتِ الفقرةِ النّصّيّةِ بوصفِها وحدةً دلاليّةً قادرةً على التّعبيرِ عن تصوّراتٍ معيّنةٍ حولَ العقلِ الشّرقيّ وتوجّهاتِه، وغالبًا ما يَنطلقُ هذا الخطابُ من قراءةِ الفقراتِ التي تَحملُ طابعًا حديثًا في الاستجابةِ والتّحليلِ، وهذه الفقرةُ تُمثّلُ أصغرَ وحدةٍ نصّيّةٍ تَخضعُ لقانونِ الاتّساعِ الذي يَسمحُ ببدءِ الفكرةِ وانتشارِها داخلَ بنيةِ الخطابِ(٢).

وهناك من نظرَ إلى الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ بوصفه خطابًا مؤسَّسًا على جملةٍ من القوانين والتّصوّراتِ التي وضعَها الغربيّونَ، حتّى تبلورَ مع مرحلةِ التّوسّعِ الأوربيّ نحو الشّرقِ، مرتبطًا ظهورهُ بقوّةٍ مادّيّةٍ وثقافيّةٍ تحركتْ في ميادينِ المعرفةِ المختلفةِ، ساعيةً إلى دراسةِ الشّرقِ والوقوفِ على لغاتِهِ وثقافاتِهِ وتاريخِهِ، وصولًا إلى بناءِ صورٍ ذهنيّةٍ متكاملةٍ صاغتْها

(١) ينظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٥٩.

(٢) ينظر: قراءة الخطاب الاستشراقيّ في الثّقافة العراقيّة المعاصرة: مجلة الاستشراق العراقيّة إنموذجًا: ١١.

الثّقافةُ الأوربيّةُ وعلومُها حولَ آسيا والشّرقِ(١).

ولم تمنعْ أهمّيّةُ العربيّةِ والتّراثِ العلميّ العربيّ من دراسةِ الشّرقِ دراسةً سياسيّةً واقتصاديّةً؛ إذْ سعت دول أوربيّةٍ عدّة إلى استثمارِ هذه الدّراسةِ لتحقيقِ أفكارها الرّياديّةِ في مجالاتِ الدِّراساتِ العربيّةِ، فمنحها ذلك النّصيبَ الأكبرَ من الانتعاشِ المعرفيّ، فكان لتأسيسِ المدارسِ والمعاهدِ ولا سيما في أعقابِ الثّورةِ الفرنسيّةِ، أثرٌ بارزٌ في نشرِ الدِّراساتِ العربيّةِ وتعميقِها(٢).

ومصطلحُ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ من المصطلحاتِ الحديثةِ نسبيًّا إذا ما قورِنَ بظهورِ مصطلحِ الاستشراقِ نفسِهِ والحركةِ الاستشراقيّةِ عمومًا.

وما تقدّمَ يبيّنُ أنَّ الخطابَ اللُّغويّ الاستشراقيّ تكوّنَ بعد أنْ اتّجَهَ الاستشراقُ إلى الطّابعِ العلميّ، فبعدَ تزايدِ معرفةِ الغربيّينَ بالشّرقِ وبالتّراثِ العربيّ وثقافتِهِ وعلومهِ، اتّجهَ الكثيرُ من المستشرقينَ إلى دراسةِ جوانبِ الشّرقِ المختلفةِ دراسةً علميّةً، وأولوا عناية خاصّةً بالدِّراساتِ اللُّغويّةِ وحلّلوا النّصوصَ التّراثيّةَ والثقافيّةَ، واتّسع مفهومُ الاستشراقِ نظرًا للأهمّيّةِ البالغةِ التي احتلّها في الدِّراساتِ العربيّةِ والغربيّةِ، حتّى صارَ مع مرورِ الزّمنِ حركة فكرية مستقلّة لها قواعدُهُا وأصولهُا وكيانهُا الخاصُّ، وتشكّلتْ مدارسهُ العلميّةُ ومناهجُهُ المتعدّدةُ، حتّى صارَ ميدانًا واسعًا يشملُ العديدَ من المجالاتِ المختلفةِ، فلم يقتصرْ نشاطهُ العلميّ على منطقةٍ أو مدينةٍ بعينها، بل امتدَّ ليشملَ مختلفَ مناطقِ الشّرقِ، متطرقًا إلى حضاراتها وأممها وثقافاتها ولغاتها المختلفةَ من دونِ أنْ يهملَ تاريخها(٣).

---

(١) ينظر: ذهنيّة التحريم: ١٨.

(٢) ينظر: تاريخ حركة الاستشراق: الدِّراسات العربيّة والإسلاميّة في أوربا حتّى بداية القرن العشرين: ١٣ _ ١٤.

(٣) ينظر: المستشرقون ومشكلات الحضارة: ١١.

وبهذا نتوصّلُ إلى أنَّ الخطابَ اللُّغويّ الاستشراقيّ هو مجموعةُ النّصوصِ والدِّراساتِ التي أنجزها المستشرقونَ في أثناء دراسةِ لغاتِ الشّرقِ، التي شكّلتْ متواليةً لغويّةً من الأقوالِ والكتاباتِ المرتبطةِ بسياقٍ معرفيّ وثقافيّ مُعيّنٍ، ويدرسُ هذا الخطابُ اللُّغةَ بجوانبِها الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ والنّحويّةِ والدّلاليّةِ، معتمدًا على مناهجَ لغويّةٍ متعدّدةٍ، ومعبّرًا في الوقتِ ذاتهِ عن رؤيةِ الباحثِ الغربيّ للغاتِ الشّرقِ وثقافتِهِ، ولم ينحصرْ وصفُ هذا الخطابِ بمجرّدِ وصفٍ لغويّ للنّصوصِ، بل تجاوزَ ذلك ليشكّلَ منظومةً فكريّةً معرفيّةً تتجلّى في الدِّراساتِ التي تطرقتْ إلى العربيّةَ وتراثها في إطارِ العناية الغربيّة بالشّرقِ، وسيُستجلى هذا المفهومُ بصورةٍ إجرائيّةٍ في الفصولِ القادمةِ من البحثِ عند تناولِ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ وتحليلِ أبعادِهِ المعرفيّةِ.

## المبحثُ الثّاني

## أهمّ المدارس الاستشراقيّة:

ارتبطَ الخطابُ اللُّغويّ الاستشراقيّ ارتباطًا وثيقًا بالمدارسِ الاستشراقيّةِ التي شكّلتِ الإطارَ المعرفيّ والمنهجيّ لدراسةِ العربيّةِ وتحليلِها، فضمّ الاستشراقُ مدارسَ متعدّدةَ المناهجِ؛ تبعًا لتنوّعِ اتّجاهاتِه، معتمدةً دراساتُهُ على التّقسيمِ الجغرافيّ للمدارسِ في دراستها؛ لملاءمتِهِ من النّاحيةِ المنهجيّةِ في تتبّعِ تطوّرِها ومعرفةِ خصائصِها، وظهرتْ عدّةُ مدارسَ استشراقيّةٍ بارزةٍ، ومن أهمِّها المدرسةُ الفرنسيّةُ، والبريطانيّةُ، والإيطاليّةُ، والألمانيّةُ، والإسبانيّةُ، والهولنديّةُ، والأمريكيّةُ، والرّوسيّةُ، وقد أسهمتْ كلُّ مدرسةٍ من هذهِ المدارسِ في دراسةِ الشّرقِ ولغاتهِ وثقافاتِهِ على وفقِ توجّهاتِها العلميّةِ ومناهجِها الخاصّة[1]، وسنقتصرُ فيما يأتي على ذكرِ أبرزِ المدارسِ التي كانَ لها أثرٌ واضحٌ في الدِّراساتِ اللُّغويّةِ للعربيّةِ، ومنها: المدرسةُ الألمانيّةُ التي تُعدُّ من أهمِّ المدارسِ الاستشراقيّةِ في الدِّراساتِ اللُّغويّةِ والفيلولوجيّةِ، وتأتي بعد ذلك المدرسةُ الفرنسيّةُ التي كان لها حضورٌ بارزٌ في الدِّراساتِ اللُّغويّةِ والأدبيّةِ العربيّةِ، وأسهمتِ المدرسةُ البريطانيّةُ إسهامًا ملحوظًا في دراسةِ النّصوصِ العربيّةِ دراسةً تاريخيّةً أدبيّةً.

### أ_ المدرسة الألمانيّة:

انمازتِ المدرسةُ الألمانيّةُ بعدمِ ارتباطِ ازدهارها بالمشروعاتِ الاستعماريّةِ كما هو الحالُ في المدارسِ الاستشراقيّةِ الأخرى، ولم ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأهدافِ الدِّينيّةِ التّبشيريّةِ، بل اتّسمتْ أعمالها بالموضوعيّةِ والعمقِ العلميّ، ممّا جعلَ لها مكانةً بارزةً في الدِّراساتِ العربيّةِ والإسلاميّةِ[2]، إلّا أنّ هذا التّقييمَ لا يعني خلوّها تمامًا من بعضِ المواقفِ المتحيّزةِ أو النّزعاتِ

(١) ينظر: زيارة جديدة للاستشراق مع دراسات للرؤية الاستشراقيّة المنصفة للرسول محمّد ﷺ: ٨٩-٩٠.
(٢) ينظر: المستشرقون وجهودهم في خدمة التّراث العربيّ الإسلاميّ المخطوط: ٤٤٤.

العدائيّةِ والتّوجّهاتِ التّبشيريّةِ لدى بعضِ أعلامها، وإنْ كانتْ هذه الحالاتُ أقلَّ حضورًا مقارنةً بغيرِها من المدارسِ الاستشراقيّةِ(١).

وعلى الرّغمِ من تأخّرِ ظهورِ المدرسةِ الألمانيّةِ الواضحِ مقارنةً بالمدارسِ الأوربيّةِ الأخرى، فهي كانت من أهمّها، إذْ عُدّتْ من أقواها اختصاصًا بالدِّراساتِ اللُّغويّةِ والفيلولوجيّةِ؛ إذْ اهتمّتْ بتحقيقِ النّصوصِ العربيّةِ ودراسةِ النّحوِ والصّرفِ وكلِّ ما يتعلّقُ باللُّغاتِ السّاميّةِ، وعُرفَ عُلماؤها بالدّقّةِ المنهجيّة والصّرامةِ العلميّةِ، وانمازتْ بالموضوعيّةِ والتّجرّدِ والدقّةِ العلميّةِ في دراساتِها وأبحاثِها، وكان منهجُ عددٍ من أعلامِها متّسمًا بالأكاديميّةِ والاعتمادِ على التّحقيقِ والمقارنةِ اللُّغويّةِ، سعيًا للوصولِ إلى الحقيقةِ العلميّةِ، وبعيدًا عن الأحكامِ السابقةِ(٢).

وبعد أنْ أدركَ المستشرقونَ الألمانُ مكانةَ الحضارةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ وأهمّيّتها، توجّهَ كثير منهُم نحو الدِّراساتِ العربيّةِ اللُّغويّة، معتنين باللُّغاتِ الشّرقيّةِ عناية عميقة ومنهجيّة، حتّى صارتْ إسهاماتُهم العلميّةُ من أبرزِ الإسهاماتِ في حقلِ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ مقارنةً بغيرِهِم من المدارسِ الأخرى، فلا يمكنُ إنكارُ إسهاماتِهم في خدمةِ العربيّةِ بشكلٍ كبيرٍ؛ إذْ ألّفَ كثيرٌ منهم الكتبَ، وحقّقوا النّصوصَ، وقاموا بفهرسةِ المخطوطاتِ العربيّةِ بمختلفِ أنواعِها، وأولوا عناية خاصّة بوضعِ المعجماتِ العربيّةِ ودراسةِ مفرداتِها ومن ثمَّ دراسةِ اللُّغاتِ السّاميّةِ ولهجاتِها، مشاركين في تطويرِ الدِّراساتِ المقارنةِ فيها، مِمَّا عزّزَ هذا الأمرُ الجانبَ الفيلولوجيّ في الاستشراقِ الألمانيّ(٣)، وخدمَ الدِّراساتِ اللُّغويّةَ(٤).

وأسهم كلُّ ما تقدّمَ في ترسيخِ مكانةِ المدرسةِ الألمانيّةِ في الدِّراساتِ الشّرقيّةِ، ولا سيّما

---

(١) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظّاهرة الاستشراقيّة وأثرها في الدِّراسات الإسلاميّة: ١٣٤_ ١٣٥.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٥.
(٣) ينظر: جهود المستشرق الألماني برجشراستر اللُّغويّة: ٢٨.
(٤) ينظر: القرآن الكريم في الدِّراسات الاستشراقيّة القديمة: ١٠٩.

في ميدانِ العربيّةِ واللُّغاتِ السّاميّةِ[١]؛ إذْ انعكسَ تراكمها العلميّ في كثافةِ إنتاجها الأكاديميّ وتنوّعه، فعدّتْ من المدارسِ الرّائدةِ ذاتِ الحضور البارز ضمن التّياراتِ الكبرى في الاستشراقِ الأوربيّ[٢].

وبرزَ في هذه المدرسةِ كثير من المستشرقينَ الذين كان لهم أثرٌ كبيرٌ في دراسةِ العربيّةِ وتراثِها الإسلاميّ؛ مثل: (يوهان ياكوب رايسكه)؛ و(جورج فيلهلم فرايتاج)؛ و(غوستاف فلوجل) و(يوليوس فلهوزن)؛ ولا ننسى (تيودور نولدكه) الذي عُدَّ أكثرهم إنتاجًا في الدِّراساتِ العربيّةِ والإسلاميّةِ، وبرزَ كلٌّ من (كارل بروكلمان)؛ و(كارل هاينريش بيكر)؛ و(رودي بارت)؛ و(غوتلهلف برجستراسر)، الذين أسهموا بدراساتٍ مهمّةٍ في العربيّةِ واللُّغاتِ السّاميّةِ والتّراثِ الإسلاميّ[٣].

**ب_ المدرسة الفرنسيّة:**

وتأتي المدرسةُ الفرنسيّةُ بعد الألمانيّةِ في الأهمّيّةِ ضمن المسارِ الاستشراقيّ؛ فقد كانَ لها حضورٌ بارزٌ في الدِّراساتِ اللُّغويّةِ والأدبيّةِ العربيّةِ، وهي من أقدمِ المدارسِ الغربيّةِ وأكثرها حضورًا وتأثيرًا في الدِّراساتِ الشّرقيّةِ، وارتبطتْ علاقتُها بالعالمِ العربيّ والإسلاميّ بعلاقاتٍ تاريخيّةٍ مُتباينةٍ بين الصّراعِ والتّحالفِ، وهو ما أسهمَ في توجيهِ عنايتها العلميّةِ نحو دراسةِ الشّرقِ بعمقٍ واتّساعٍ، وقد تجلّى ذلك في عنايتِها باللّهجاتِ العربيّةِ واللّسانيّاتِ وتحقيقِ التّراثِ، فضلًا عن ربطِ دراساتِها بالجوانبِ الثقافيّةِ والحضاريّةِ؛ لذا عدّتْ من أبرزِ المدارسِ الاستشراقيّةِ وأكثرها غنًى فكريًّا وإنتاجًا علميًّا، مع حضورِها البارزِ في كثيرٍ من مجالاتِ

---

(١) ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي: ٢/ ٦٧٨.
(٢) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها في الدِّراسات الإسلاميّة: ١٥٥.
(٣) ينظر: القرآن الكريم في دراسات الاستشراقيّة القديمة :١١٠ _ ١١٥.

التّواصلِ الثقافيّ بين العربِ وأوربا(١).

وقد برزتْ هذه المدرسةُ بصورةٍ واضحةٍ في باريس سنة (١٧٩٥م) حتّى عُدّتْ من أبرزِ مدارسِ الاستشراقِ وأكثرها تأثيرًا، ولا سيما بعد إنشاءِ (مدرسة اللُّغاتِ الشّرقيّةِ الحيّةِ) التي شكّلتْ نقطةَ تحوّلٍ مهمّةً في الدِّراساتِ الشّرقيّةِ(٢)، وتولّى رئاستها المستشرقُ (سلفستر دي ساسي) الذي عُدَّ عميدَ الاستشراقِ الأوربيّ في النّصفِ الأوّلِ من القرنِ التّاسعِ عشرَ، لما كانَ لهُ من أثرٍ كبيرٍ في توجيهِ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ وتطويرها، وتجلّى ذلك في مؤلّفاتِهِ ولا سيّما كتابُهُ (في قواعدِ اللُّغةِ العربيّة)، حتّى قيلَ إنَّهُ أضفى على الاستشراقِ الأوربيّ طابعًا فرنسيًّا واضحًا، وتنوّعت اهتماماته فشملتْ دراسةَ اللُّغةِ العربيّةِ وآدابها وتاريخها، فضلًا عن تطرقه إلى موضوعاتٍ أخرى تَتّصلُ بالفرقِ الإسلاميّةِ والجغرافيّة، ويلحظ أنَّ المستشرقينَ في تلك المرحلةِ كانوا يميلون إلى الجمعِ بين أكثرَ من مجالٍ معرفيّ؛ إذْ كان الواحدُ منهم يكتبُ في موضوعاتٍ متعدّدةٍ تَتعلّقُ بالإسلامِ والمسلمينَ، فانطبقَ هذا الأمرُ على (سلفستر دي ساسي) الذي أسهمَ في عددٍ من المجالاتِ العلميّةِ المختلفةِ، وهو نمطٌ من التّأليفِ استمرَّ في بعضِ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ حتّى العصورِ اللّاحقةِ(٣).

ضمّتْ هذه المدرسةُ عددًا من المستشرقينَ الذين كان لهم أثرٌ واضحٌ في الدِّراساتِ العربيّةِ والإسلاميّةِ، ومن أهمِّهم (لويس ماسينيون) الذي توزع انتاجه بين الكتب والدّراسات منها:تأملات في البنية البدائيّة للتحليل النّحويّ في العربيّة؛ و(ريجيس بلاشير) منها تاريخ الأدب العربي؛ و(مكسيم رودنسون) مثل كتابه محمّد والإسلام ؛ إذْ أسهمَ كلٌّ منهم في تقديمِ

---

(١) ينظر: الاستشراق تعريفه مدارسه آثاره: ٢٢.

(٢) ينظر: المستشرقون، نجيب العقيقي: ١/ ١٣٨.

(٣) ينظر: الفهرس الوصفيّ للمنشورات الاستشرافيّة المحفوظة في مركز البحوث في جامعه الإمام محمّد بن سعود: ١٥.

دراساتٍ متعدّدةٍ تناولتِ اللُّغةَ العربيّةَ والتّراثَ الإسلاميّ من زوايا لغويّةٍ وتاريخيّةٍ وفكريّةٍ مختلفةٍ(١).

ويُعدُّ (سلفستر دي ساسي) من أبرزِ أعلامِها، وقد لُقّبَ بـ(أبي المستشرقين) نظرًا لإسهاماتهِ العلميّةِ الواسعةِ وتأثيرِهِ الكبير(٢)، ولُقِّب بـ(شيخ المستشرقين الفرنسيين)(٣)، وعُدَّ من كبارِ روّادِ الاستشراقِ الأوربيّ في القرنِ التّاسعِ عشرَ الميلاديّ؛ إذْ بدأ تعليمهُ بدراسةِ اللّغتينِ اليونانيّةِ واللّاتينيّةِ، ثمَّ تتلمذَ على أيدي عددٍ من القساوسةِ المعتنين باللُّغاتِ الشّرقيّةِ، وفي عامِ (١٧٩٥م) عُيِّن أستاذًا للّغةِ العربيّةِ في مدرسةِ اللُّغاتِ الشّرقيّةِ الحيّةِ بباريسَ، وكان لهُ أثرٌ في تطويرِ الدِّراساتِ العربيّةِ فيها(٤).

ألّفَ (دي ساسي) عددًا من المؤلّفاتِ اللُّغويّةِ التي كانَ لها أثرٌ بارزٌ في دراسةِ النّحو العربيّ، وتطويرِ مناهجَ تعليميّةٍ في أوربا(٥)، واشتهرَ كتابهُ (في قواعدِ اللُّغةِ العربيّةِ) شهرةً واسعةً، حتّى تُرجمَ إلى عِدّةِ لغاتٍ أوربيّةٍ؛ كالإنجليزيّةِ، والألمانيّةِ، والدّنماركيّةِ، وبعد تولّيهِ لإدارة مدرسةِ اللُّغاتِ الشّرقيّةِ الحيّةِ انتُخبَ رئيسًا للجمعيّةِ الآسيويّةِ سنة (١٨٢٢م)؛ ولهذا رأى بعضُ الباحثين أنّ الاستشراقَ في عصرهِ قد اتّخذَ طابعًا فرنسيًّا واضحًا لما كانَ لهُ من أثرٍ كبيرٍ في توجيهِ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ، وإلى جانبِ مؤلّفاتِهِ اللُّغويّةِ منها: النّحو العربيّ/ قواعد، المختارات العربيّة، مبادئ النّحو العامّ... وغيرها، قامَ بتحقيقِ عددٍ من الكتبِ العربيّةِ وترجمتها، ومن ذلك ترجمتهُ لكتابِ (الإفادةِ والاعتبارِ بما في مصرَ من الآثارِ) إلى الفرنسيّةِ،

---

(١) ينظر: القرآن الكريم في الدِّراسات الاستشراقيّة القديمة: ٩٣_ ٩٨.
(٢) ينظر: المستشرقون، العقيقي: ١/ ١٦٢ _ ١٦٦، وموسوعة المستشرقين: ٣٣٤ _٣٣٩.
(٣) ينظر: موسوعة المستشرقين: ٣٣٤ _ ٣٣٩.
(٤) ينظر: الاستشراق، مطبقاتي: ٤٧.
(٥) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها في الدِّراسات الإسلاميّة: ١١٨.

فضلًا عن تأليفِهِ لعددٍ من الدِّراساتِ المختلفةِ التي تطرقتْ إلى جوانبَ من التّراثِ العربيّ والإسلاميّ(١).

ومن أعلامِ هذه المدرسةِ أيضًا المستشرقُ (أرنست رينان) الذي كرّسَ جانبًا كبيرًا من جهودهِ للبحثِ العلميّ والفلسفيّ، فعُرفَ بعنايتهِ بدراسةِ الفلسفةِ الإسلاميّةِ، ولا سيّما فلسفةِ ابن رشد، إذْ ألّفَ كتابًا تطرق فيه إلى أثرَها في الفكرِ الأوربيّ(٢).

وعلى الرّغمِ من إتقانِهِ اللّغة العبريّة أكثرَ من العربيّةِ بحكمِ تخصّصهِ في اللُّغاتِ السّاميّةِ، إلّا أنّ ذلك لم يمنعهُ من العناية بالثّقافةِ العربيّةِ ومتابعةِ ما يصدرُ فيها من مؤلّفاتٍ ودراساتٍ، فكتبَ عددًا من المقالاتِ والبحوث التي تطرقتْ إلى موضوعاتٍ تَتّصلُ بالتّراثِ العربيّ والإسلاميّ(٣).

ولم تَترك هذه المدرسةُ ميدانًا من ميادين المعرفةِ إلّا وتطرقت إليه بالدّراسةِ والبحثِ والنّقدِ والتّمحيصِ، ولا سيّما ما يخصُّ اللُّغةَ العربيّةَ وآدابها، مسهمةً في ترسيخِ البعدِ اللُّغويّ والأدبيّ، من خلال عنايتها بالنّصوصِ وتحليلِ البنيةِ اللُّغويّةِ والأساليبِ الأدبيّةِ، جاعلةً اللُّغةَ مدخلًا لفهمِ الثّقافةِ العربيّةِ، وانمازتْ هذه المدرسةُ بالشّمولِ والتنوّعِ في اهتماماتها العلميّةِ؛ إذْ لم يقتصرْ نشاطها على مجالٍ واحدٍ من مجالاتِ الدِّراساتِ الشّرقيّةِ، بل اتّسعَ ليشملَ دراسةَ اللُّغةِ والأدبِ والتّاريخِ، فضلًا عن البحثِ في مقارنةِ الأديانِ، والعناية بالآثارِ والفنونِ، مِمّا يعكسُ تعدّدَ مجالاتِها المعرفيّةِ وسعةَ نطاقِ دراساتها في ميدانِ الاستشراقِ(٤).

---

(١) ينظر: موسوعة المستشرقين: ٣٣٩، والقرآن الكريم في الدِّراسات الاستشراقيّة القديمة: ٨٩ _ ٩٠.
(٢) ينظر: القرآن الكريم في الدِّراسات الاستشراقيّة القديمة: ٩٠.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٩١ _ ٩٢.
(٤) ينظر: الاستشراق الفرنسيّ والأدب العربيّ القديم :٤٦.

**ج_ المدرسةُ البريطانيّةُ:**

وأمّا المدرسةُ الاستشراقيّةُ البريطانيّةُ التي تُسمّى أحيانًا بالمدرسةِ الاستشراقيّةِ الإنجليزيّةِ؛ نظرًا للتّداخلِ بين الاستشراقِ البريطانيّ والاستشراقِ في البلدانِ النّاطقةِ باللُّغةِ الإنجليزيّةِ، فتشابهتْ دوافعُها مع دوافعِ المدارسِ الاستشراقيّةِ الأخرى؛ إذْ ارتبطَتْ عنايتها بالثّقافةِ العربيّةِ بعواملَ دينيّةٍ وعلميّةٍ وسياسيّةٍ في آنٍ واحدٍ، ولا سيّما ما يتعلّقُ بالإسلامِ ونصوصِهِ المؤسّسةِ، وقد حرصَ عددٌ من المستشرقينَ البريطانيّينَ على تعلّمِ اللُّغةِ العربيّةِ بوصفِها المدخلَ الأساسي لفهمِ القرآنِ الكريمِ والحديثِ النّبويّ وعلومِ اللُّغةِ من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ، واتّسمَ الاستشراقُ البريطانيّ بعنايةٍ واضحةٍ بالشّرقِ وتراثِه، ولا سيّما الأدبُ، الذي حظي بمكانةٍ مرموقةٍ في الثّقافةِ الإنجليزيّةِ، وانعكسَت عنايتهم هذه في حركةِ التّرجمةِ الواسعةِ للكتبِ العربيّةِ والفارسيّةِ والهنديّةِ، ومن أبرزِها ترجمةُ (ألف ليلة وليلة)، فضلًا عن عددٍ من النّصوصِ الأدبيّةِ الشّرقيّةِ التي أسهمتْ في تشكيلِ الذّائقةِ الأدبيّةِ البريطانيّةِ وفي بناءِ صورةِ الشّرقِ في الأدبِ الأوربيّ[1].

لقد تمثّلَتْ عناية هذه المدرسةِ بالدّراساتِ الشّرقيّةِ مُنْذُ وقتٍ مبكّرٍ؛ إذْ أُنشئتْ مقاعدُ علميّةٌ متخصّصةٌ في اللُّغةِ العربيّةِ في عددٍ من الجامعاتِ العريقةِ، فتمَّ تأسيسُ مقعدٍ للدّراساتِ العربيّةِ في جامعةِ كامبريدج سنة (١٦٣٢م)، تلاهُ إنشاءُ مقعدٍ آخرَ للغةِ العربيّةِ في جامعةِ أكسفورد سنة (١٦٣٦م)، وهو ما أسهمَ في ترسيخِ العنايةِ الأكاديميّةِ المنظّمةِ بالعربيّةِ داخلَ المؤسّساتِ البريطانيّةِ، حتّى أولتْ بريطانيا عنايةً متزايدةً باللُّغةِ العربيّةِ على أيدي عددٍ من المستشرقينَ، ومن أبرزهم (وليم بدول)، الذي عُرفَ بإسهاماتِه في الدّراساتِ العربيّةِ، ودعا إلى ضرورةِ تعلّمِ اللُّغةِ العربيّةِ وأهمّيّةِ الإلمامِ بها لفهمِ النّصوصِ الدّينيّةِ والثقافيّةِ، وعدّها لغةً

(١) ينظر: الاستشراق ماهيّته فلسفته ومناهجه: ٧٠.

متميّزةً ذات مكانةٍ خاصّةٍ في المجالين الدّينيّ والسّياسيّ، ونُسبتْ إليهِ جهودٌ معجميّةٌ بارزةٌ، من بينها إعدادُ معجمٍ عربيّ في عدّةِ مجلّداتٍ، إلّا أنَّهُ لم يُنشرْ، وأشارَ إلى ذلك بعضُ الباحثين، ومنهم (برنارد لويس)، ولهُ _كذلك_ مؤلّفاتٌ مطبوعةٌ في إنجلترا، ومنها نصوصٌ عربيّةٌ ودراساتٌ لغويّةٌ، فضلًا عن معجمٍ يتناولُ المفرداتِ العربيّةَ المستعملةَ في اللُّغاتِ الغربيّةِ مُنْذُ العصرِ البيزنطيّ(١)، وكلُّ ما سبقَ يَعكسُ عنايته العميقَة بالجانبِ اللُّغويّ والفيلولوجيّ(٢).

وعُدَّ (وليم بدول) من أوائلِ الرّوّادِ الذين أسهموا في ترسيخِ الدِّراساتِ العربيّةِ في بريطانيا، متميّزًا بأثرِهِ المبكّر في الدّعوةِ إلى ضرورةِ العناية باللُّغةِ العربيّةِ ودراستِها دراسةً علميّةً منهجيّةً، وألّفَ مقالاتٍ علميّةً رصينةً أبرز فيها القيمةَ المعرفيّةَ والأدبيّةَ للعربيّةِ، مؤكّدًا أهمّيّتها في ميادين البحثِ اللُّغويّ والدِّراساتِ الشّرقيّةِ، وأسهمتْ جهودهُ في تعزيزِ مكانةِ العربيّةِ داخلَ المؤسّساتِ الأكاديميّةِ البريطانيّةِ، وفتحتِ المجالَ أمامَ عناية أوسعَ بها في الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ(٣).

وأمّا المستشرقُ (برنارد لويس) الذي تلقّى تعليمَهُ في بريطانيا، وأكملَ دراستَهُ في عددٍ من المؤسّساتِ التّعليميّةِ(٤)، فقد عُرفَ بكثرةِ إنتاجِه العلميّ وتنوّعِ اهتماماتِهِ البحثيّةِ؛ إذْ تطرق في دراساتِهِ إلى موضوعاتٍ متعدّدة تتّصلُ بتاريخِ العالمِ الإسلاميّ، فكتبَ عن الإسماعيليّةِ والحشّاشينَ، وعن عددٍ من الفرقِ والطّوائفِ الإسلاميّةِ، ولم يقتصرْ نشاطُهُ على البحثِ

(١) ينظر: القرآن الكريم في الدِّراسات الاستشراقيّة القديمة: ١٠٠، والأعلام، الزركلي: ٨/ ١٢٣.
(٢) الفيلولوجيا: مصطلح استعمل في اللّغات الاوربيّة، وهو علم يُعنى بدراسة اللّغات والنصوص القديمة دراسةً تاريخيةً مقارنة، من خلال البحث في أصول اللّغات وتطوّرها وقواعدها، وتحقيق النّصوص وشرحها ونقدها، وربطها بسياقاتها الفكريّة والثقافيّة والحضاريّة؛ للكشف عن الحياة العقليّة التي أنتجتها. ينظر: التّراث العربيّ والمستشرقون: ٤٦ _ ٤٧.
(٣) ينظر: معجم أسماء المستشرقين: ٣٣.
(٤) ينظر: القرآن الكريم في الدِّراسات الاستشراقيّة القديمة: ١٠٦.

الأكاديميّ، بل امتدَّ إلى تقديمِ الاستشاراتِ والمشاركاتِ العلميّةِ في عددٍ من المؤسّساتِ والهيئاتِ، فشارك في إلقاءِ محاضراتٍ وبرامجَ إذاعيّةٍ وتلفزيونيّةٍ تطرقتْ إلى قضايا تتعلّقُ بالعالمِ الإسلاميّ وتاريخِهِ(١).

(١) ينظر: الاستشراق والاتّجاهات الفكريّة في التّاريخ الإسلاميّ، مازن مطبقاني: ٦٩ _ ٧٠.

## المبحثُ الثّالثُ

## عناية المستشرقينَ بالدِّراسات اللُّغويّة العربيّةِ

قبلَ الخوضِ في غمارِ البحثِ التّحليليّ عن مظاهرِ عناية المستشرقينَ بالدِّراساتِ اللُّغويّةِ العربيّةِ؛ يَتوجّبُ التّنويهُ بدءًا إلى أنَّ الظاهرةَ الاستشراقيّةَ في منطلقاتِها الأولى لم تكنْ معزولةً عن سياقِ العلاقاتِ الإنسانيّةِ والثقافيّةِ المتشابكةِ بين الشّرقِ والغربِ. وقد شكَّلَ هذا التّمازجُ الحضاريّ دافعًا محوريًّا وجَّه الباحثينَ الغربيّينَ نحو دراسةِ اللُّغةِ العربيّةِ، والغوصِ العميقِ في مكنوناتها، بُغيةَ الوقوفِ على معتقداتِ الشّرقِ، وفهمِ تقاريرهِ وموروثاتِهِ الثقافيّةِ؛ حتّى أضحى المستشرقونَ يَستكشفونَ نظمَ الفكرِ الإنسانيّ الشّرقيّ، ويشرِّحونَ عقليّاتِ الشّعوبِ العربيّةِ سعيًا لفكِّ شفراتِ حضارتها واستكناهِ أسرارها(١).

ومِمَّا يستوجبُ الذّكرَ والتّأكيدَ في هذا المقامِ، أنَّ علماءَ العربيّةِ القُدماء من اللُّغويّينَ والنّحويّينَ قد أحاطوا اللُّغةَ العربيّةَ بعنايةٍ فائقةٍ ورعايةٍ بالغةٍ؛ نظرًا لما تَتمتَّع بهِ من مكانةٍ رفيعةِ الشّأنِ وساميةِ المنزلةِ، كونها لغةَ القرآنِ الكريمِ. وقد أخذَ هؤلاء الجهابذةُ على عاتقِهم مسؤوليّةَ الذودِ عن حياضِ اللُّغةِ، والحرصَ الشّديدَ على صونِها، موجِّهينَ عنايتَهم الفائقةَ لما تَشتملُ عليهِ من ظواهرَ صوتيّةٍ وصرفيّةٍ وتركيبيّةٍ ودلاليّةٍ فريدةٍ، كـ(الاشتقاقِ، والنّحتِ، والتّرادفِ، والتّضادِ) وغيرها من المباحثِ اللُّغويّةِ الشّاملةِ. وتأسيسًا على ذلك، صنَّفوا المدوَّناتِ والمصنَّفاتِ اللُّغويّةَ الكبرى، وألَّفوا أمَّاتِ الكتبِ التي جاءتْ في موسوعاتٍ ومجلَّداتٍ ضخمةٍ غزيرةِ المادّةِ(٢).

وحينما وفدَ المستشرقونَ إلى ميدانِ الدِّراساتِ العربيّةِ، أكثروا من دراسةِ العلومِ التي

---

(١) ينظر: الاستشراق: تعريفه، مدارسه، آثاره: ١١.

(٢) ينظر: الاستشراق الجديد وقضايا وحدة الأمة الإسلاميّة: ٨.

حوتْها تلك المؤلّفاتُ اللُّغويّةُ الرّصينةُ. وقد شهدَ هذا الاهتمامُ تعاظمًا ملحوظًا وتسارعًا مطَّردًا بالتزامنِ مع اتّساعِ حركةِ الاستشراقِ وتطوُّرِ أدواتِها. وبطبيعةِ الحالِ، تباينَ مقدارُ عناية المستشرقينَ بتلك العلومِ فاختلفتْ زوايا نظرهِم إليها باختلافِ المدارسِ الفكريّةِ والاتّجاهاتِ الأكاديميّةِ التي يَنتمون إليها؛ فمنهم من ركَّزَ جهودَهُ العلميّةَ على الموضوعاتِ اللُّغويّةِ التي تمسُّ بنيةَ المجتمعِ الإسلاميّ وتُعزِّزُ وحدتَهُ، بينما اتَّجَه بعضُهم الآخرُ نحو العنايةِ بالبحوثِ والمصنَّفاتِ التي تَرصدُ مظاهرَ الصّراعِ والتّناحرِ المذهبيّ والسّياسيّ داخلَ التّاريخِ الإسلاميّ. ومن المستشرقينَ من وقفَ موقفَ المنصفِ المستفيدِ من الدِّراساتِ اللُّغويّةِ العربيّةِ، فأقرَّ بأهمّيّتها العلميّةِ البالغةِ. وفي المقابلِ، وُجدَ اتّجاهٌ آخرُ توسّعَ في دراسةِ هذه المؤلَّفاتِ لغاياتٍ نقديّةٍ، محاولًا التّقليلَ من قيمتِها أو التّشكيكِ في أصالتِها. ونزعَ فريقٌ آخرُ من الباحثينَ الغربيّينَ إلى تنشيطِ البحوثِ المتعلّقةِ باللّهجاتِ العامّيّةِ المعاصرةِ، وإبرازِ صراعِها المتوهَّمِ مع اللُّغةِ العربيّةِ الفصحى(١). وعلى الرّغمِ من هذا التّباينِ، فإنَّ عددًا كبيرًا من المستشرقينَ قد عكفوا على دراسةِ اللُّغةِ العربيّةِ وآدابها، وبذلوا جهودًا ملموسةً في سبيلِ استيعابِ صرفِها، ونحوها، ودلالاتِ ألفاظِها، حتّى غدوا خبراء متمكِّنين من أصولِها التّاريخيّةِ. وقد اعتنى جمعٌ منهم بدراسةِ علمِ النّحو العربيّ، والتّطرُّقِ إلى مسائلِهِ الدّقيقةِ وإحكامِ مباحثِهِ، بل إنَّ بعضَهم طالبَ بتيسيرِ قواعدِهِ وتبسيطِ مصطلحاتِهِ؛ ومن رحمِ هذه الجهودِ والمقارباتِ المتنوّعةِ، وُلدتْ جملةٌ من النّظرياتِ والآراءِ المتباينةِ لدى المستشرقينَ في حقلِ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ. وساتطرقُ _هنا_ إلى أهمَّ الموضوعاتِ المُتعلّقةَ بعناية المستشرقينَ بالعربيّةِ:

(١) ينظر: الاستشراق الجديد وقضايا وحدة الأمَّة الإسلاميّة: ٨، والتّراث اللُّغويّ العربيّ في كتابات المستشرقين: ٤١.

**أوّلًا: الغاياتُ المحرِّكةُ والمنطلقاتُ المعرفيّةُ للبحثِ اللُّغويّ الاستشراقيّ:**

إنَّ الفحصَ الدّقيقَ في بواعثِ الحركةِ الاستشراقيّةِ يكشفُ عن تعدّدِ الغاياتِ التي دفعتِ المستشرقينَ إلى دراسةِ التّراثِ العربيِّ، ولا سيّما ما يتصلُ بفهمِ اللّسانِ العربيِّ وعلومِهِ؛ إذ لم تنحصرْ دراستُهم للعربيّةِ في غايةٍ واحدةٍ، بل تداخلتْ فيها غاياتٌ دينيّةٌ وعلميّةٌ ولغويّةٌ ومعجميّةٌ وتراثيّةٌ وتعليميّةٌ وترجميّةٌ، اختلفَ حضورُها باختلافِ المستشرقينَ ومراحلِ الحركةِ الاستشراقيّةِ. ويمكنُ إجمالُ أبرزِ هذهِ الغاياتِ فيما يأتي:

أ- الغايةُ الدّينيّةُ: ارتبطَ جانبٌ من عناية الغربيّينَ باللُّغةِ العربيّةِ بالرّغبةِ في معرفةِ مضامينِ القرآنِ الكريمِ والمصادرِ الإسلاميّةِ، واستكناهِ دلالاتِ ألفاظِها ومعانيها؛ إذ مثّلتِ العربيّةُ الأداةَ الرّئيسةَ للوصولِ المباشرِ إلى هذهِ النّصوصِ وفهمِها في لغتِها الأصليّةِ. وقد اقترنتِ الدّراساتُ الدّينيّةُ في الفكرِ الغربيِّ بمحاولاتِ تفسيرِ طبيعةِ التّجربةِ الدّينيّةِ؛ إذ يرى (فريدريك شلايرماخر) أنَّ: "التجربةَ الدينيّةَ لم تكنْ بالأساسِ تجربةً معرفيّةً، بل هي من مقولةِ الإحساساتِ؛ لأنَّ الشّخصَ تتكوّنُ لديهِ رغبةٌ واحتياجٌ مطلقٌ مصدرُهُ خارجٌ عن العالم"(١) ويذهبُ (ويليام ألستون) إلى أنَّ: "التّجربةَ الدّينيّةَ هي نوعٌ من التّجربةِ الحسيّةِ؛ لأنَّ مثلَها لها ثلاثةُ عناصرَ: الإنسانُ صاحبُ التّجربةِ، والشيءُ المجرَّبُ، وظهورُ الشّيءِ لدى الإنسان"(٢) وتكشفُ هذهِ التّصوّراتُ عن حضورِ البعدِ الدّينيِّ في الفكرِ الغربيِّ واهتمامِهِ بدراسةِ الظّاهرةِ الدّينيّةِ وتحليلِها، غيرَ أنَّها لا تكفي، في ذاتِها، لإثباتِ أنَّ دراسةَ اللُّغةِ العربيّةِ عندَ المستشرقينَ نشأتْ لغايةٍ دينيّةٍ؛ ومن ثَمَّ، يقتضي إثباتُ هذهِ الغايةِ الاستنادَ إلى نصوصٍ استشراقيّةٍ تتصلُ مباشرةً بالعربيّةِ والقرآنِ الكريمِ والمصادرِ الإسلاميّةِ.

---

(١) الوحي والتجربة الدّينيّة من وجهة نظر المستشرقين: ٣٤

(٢) المصدر نفسه: ٣٥.

ب- الغايةُ العلميّةُ واللُّغويّةُ: لم تقتصرْ عنايةُ المستشرقينَ بالعربيّةِ على كونِها وسيلةً للوصولِ إلى النّصوصِ الدّينيّةِ، بل اتّجهَ عددٌ منهم إلى دراستِها بوصفِها ظاهرةً لغويّةً قائمةً بذاتِها، وتناولوا بنيتَها الصّوتيّةَ والصّرفيّةَ والنّحويّةَ والدّلاليّةَ، فضلًا عن تتبّعِ تطوّرِها وصلاتِها بالواقعِ الاجتماعيِّ والتّاريخيِّ. وفي هذا السّياقِ يرى (أنطوان ميليه) أنَّ: "علمَ اللّسانِ جزءٌ من علمِ الاجتماعِ، واللُّغةَ تستندُ _ ككلّ ظاهرةٍ اجتماعيّةٍ_ إلى سلسلةٍ لا نهايةَ لها من وقائعِ الماضي، ومن ثَمَّ كانَ علمُ اللّسانِ _كغيرِهِ من العلومِ الاجتماعيّةِ الأخرى_ علمًا تاريخيًّا على نحوٍ ما"(١). ويكشفُ هذا التّصوّرُ عن النّظرِ إلى اللُّغةِ بوصفِها ظاهرةً اجتماعيّةً وتاريخيّةً تخضعُ للبحثِ العلميِّ، ولا يمكنُ فصلُ بنيتِها الرّاهنةِ عن امتدادِها التّاريخيِّ والبيئةِ الاجتماعيّةِ التي نشأتْ وتطوّرتْ فيها. ومن هنا اتّسعَ اهتمامُ المستشرقينَ بالعربيّةِ ليشملَ تحليلَ نظامِها اللُّغويِّ وتتبعَ ظواهرِهِ في ضوءِ المناهجِ اللُّغويّةِ المختلفةِ.

ج- الغايةُ المعجميّةُ: اتّجهَ جانبٌ من النّشاطِ الاستشراقيِّ إلى دراسةِ الثّروةِ اللّفظيّةِ العربيّةِ، والعنايةِ بمعجماتِها، وجمعِ مفرداتِها وضبطِ دلالاتِها واستعمالاتِها، فضلًا عن الإفادةِ من التّراثِ المعجميِّ العربيِّ في وضعِ المعجماتِ والمراجعِ اللُّغويّةِ. وقد أشارَ (جون آ. هيود) إلى منزلةِ العربِ في هذا الميدانِ، فرأى أنَّ العربَ "في وضعِ المعاجمِ قد تبوّؤوا مركزًا رئيسًا في الزّمانِ والمكانِ بينَ العالمِ القديمِ والحديثِ، وكذلكَ بينَ الشّرقِ والغربِ"(٢). ويشيرُ هذا الرّأيُ إلى إدراكِ المكانةِ التي بلغَها التّراثُ المعجميُّ العربيُّ في تاريخِ الصّناعةِ المعجميّةِ، وهو ما يفسّرُ جانبًا من عنايةِ الباحثينَ الغربيّينَ بالمعجماتِ العربيّةِ والإفادةِ من مادّتِها في دراساتِهم وأعمالِهم المعجميّةِ.

---

(١) الاستشراق في وجه الاستعمار الفكري: ٣٧.

(٢) المعجمية العربية: ١٦.

د- الغايةُ التّراثيّةُ والفيلولوجيّةُ: اتّجهَ رعيلٌ من المستشرقينَ إلى جمعِ المخطوطاتِ العربيّةِ القديمةِ والعنايةِ بها وفهرستِها وتحقيقِها ونشرِها، بوصفِها مصادرَ أساسيّةً لدراسةِ اللُّغةِ العربيّةِ وتراثِها الأدبيِّ والعلميِّ والفكريِّ. وتكشفُ العبارةُ الواردةُ في ترجمةِ حياةِ المستشرقِ الألمانيِّ (يوهان ياكوب رايسكه) عن شدّةِ عنايتِهِ بالمخطوطاتِ، إذ جاءَ فيها قولُهُ: "ليسَ عندي أولادٌ، ولكنَّ أولادي يتامى بدونِ أبٍ؛ وأعني بهم المخطوطاتِ"(١).

هـ- الغايةُ التّعليميّةُ: ارتبطَ جانبٌ من الدّراساتِ الاستشراقيّةِ بالحاجةِ إلى تعليمِ اللُّغةِ العربيّةِ للدارسينَ الغربيّينَ، وهو ما دفعَ عددًا من المستشرقينَ إلى تدريسِها في الجامعاتِ والمعاهدِ الأجنبيّةِ، ووضعِ كتبِ القواعدِ والمختاراتِ والنّصوصِ التّعليميّةِ التي تيسّرُ تعلّمَها وقراءةَ نصوصِها. وقد أسهمَ ذلكَ في تشجيعِ الدّارسينَ الغربيّينَ على الإقبالِ على دراسةِ العربيّةِ والحضارةِ الشّرقيّةِ وآدابِها(٢).

و- الغايةُ التّرجميّةُ: أسهمَ إتقانُ عددٍ من المستشرقينَ للغاتِ الشّرقيّةِ، ومنها العربيّةُ والفارسيّةُ والتّركيّةُ، في نشاطِهم في ميدانِ التّرجمةِ؛ إذ نقلوا عددًا من المؤلّفاتِ الأدبيّةِ والعلميّةِ والدّينيّةِ إلى اللُّغاتِ الأوروبيّةِ، فغدتِ المعرفةُ بالعربيّةِ أداةً للوصولِ إلى النّصوصِ العربيّةِ ونقلِ مضامينِها إلى القارئِ الغربيِّ(٣).

وقد ترتّبتْ على هذهِ الغاياتِ والجهودِ جملةٌ من الآثارِ العلميّةِ والثقافيّةِ؛ إذ أسهمَ المستشرقونَ في دراسةِ جوانبَ متعدّدةٍ من اللُّغةِ العربيّةِ، وترجمةِ عددٍ من مؤلّفاتِها، والعنايةِ بنصوصِها القديمةِ ومخطوطاتِها وتحقيقِها ونشرِها، فضلًا عن وضعِ المعجماتِ والمراجعِ

---

(١) الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا: ١٩٠.

(٢) ينظر: المستشرقون والتّراث: ٧_ ١١، والمستشرقون وخدمة التّراث العربيّ: ١_٢.

(٣) ينظر: التّراث اللُّغويّ العربيّ في كتابات المستشرقين: ٧٦.

العلميّةِ وتدريسِ العربيّةِ في عددٍ من المؤسّساتِ الأكاديميّةِ الغربيّةِ، وهو ما أتاحَ جانبًا من التّراثِ العربيِّ أمامَ قطاعاتٍ أوسعَ من الدّارسينَ والباحثينَ.

**ثانيًا: التّحليل النقديُّ لدوافعِ الاستشراقِ ومواقفِ المفكِّرينَ الغربيّينَ:**

تباينتِ التّفسيراتُ الأكاديميّة حولَ العلّةِ الكامنةِ وراءَ اتّجاهِ الغربِ نحوَ دراسةِ الشّرقِ؛ فثمَّةَ من يرى أنَّ سببَ هذا الانعطافِ الحضاريّ يعودُ إلى أنَّ أوربا في واقعِها التّاريخيّ المتقدِّمِ لم تكن قادرةً على الإنتاجِ الثّقافيّ والأكاديميّ المستقلِّ، فكان لا بُدَّ لها من أنْ تَستعيرَ من الشّرقِ علومَهُ ومعارفَهُ، وتتَّجهَ نحو حضارتِه؛ لتخرجَ من أزماتِها الفكريّةِ، وتتحرَّرَ من قلَّةِ علومِها، فتستقيمَ معارفُها وتكتملَ حلقاتُها العلميّةُ(١).

وفي المقابلِ، يطرحُ المفكِّرُ إدواردُ سعيد رؤيةً نقديّةً عميقةً، تفيدُ بأنَّ سببَ عناية المستشرقينَ بالتّراثِ العربيّ كانَ ينطوي على دافعٍ سياسيّ ومعرفيّ دفينٍ؛ إذْ انصبَّ جهدُهم نحوَ كيفيّةِ الهيمنةِ على الوسطِ الأكاديميّ والعلميّ، بحكمِ التّفوُّقِ المعرفيّ، مُستعملين الإيحاءَ الدائمَ للإقناعِ بحياديّةِ تدقيقِهم، وتمحيصِهم، وتبريرِهم، وتوضيحِهم. ولهذا، وُصِفَ براعتُهم وتَميُّزُهم بأنَّهما نقطةُ الانطلاقِ لمجموعةٍ من النّظريّاتِ، والأساطيرِ، والرّواياتِ، والأوصافِ الاجتماعيّةِ، والآلياتِ السّياسيّةِ التي تَتعلَّقُ بالشّرقِ وتقاريرِهِ وعقليَّتِهِ(٢). ومن هنا، فسَّرَ بعضُ الباحثينَ اهتمامَ الغربِ بمؤلَّفاتِ الشّرقِ بأنَّهُ يَعودُ إلى الفضولِ العلميّ المُجرَّدِ حولَ العلومِ التي يحتويها الشّرقُ، أو قد يكونُ ناشئًا عن تخوُّفِهم الدّفينِ من الشّرقِ والدّينِ الإسلاميّ، الذي مثَّلَ لهم الدّافعَ الحقيقيّ للبحثِ والتّقصّي(٣).

---

(١) ينظر: المستشرقون والتّراث، ٧_١٤، والمستشرقون وخدمة التّراث العربيّ: ١_٣.

(٢) ينظر: المتخيَّل والتّواصل: ٤٣.

(٣) ينظر: الاستشراق، إدوارد سعيد: ٣٨.

إنَّ الأدلّةَ الشّاهدةَ على عِنايةِ المستشرقينَ بالدِّراساتِ اللُّغويّةِ العربيّةِ كثيرةٌ ومتعدِّدةٌ؛ وتتجلَّى رأسًا في عدمِ خلوِّ مؤلَّفاتِ كتَّابِ العالمِ الغربيّ من التّراثِ العربيّ، فقد اكتظَّتْ مَكتباتُ أوربا بمؤلَّفاتِ العربِ التي أصبحتْ جزءًا لا يتجزَّأ من تكوينِها المعرفيّ، وما زالتْ مراكزُ المعرفةِ الغربيّةُ تعجُّ بتلك المصنَّفاتِ حتّى عصرِنا الحاضرِ. وأسهمَ عددٌ غيرُ قليلٍ من المستشرقينَ في حفظِ المدوَّناتِ اللُّغويّةِ، وجمعوا العديدَ من الدِّراساتِ العربيّةِ، حتّى أثمرَ عملُهُم هذا الكثيرَ من الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ التي انصرفتْ إلى دراسةِ علومِ الشّرقِ وتراثِهِ الأصيلِ. وقد تجلَّى إبداعُ المستشرقينَ في مجالاتٍ لغويّةٍ متعدِّدةٍ، كالتّأليفِ المعجميّ، والنّحو، وعلمِ الأصواتِ، والصّرفِ، وكذلك قارنتْ فئةٌ منهُم بينَ فقهِ اللُّغةِ العربيّةِ واللُّغاتِ السّاميّةِ الأخرى[1]. فكانوا يُدركُونَ تمامًا أنَّ تقويمَ الحضارةِ العربيّةِ والتّعمُّقَ فيها يَقتضي التّبصُّرَ في الدِّراساتِ اللُّغويّةِ العربيّةِ، بوصفِهَا حلقةَ وصلٍ معرفيّةً وثيقةً بين الشّرقِ والغربِ، لما لهَا من أثرٍ بالغٍ في العلومِ والتّراثِ الإنسانيّ.

**ثالثًا: أثرُ العربيّةِ بوصفها حلقةِ وصلٍ حضاريّةٍ وتأثيرُها في النّظمِ المعرفيّةِ:**

لم يقفْ أثرُ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ العربيّةِ عندَ حدودِ النّقدِ والتّحليلِ الأكاديميّ، بل تعدَّاهُ ليجعلَ من العربيّةِ حلقةَ الوصلِ الحقيقيّةِ التي جمعتْ بين النّظامِ اليونانيّ في الغربِ، والنّظامِ الهنديّ في الشّرقِ. وقد شكَّلَ هذا التّمازجُ المعرفي دافعًا قويًّا للمستشرقينَ للتعمُّقِ في دراستِها، ومعرفةِ طبيعةِ العلاقةِ بين هذينِ النّظامينِ الكبيرينِ، ونقلِ ما حوتْهُ تلك الدِّراساتُ اللُّغويّةُ إلى لغاتِهِم؛ لتستفيدَ منها شعوبُهُم في نهضتِها العلميّةِ. وقد كانَ جلُّ همِّهِم الذي يَجولُ في معتقداتِهِم هو كيفيةُ النّهوضِ بأوطانِهِم علميًّا ومعرفيًّا، فصبُّوا اهتمامَهُم نحوَ كلِّ ما يتَّصلُ بالشّرقِ من تاريخٍ، ولغةٍ، وأدبٍ، وعلومٍ، وعاداتٍ، ومعتقداتٍ، وأساطيرَ، وحكاياتٍ، من دونِ

---

(١) ينظر: شمس العرب تسطع على الغرب: ١٢.

أنْ يفوتَهُم شيءٌ من تلك المعارفِ الغنيّةِ(١).

ولا يَغيبُ عن البالِ أنَّ الدِّراساتِ اللُّغويّةَ كانتْ مكتوبةً باللُّغةِ العربيّةِ، تلك اللُّغةِ السّاميّةِ العريقةِ التي حافظتْ على أصلِها الأوّلِ، وبقيتْ حيّةً ومعمِّرةً على مدى العصورِ، فلم يصِبْها التّحريفُ أو التّبديلُ الحضاريّ. ولهذا السببِ، أولاها العديدُ من المستشرقينَ اهتمامًا خاصًّا، ودَرسُوها بعنايةٍ فائقةٍ، ولا سيما المتأثّرينَ بالدِّراساتِ السّاميّةِ والآثاريّةِ؛ إذْ ساعدتْهم اللُّغةُ العربيّةُ على فكِّ الرّموزِ، وفهمِ العديدِ من الطّلاسمِ والنّصوصِ القديمة. وكشفتْ لهم الخفايا عن الرّموزِ والنّصوصِ الدِّينيّةِ المكتوبةِ باللُّغاتِ الشّرقيّةِ القديمةِ كالعبريّةِ والسّريانيّةِ. وبناءً عليهِ، وُضِعَتِ العربيّةُ في المرتبةِ الأولى من حيثُ الاهتمامُ والدّراسة، لكونها الرّكيزةَ الأساسيّةَ لفهمِ العلومِ وتوظيفِها لخدمةِ مصالحِهم المعرفيّةِ؛ فيمكنُنا القولُ بأنَّ العربيّةَ لم تُدرَسْ لقيمتِها العلميّةِ الذّاتيّةِ حسب، بل لاستعمالِها بوصفها وسيلةً لأغراضٍ أخرى تَتعلَّقُ بفهمِ الجذورِ التّاريخيّةِ للغاتِ الشّرقيّةِ(٢).

ويمثّلُ الشّرقُ قضيّةً محوريّةً مهمَّةً استقطبت عناية الغربِ، فدرسوا تراثَهُ وأنتجوا حولَهُ دراساتٍ متلاحقةً، شكَّلتْ عطاءً علميًّا ولغويًّا غزيرًا في الوقتِ ذاتِهِ. وكانتْ دراساتُهُم الاستشراقيّةُ تَقومُ على نشاطٍ مكثَّفٍ، يَرمزُ إلى النّشرِ، والتّحقيقِ، والتّرجمةِ، والتّعليمِ. وقد أثر الاستشراقُ تأثيرًا بارزًا في دراسةِ العربيّةِ وتحليلِ تراثِها في مختلفِ الميادينِ، بما خدمَ المَوروثَ العربيّ وعَرَّفَ بهِ في الغربِ، من دونِ أنْ تقتصِرَ دراستهم على مجالٍ محدودٍ أو حقلٍ معيَّنٍ(٣).

---

(١) ينظر: تاريخ الأدب العربيّ: ٥١٢.

(٢) ينظر: مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين: ٩.

(٣) ينظر: التّراث اللُّغويّ العربيّ في كتابات المستشرقين: ٢٦.

وكانتِ المخطوطاتُ العربيّةُ من أبرزِ الدِّراساتِ التي اهتمَّ بها المستشرقونَ؛ فلا يخفى علينا أنَّ علماءَ العربِ سابقًا كانوا حريصينَ كلَّ الحرصِ على نسخِ التّراثِ العربيّ ونشرِ مخطوطاتِهِ في بلدانٍ مختلفةٍ، فلم تخلُ أيُّ مدينةٍ عربيّةٍ من مخزونٍ ضخمٍ من تلك المخطوطاتِ الثّمينةِ والنّادرةِ. وبعد أنْ دخلَ المستشرقونَ العالمَ العربيّ، أولوا تلك المخطوطاتِ عنايةً كبيرَةً، فقاموا بطرقٍ كثيرةٍ للحصولِ عليها وترجمَتِها، وجمعوها من أماكنَ متفرِّقةٍ لدراستِها، وكرَّسوا جهودًا لا تقدَّرُ بثمنٍ لترجمتِها. وبلغَ الأمرُ أنْ وضَعَ حكَّامُ الغربِ شروطًا صارمةً للسماحِ للمستشرقينَ بالذّهابِ إلى الشّرقِ، ومن هذه الشروطِ التي وضعُوها: أنَّهُ يجبُ على أيِّ سفينةٍ تجاريّةٍ تَقومُ برحلاتِها نحوَ الشّرقِ جَلبُ بعضٍ من مخطوطاتِهِ، لما لها من أهمّيّةٍ كبيرةٍ عندَهم. ولم يَقتصرِ اهتمامُهم على جمعِها وحفظِها بل قاموا بفهرستِها وتحقيقِ الكثيرِ منها، وصولًا إلى طباعتِها ونشرِها، ومن ثمَّ كتابةِ الكثيرِ من البحوثِ والدِّراساتِ حولَها[١]، وتُعدُّ مكتبةُ برلين خيرَ دليلٍ على اهتمامِهم؛ إذْ حوتِ العديدَ من المخطوطاتِ التي اعتنوا بها[٢].

**رابعًا: إسهاماتُ المستشرقينَ في توثيقِ أمَّاتِ الكتبِ وفهرستها:**

لقد وضعَ المستشرقونَ فهارسَ دقيقةً لعشراتِ المجلّداتِ من المخطوطاتِ العربيّةِ القديمةِ، ونشروا المئاتِ منها، مثلَ: كتابِ سيبويه (ت١٨٠هـ)، وسيرةِ ابن هشامٍ (ت٢١٨هـ) والكاملِ للمُبرِّدِ (ت٢٨٥هـ)، والاشتقاقِ والجمهرةِ لابن دريد (ت٣٢١هـ)، ومعجمِ الأدباءِ لياقوتِ الحمويّ (ت٦٢٦هـ)، والإتقانِ للسيوطيّ (ت٩١١هـ)، والعديدِ من الكتبِ العربيّةِ الرّصينةِ. ويعدُّ المستشرقُ الرّحّالة (رينهارت دوزي) من أكثرِ المستشرقينَ الذين أولوا اهتمامًا

(١) ينظر: مساهمة المستشرقين في نشر التّراث الإسلاميّ الخاصّ بعلم الكلام: ٣٠٦.
(٢) ينظر: الاستشراق والخلفيّة الفكريّة للصراع الحضاريّ: ٦١.

بالغًا للمخطوطاتِ العربيّةِ، فأكثرَ إنتاجَهُ العلميّ عنها، ووُضِعَتْ لهُ عدَّةُ فهارسَ للمخطوطاتِ الشّرقيّةِ في المكتباتِ الجامعيّةِ الأوربيّةِ(١).

ولم تتوقَّفْ جهودُ المستشرقينَ عندَ جمعِ المخطوطاتِ العربيّةِ وتحقيقِها وفهرستِها، بل انخرطَ العديدُ منهم في ترجمةِ الكتبِ العربيّةِ، وتأليفِ كُتبٍ عنها، وكتابةِ المقدِّماتِ ووضعِ المعجماتِ، ونشرِ المقالاتِ العلميّةِ المتخصِّصةِ. فاستطاعَ المستشرقونَ بواسطةِ التّرجمةِ إنتاجَ الكثيرِ من المؤلَّفاتِ التي تتحدَّثُ عن الشّرقِ؛ إذْ إنَّهم قاموا بنقلِ العديدِ من الكتبِ العربيّةِ إلى لغاتِهم الأوربيّةِ، ثمَّ دُرِسَتْ هذه التّرجماتُ واستُعمِلتْ للاستشهادِ منها، فتبنَّاها المستشرقونَ بوصفها وسيلةً أساسيّةً لفهمِ الشّرقِ وعلومِهِ الحضاريّةِ(٢).

بيدَ أنَّهُ لم تنصبّ عناية المستشرقِ (دوزي) على المخطوطاتِ حسب، بل انغمسَ _أيضًا_ في التّأليفِ في علمِ المعجماتِ العربيّةِ، مخلّفًا آثارًا علميّةً عديدةً ومؤثِّرةً، ومن أشهرِ معاجمِهِ الحفيلةِ كتابُ (معجمِ تكملة المعاجمِ العربيّة)، الذي كانَ حصيلةَ أربعين عامًا من العملِ الدّؤوبِ، وثماني سنواتٍ من العملِ المتواصلِ في التّحريرِ والتّنسيقِ والمراجعةِ النّقديّةِ. وكذلك اهتمَّ المستشرقونَ الفرنسيّونَ بالدِّراساتِ العربيّةِ وما تحويها من كنوزٍ معرفيّةٍ، وأنشأوا عدَّةَ جمعيّاتٍ علميّةٍ، وأسَّسوا المجلّةَ الآسيويّةَ الملكيّةَ التي اختصَّتْ بالدِّراساتِ الشّرقيّةِ واللُّغويّةِ(٣). وقاموا بإنتاج المؤلَّفاتِ المتخصِّصةِ بالفقهِ والنّحوِ العربيّ، ومنها: كتابُ (قواعدِ اللُّغةِ العربيّةِ) للمستشرقِ الفرنسيّ الكبيرِ (دي ساسي)، وكتابُ (الملكيّة الشّرقيّ) للمستشرقِ (إربيلو)، ووضَّحَ (بوستيل) أنَّ سببَ الاهتمامِ بالدِّراساتِ اللُّغويّةِ الشّرقيّةِ يعودُ إلى كونِ العربيّةِ لغةً عالميّةً يتعاملُ بها في جميعِ البلدانِ العربيّةِ كمصر والمغربِ وسوريا، وحتّى الفرسُ

(١) ينظر: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربيّ المعاصر: ٦٦٨.
(٢) ينظر: الدِّراسات اللُّغويّة: ٩-١٠، والاستشراق: ٥٦.
(٣) ينظر: تكملة المعاجم العربيّة: ٨-٩.

والأتراكُ يتعاملونَ بها في شؤونِهم الإداريّةِ والدِّينيّةِ[١]. وتابعَهم بعد ذلك مستشرقو أمريكا الذين أسَّسوا جمعيّةً ومجلّةً علميّةً ثقافيّةً أطلقوا عليها اسمَ (الجمعيّة الشّرقيّة الأمريكيّة)، ولحقتهم ألمانيا في السنةِ ذاتها بتأسيسِ مراكزَ مشابهةٍ[٢].

وبعدَ أنْ غاصَ كثير من الدّارسينَ الغربيّينَ في ميادينِ اللُّغةِ العربيّةِ ووجدوها لغةً لها أهمّيّةٌ ومكانةٌ عاليةٌ في كثير من الأمورِ، عكفوا على دراستِها والتأليفِ فيها، وتدريسِها في المعاهدِ والجامعاتِ العربيّةِ والأوربيّةِ؛ ولهذا توجَّهوا للتدريسِ في الدّولِ العربيّةِ، واختصَّتِ الجامعاتُ والمعاهدُ في أوربا بتدريسِها، وخرَّجتْ هذه المراكزُ الدّارسينَ الذين واصلوا أعمالَهم في الاستشراقِ الأكاديميّ وغيرِه من الحقولِ المعرفيّةِ[٣].

**خامسًا: المؤسّساتُ الاستشراقيّةُ وحركةُ النّشرِ والطباعةِ للتراثِ العربيّ:**

أُنشِئتِ المطابعُ المهتمَّةُ بالمؤلَّفاتِ اللُّغويّةِ كالمطبعةِ العربيّةِ للمستشرقِ (إربينوس) التي أسَّسها في بيتهِ، ومطبعةِ بريل التي أشرفَ عليها المستشرقُ الكبير (بريل)[٤]. وفيما بعد؛ أصبحتْ هذه المطبعةُ شركةً مساهمةً في الطباعةِ باللُّغاتِ العربيّةِ، والفارسيّةِ، والتّركيّةِ، والقبطيّةِ، والآشوريّةِ، والبابليّةِ، والسّريانيّةِ، وغيرها من اللُّغاتِ الشّرقيّةِ القديمةِ والمعاصرةِ. وقدَّمتْ هذه المطبعةُ خدماتِها للعديدِ من المستشرقينَ والجامعاتِ والمعاهدِ الأكاديميّةِ، وكذلك مراكزِ الأبحاثِ العلميّةِ، ونشرتِ المئاتِ بل الآلافَ من الكتبِ والمصنَّفاتِ العربيّةِ القديمةِ[٥].

---

(١) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظاهرة الاستشراقيّة وآثارها في الدِّراسات الإسلاميّة: ١٥٧، والاستشراق والخلفية الفكريّة للصراع الحضاريّ: ٢٩.

(٢) ينظر: التبشير والاستعمار: ١٢١.

(٣) ينظر: الاستشراق والخلفية الفكريّة للصراع الحضاريّ: ٦١.

(٤) ينظر: المستشرقون وتاريخ العرب الثقافي: ٦١.

(٥) ينظر: الاستشراق الجديد وقضايا وحدة الآمة الإسلاميّة: ٩.

وقامَ المستشرقونَ الهولنديّون بإنشاءِ (مدرسة الاستشراق الهولنديّ) التي تُعدُّ من أقدمِ مدارسِ الاستشراقِ في القرنِ السّادسِ عشرَ الميلاديّ، وتُعدُّ من الأدلّةِ الشّاهدةِ على اهتمامِهِم بالدِّراساتِ اللُّغويّةِ العربيّةِ والمقارنةِ[١]. واهتمّتْ جامعةُ (لايدن) _التي أنشأها المستشرقُ المنصفُ (وليام الصامت) بأمرٍ من أمير هولندا_ بكلِّ ما يخصُّ الدِّراساتِ العربيّةَ والإسلاميّةَ، وأنجبتِ العديدَ من المستشرقين؛ منهم: (كريستيان سنوك هورخرونيه)، و(رينهارت دوزي)، و(ميخائيل يوحنا دي خويه)، وآخرون. وكانتْ تنشرُ الكثيرَ من الكتبِ العربيّةِ والإسلاميّةِ وبمواضيعٍ متنوّعةٍ، وضمَّتْ إليها عددًا ليس بالقليلِ من المخطوطاتِ النّادرةِ، حتّى أصبحتْ قبلةً للعديدِ من الباحثينَ والدّارسينَ، ونتيجةً للإقبالِ عليها تأسَّسَ فيها أعدادٌ كبيرةٌ من المقاعدِ الدّراسيةِ للغاتِ العربيّةِ والسّاميّةِ[٢].

ومن أبرزِ المستشرقينَ الذين اهتمُّوا بالدِّراساتِ اللُّغويّةِ المستشرقُ (ديفيد صموئيل مرجليوث) الذي درسَ اللُّغةَ العربيّةَ، وقدَّمَ العديدَ من المؤلَّفاتِ في اللُّغةِ العربيّةِ، ونشرَ كتابَ (معجم الأدباء) لياقوتَ الحمويّ، و(رسائلَ) لأبي العلاءِ المعرّيّ. والمستشرقُ (جورج ولهم) الذي درسَ اللُّغةَ العربيّةَ، وأسهمَ بشكلٍ مؤثِّرٍ في نشرِ قاموسٍ عربيّ لاتينيّ، فقرَّبَ هذه اللُّغةَ العربيّةَ من الغربيّينَ الباحثينَ عن معرفةِ الشّرقِ[٣]. والمستشرقُ الألمانيّ (فيشر) الذي يُعدُّ من أشهرِ من اعتنى بالعربيّةِ من ناحيةِ النّحو والصّرفِ، فضلًا عن اهتمامِهِ بالمعجماتِ اللُّغويّةِ وتحقيقِ النّصوصِ التراثيّةِ، وإفادتهِ من المنهجِ التّاريخيّ والمقارنِ في تحليلِ الظواهرِ اللُّغويّةِ، معتمدًا في ذلك على أمَّاتِ المصادرِ العربيّةِ القديمةِ باختلافِ عصورِها، ومستندًا إليها في

---

(١) ينظر: الأدب المقارن في العالم العربيّ: ١١٨.

(٢) ينظر: المستشرق شورد فان كوننكزفيلد: ٢-٤.

(٣) ينظر: المستشرقون والتّراث: ٧_ ١٤، والمستشرقون وخدمة التّراث العربيّ: ١_٤.

دراسةِ قضايا العربيّةِ وتقويمها[١]. وأنَّهُ كان يتوخَّى الدّقّةَ البالغةَ في أعمالِهِ العلميّةِ، ولهُ محاولاتٌ عديدةٌ لرصدِ معاني مفرداتِ اللُّغةِ العربيّةِ على مرِّ حقبٍ زمنيّةٍ متباعدةٍ، وأماكنَ جغرافيّةٍ متنوّعةٍ، ليستطيعَ إدراكَ النتائجِ اللّازمةِ لمعرفةِ التّطوّرِ التّاريخيّ للمفردةِ ومعانيها المتنوّعةِ الدّلاليّةِ.

ولكلِّ ما تقدّمَ نُرجّحُ أنَّ من أسبابِ جذبِ عناية المستشرقينَ إلى الدِّراساتِ اللُّغويّةِ العربيّةِ كونها من الدِّراساتِ التي فرضتْ نفسَها في المجالِ المعرفيّ والأكاديميّ الثّقافيّ، فأكبَّ الباحثونَ على دراستِها عددٌ غيرُ قليلٍ منهم، لمعرفةِ علومِها وتراثِها بُغيةَ الإجابةِ عن الكثيرِ من المعضلاتِ والتّساؤلاتِ التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالمعارفِ العلميّةِ واللُّغويّةِ الكونيّةِ. وتبعًا لهذا، انغمسَ العديدُ منهم فيها؛ للاطّلاعِ على البواعثِ التي أسهمتْ في نشأةِ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ العربيّةِ المعاصرةِ وتطوّرِها[٢].

**سادسًا: تقويمٌ منهجيّ نقديّ لتدوينِ الدِّراساتِ اللُّغويّة الاستشراقيّةِ:**

عدَّ المستشرقونَ الدِّراساتِ اللُّغويّةَ العربيّةَ ذاتَ درجةٍ مهمَّةٍ لمن أرادَ معرفةَ الحضارةِ العربيّةِ؛ لمَا لها من قيمةٍ عاليةٍ ومركزيّةٍ في فقهِ اللُّغاتِ[٣]، لكن هناك من بالغَ في دراستِها ومعرفةِ ما تحويهِ ليثيرَ الشّكوكَ في صحَّتِها، وليقلّلَ من قيمتِها العلميّةِ والمعرفيّةِ النّقديّةِ[٤].

وعلى الرّغمِ من معرفتِنا بنوايا المستشرقينَ ومقاصدِهم من دراسةِ اللُّغةِ العربيّةِ وتعلُّمِها، إنَّ هذا الأمرَ لا يجعلُنا نجحدُ فضلَهم في حفظِ التّراثِ العربيّ؛ فالكثيرُ من المستشرقينَ عاشوا

---

(١) ينظر: رأي المستشرق الألماني فولف ديترش فبشر في تطور أساليب الكتابة ومسائل لغويّة شتّى: ٤٩٦_ ٤٩٧.
(٢) ينظر: دور اللُّغة العربيّة في تاريخ العلوم من خلال آراء بعض المستشرقين: ١.
(٣) ينظر: المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدِّراسات اللُّغويّة: ٤٠.
(٤) ينظر: خصائص الأدب العربيّ: ٢٣٧_ ٢٣٩.

مع العربِ ليستطيعوا فهمَ ثقافتِهم واستيعابَ تراثِهم الحضاريّ. ونحنُ لا ننكرُ جهودَهم في إحياءِ العديدِ من المؤلَّفاتِ والكتبِ العربيّةِ التي كانتْ مهملةً في زوايا النّسيانِ، ونشرِهم للكثيرِ من المخطوطاتِ التي نسيتْ أو بالأحرى كانتْ منسيّةً، بل بعضُها لم يكنْ يعلمُ أئمَّةُ المسلمينَ بوجودِها رأسًا في مكتباتِهم العامَّةِ أو الخاصَّةِ[1]. فيتبيّنُ لنا مِمَّا سبق أنَّ عناية المستشرقينَ بالتّراثِ العربيّ لا يُمكنُ حصرُهُ أو عدُّهُ، ولولاهُم لضاع العديدُ من المخطوطاتِ اللُّغويّةِ والأدبيّةِ القيِّمةِ، ولم نستطعِ الاطلاعَ عليها في وقتِنا الحاضرِ.

وقد أثَّرتِ الدِّراساتُ الاستشراقيّةُ بشكلٍ ملحوظٍ في المجتمعِ الشّرقيّ والأكاديميّ؛ فبعدَ أنْ درسَ المستشرقونَ التّراثَ العربيّ اتَّبعتْهُم مجموعةٌ من الباحثينَ العربِ وساروا على نهجِهم بالدّراسةِ والبحثِ والتّنقيبِ، واندفعُوا لدراسةِ تراثِ العربِ وإعادةِ تقويمِهِ وتحقيقِ مباحثِهِ. فإسهامَاتُهُم في دراسةِ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ لها إنتاجٌ غزيرٌ وتأثيرٌ قويٌّ في الميدانِ العلميّ؛ إذْ إنَّهم أظهروا التّراثَ العربيّ للغربِ بدقّةٍ ومنهجيّةٍ علميّةٍ طويلةٍ، ونفعُوا البحثَ العلميّ بدراساتِهم المتنوّعةِ حولَ فقهِ اللُّغةِ؛ ولهذا يرى الدّكتورُ مصطفى السّباعيّ عدمَ تتويجِ أعمالِ المستشرقينَ بإطارِ التّمجيدِ والتّعظيمِ والمدحِ المستفيضِ، ولا يجبُ رفضُها رفضًا قاطعًا ومطلقًا من دونِ تمحيصٍ؛ فلا يغيبُ عن بالِنا تلك الأعمالُ العديدةُ التي قاموا بِهَا، والبحوث العلميّةُ التي خاضوا فيها طوالَ مسيرتِهم الأكاديميّةِ[2]. لذا لا يجبُ الغلوّ في مدحِ الدِّراساتِ أو ذمِّها الاستشراقيّةِ التي تُعدُّ _الآن_ من المصادرِ الأساسيّةِ لفهمِ مكنوناتِ التّراثِ العربيّ الإنسانيّ. وعلى الرّغمِ من أنَّ بعضَ الدِّراساتِ لا تتَّسمُ بالموضوعيّةِ ولا الحياديّةِ العلميّةِ البحتةِ، وبقيتْ آثارُ التعصُّبِ لدى بعضِهم مركوزةً في كتاباتِهم، إنَّ المنجزَ اللُّغويّ الاستشراقيّ في كُلّيَّتِه يظلُّ عملًا ضخمًا أثرى الدِّراساتِ اللُّغويّةَ المعاصرةَ، وفتحَ آفاقًا جديدةً للبحثِ المقارنِ بين اللُّغاتِ

(١) ينظر: الاستشراق والخلفية الفكريّة للصراع الحضاريّ: ٦٤.

(٢) ينظر: الاستشراق والمستشرقون: ١٥.

السّاميّةِ[1].

(١) ينظر: التبشير والاستشراق: احقاد وحملات: ١٥، والاستشراق والخلفية الفكريّة للصراع الحضاريّ: ٢١.

# الفصل الثّاني

## تكوين الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ:

## الدّوافع والمرتكزات والتّأثيرات

المبحث الأوّل: تكوين الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ

المبحث الثّاني: أهمّ أسباب تكوين الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ

المبحث الثّالث: تأثّر الخطاب اللُّغويّ بالدراسات الاستشراقيّة

**توطئة:**

يعودُ تكوينُ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ إلى جملةٍ من الدّوافعِ والمرتكزاتِ والتّأثيراتِ التي أسهمتْ في توجيهِ عناية المستشرقينَ باللُّغةِ العربيّةِ وعلومِها؛ إذْ لم يكنْ هذا الخطابُ وليدَ دافعٍ واحدٍ، بل نتاجُ تداخلِ عواملَ دينيّةٍ وسياسيّةٍ وعلميّةٍ وثقافيّةٍ. فقد سعى بعضُ المستشرقينَ إلى دراسةِ العربيّةِ لفهمِ النّصوصِ الإسلاميّةِ، وفي مقدّمتِها القرآنُ الكريمُ والحديثُ النبويّ، في حينِ ارتبطتْ دراساتٌ أُخرى بالأهدافِ الاستعماريّةِ والرّغبةِ في معرفةِ المجتمعاتِ الشّرقيّةِ وخصائصِها الثقافيّةِ والفكريّةِ، إلى جانبِ الدّافعِ العلميّ الذي تمثّلَ في العناية بالمقارنةِ بينَ اللُّغاتِ ودراسةِ أصولِها وتطوّرِها.

وقد استندَ هذا الخطابُ إلى مرتكزاتٍ متعدّدةٍ، من أبرزِها الإفادةُ من المناهجِ اللُّغويّةِ الحديثةِ والدِّراساتِ المقارنةِ، فضلًا عن الاعتمادِ على التّراثِ اللُّغويّ العربيّ بوصفهِ مادّةً أساسيّةً للدراسةِ والتّحليلِ. وتأثّرَ الخطابُ اللُّغويّ الاستشراقيّ بالخلفيّاتِ الفكريّةِ والثّقافيّةِ للمستشرقينَ، الأمرُ الذي انعكسَ على طبيعةِ أحكامِهم ورؤيتِهم للغةِ العربيّةِ وتراثِها، فتنوّعتْ مواقفُهم بين الموضوعيّةِ والتّحيّزِ، وبين الإعجابِ بالنّظامِ اللُّغويّ العربيّ ومحاولةِ التّشكيكِ ببعضِ قضاياهُ.

أمّا تأثيراتُ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ فقد ظهرتْ بصورةٍ واضحةٍ في ميدانِ الدّرسِ اللُّغويّ العربيّ الحديثِ؛ إذْ أسهمتِ الدِّراساتُ الاستشراقيّةُ في لفتِ الأنظارِ إلى أهمّيّةِ التّراثِ اللُّغويّ العربيّ وإعادةِ تحقيقِ كثيرٍ من مصادرِهِ ومخطوطاتِهِ ونشرِها، فضلًا عن إدخالِ بعضِ المناهجِ الحديثةِ في دراسةِ اللُّغةِ وتحليلِ ظواهرِها الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ والنّحويّةِ والدّلاليّةِ. وأفادَ عددٌ من الباحثينَ العربِ من الجهودِ الاستشراقيّةِ في مجالاتِ المقارنةِ اللُّغويّةِ والتّحقيقِ والمعجميّاتِ.

ومع ذلك، لم تخلُ هذه التّأثيراتُ من جوانبَ سلبيّةٍ؛ إذْ تضمّنَ بعضُ الخطابِ الاستشراقيّ آراءً مُتحيّزةً تجاهَ اللُّغةِ العربيّةِ والتّراثِ الإسلاميّ، الأمرُ الذي أثارَ ردات أفعال نقديّة لدى الباحثينَ العربِ. وقد أسهمَ هذا التّفاعلُ بين القبولِ والرّفضِ في تنشيطِ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ العربيّةِ الحديثةِ، ودفعِ الباحثينَ إلى إعادةِ النّظرِ في كثيرٍ من القضايا اللُّغويّةِ والتّراثيّةِ بروحٍ علميّةٍ نقديّةٍ.

## المبحثُ الأوّل

## تكوينُ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ:

تباينتْ آراءُ الباحثينَ في تحديدِ البداياتِ الأولى للاستشراقِ؛ إذْ لم يتحقّق اتفاقٌ جامعٌ حولَ لحظةِ تكوينهِ التّاريخيّ؛ لاختلافِ المعاييرِ التي اعتمدَ عليها الباحثونَ في تفسيرِ ظهورِهِ وتطوّرِهِ. فذهبَ فريقٌ إلى ربطِ نشأتِهِ بالاحتكاكِ العسكريّ والسّياسيّ بينَ الشّرقِ الإسلاميّ والغربِ المسيحيّ، في حينِ اتّجهَ فريقٌ آخرُ إلى ربطِهِ بالتّطوّرِ المعرفيّ وظهورِ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ والأكاديميّةِ المنظّمةِ، الأمرُ الذي يجعلُ تكوينَ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ حصيلةَ مسارٍ تاريخيّ متدرّجٍ تداخلتْ فيهِ الدّوافِعُ الدِّينيّةُ والعلميّةُ والسّياسيّةُ والاقتصاديّةُ[١]. ولا يمكنُ مقاربةُ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ وفهمُ آليّاتِ تشكّلِهِ ما لم يجرِ تفكيكهُ بوصفِهِ (بنيةً معرفيّةً سلطويّةً)؛ إذْ لم يكنْ هذا الخطابُ في فجرِ تكوينِهِ مجرّدَ دراسةٍ محايدةٍ للغاتِ الشّرقيّةِ؛ بل كانَ نشاطًا معرفيًّا تشابكتْ في صياغتهِ الدّوافعُ اللّاهوتيّةُ، والطّموحاتُ السّياسيّةُ الاستعماريّةُ؛ أضفْ إلى ذلك الدّوافعَ العلميّةَ الأكاديميّةَ[٢]. إنَّ الخطابَ الاستشراقيّ؛ في جوهرِهِ؛ هو منظومةٌ من التّصوّراتِ التي صاغَها العقلُ الغربيّ لتعريفِ (الآخرِ) الشّرقيّ، وإعادةِ إنتاجِ لغتِهِ وثقافتِهِ على وفقِ رؤيةٍ مركزيّةٍ أوربيّةٍ تتوهّمُ امتلاكَ المعيارِ الأعلى للتطوّرِ البشريّ والحضاريّ[٣]. وعندما واجهَ المستشرقونَ اللُّغةَ العربيّةَ محمّلينَ بهذه المركزيّةِ، لم يَدرسوهَا، دائمًا، في ضوءِ طبيعتِها البنيويّةِ الخاصّةِ، بل حاولوا _ في كثيرٍ من الأحيانِ_ إسقاطَ المقولاتِ اللُّغويّةِ المستقاةِ من اللُّغاتِ الهندو_أوربيّةِ كـ(اليونانيّةِ واللّاتينيّةِ) على النّظامِ اللُّغويّ العربيّ؛ الأمرُ الذي أدّى إلى ولادةِ خطابٍ لغويّ استشراقيّ متأرجحٍ بين الإعجابِ الشّديدِ

(١) ينظر: الاستشراق بين الموضوعيّة والافتعاليّة: ٣٦-٤٩، وتاريخ حركة الاستشراق: ١/١١٠-١٢٠.
(٢) ينظر: الاستشراق: المعرفة. السّلطة. الإنشاء: ٤٥_ ٤٨.
(٣) ينظر: المركزية الأوربيّة؛ نقد أيديولوجيّة واستعراض تاريخيّ: ١٤_١٧.

بعبقريّةِ العربيّةِ وبنيتِها المحكمةِ، وبين الرّغبةِ الحديثةِ في نزعِ القداسةِ عنها، وتفكيكِ منظومتِها المعياريّةِ التّراثيّةِ[١]. ويمكنُ حصرُ تكوينِ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ بالمراحلِ الآتيةِ:

**أوّلًا: مرحلةُ الاحتكاكِ الأوّلِ بالشّرقِ الإسلاميّ:**

ترجع بعضُ الدِّراساتِ البداياتِ الأولى للعناية الغربيّة بالشّرقِ إلى القرنِ السّابعِ الميلاديّ، مع بدءِ الاحتكاكِ المباشرِ بين الدّولةِ الإسلاميّةِ النّاشئةِ والإمبراطوريّةِ الرّومانيّةِ، ولا سيّما بعدَ غزوتي (مؤتةَ وتبوكَ)؛ إذْ مثّلتْ تلك المرحلةُ إرهاصًا أوليًّا لتكوّنِ صورةِ الشّرقِ في الوعي الغربيّ، ومقدّمةً لظهورِ الاهتمامِ باللُّغةِ العربيّةِ والثّقافةِ الإسلاميّةِ[٢].

**ثانيًا: مرحلةُ الانبهارِ الحضاريّ والتّرجمة العلميّةِ:**

شهدَ القرنانِ العاشرُ والحادي عشرَ الميلاديّانِ تحوّلًا مهمًّا في طبيعةِ العلاقةِ مع الشّرقِ الإسلاميّ؛ إذْ أصبحتِ الأندلسُ مركزًا علميًّا استقطبَ عُلماءَ أوربا وطلّابَها؛ فقصدُوها للنهلِ من عُلومِ العربِ ومعارفِهم. ويُعدّ (جربرت الأورليانيّ) (البابا سلفستر الثّاني) من أوائلِ الذين اتَّصلوا بالثّقافةِ العربيّةِ وعلومِها[٣].

وقد اتّجهَت العناية الغربيّة في هذه المرحلةِ إلى ترجمةِ العلومِ العربيّةِ في الطبِّ والفلسفةِ والرّياضيّاتِ والفلكِ إلى اللُّغةِ اللّاتينيّةِ، فكانَ الدّافعُ العلميّ والمعرفيّ هو الغالبَ على النّشاطِ الاستشراقيّ المبكّرِ، الأمرُ الذي أسهمَ في انتقالِ جانبٍ مهمٍّ من التّراثِ العلميّ العربيّ إلى

(١) ينظر: البديل المنهجيّ لدراسة العربيّة_ عند المستشرقين: ٢٢_٢٥.
(٢) ينظر: السّيرة النّبويّة والتّاريخ الإسلاميّ: ٣٠٠/١، والمستشرقون والتّاريخ الإسلاميّ: ٣٢.
(٣) ينظر: المفصل في تاريخ الأدب العربيّ: ٤٠٨/٢، وتاريخ آداب اللُّغة العربيّة: ١٤٤.

أوربا[١].

**ثالثًا: مرحلةُ الصّراعِ العقديّ والتوظيفِ الدّينيّ:**

في القرنينِ الثّاني عشرَ والثّالثِ عشرَ الميلاديّينَ اتّخذَ الخطابُ الاستشراقيّ منحًى عقديًّا أكثرَ وضوحًا، ولا سيّما مع ترجمةِ القرآنِ الكريمِ إلى اللُّغةِ اللّاتينيّةِ، وإنشاءِ معجماتٍ عربيّةٍ لاتينيّةٍ لخدمةِ الدِّراساتِ الدِّينيّةِ والجدلِ اللّاهوتيّ[٢]. ومع اندلاعِ الحروبِ الصّليبيّةِ اتّسعَ الاهتمامُ باللُّغةِ العربيّةِ بوصفِها وسيلةً لفهمِ المجتمعاتِ الإسلاميّةِ وثقافتِها، فارتبطتِ الدِّراساتُ اللُّغويّةُ بالأهدافِ الدِّينيّةِ والسّياسيّةِ والعسكريّةِ، وتحوّلَ الاستشراقُ من مجرّدِ اهتمامٍ معرفيّ إلى أداةٍ من أدواتِ الصّراعِ الحضاريّ والفكريّ[٣].

**رابعًا: مرحلةُ المأسّسةِ الأكاديميّةِ:**

شهدتِ القرونُ من الرّابعِ عشرَ إلى السّادسِ عشرَ الميلاديّ تطوّرًا ملحوظًا في الدِّراساتِ الشّرقيّةِ؛ إذْ أُنشئتْ مقاعدُ جامعيّةٌ لتعليمِ اللُّغةِ العربيّةِ في عددٍ من الجامعاتِ الأوربيّةِ، وارتبطَت العنايةُ باللُّغاتِ السّاميّةِ بحركةِ الإصلاحِ الدّينيّ في أوربا، ولا سيّما مع دعواتِ (مارتن لوثر) إلى دراسةِ اللُّغاتِ الأصليّةِ للنصوصِ المقدّسةِ[٤].

وفي هذه المرحلةِ بدأ مصطلحُ (الاستشراق) يظهرُ تدريجيًّا في الأوساطِ العلميّةِ الأوربيّةِ، واتّخذتْ الدِّراساتُ اللُّغويّةُ طابعًا أكثرَ تنظيمًا ومأسّسةً[٥].

---

(١) ينظر: المعجزة العربيّة: ٨٣.
(٢) ينظر: تاريخ القرآن: ٩-١٧، والاستشراق والغارة على الفكر الإسلاميّ: ٨-٩.
(٣) ينظر: المستشرقون البريطانيون: ١٤، وفي الغزو الفكريّ: المفهوم والوسائل والمحاولات: ١٩٣.
(٤) ينظر: الدِّراسات اللُّغويّة: ٢٢، وبحوث في الاستشراق واللُّغة: ٤١٦.
(٥) ينظر: طبقات المستشرقين: ٣.

**خامسًا: مرحلةُ التّوسّعِ العلميّ والتّحرّر النّسبيّ من اللّاهوتِ:**

في القرنينِ السّابعِ عشرَ والثّامنِ عشرَ الميلاديّ اتّسعَ نطاقُ الرّحلاتِ الأوربيّةِ إلى الشّرقِ، مِمّا أسهمَ في تنامي الدِّراساتِ اللُّغويّةِ والوصفيّةِ للثقافةِ العربيّةِ والإسلاميّةِ(١). وظهرتْ مؤسّساتٌ علميّةٌ متخصّصةٌ بدراسةِ اللُّغاتِ الشّرقيّةِ، وبدأتِ الدِّراساتُ العربيّةُ تتجاوزُ الإطارَ اللّاهوتيّ إلى مجالاتِ الأدبِ والتّاريخِ والمقارنةِ اللُّغويّةِ، الأمرُ الذي مهّدَ لظهورِ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ الحديثةِ في أوربا(٢).

**سادسًا: مرحلةُ الاستشراقِ العلميّ الحديثِ:**

يُعدُّ القرنُ التّاسعُ عشرَ الميلاديّ مرحلةَ التّحوّلِ الكبرى في تاريخِ الاستشراقِ؛ إذْ استقلَّ بوصفِهِ حقلًا أكاديميًّا قائمًا بذاتهِ، وتأسّستِ الجمعيّاتُ العلميّةُ والمعاهدُ المتخصّصةُ بالدِّراساتِ الشّرقيّةِ، وظهرتْ مؤلّفاتٌ لغويّةٌ ومعجميّةٌ مهمّةٌ أسهمتْ في تطويرِ الدِّراساتِ العربيّةِ في أوربا(٣).

واعتمدَ المستشرقونَ في هذه المرحلةِ المناهجَ اللُّغويّةَ الحديثةَ، كالمنهجِ المقارنِ والمنهجِ التّاريخيّ، فأسهموا في تحقيقِ عددٍ من النّصوصِ العربيّةِ القديمةِ، ووضعِ المعجماتِ والدِّراساتِ النّحويّةِ التي كانَ لها أثرٌ واضحٌ في تطوّرِ الدّرسِ اللُّغويّ الأوربيّ(٤).

---

(١) ينظر: الرّحلة وكتب الرّحلات الأدبيّة إلى الشّرق حتى نهاية القرن الثامن عشر: ٥٨.

(٢) ينظر: الاستشراق بين الحقيقة والتّضليل: ١٨، وتاريخ حركة الاستشراق: ٩٤-٩٩.

(٣) ينظر: اتجّاهات المستشرقين في دراسة الحياة اللُّغويّة في العالم العربيّ الحديث: ٣-٥، والدِّراسات الاستشراقيّة في اللُّغة العربيّة ولهجاتها: المغرب انموذجا: ٣.

(٤) ينظر: نشأة النّحو في ضوء كتاب سيبويه: ١٢٥، والمستشرقون: ٧٧-٩٣.

**سابعًا: الاستشراقُ في العصرِ الحديثِ:**

وفي القرنِ العشرينَ الميلاديّ ارتبطتِ الدِّراساتُ الاستشراقيّةُ بالسّياقاتِ الاستعماريّةِ والسّياسيّةِ، فتركّزَ الاهتمامُ على اللّهجاتِ العربيّةِ والدِّراساتِ الاجتماعيّةِ والأنثروبولوجيّةِ، بما يخدمُ السّياساتِ الإداريّةَ والثقافيّةَ للدولِ الاستعماريّةِ(١).

ومع ذلك، أسهمَ عددٌ من المستشرقين في تحقيقِ التّراثِ العربيّ وتطويرِ الدِّراساتِ المقارنةِ والأطالسِ اللُّغويّةِ، على الرّغمِ من تعرّضِ الخطابِ الاستشراقيّ الحديثِ لنقدٍ واسعٍ، ولا سيّما بعدَ كتاباتِ إدوارد سعيد التي كشفتِ الأبعادَ الأيديولوجيّةَ الكامنةَ في بعضِ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ(٢).

(١) ينظر: الاستشراق في الفكر الإسلاميّ المعاصر: ٤٨، والتّبشير والاستعمار: ٩٨.
(٢) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: ٢٨-٤٥، وحول الاستشراق الجديد: ١٢٧.

## المبحثُ الثّاني

## أهمُّ أسبابِ تكوينِ الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ

يرى الباحثونَ أنَّ أسبابَ تكوينِ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ تعدّدتْ واختلفتْ تبعًا لاختلافِ الرؤى حولَ بداياتِ الاستشراقِ وأهدافِهِ؛ إذْ ارتبطَ ظهورُهُ بجملةٍ من الدّوافعِ الدِّينيّةِ، والعلميّةِ، والاقتصاديّةِ، والاستعماريّةِ، أضفْ إلى ذلك الدّوافعَ الحضاريّةَ والنّفسيّةَ والتّاريخيّةَ.

وقد انقسمتِ الآراءُ بين من عدَّ هذه الأسبابَ رئيسةً في نشأةِ الاستشراقِ، ومن رأى بعضَها أسبابًا ثانويّةً أو عواملَ مساعدةً. وأسهمَ حبُّ التّرحالِ والاطّلاعِ على ثقافاتِ الشّعوبِ الأخرى، فضلًا عن الدّافعِ المادّيّ والطّموحِ الشّخصيّ في انخراطِ عددٍ من المستشرقينَ في هذا المجالِ، إلى جانبِ سعي بعضِهم إلى خدمةِ أهدافٍ دينيّةٍ وثقافاتٍ مرتبطةٍ بالمجتمعِ الغربيّ(١).

وبعد الاطّلاعِ على الكتبِ والبحوثِ التي تحدّثتْ عن الاستشراقِ لحظنا أنَّ كثيرًا من التّساؤلاتِ أخذتْ تتردّدُ في عقولِ الباحثينَ والمفكّرينَ الذين كتبوا أو بحثوا في الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ، وكانتْ من أهمِّ التّساؤلاتِ التي أثارُوها: لماذا اعتنتْ أوربا برعايةِ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ؟ وما السّببُ الذي دفعَها إلى تخصيصِ جزءٍ من وقتها ومالِها لدعمِ تلك الدِّراساتِ؟ ولهذا أخذوا بالبحثِ عن أسبابِ عناية الغربِ الغريبِ بالشّرقِ وحضارتِهِ(٢)

ومن الجديرِ بالذّكرِ أنَّ دراسةَ إرهاصاتِ نشأةِ الخطابِ الاستشراقيّ وتحليلَ بواعثِهِ تُعدُّ من القضايا المركزيّةِ في الدِّراساتِ النّقديّةِ المعاصرةِ، نظرًا لما يكتنفُ هذه البداياتِ من تداخلٍ

---

(١) ينظر: الفكر الإسلاميّ الحديث وصلته بالاستعمار: ٥٣٣-٥٣٤، وفلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربيّ المعاصر: ٤٠.

(٢) ينظر: أهداف الاستشراق ووسائله: ٣٢_٣٤.

معقدٍ بين الأبعادِ المعرفيّةِ، والعقديّةِ، والسّياسيّةِ. وتكشّفتِ المصادرُ التّاريخيّة عن تباينِ رؤى الباحثينَ في تحديدِ نقطةِ انطلاقٍ زمنيّةٍ دقيقةٍ لهذهِ الحركةِ إلّا أنَّ ثمّةَ اتّفاقًا على أنّ تَشكّلَ هذا الخطابِ لم يكنْ وليدَ صدفةٍ تاريخيّةٍ، بل جاءَ نتاجَ تضافرِ حزمةٍ من الدّوافعِ والأسبابِ التي يمكنُ تبويبُها وتحليلُها على وفقِ الأبعادِ الآتيةِ:

**أوّلًا: البعدُ العقديّ والتّبشيريّ (المركزيّةُ الكنسيّةُ):**

بدأتِ العنايةُ الغربيّةُ باللُّغةِ العربيّةِ في أحضانِ المدارسِ الدّينيّةِ الباكرةِ (اللّاهوتِ الكنسيّ)؛ إذْ كانتِ العربيّةُ تُدرسُ بوصفِها (لغةً خادمةً) أو مفتاحًا لفهمِ النّصوصِ العهديّةِ القديمةِ (التّوراةِ) المكتوبةِ بالعبريّةِ والآراميّةِ[١]. وقد انطلقَ هذا التّكوينُ من فرضيّةٍ لاهوتيّةٍ تزعمُ وجودَ أصلٍ دينيّ وتاريخيّ مشتركٍ لهذهِ اللُّغاتِ؛ مِمّا دفعَ المستشرقينَ الأوائلَ إلى التّنقيبِ في المعجمِ العربيّ؛ لفكِّ مغاليقِ المفرداتِ العبريّةِ الغامضةِ في العهدِ القديمِ. ولم يقفِ الأمرُ عندَ هذا الحدِّ، بل كانَ دافعُ دراسةِ الفصحى هو الوصولَ إلى النّصِّ القرآنيّ، وتفكيكَ بنيتِهِ الدّلاليّةِ بهدفِ محاججتهِ، ونقدِ سياقاتِهِ الدّينيّةِ والتّاريخيّةِ[٢].

اتّفقَ جلُّ الباحثينَ على أنَّ الدّافعَ الدّينيّ يُمثّلُ النّواةَ الصّلبةَ التي تبلورَ حولَها الخطابُ الاستشراقيّ في مرحلةٍ مبكّرةٍ؛ ومِمّا يَستحقُّ الذّكرَ أنَّ بعضَ الباحثينَ درسوا هذا البعدَ تحتَ مسمّى ( الاستشراقِ التّبشيريّ)[٣]. ويُمكنُ بسطُ ملامحِ هذا الدّافعِ من خلالِ المحاورِ الآتيةِ:

**١_الصّراعُ الفكريّ وتحريفُ الحقائقِ الدّينيّةِ:**

لقد اتّخذَ الصّراعُ بين الإسلامِ والمسيحيّةِ سمةً عقائديّةً منذَ البدءِ؛ لأنَّ الإسلامَ جاءَ

(١) ينظر: تاريخ حركة الاستشراق؛ الدراسات اللُّغويّة العربيّة في أوربا: ١١_١٣.
(٢) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ١٥_١٦.
(٣) ينظر: الاستشراق والتّاريخ الإسلاميّ: ٣٢.

بنسقٍ تشريعيّ ولغويّ متكاملٍ ومستمدٍّ من القرآنِ الكريمِ(١).

ويُعدُّ الرّهبانُ، والقساوسةُ، وأصحابُ الكنائسِ من أوائلِ الفئاتِ التي اهتمّتْ بدراسةِ الإسلامِ والتّعمّقِ في ثقافتِهِ؛ إذْ انطلقتْ دراساتُهم من دوافعَ دينيّةٍ وعقديّةٍ بالدّرجةِ الأولى. وقد تَمثّلَ هدفُهم الرّئيسُ في محاولةِ تشويهِ صورةِ الإسلامِ والطّعنِ في حقائقِهِ؛ فضلًا عن السّعي إلى تحريفِ مفاهيمِهِ وتعاليمِهِ؛ انطلاقًا من اعتقادِهم بأنَّ الإسلامَ يتعارضُ مع العقائدِ المسيحيّةِ ويهدّدُ مكانتَها الدِّينيّةَ والفكريّةَ؛ الأمرُ الذي دفعَهم إلى تكثِيفِ جهودِهِم في دراسةِ الثّقافةِ الإسلاميّةِ ومُتابعةِ انتشارِها(٢).

وقد اتّسمَ الصّراعُ الفكريّ والثّقافيّ بين الإسلامِ والمسيحيّةِ مُنْذُ بداياتِه بطابعٍ دينيّ واضحٍ، ولا سيّما بعد اتّساعِ رقعةِ الحضارةِ الإسلاميّةِ وانتشارِها في مناطقَ متعدّدةٍ من العالمِ. فقد كانَ القرآنُ الكريمُ وما تضمّنَه من تعاليمَ دينيّةٍ، وتشريعيّةٍ، وأخلاقيّةٍ ساميةٍ من أبرزِ العواملِ التي أسهمَتْ في قوّةِ التّأثيرِ الحضاريّ الإسلاميّ، إلى جانبِ ما انمازَ بهِ العربُ من تفوّقٍ في مجالاتِ الأدبِ، والشّعرِ، والنّثرِ. وتأثّرتِ الثّقافةُ الإسلاميّةُ بنتاجاتِ الحضاراتِ الأخرى كالحضارةِ الفارسيّةِ، والهنديّةِ، والإغريقيّةِ التي انتقلتْ إلى المسلمينَ عبر حركةِ التّرجمةِ، ممّا أسهمَ في تعزيزِ البعدِ الحضاريّ، والفكريّ للثقافةِ الإسلاميّةِ(٣).

وَذَكَرَ (بلاشير) أنَّ المستشرقينَ من النّصارى في العُصورِ الوُسطى اهتمُّوا بمتطلَّباتِ الجَدَلِ الذي أخذَ بالدِّفاعِ عن (أَقانيمِ المسيحِ) وتلفيقِ التُّهمِ ضدَّ الإسلامِ(٤).واتّفقَ مَعهُ

---

(١) ينظر: الإسلام في القرون الوسطى: ٤٦، ونقد الخطاب الاستشراقيّ: ٤١.

(٢) ينظر: آثار الفكر الاستشراقيّ في المجتمعات الإسلاميّة:١١، والاستشراق ومناهجه في الدِّراسات الإسلاميّة: ١٧_١٨.

(٣) ينظر: الإسلام في القرون الوسطى: ٤٦، ونقد الخطاب الاستشراقيّ: ٤١.

(٤) ينظر: القرآن، بلاشير: ١٣.

المستَشرقُ (ليو بولد فاسي)، مُبيِّنًا أَنَّ هدفَ بَعضِ المُستشرقينَ المُنتمِينَ إِلَى التّبشيرِ كانَ إضعافَ القِيمِ الإسلاميّةِ، مِنْ خلالِ تَفسيرِ التَّعاليمِ الدِّينيّةِ تَفسيرًا يؤَدِّي إلى إثارةِ الشَّكِّ لدى المُسلِمِ وتَضعِيفِ تَمَسُّكِهِ بِدِينِهِ، وَالتَّعَامُلِ مَعَ الإسلامِ على أَنَّهُ مُجرَّدُ دينٍ وَمنهَجٍ سلوكيٍّ فَقَط[١]. وَبقِي بعضُ المُستَشرقينَ مِنَ المَسِيحِيِّينَ يَمِيلونَ إلى إِثَارةِ الانتِقَادَاتِ، عَلَى الرّغمِ مِن أَنَّ بعضَ الكُتَّابِ فِي العَصرِ الحدِيثِ حَاولوا التَّحرّرَ مِنَ الاتِّجاهَاتِ الكنسِيَّةِ المنحَازَةِ ضدَّ الإسلامِ[٢]، وقد أَكَّدَ ذلكَ المُستَشرِقُ (نورمان دانيال)، مُبَيِّنًا أَنَّ حِقدَ بَعضِ المستَشرِقينَ علَى الإسلامِ وسوءَ الفهمِ الَّذي وَرِثَتهُ العصورُ الوُسطَى لَا يَزالُ يؤثِّرُ فِي مَوقِفِ الغَربِ مِنَ الإسلَامِ حتّى مَعَ التّطوّرِ الفِكرِيِّ وَالفَهْمِ الحَدِيثِ فِي العَصرِ الحَاضِرِ[٣].

**٢_ الحروبُ الصّليبيّةُ:**

وفي سياقِ تفسيرِ نشأةِ الاستشراقِ، يذهبُ بعضُ الباحثينَ إلى أنَّ الحروبَ والصّراعاتِ التي دارتْ بينَ المسلمين والنّصارى، ولا سيّما في الأندلسِ، كانتْ من العواملِ الرّئيسةِ التي دفعتْ إلى بروزِ العناية الاستشراقيّة. ففي تلك المرحلةِ ظهرتْ محاولاتٌ دينيّةٌ هدفتْ إلى إعادةِ ترسيخِ العقيدةِ الكاثوليكيّةِ، ومن ذلك الحملاتُ التي أقيمتْ في بعضِ الأديرةِ، والكنائسِ، والتي سعتْ إلى تغييرِ التّوجيهاتِ الدِّينيّةِ السّائدةِ آنذاك. وقد انطلقتْ هذه الجهودُ من اعتقادٍ مفادهُ أنَّ التّأثيرَ الإسلاميّ تركَ أثرًا واضحًا في المجتمعِ الإسبانيّ، الأمرُ الذي دفعَ الكنيسةَ إلى مواجهةِ هذا التّأثيرِ والعملِ على الحدِّ من امتدادهِ الفكريّ والدّينيّ[٤]؛ فكانَ الهدفُ من الحروبِ

---

(١) ينظر: الإسلام على مفترق الطرق: ٦٠_٦١.

(٢) ينظر: بحوث في الاستشراق: ٣٧٠.

(3) see: Islam and the west: the making of an image:9 .

(٤) ينظر: الاستشراق بين الموضوعيّة والافتعاليّة: ٢١.

التي أقامتْها أوربا صدَّ الزّحفِ الثّقافيّ العربيّ الإسلاميّ إلى الغربِ؛ ولتلك الحروبِ صلةٌ وثيقةٌ بدراسةِ المستشرقينَ للشّرقِ والإسلامِ. وقد أكّدَ (وات) هذه الصلةَ؛ فذهبَ إلى أنَّ هذه الحروبَ قد عملتْ على زيادةِ اهتمامِ الباحثينَ الأوربيّينَ بالدّيانةِ الإسلاميّةِ؛ ولهذا نجدُهُ يقولُ: "صحيحٌ أنَّهُ كانَ ثمّةَ بعضُ الإحاطةِ بالإسلامِ من قبلُ سواءٌ بفضلِ المصادرِ البيزنطيّةِ، أم بفضلِ صلاتِ المسيحيّينَ بالمسلمينَ في إسبانيا. غيرَ أنَّ تلك المعارفَ السّائدةَ وقتذاك كانتْ مشوبةً إلى حدٍّ رهيبٍ بالأوهامِ والأخطاءِ. فقد نُظرَ إلى العربِ كونهم وثنيّينَ يعبدونَ محمّدًا، ونُظر إلى محمّدٍ كونه ساحرًا بل الشّيطانَ بعينِه"[1]؛ ونعوذُ باللهِ.

### ٣_ إحلالُ (الغزوِ الفكريّ) محلّ الصّراعِ العسكريّ:

بعد أنْ وضعَتِ الحروبُ الصّليبيّةُ أوزارَهَا من دونِ أنْ تحقّقَ أهدافَها العسكريّةَ في القضاءِ على الكيانِ الإسلاميّ؛ أدركَ العقلُ الغربيّ (بقيادةِ الكنيسةِ) محدوديّةَ المواجهةِ العسكريّةِ؛ إذْ تقرّرَ ضرورةُ دراسةِ فكرِ المسلمينَ، وعقيدتِهم، ولغتِهم، وعلومِهم دراسةً منظّمةً للدخولِ إليهم من بابِ المعرفةِ بدلًا من بابِ الحروبِ[2]. وذهبَ بعضُ المستشرقينَ المنتمينَ إلى خلفيَّاتٍ مسيحيَّةٍ إلى تقديمِ تصوُّراتٍ نقديَّةٍ للإسلامِ، تضمَّنتْ في بعضِ الحالاتِ رواياتٍ وأحكامًا سلبيةً حولَه، إذْ نُسِبَ إليه في بعضِ الكتاباتِ توصيفاتٌ متباينةٌ وصلتْ إلى حدِّ التّشكيكِ في طبيعتِهِ وانتشارِهِ، ووردتْ في بعضِها أوصافٌ حادّةٌ للمسلمينَ. وقد استمرَّتْ هذه الاتّجاهاتُ في بعضِ المراحلِ التّاريخيَّةِ اللاحقةِ، متأثّرةً بسياقاتٍ دينيَّةٍ وثقافيّة وسياسيَّةٍ متداخلةٍ، وهو ما أسهمَ في تنوّعِ مواقفِ الاستشراقِ بين النّقدِ والتّحيُّزِ من جهةٍ، والدّراسةِ

---

(١) فضل الإسلام على الحضارة الغربيّة: ٩٩.

(٢) ينظر: الاستشراق والمستشرقين مالهم وما عليهم: ٢١.

العلميّةِ الأكثرِ توازنًا من جهةٍ أخرى[١]. وما يُؤكِّدُ حِقدَ الرُّهبانِ والقساوسةِ أصحابِ الكنائسِ على الدّينِ الإسلاميّ والمسلمينَ ما أكَّدَهُ (مكسيم رودنسون) مُبيِّنًا أنَّ المسلمينَ يُشكِّلونَ خطرًا على الغربِ، وقد عبَّرَ مثقَّفو الغربِ عن شُعورٍ عامٍّ بالاندهاشِ أمامَ الإسلامِ وبدا ذلكَ لهم كأنَّهُ خطرٌ على المسيحيَّةِ[٢]. وأوضحَ المستشرقُ (ليو بولد فاسي) أَزْمَةَ الغربِ تجاهَ الإسلامِ، مُبيِّنًا أنَّ كراهيّةَ أوربا للإسلامِ كانتْ كراهيّةً عميقةَ الجذورِ ومشحونةً بالعاطفةِ، الأمرُ الذي أفقدَ بعضَ المستشرقينَ حيادَهم عندَ الحديثِ عن الإسلامِ والمسلمينَ، فانعكسَ ذلكَ على كتاباتِهم المُماحكةِ والمتحيِّزةِ، حتّى غدا احتقارُ الإسلامِ جزءًا من التّفكيرِ الأوربيّ. وأنَّ انتماءَ عددٍ من المستشرقينَ إلى التّبشيرِ النّصرانيّ جعلَ نظرتَهم إلى الإسلامِ قائمةً على خلفياتٍ دينيّةٍ، فاستمرَّ هذا التحيُّزُ في بعضِ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ حتّى بعدَ تراجعِ نفوذِ التّبشير[٣].

**٤_حركةُ التّرجمة والتّبشيرِ (نموذجُ دير كلوني):**

ارتبطتْ بداياتُ الاستشراقِ بحركاتٍ دينيّةٍ متطرّفةٍ؛ مثلِ حملةِ التّوبةِ في(ديرِ كلوني) برئاسةِ الرّاهبِ (بطرس المُبجّل) التي استهدفتْ محاربةَ الإسلامِ وتغييرَ النّصرانيّةِ الإسبانيّةِ إلى الكاثوليكيّةِ؛ معتبرةً أنَّ الإسلامَ أفسدَها، ومثّلتْ ترجمةُ القرآنِ الكريمِ إلى اللّاتينيّةِ (بإيعازٍ من بطرسَ المبجّل وترجمةِ روبرت أوف كيتون) أوّلَ استثمارٍ حقيقيّ للغةِ العربيّةِ؛ إذْ لم يكنِ الهدفُ معرفيًّا، بل كانَ مخطّطًا لتنصيرِ المسلمينَ عبرَ تشكيكِهم في ثوابتِهم الدِّينيّةِ وإيجادِ ردودٍ لاهوتيّةٍ على عقائدِهم[٤]، وكانَ الذي يجولُ في عقلِ (توما الاكويني) و(روجر بيكون) و(ريمو ندلّل)، أنَّ معرفتَهم بالإسلامِ ستُساعدُهم بالرّدِّ على المسلمينَ، وسيكونونَ قادرينَ على

---

(١) ينظر: الاستشراق والمستشرقين مالهم وما عليهم: ١٦.
(٢) ينظر: الاستشراق والغارة على الفكر الإسلاميّ: ١٢.
(٣) ينظر: الإسلام على مفترق الطّرق: ٥٢-٦٦.
(٤) ينظر: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم: ٩٥، والقرآن، بلاشير: ١٥.

بيانِ ضعفِ عقائدِ المسلمينَ وتهافُتِها[١]. وفَسَّرَ (وات) الموقفَ الكنسيَّ مِنَ الإسلامِ بسيطرةِ مفاهيمِ الكتابِ المقدَّسِ على عقولِ الأوربيِّينَ، ممَّا جعلَهم يحكمونَ على الإسلامِ بالكذبِ[٢]. فأدرك الغربُ الذي تتبّعُ الدّيانةَ المسيحيّةَ خطورةَ القرآنِ على عقائدِها الدِّينيّةِ ولا سيّما بعدَ ترجمتِها لهُ، وردّدَ بعضُهم بأنَّهُ لا يشكّلُ مصدرَ خطورةٍ حسب، بل يُمثّلُ قوّةً لها تأثيرُها الشّديدُ في العقيدةِ الإلهيّةِ المسيحيّةِ؛ ولهذا حرّفَ رجالُ الكنائسِ بعضَ عقائدِهِ ونشرُوها في المجتمعاتِ الإنسانيّةِ؛ ليصبحوا قادرينَ على تحقيقِ أغراضِهم المنشودةِ والقضاءِ على الإسلامِ[٣]، فكانتْ رؤيتُهم للقرآنِ تنصُّ على أنَّهُ الخطّةُ العلميّةُ التي تقضي على الإسلامِ من خلالِ تشويهِ صورتِهِ وتشكيكِ المسلمينَ في مصداقِيّته، ولا سيّما أنّ العربَ في تلك المرحلةِ عكفوا على تلاوتِهِ وحفظهِ وتدبّرِ آياتِهِ[٤].

وقد أساءَ بعضُ المستشرقينَ إلى القرآنِ الكريمِ عند ترجمتِه، متأثّرينَ في بعضِ الأحيانِ بخلفيّاتٍ دينيَّةٍ أو سياسيَّةٍ انعكسَتْ على طبيعةِ التّرجمةِ ومضامينِها، الأمرُ الذي أدَّى إلى تقديمِهِ للقارئِ الغربيِّ بصورةٍ لا تخلو من التحيُّزِ أو التّشويهِ؛ لكي لا يستطيعوا فهمَهُ، ويكونَ موضعَ رفضٍ في نفوسِهم، وتضمَّنتْ بعضُ الترجماتِ إضافاتٍ دُسَّتْ من لدنِ المترجمينَ، أو حذفًا أو تأويلاتٍ أثَّرتْ في نقلِ المعنى القرآنيِّ بدقَّةٍ[٥]، وأُلحقَتْ ببعضِها مقدِّماتٌ تضمَّنتْ أحكامًا نقديَّةً أو مقارناتٍ بينَ القرآنِ الكريمِ وكتبِ اليهودِ والنّصارى[٦]. وأكّدَ محمّد شاكر أنَّ المستشرقينَ هُم "جندُ المسيحيّةِ الشّماليّةِ، الذين وهبوا أنفسَهم للجهادِ الأكبرِ، ورضوا لأنفسِهم

(١) ينظر: الاستشراق بين الموضوعيّة والافتعالية: ٩٢.
(٢) ينظر: تأثير الإسلام على أوربا في العصور الوسطى: ١١٩.
(٣) ينظر: دوافع المستشرقين من ترجمة معاني القرآن الكريم: ٢٣١_ ٢٣٢.
(٤) ينظر: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقيّ: ٤٠١.
(٥) ينظر: الإسلام –الأسس: ٨٤– ٨٥.
(٦) ينظر: القرآن والمستشرقون: ٢٠/٢.

أنْ يظلّوا مغمورينَ في حياةٍ بدأتْ تموجُ بالحركةِ... وحبسوا أنفسَهم بينَ الجدرانِ المحتسبةِ وراءَ أكداسٍ من الكتبِ، مكتوبةٍ بلسانٍ غيرِ لسانِ أمّتهم التي ينتمونَ إليها"[١]. بينما يرى محمّد حسين أنَّهُ ليس من الممكنِ تزييفُ جميعِ جهودِ المستشرقينَ ووصمُها بالتّبشيريّةِ، فهو سيكونُ وصفًا من الغلوّ والتّطرفِ؛ إذْ إنَّ المستشرقينَ بشرٌ، والبشرُ مجتهدونَ، والمجتهدُ يخطئُ ويصيبُ[٢]. وهم يُمثِّلونَ مجموعةً من الباحثينَ الأكاديميِّينَ الذين أسهموا في دراسةِ النّصوصِ الإسلاميّةِ وتفسيرِها، وقد عُدَّتْ أعمالُهم مهمَّةً لفهمِ التّراثِ الحضاريِّ والثّقافيِّ. وعلى الرّغمِ من وجودِ بعضِ التّحيُّزاتِ في عددٍ منها، إنَّها لا تخلو من دراساتٍ أظهرتِ احترامًا للإسلامِ وثقافةِ الشّرقِ؛ لذا لا يصحُّ حصرُها في الطّابعِ التّبشيريِّ.

وفي ضوءِ ما تقدّم، أرى أنَّ تقويمَ التّرجماتِ الاستشراقيَّةِ للقرآنِ الكريمِ يقتضي التّمييزَ بينَ دوافعِ المترجمينَ ومناهجِهم ونتائجِ أعمالِهم؛ فلا يصحُّ ردُّها جميعًا إلى دافعٍ تبشيريٍّ أو سياسيٍّ واحدٍ، كما لا يصحُّ، في المقابلِ، إغفالُ أثرِ الخلفيَّاتِ العقديَّةِ والأيديولوجيَّةِ في بعضِ نماذجِها. فحضورُ التّحيُّزِ في ترجمة ما ينبغي أنْ يُثبتَ من خلالِ النّصِّ المترجَمِ، واختياراتِ المترجمِ، ومقدِّماتِهِ وتعليقاتِهِ، لا أنْ يُفترضَ لمجرَّدِ انتمائِهِ إلى الدّرسِ الاستشراقيِّ. كما أنَّ ما وقعَ في بعضِ التّرجماتِ من حذفٍ أو إضافةٍ أو تأويلٍ لا يمكنُ حملُهُ كلُّهُ على قصدِ التّشويهِ؛ إذ قد يرجعُ بعضُهُ إلى صعوبةِ نقلِ الخصائصِ الدّلاليَّةِ والبلاغيَّةِ للنصِّ القرآنيِّ، أو إلى قصورٍ لغويٍّ أو منهجيٍّ، في حينِ تكشفُ بعضُ النّماذجِ، بما يحيطُ بها من قرائنَ، عن أثرِ مرجعيَّاتٍ دينيَّةٍ أو فكريَّةٍ في توجيهِ التّرجمةِ. ومن ثَمَّ، فإنَّ الموقفَ العلميَّ المنصفَ يقتضي الحكمَ على كلِّ ترجمةٍ في ضوءِ نصِّها ومنهجِها وسياقِها التّاريخيِّ ومرجعيَّتِها الفكريَّةِ، والتّمييزَ بينَ الخطأِ في التّرجمةِ والقصورِ المنهجيِّ والتأويلِ المتحيِّزِ؛ ليكونَ الحكمُ قائمًا على الدّليلِ

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٧٣_٧٤.

(٢) ينظر: المستشرقون والدِّراسات القرآنيّة: ١٤.

والتحليلِ، لا على التّعميمِ أو الموقفِ المسبقِ.

**٥_ محاولةُ التّشكيكِ في مصادرِ الوحي والنّبوّة:**

سعى الخطابُ الاستشراقيّ الدّينيّ إلى تجريدِ الإسلامِ من صفةِ الرّبانيّةِ؛ فزعمَ بعضُهم أنَّ القرآنَ الكريمَ (نسيجٌ من السّخافات) _حاشا للهِ_ أو (مجموعةٌ من البدعِ). وذهبَ مستشرقون؛ مثل: (رودي بارت)، و(كيسلنج)، و(لامنس) إلى ادعاءاتٍ مفادها أنَّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) تأثّرَ بالدّياناتِ الوثنيّةِ أو اقتبسَ دعوتَهُ من الأحبارِ والرّهبانِ، والكُتبِ اليهوديّةِ والمسيحيّةِ شفويًّا. واصفين الإسلامَ بأنَّهُ (يهوديّةٌ مهذّبةٌ)، أو (هرطقةٌ مسيحيّةٌ). وكانَ الغرضُ من هذه الادّعاءاتِ هو إثباتُ بطلانِ القرآنِ عبرَ عدّهِ مادّةً بشريّةَ المصدرِ، وليس نصًّا مقدّسًا[١]!

ولقد بذلَ (رودي بارت) _مثلًا_ جهدًا كبيرًا لإثباتِ أنَّ النبيّ كان متأثّرًا بالدّياناتِ الأخرى؛ وذلك ليثبتَ بطلانَ الإسلامِ والقرآنِ الكريمِ. متجاهلًا السّياقاتِ الاجتماعيّةَ والسّياسيّةَ والدِّينيّةَ التي كانتْ موجودةً في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ قبل ظهورِ الإسلامِ؛ إذْ كانتِ الوثنيّةُ المنتشرةُ فيها ليستْ مُتجانسةً، بل متنوّعةً ومعقّدةً في الوقتِ نفسِهِ؛ فعمدَ النبيّ إلى تصحيحِ مفاهيمِها المخطئةِ التي كانتْ سائدةً فيها، ودعا الناسَ إلى عبادةِ إلهٍ واحدٍ بعد أنْ كانوا يعبدونَ أكثرَ من إلهٍ في الجاهليّةِ، بل هناكَ من اتّجهَ منهم للإلحادِ وعدمِ الإيمانِ بوجودِ إلهٍ، وعبدَ بعضُهم الأصنامَ[٢]، ولم يقتصرِ الأمرُ على هذا؛ فهناكَ جماعةٌ أخذتْ بتقديسِ زعيمِهِم أو مرؤوسِهِم. وقد يصلُ بهم الأمرُ إلى عبادتِهِ[٣]، ولهذا مثّلَ موضوعُ تأثّرِ النبيّ بالدّياناتِ

(١) ينظر: سيكولوجيّة القصة في القرآن : ٦١.
(٢) ينظر: الأصنام: ٢٨.
(٣) ينظر: أخبار مكة: ١/ ٨٨_ ١٩٣.

الوثنيّةِ وحفظِ الكتبِ اليهوديّةِ والمسيحيّةِ في اللاوعي موضوعًا من المواضيعِ الشّائكةِ؛ فقد جاءَ النبيّ ليصحّحَ لهم الدّينَ، مؤكّدًا على القيمِ الأخلاقيّةِ والعدالةِ الاجتماعيّةِ التي كانتْ تفتقدُها العربُ، وهنا يمكننا القولُ إنَّ من ربطَ بينَ النبيّ والدّياناتِ الوثنيّةِ، واليهوديّةِ، والمسيحيّةِ قد بسّطهُ تبسيطًا مفرطًا لفهمِ هذه الظّواهرِ الدِّينيّةِ وأغفلَ أو تجاهلَ السّرديّاتِ والتّعقيداتِ التّاريخيّةَ والنّفسيّةَ والاجتماعيّةَ التي شكّلتْ مسارَ الدّعوةِ الإسلاميّةِ.

ولم يتوقّفِ المستشرقونَ عند تلك الأقوالِ التي اتّهموا فيها الرسول(ﷺ)؛ فذهبَ بعضُهم إلى نسبةِ القرآنِ الكريمِ إلى الأحبارِ والرّهبانِ، زاعمينَ أنَّ النبيَّ تلقّاهُ منهم عند اتِّصالِهِ بهِم في مكَّةَ، ومن ثمَّ فهو؛ بحسبِ زعمِهم؛ ليسَ من عندِ اللهِ تعالى[1]، بل هو نتاجُ مؤثِّراتٍ بشريَّةٍ استمدَّها من اليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ. وانطلاقًا من هذا التصوُّرِ، سعوا إلى تأويلِ النصِّ القرآنيِّ في ضوءِ تلك الفرضيَّةِ، محاولينَ ردَّ كثيرٍ من مضامينِهِ إلى مصادرَ سابقةٍ، مع إغفالِ خصوصيَّتِهِ اللُّغويَّةِ والتشريعيَّةِ وسماتِهِ التي تميِّزهُ من غيرِهِ من النّصوصِ. وتناغمَ مع هذا الرّأي كلٌّ من المستشرقِ (كيسلنج) و(ألفريد جيوم) اللذين أقرّا بأنَّ الرّسولَ عندما تعرّفَ على اليهوديّةِ من يهودِ يثربَ، وعلى المسيحيّةِ من بحيرا الرّاهبِ، لفّقَ منهما دينًا جديدًا[2]، وأنَّ بلادَ العربِ كانتْ سابقًا مليئةً بمقتني اليهوديّةِ والمسيحيّةِ[3]، واتّفقَ معهما (لامنس) مبيّنًا أنّ أهلَ الكتابِ هُم مصدرُ قصصِ القرآنِ، وأنَّ التّفكيرَ القرآنيّ هو مسيحيُّ الأصلِ، والتّعبيرَ فيه يهوديّ[4]! ومن الضروريّ بيانُ أنَّ ما ذهبَ إليهِ هؤلاءِ المستشرقونَ من أنَّ الإسلامَ قد استمدَّ أفكارَهُ من المعتقداتِ اليهوديّةِ والمسيحيّةِ هو ادّعاءٌ شائعٌ بين المستشرقينَ، ومنهُم المستشرقُ

---

(١) ينظر: سيكولوجيّة القصّة في القرآن : ٦١.

(٢) ينظر: الإسلام في الفكر الغربيّ:٧٠.

(٣) ينظر: الإسلام، ألفريد جيوم:٣١.

(٤) ينظر: سيكولوجيّة القصّة في القرآن: ٧٤.

(تايلور) الذي وصفَ الإسلامَ باليهوديّةِ المهذّبةِ[١]، و(جونتر لولنج) الذي وصفَ القرآنَ بالتّرانيمِ الدِّينيّةِ القديمةِ التي وضعتْ بلهجةٍ عربيّةٍ مسيحيّةٍ، ثُمَّ عرضتْ بعد ذلك للقواعدِ النّحويّةِ[٢]، فتجاهلَتْ هذه الآراءُ طبيعةَ الدّينِ الإسلاميّ كدينٍ لهُ تاريخهُ المميّزُ وجذورُهُ الخاصّةُ بهِ، ونحنُ لا ننكرُ أنَّ الدّينَ الإسلاميّ قد نشأ في بيئةٍ تتفاعلُ فيها العديدُ من الثّقافاتِ والأديانِ، لكنّ هذا لا يعني أنَّهُ أخذَ معتقداتِهِ منها؛ فكانَ من الواجبِ أنْ يفهموا أنَّ القرآنَ يُمثّلُ استمرارًا للتقاليدِ والعقائدِ الدِّينيّةِ السّابقةِ لهُ، ولكنّهم بدلًا من ذلك عدّوهُ مزيجًا من الأديانِ، على الرّغمِ من أنَّ القرآنَ قد أقرَّ بوجودِ التّوراةِ والإنجيلِ، بل إنّه أقرّ بكافّةِ الكتبِ المقدّسةِ التي سبقتهُ، وفسّرَ الباحثُ الدّكتور محمّد حسين الصّغير كلامَ المستشرقينَ عن القرآنِ بأنَّهُ يُمثّلُ سوءَ فهمٍ؛ إذ يرى أنَّ المستشرقَ لا ينظرُ إلى القرآنِ بوصفِهِ نصًّا مقدَّسًا كما يراهُ المسلمون، بل ينظرُ إليهِ بوصفِه نصًّا أكاديميًّا ومادَّةً علميّةً تستوجبُ الدّراسةَ والتّعمُّقَ في مصادرِها لمعرفةِ أصلِها. فلا ننسى أنَّه باحثٌ، ومن الطبيعيّ أنْ يُهمِلَ جوانبَهُ المقدَّسةَ، بل إنَّهُ لا يَعدُّ ذلك إهمالًا. فلا يرى في آرائِهِ حولَ القرآنِ نقصًا أو تقصيرًا كما نراهُ نحنُ[٣]، ولهذا لا ينبغي أنْ يطلبَ من المستشرقينَ النّظرُ إلى القرآنِ كما ننظرُ إليهِ نحنُ المسلمين.

**٦_ أثر المؤسّساتِ الكنسيّةِ والجامعيّةِ:**

لم يتوقّفِ النّشاطُ الدّينيّ عندَ الأفرادِ، بل أنشأتِ الكنيسةُ مقاعدَ للغةِ العربيّةِ في جامعاتٍ كبرى كأكسفورد، وكمبردج، وكانَ دافعُها الصّريحُ دينيًّا تبشيريًّا لخدمةِ الكاثوليكيّةِ. وهدفتْ هذه المؤسّساتُ إلى تجهيزِ دعاةٍ وباحثينَ قادرين على اختراقِ المجتمعاتِ الإسلاميّةِ،

---

(١) ينظر: سيكولوجيّة القصّة في القرآن: ٦١.

(٢) ينظر: المستشرقون ودعوى الأخطاء اللُّغويّة في القرآن الكريم: دراسة تطبيقيّة لبعض الإشكالات في المطابقة: ١٦-١٧.

(٣) ينظر: المستشرقون في الدِّراسات القرآنيّة: ٩١.

والتعرّفِ على لغةِ المسلمينَ كضرورةٍ للدفاعِ عن المسيحيّةِ من منظورِهِم، ودعا بعضُهم مثلُ (ريموند لول)، إلى دراسةِ الفلسفةِ الإسلاميّةِ كآراءِ ابن رشد؛ لكونها، تُمثّلُ وعاءً مناهضًا للدينِ النّصرانيّ، مِمّا يستوجبُ دراستَها لِدحضِها وزعزعةِ قيمتِها الإسلاميّةِ(١).

ويُعدُّ (أدلارد آوف باث) أوّلَ راهبٍ اهتمَّ بالدِّراساتِ العربيّةِ والإسلاميّةِ، ومن بعدِهِ (بطرس المبجل) الذي تبنّى فكرةَ ترجمةِ القرآنِ الكريمِ. وقد وضّحَ (رودي بارت) و(دوجا) أنَّ التّبشيرَ يمثّلُ السّببَ الرّئيسَ لاهتمامِ هؤلاء القساوسةِ والرّهبانِ باللُّغةِ العربيّةِ؛ وذلك لإقناعِ المسلمينَ ببطلانِ دينِهم وجذبِهِم إلى الدّينِ المسيحيّ(٢)، فأدخلوا اللُّغةَ العربيّةَ إلى الغربِ؛ لتكونَ أوربا قادرةً على الدّفاعِ عن دينِها المسيحيّ(٣)، وكانَ (بادويل) مِن أبرزِ المستشرقينَ الذينَ اهتمُّوا بالدِّراساتِ العربيّةِ والإسلاميّةِ، وعُدَّ واضعَ أُسسِ الدِّراساتِ العربيّةِ في إنجلترا؛ إذْ عُيِّنَ أستاذًا للُّغةِ العربيّةِ في جامعةِ أكسفورد(٤). وفسّرَ الباحثُ (محمّد جلاء إدريس) أنَّ إنشاءَ مقاعدِ اللُّغةِ العربيّةِ في كمبردج في بريطانيا كانَ دافعُهُ الصّريحُ دينيًّا، على الرّغمِ من وجودِ أهدافٍ أخرى(٥).

### ٧_ صناعةُ الصّورةِ الذّهنيّةِ المشوّهةِ:

عمدَ رجالُ الدّينِ في العصورِ الوسطى إلى نشرِ أكاذيبَ تصفُ المسلمينَ بـ(الهمجِ) و(اللّصوصِ) وصوّرُوا الإسلامَ كقوّةٍ شرّيرةٍ تحرّضُ على التّعصّبِ، وقد استمرَّ هذا النّهجُ حتّى

---

(١) ينظر: الفكر الإسلاميّ الحديث: ٥٣٣، والتّبشير والاستعمار:٢٢، والاستشراق السّياسيّ في النّصف الأوّل من القرن العشرين: ١٤.

(٢) ينظر: المستشرقون والدِّراسات القرآنيّة:١٣، والدِّراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة: ١١.

(٣) ينظر: الاستشراق السّياسيّ في النصف الأوّل من القرن العشرين: ١٤.

(٤) ينظر: الدِّراسات العربيّة والإسلاميّة في أوربا: ٣٠.

(٥) ينظر: الاستشراق الإسرائيليّ في الدِّراسات العبريّة المعاصرة: ٢٧.

في التّرجماتِ؛ إذْ عُمِدَ إلى تصحيفِ المعاني، وتحريفِ بعضِ العقائدِ، ولا سيّما ما يَتعلّقُ بعقيدةِ التّثليثِ التي فنّدَها القرآنُ الكريمُ؛ لنشرِها بصورةٍ مشوّهةٍ تصرفُ القارئَ الغربيّ عن قبولِ الإسلامِ وتؤمّنُ لهُ راحةَ البالِ بعيدًا عن تأثيرِهِ(١). لهذا ذهبَ (برنارد لويس) إلى أنَّ الإسلامَ في العصورِ الوسطى كانَ يُمثّلُ العدوّ الأكبرَ في عيونِ رجالِ الدّينِ؛ ولهذا تُعدّ دراسةُ الإسلامِ ضرورةً واقعيّةً لا بُدَّ منها لفهمِهِ، وأيضًا لمقاومتِهِ وتدميرِهِ، مبيّنًا أنَّ الأوربيّين كانوا يدركونَ تفوّقَ المسلمينَ في إسبانيا والشّرقِ في مجالاتِ العلومِ والمعرفةِ؛ لهذا توجّهوا إلى الشّرقِ للاستفادةِ من علومِهِ ومعارفِهِ(٢).

وأشارَ المستشرقُ (روبرت) إلى أنَّ من دوافعِ عناية المستشرقين بدراسةِ العربِ ومعرفةِ أساليبِهم اعتقادَهُم بقدرةِ العربِ على استعادةِ نفوذِهم، بعدَ أنْ سبقَ لهم غزو أجزاءٍ واسعةٍ من العالمِ، مِمّا دفعَهم إلى دراسةِ الشّرقِ والاهتمامِ بهِ(٣).

اتَّجهَ كثيرٌ مِن المستَشرقينَ إِلَى تَقديمِ صورةٍ سَلبيَّةٍ عَنِ الإسلَامِ والمسلِمِينَ؛ تأثّرًا بخَلفِيَّاتِهِم الدِّينيّةِ وبِالموقفِ الكَنَسيِّ المنَاوِئِ لِلإسلامِ، وانعكسَ هذا في كتاباتِهم. وقد فسّرَ الدُّكتورُ عرفان عبد الحميد فتّاح نظرةَ الغربِ الحاليّةَ إلى الإسلامِ ناتجة عن انفعالاتٍ متراكمةٍ تعودُ إلى خبراتٍ تاريخيّةٍ عميقةِ الجذورِ في الفكرِ الأوربيّ، وأنَّ هناك بقايا من الحقدِ غيرِ الواعي لدى بعضِ المستشرقينَ ضدَّ الإسلامِ ما زالتْ مؤثّرةً في توجهاتِهِم(٤). واعتَرَف بعضُهُم بِعَدمِ قُدرتِهِ عَلى التَّحرُّرِ مِنْ هَذه التّأثيراتِ، ممَّا دَفعَ عَدَدًا منهُم إِلى محَاربةِ الإسلامِ والسّعي إِلَى تَنصِيرِ المسلمينَ، لاعتِقَادهِم أَنَّ الإسلامَ يُنَاقِضُ عَقَائدهُمُ الدِّينيّةَ وَقَد أَضعَفَ النُّفُوذَ

(١) ينظر: دراسات في اليهوديّة والمسيحية: ٤٨٦، والمسيح والتّثليث: ١٠٥.
(٢) ينظر: الإسلام في التّاريخ: ١٧-١٨.
(٣) ينظر: مذاهب فكريّة معاصرة: ٥٩٧.
(٤) ينظر: دراسات في الفكر العربيّ الإسلاميّ: ١٣٣-١٣٤.

النَّصرَانيَّ فِي عدَدٍ مِنَ البلدانِ[١] .ولكنْ لا يُمكنُ إنكارُ أنَّ بعضَ المُستشرقينَ دافَعَ عن الإسلامِ والقرآنِ الكريمِ، فلم يُوافِقوا على ما جاءَ في كتاباتِ زُملائِهم الذين حَقَدوا على الشّرقِ والإسلامِ.

نخلصُ من ذلك إلى أنَّ الاستشراقَ في مهدِهِ كان أداةً كنسيّةً، اتّخذتْ من دراسةِ اللُّغةِ والتّرجمةِ ثوبًا علميًّا خفيًّا لتمريرِ أجندةٍ تبشيريّةٍ تهدفُ في المقامِ الأوّلِ إلى إضعافِ التّأثيرِ الإسلاميّ وتنصيرِ المسلمينَ، وحمايةِ الذّاتِ الأوربيّةِ من الانبهارِ بالنّموذجِ الحضاريّ الإسلاميّ المتفوّقِ آنذاكَ.

**ثانيًا: البعدُ الاستعماريّ والسّياسيّ:**

يُعدُّ الدّافعُ الاستعماريّ والسّياسيّ من الرّكائزِ الجوهريّةِ التي لا يُمكنُ فصلُها عن نشأةِ الاستشراقِ؛ إذْ يرى الباحثونَ أنَّ الغرضَ من دراسةِ الشّرقِ لم يكن دائمًا غرضًا علميًّا بحتًا، بل كانَ من الضّروريّ جعلُ هذه الدِّراساتِ تظهرُ بمظهرِ (العلميّةِ) لتكونَ وسيلةً فعّالةً وممكنةً لاستعمارِ الشّرقِ ودراستِهِ، ومن ثمَّ السّيطرةِ عليهِ. ومن هذا المنطلقِ يرى الدّارسون أنّهُ من المبالغِ القولُ بأنَّ الاستشراقَ كانَ دافعُهُ مُنْذُ البدايةِ علميًّا فقط، بل هو مزيجٌ من الأغراضِ الدِّينيّةِ والسّياسيّةِ الاستعماريّةِ المرتبطةِ ببعضِها البعضِ[٢].

ويمكنُ بسطُ هذا البعدِ على وفقِ النّقاطِ الآتيةِ:

**١_ التّكاملُ الوظيفيّ بينَ التّبشيرِ والاستعمارِ:**

إنَّ القراءةَ التّحليليّةَ للعلاقةِ بينَ الاستشراقِ والاستعمارِ تكشفُ عن ارتباطٍ عضويّ

---

(١) ينظر: المستشرقون والإسلام: ٧٢، وحضارة العرب: ٥٧٨.

(٢) ينظر: الإسلام في وجه التّغريب: ٢٦٥_٢٦٦.

وثيقٍ؛ إذْ يذهبُ الباحثونَ إلى أنَّ الاستشراقَ قد (ولدَ من أبوين غيرِ شرعيين هما: الاستعمارُ والتّبشيرُ)[١]. وقد اتّخذَ هذا الخطابُ من التّلوّنِ والتّحوّلِ وسيلةً لمواكبةِ الظّروفِ التّاريخيّةِ المتغيّرةِ؛ إذْ عمدَ المبشّرونَ المسيحيّونَ إلى إقناعِ القوى الاستعماريّةِ بأنَّ المسيحيّة تُمثّلُ القاعدةَ الارتكازيّةَ للاستعمارِ الغربيّ في الشّرقِ؛ مِمّا دفعَ الحكوماتِ الاستعماريّةَ إلى توفيرِ الحمايةِ والدّعمِ الماليّ والسّياسيّ لتلك البعثاتِ مقابلَ ما تقدّمُهُ من خدماتٍ معلوماتيّةٍ[٢].

**٢_ الاستشراقُ بوصفه أداةً للتّفكيكِ وبثِّ النّزاعاتِ:**

اضطلعَ المستشرقونَ بأثر محوريّ في رسمِ الاستراتيجياتِ الاستعماريّةِ الهادفةِ إلى تمزيقِ وحدةِ العالمِ الإسلاميّ؛ فعمدوا إلى بثِّ روحِ التّفرقةِ والنّزاعِ بين الشّعوبِ الشّرقيّةِ، وتصويرِ الإسلامِ كدينِ (خصومةٍ وحربٍ). وقد تمَّ توظيفُ المؤسّساتِ التعليميّةِ والصّحيّةِ والاجتماعيّةِ لنشرِ هذه الرّؤى التّفكيكيّةِ، في ظلِّ دعمٍ حكوميّ سخيٍّ للمستشرقينَ الذين أخلصوا في تزويدِ دولِهِم بالمعلوماتِ الاستخباراتيّةِ الدّقيقةِ اللّازمةِ لترسيخِ الهيمنةِ، ويؤكّدُ الباحثونَ أنّ هذا الدّافعَ لم يكنْ منفصلًا عن الجذورِ الدّينيّةِ؛ إذْ إنَّ الحروبَ الصّليبيّةَ كانتْ في جوهرِها حروبًا (دينيَّة استعماريّة) رافقَها الاستشراقُ وظلَّ ملازمًا لها حتّى بعدَ انقضائِها[٣].

**٣_ منهجيّةُ (الموظّفِ المستشرقِ) والسّيطرةُ على المقدّراتِ:**

مع تصاعُدِ الفكرِ الاستعماريِّ في فرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، جرى تجنيدُ المستشرقينَ لدراسةِ الشّرقِ دراسةً (مجَهريَّةً) تفصيليَّةً تَشملُ، الجغرافية، والسّياسةَ والاقتصادَ، والعقائدَ، ولم

---

(١) ينظر: الإسلام في وجه التّغريب: ٢٦٦.

(٢) ينظر: المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام: ١٢.

(٣) ينظر: المستشرقون والدِّراسات القرآنيّة:١٣_١٤، والاستشراق في الأدبيات العربيّة: ٤٠، والقرآن الكريم في الدِّراسات الاستشراقيّة_ دراسة تقويمية نقديّة: ٥٨.

يكنِ الهدفُ من هذه الرّحلاتِ الاستكشافيَّةِ المعرفةَ المجرَّدةَ[١]، بل كانَ البحثُ عن (المفتاحِ) الذي يمكّنُ الغربَ من اقتحامِ الأمّةِ الإسلاميّةِ وتفتيتِ أركانِها والسّيطرةِ على ثرواتِها[٢].

وقد اتّبعَ المستشرقون في هذا السّياقِ منهجًا استعماريًّا خاصًّا قامَ على:

أ/ تضخيمِ النّزاعاتِ وتشتيتِ شملِ البلدانِ العربيّةِ[٣].

ب/ بثَّ سمومِ التّفرقةِ وإحياءِ القوميّاتِ الجاهليّةِ التي طمسَها الإسلامُ بهدفِ إضعافِ الرّابطةِ العقديّةِ والتّشكيكِ في الشّريعةِ[٤].

ج/ تشويهِ الفتوحاتِ الإسلاميّةِ وتصويرِها بصورةٍ دمويّةٍ لتثبيطِ (روحِ الجهاد) في نفوسِ المسلمينَ، ولا سيّما بعد الانتصاراتِ التّاريخيّةِ التي حقّقها المسلمونَ على إمبراطوريّتي الفرسِ والرّومِ[٥].

**٤_ اللُّغةُ والمعرفةُ بوصفِها أدواتِ قوّةٍ:**

عُدّتْ دراسةُ اللُّغةِ العربيّةِ ضرورةً استراتيجيّةً للمستشرقينَ المرتبطينَ بالدّوائرِ الاستعماريّةِ؛ ليس لتقديرِ جماليّتها؛ بل لتسهيلِ التّواصلِ مع الشّعوبِ المحتلّةِ وفهمِ تقاليدِها. ومن ثمَّ إعادةُ صياغةِ هذه المعارفِ لخدمةِ المخطّطاتِ التّوسيعيّةِ[٦].إنَّ المعرفةَ في المنظورِ

---

(١) ينظر: الاستشراق في ميزان الفكر الإسلاميّ: ١٩، والقرآن الكريم في الدِّراسات الاستشراقيّة القديمة_ دراسة تقويميّة نقديّة: ٥٧، ونقد الخطاب الاستشراقيّ: ٥٧/١،

(٢) ينظر: السّيرة النبوية في كتابات المستشرقين البريطانيين:١١٠.

(٣) ينظر: المستشرقون والدِّراسات القرآنيّة: ١٦.

(٤) ينظر: الاستشراق رسالة استعمار: ٢٠٧-٢٠٨، والإسلام في وجه التغريب: ٢٦٩.

(٥) ينظر: أوربا والإسلام صدام الثقافة والحداثة: ١٣-١٤، والمستشرقون والإسلام: ٦٥-٦٦.

(٦) ينظر: البحوث في الاستشراق: ٣٨٥.

الاستشراقيّ كانتْ تعني (القوّةَ) التي تمنحُ الغربَ القُدرةَ على تصفيدِ العالمِ الشّرقيّ وقيودِ التّبعيّةِ، ومن هنا يرى النّقّادُ أنّ هذه الدِّراساتِ لم تكنْ أمينةً في عرضِ التّراثِ الإسلاميّ، بل قدّمتْهُ (لقمةً سائغةً) للمحتلِّ[١]. ومن جهةٍ أخرى؛ فرضَ بعضُ أقطابِ الاستشراقِ الهيمنةَ المعرفيّةَ ونظريّةَ عرقيّةِ اللُّغاتِ؛ ومن أبرزِهم المستشرقُ الفرنسيّ (إرنست رينان) في كتابِهِ (تاريخُ اللّغاتِ السّاميّةِ)؛ إذْ زعمَ وجودَ ارتباطٍ وثيقٍ بين بنيةِ اللُّغةِ وطبيعةِ العقلِ البشريّ المنتجِ لها؛ مدّعيًا أنَّ اللُّغاتِ الهندو_ أوربيّةَ (الآريّة) تتمتّعُ بمرونةٍ اشتقاقيّةٍ وتراكيبَ ذهنيّةٍ تجعلُها لغاتٍ قادرةً على التّفكيرِ الفلسفيّ، والعلميّ، والإبداعِ الحضاريّ، في حينِ وسمَ اللُّغاتِ السّاميّةَ؛ وفي مقدّمتِها العربيّة؛ بالجمودِ والاقتصارِ على الحسّيّاتِ، والعجزِ عن التّجريدِ الفلسفيّ العميقِ بفعلِ بنيتِها الثّلاثيّةِ؛ وهي نظريّةٌ أيديولوجيّةٌ دحضَتْها اللّسانيّاتُ الحديثةُ[٢].

### ٥_ الغزو الفكريّ وصناعةُ (التّبعيّةِ القوميّةِ):

لم يكتفِ الاستعمارُ بالسّيطرةِ العسكريّةِ، بل شنَّ (حربًا فكريّةً) أشدَّ ضراوةً، ركّزتْ على إظهارِ التّفوّقِ العلميّ الغربيّ مقابلَ تخلّفِ الشّرقِ؛ لزرعِ الوهنِ في نفوسِ المسلمين[٣]. وفي خطوةٍ بالغةِ الخطورةِ، عمدَ المستشرقونَ إلى (تجنيدِ وتربيةِ) أجيالٍ من أبناءِ المسلمينَ على وفقِ مناهجَ علمانيّةٍ وقوميّةٍ تفصلُهُم عن مقوّماتِهم التّاريخيّةِ والحضاريّةِ ليصبحوا لاحقًا أبواقًا تخدمُ الغاياتِ الاستعماريّةَ، وتُسهمُ في تقسيمِ الشّرقِ على كياناتٍ متناحرةٍ[٤].

---

(١) ينظر: الاستشراق رسالة استعمار: ٢٠٧-٢٠٨، ودليل الخليج القسم التّاريخيّ: ١/٦-٩.

(٢) ينظر: تاريخ اللُّغات السّاميّة، إرسنت رينان: ٦٤_٦٨.

(٣) ينظر: الاستشراق وموقفه من السّنّة النّبويّة: ١٥-١٦.

(٤) ينظر: الاستشراق والتّبشير وصلتها بالإمبرياليّة العالميّة: ٧٧.

**٦_ نماذجُ تطبيقيّةٌ للمستشرق السّياسيّ:**

برزتْ في هذا الميدانِ شخصياتٌ وظّفتْ خبراتِها الأكاديميّةَ لخدمةِ الأجنداتِ الإمبراطوريّةِ من أبرزِهم:

أ/ المستشرقُ (لورانس): الذي عملَ على تقويضِ الوحدةِ الإسلاميّةِ، وتدميرِ الخلافةِ العثمانيّةِ وإغراقِ العربِ في فوضى سياسيّةٍ(١).

ب/ (لويس ماسينيون): الذي سخّرَ كتاباته لدعمِ الاحتلالِ الفرنسيّ للمغربِ العربيّ، وسوريا، ولبنان(٢).

ج/ (سنوك هرجرونجة)، و(بالمر)، و(روسو): الذين تنوّعتْ أدوارُهم بين كتابةِ التّقاريرِ الاستعماريّةِ، والعملِ قناصل، ونهبِ المخطوطاتِ الشّرقيّةِ بطرقٍ غيرِ شرعيّةٍ(٣).

**٧_ المؤسّساتُ الأكاديميّةُ في خدمةِ التّوسّع:**

تجلّتِ العلاقةُ البنيويّةُ بين العلمِ والاستعمارِ في تأسيسِ مدارسَ، ومعاهدَ متخصّصةٍ؛ مثلِ: (مدرسةِ الدِّراساتِ الشّرقيّةِ والإفريقيّةِ) بجامعةِ لندن، التي أُنشئتْ برغبةٍ سياسيّةٍ صريحةٍ(٤). ولقد لخّصَ المستشرقُ (فرديك هورتمان) هذه العقليّةَ بوصفِهِ الشّعوبَ الشّرقيّةَ بـ(المتوحّشةِ) التي تحتاجُ لروحِ التّقدّمِ الغربيّ، وهو تصويرٌ يهدفُ لتسويقِ الاستعمارِ بوصفه

---

(١) ينظر: لورنس العرب على خطى هرتزل: ٧.
(٢) ينظر: فوكو في الصحراء أمام إله إبراهيم وهاجر وإسماعيل: ٩٥، والعسكرة وانعكاساتها الكوارثيّة على العرب والمسلمين: ٥٦_٥٨.
(٣) ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والأحزاب المعاصرة: ٦٩٣-٦٩٤، والاستشراق والخلفيّة الفكريّة:٤٤-٤٦، نقد الخطاب الاستشراقيّ:١/ ٧١-٧٣.
(٤) ينظر: رؤية إسلامية للاستشراق:٨.

رسالةً حضاريّةً بينما هو في جوهرِهِ عمليّةٌ نهبٍ منظّمٍ(١).

وبعدَ كلِّ ما تقدّم يتبيّن أنَّ الاستشراقَ في بواعثِهِ الاستعماريّةِ لم يكنْ مجرّدَ حركةٍ علميّةٍ؛ بل كانَ (رسالةَ استعمارٍ) بامتيازٍ؛ استعمل فيها الكتابُ والمحرابُ لتعبيدِ الطّريقِ أمامَ العسكرة وظلَّ المستشرقونَ يمثّلونَ (جُندَ المسيحيّةِ الشّماليّةِ) الذين وهبوا أنفسهُم لخدمةِ التّوسّعِ الغربيّ تحتَ ستارِ البحثِ الأكاديميّ(٢).

**ثالثًا: البعدُ العلميّ والأكاديميّ لنشأةِ الخطابِ الاستشراقيّ:**

**١_ الشّرقُ بوصفهِ كنزًا حضاريًّا (إرهاصاتُ النّهضةِ):**

جذبتْ حضارةُ الشّرقِ العديدَ من الباحثينَ الذين أقبلوا على دراسةِ علومِهِ وتراثِهِ بشغفٍ معرفيّ؛ فعندما شرعتْ أوربا في التّخطيطِ لنهوضِها العلميّ والحضاريّ، اتّجهتْ أنظارُها نحوَ الشّرقِ بوصفِهِ (كنزًا حضاريًّا) لا يضاهى(٣). فقد احتضنَ الشّرقُ حضاراتٍ عريقةً، وشهدَ نزولَ الشّرائعِ السّماويّة. ونشأتْ فيهِ لغاتٌ وثقافاتٌ متعدّدةٌ ظلّتْ آثارها باقيةً. مِمّا جعلَ دراستَهُ ضرورةً للاستفادةِ من كنوزِهِ الفنيّةِ، واللُّغويّةِ، والأدبيّةِ(٤)، وعلى الرغم من أنَّ الدّوافعَ الدِّينيّةَ والاستعماريّةَ كانتْ هي الغالبةَ في بداياتِ التّوجّهِ نحوَ الشّرقِ إلّا أنّ ذلك لم يمنعْ وجودَ فئةٍ من الباحثينَ الذين استهدفوا الكشفَ عن العلومِ والآدابِ الشّرقيّةِ لذاتِها(٥).

---

(١) ينظر: المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربيّة: ٢٧.
(٢) ينظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: ٧٣_٧٤.
(٣) ينظر: صورة الإسلام في أوربا في العصور الوسطى: ٣٦.
(٤) ينظر: الاستشراق الإسرائيليّ في المصادر العبرية: ٣٢، وتاريخ دراسة اللُّغة العربيّة بأوروبا: ٥٢.
(٥) ينظر: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربيّ المعاصر: ٥١.

**٢_ الجدلُ حولَ (نزاهةِ) الباعثِ العلميّ:**

تذهبُ الرّؤيةُ النّقديّةُ إلى أنَّ الدِّراساتِ الاستشراقيّةَ المبكّرةَ لم تكنْ نابعةً من (حبّ خالصٍ للعلمِ) أو رغبةٍ مجرّدةٍ في حفظِ التّراثِ؛ بل كانتْ مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بجهودِ التّنصيرِ، والمدَّ الاستعماريّ. ويشيرُ الباحثونَ إلى أنَّ الكثيرَ من الدِّراساتِ التي صبغتْ بصبغةِ (العلمِ) كانتْ في حقيقتِها تسعى إلى الوقوفِ على نقاطِ الضّعفِ والقوّةِ في المجتمعاتِ الإسلاميّةِ لتسهيلِ السّيطرةِ عليها. ومن هنا ينظرُ إلى السّببِ العلميّ في كثيرٍ من الأحيانِ بوصفِهِ[١] ستارًا أو غطاءً اختبأ وراءهُ المستشرقونَ للتسلُّلِ إلى الشّرقِ وتحقيقِ مآربَ سياسيّةٍ وعقديّةٍ[٢].

**٣_ المستشرقونَ المنصفونَ والرّوحُ العلميّةُ النّزيهةُ:**

وعلى الرّغمِ من التّحيّزِ، برزتْ فئةٌ محدّدةٌ من المستشرقينَ انمازتْ بروحٍ علميّةٍ نزيهةٍ. فكانتْ أخطاؤُهم يسيرةً إذا ما قورنتْ بغيرِهم، هؤلاء الباحثونَ اندفعوا بدوافعَ ذاتيّةٍ، ورغبةٍ صادقةٍ في المعرفةِ، مبتعدينَ عن الأهواءِ السّياسيّةِ، والتّعصّبِ القوميّ أو الدّينيّ[٣]. إلّا أنَّ هذا المسارَ قد واجَهَ تحدّياتٍ جسيمةً؛ ومنها:

أ/ غيابُ الدّعمِ المؤسّسيّ؛ إذْ لم تحظَ هذه الفئةُ بدعمِ الحكوماتِ الغربيّةِ أو المؤسّساتِ الاستشراقيّةِ الرّسميّةِ؛ لأنَّ بُحوثَها لم تخدمِ الأهدافَ التّشويهيّةَ[٤].

ب/ المحاربةُ الكنسيّةُ: منعتِ الكنائسُ تداولَ مؤلّفاتِهم؛ لأنّها أظهرتْ تعاطفًا مع الإسلامِ

---

(١) ينظر: الاستشراق بين النشأة والأهداف: ١١٧٠_١١٧١.
(٢) ينظر: الاستشراق والمستشرقون: ٤٢.
(٣) ينظر: الاستشراق والتّاريخ الإسلاميّ: ٣٧.
(٤) ينظر: الاستشراق وموقفه من السّنّة النبويّة: ١٩.

والمسلمينَ، بل ووضعَتْها الكنيسةُ ضمنَ قائمةِ (المحروماتِ)، وتعرّضَ مؤلّفُوها للتعنيفِ[١].

ج/ التّهميشُ الأكاديميّ: لم تكنْ بحوثُهم مشهورةً في الأوساطِ العلميّةِ الغربيّةِ، على الرّغم من أنّها نالتْ تقديرًا كبيرًا من الباحثينَ المسلمينَ[٢].

**٤- نماذجُ من المستشرقينَ الأكاديميّينَ:**

برزتْ شخصياتٌ علميّةٌ حاولتِ الالتزامَ بالموضوعيّةِ؛ ومنهم:

أ/ (هادريان ريلاند): الذي عكفَ على دراسةِ الإسلامِ من مصادرِهِ الأصليّةِ لتصحيحِ الأخطاءِ الشّائعةِ حولَه[٣].

ب/ (سلفستر دي ساسي): الذي ركّزَ على اللُّغةِ العربيّةِ وتراثِها، واتّخذَ من الكتابِ (معلمًا) لهُ، على الرّغم من اعترافِهِ بصعوبةِ الإحاطةِ الكاملةِ باللُّغةِ العربيّةِ[٤].

ج/ (توماس أرنولد): الذي تعرّضَ لهجومٍ شديدٍ من حكومتِهِ بسببِ كتابِهِ: (الدّعوة إلى الإسلامِ)؛ إذْ وثّقَ فيه التّسامحَ الدّينيّ عند المسلمينَ عبرَ التّاريخِ؛ فاتّهمَ بأنَّ عاطفَتَهُ تغلّبتْ على أدلّتِهِ العلميّةِ[٥].

د/ ويُذكرُ في هذا السّياقِ (غوستاف لوبون)، و(جاك بيرك)، و(توماس كارليل)[٦]، و(إيتيان

---

(١) ينظر: الاستشراق والخلفيّة الفكريّة: ٣١-٣٥.
(٢) ينظر: وحي الله: ٢٥، والاستشراق والمستشرقون: ٢٤-٢٥.
(٣) ينظر: الاستشراق والدِّراسات الإسلاميّة: ٤٠.
(٤) ينظر: تاريخ الدِّراسات العربيّة في فرنسا: ٢٣٦.
(٥) ينظر: الاستشراق والسّيرة النّبويّة: ٢٠.
(٦) ينظر: الموسوعة الميسرة: ٣٤-٣٥.

دينيه) الذي أعلنَ إسلامَهُ وألّفَ كتابَهُ: (أشعّة خاصّة بنورِ الإسلام)[١].

**٥_ المحفّزاتُ المعرفيّةُ للدّراساتِ الاستشراقيّةِ:**

تعدّدتِ الأغراضُ العلميّةُ التي دفعتِ المستشرقينَ إلى دراسةِ الشّرقِ، ومن أبرزها:

أ/ الفضولُ اللُّغويّ: الرّغبةُ في فهمِ لغةِ القرآنِ الكريمِ لمقارنتِها باللُّغاتِ السّاميّةِ، والوصولِ إلى فهمٍ أعمقَ للنصوصِ الدِّينيّةِ[٢].

ب/ الاستكشافُ الحضاريّ: دراسةُ علومِ الشّرقِ المزدهرةِ وتاريخِهِ، والبحثُ في المصادرِ الإسلاميّةِ لمعرفةِ تاريخِ الحضاراتِ القديمةِ كاليونانيّةِ، والرّومانيّةِ، التي فُقدتْ أصولُها وحُفظتْ في التّرجماتِ العربيّةِ[٣].

ج/ الدِّراساتُ القرآنيّةُ: يرى الدكتورُ محمّد حسين الصّغير أنّ دراسةَ القرآنِ الكريمِ كانتْ تُمثّلُ (أنبلَ) الأسبابِ العلميّةِ لدى بعضهم مثل: ( بوتيه، وجوستاف فايل، ونولدكه)؛ إذْ دفعَهم الفضولُ المعرفيّ لاستجلاءِ معانِي هذا الكتابِ المقدّسِ[٤].

**٦_ الخدماتُ الجليلةُ للتّراثِ العربيّ والإسلاميّ:**

لا يُمكنُ إغفالُ الجهودِ العظيمةِ التي بذلَها المستشرقونَ (على اختلافِ مشاربِهم) في خدمةِ التّراثِ؛ وتَتمثّلُ في:

أ/ جمعُ المخطوطاتِ وفهرسَتُها؛ إذْ نفضوا غبارَ الزّمانِ عن المخطوطاتِ العربيّةِ الإسلاميّةِ

---

(١) ينظر: أجنحة المكر الثّلاثة: ١٣٣.
(٢) ينظر: المسير في فقه اللُّغة المطور: ١٤.
(٣) ينظر: المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربيّة: ٦٠.
(٤) ينظر: المستشرقون والدِّراسات القرآنيّة: ١٧-٢٠.

من كافّةِ بقاعِ الشّرقِ ونشرُوها، مِمّا سهّلَ مهمّةَ الباحثينَ(١).

ب/ التّحقيق والنّشر: قاموا بتحقيقِ دواوينِ الشّعراءِ وأمّاتِ الكُتبِ العلميّةِ، والأدبيّةِ، والفلسفيّةِ، والطّبّيّةِ، وترجمتِها إلى اللُّغاتِ الأوربيّةِ(٢).

ج/ الجهودُ المعجميّةُ: أدخلُوا الفهارسَ الأبجديّةَ وقارنوا بين النّسخِ الخطّيّةِ لترجيحِ أصحِّها، مِمّا أثرى المكتبةَ العالميّةَ ببحوثٍ لا يمكنُ تجاهلها(٣).

ونخلصُ مِمّا تقدّمَ إلى أنّ السّببَ العلميّ في نشأةِ الخطابِ الاستشراقيّ ظاهرةٌ معقّدةٌ، ومتشابكةٌ مع الأبعادِ الدِّينيّةِ، والسّياسيّةِ؛ فبينما كانَ العلمُ هو السّبيلَ الوحيدَ للغربِ للتقّربِ من الشّرقِ ودراستِهِ(٤)؛ غير أنَّهُ لم يسلمْ تمامًا من التّوظيفِ الاستعماريّ، ومع ذلك تظلُّ الدِّراساتُ الاستشراقيّةُ الجادّةُ مرجعًا مهمًّا وفّرَ فوائدَ جمّةً للباحثينَ وكشفَ عن جوانبٍ حضاريّةٍ لم يتوصّلْ إليها غيرُهم مِمّا يجعلُ من المبالغةِ حصرَ الاستشراقِ في دافعٍ واحدٍ دونَ الآخرِ(٥).

---

(١) ينظر: الاستشراق الإسرائيليّ في المصادر العبريّة: ٣٣.

(٢) ينظر: الخلفيات المنهجيّة في دراسات المستشرقين: ٣٧-٣٩، والاستشراق والخلفية الفكريّة للصراع الحضاريّ: ٦٢-٦٤.

(٣) ينظر: مستشرقون، سياسيون، جامعيون: ١٣٧، والاستشراق والخلفيّة الفكريّة للصراع الحضاريّ: ٦٢-٦٤.

(٤) ينظر: الاستشراق الإسرائيليّ في المصادر العبريّة: ٣١.

(٥) ينظر: المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربيّة: ٦٦.

## المبحثُ الثّالثُ

## تأثّر الخطابِ اللُّغويّ بالدِّراساتِ الاستشراقيّةِ

لم يكنِ الاتّصالُ المعرفيّ بين الدّرسِ اللُّغويّ العربيّ والبحثِ الاستشراقيّ الغربيّ مجرّدَ تلاقٍ عابرٍ بين بيئتينِ مختلفتينِ؛ بل شكّلَ محطّةَ تحوّلٍ جوهريّةٍ أعادتْ صياغةَ كثير من المفاهيمِ والنّظرياتِ المستقرّةِ في لغةِ الضّادِ. فقد وفدَ الاستشراقُ اللُّغويّ إلى التّراثِ العربيّ متسلّحًا بمناهجَ لغويّةٍ حديثةٍ أفرزَتْها الفلسفاتُ الغربيّةُ المعاصرةُ؛ وتراوحتْ غاياتُهُ بين نهمٍ معرفيٍّ لاستكشافِ أسرارِ النّصِّ القرآنيّ ووعاءِ الحضارةِ الإسلاميّةِ، وبينَ رُؤى نقديّةٍ حاولتْ إخضاعَ العربيّةِ لأُطرٍ معرفيّةٍ لم ترعِ خصوصيّتَها البنيويّةَ أو التّاريخيّةَ.

وقد أحدثَ هذا المدُّ الاستشراقيّ فضاءً واسعًا من التّجاذبِ الفكريّ والمنهجيّ في الخطابِ اللُّغويّ يُمكنُ تصوّرهُ بِما يأتي:

**أوّلًا: بواعثُ العناية الاستشراقيّ باللُّغةِ العربيّةِ وتحوّلاتهِ المنهجيّةِ:**

تولّدَت عناية المستشرقينَ باللُّغةِ العربيّةِ نتيجةَ إدراكِهم العميقِ للمكانةِ المركزيّةِ التي تَحتلُّها هذه اللُّغةُ بوصفه وعاءً حضاريّ وثقافيٍّ للأمّةِ، مِمّا جعلَ فهمَها وتحليلَ عُلومِها ضرورةً حتميّةً لاستيعابِ المناهجِ والأساليبِ العربيّةِ[١].

وقد سلكتِ الدِّراساتُ الاستشراقيّةُ في بدايتِها مسلكًا (متذوّقًا) للتراثِ اللُّغويّ العربيّ والفصحى، إلّا أنَّ هذا المسارَ سرعانَ ما شهدَ تحوّلًا جذريًّا نحوَ تطبيقِ الأنماطِ اللّسانيّةِ الغربيّةِ الحديثةِ عقبَ التّطوّراتِ التي طرأتْ على علمِ اللُّغةِ في الغربِ[٢]، وانصرفَ

(١) ينظر: البديل المنهجيّ لدراسة العربيّة عند المستشرقين: ٢٥.

(٢) ينظر: واقع اللُّغة العربيّة وأثر المستشرقين عليها: ١٥٨.

المستشرقونَ إلى إعادةِ وصفِ التّراثِ النّحويّ واللُّغويّ على وفقِ رؤى جديدةٍ ركّزتْ على معاني المفرداتِ وتطوّرِ التّراكيبِ، واتّجَهَ فريقٌ منهم لدراسةِ مفرداتِ النّصِّ القرآنيّ لاستكشافِ أسرارِهِ البنيويّةِ(١).

**ثانيًا: التّجسيرُ المعرفيّ وأثرُهُ في تكوينِ الأجيالِ اللُّغويّةِ العربيّةِ:**

شكّلتِ الجامعاتُ والمؤسّساتُ التّعليميّةُ الأوربيّةُ محضنًا لجيلٍ من الباحثينَ العربِ؛ أمثال: (الدُّكتورُ إبراهيم أنيس، و الدُّكتورُ طه حسين، و الدُّكتورُ عبد الحليم النّجار، و الدُّكتورُ رمضان عبد التّواب، و الدُّكتورُ محمود فهمي حجازي وغيرهم) الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقينَ واستقوا منهم مناهجَ البحثِ العلميِّ في التّحقيقِ والتّدقيقِ(٢)، وقد انعكسَ هذا الاتّصالُ المعرفيّ في تبنّي هؤلاء الباحثينَ للمناهجِ التّاريخيّةِ والمقارنةِ والوصفيّةِ في دراساتهِم، مِمّا حوّلَ السّاحةَ اللُّغويّةَ العربيّةَ إلى فضاءٍ للتبادلِ الفكريّ والمنهجيّ(٣). ولم يقتصرِ التّأثّرُ في الأدواتِ حسب، بل امتدَّ ليشملَ تبنّي اتّجاهاتٍ لسانيّةٍ معاصرةٍ كالبنيويّةِ، والوظيفيّةِ، والتّوليديّةِ، مع التّركيزِ على تغييرِ كثير من قضايا اللُّغةِ المستقرّةِ وإبرازِ الوظائفِ المتعدّدةِ للعناصرِ اللُّغويّةِ بإيعازٍ استشراقيّ(٤). وأسهمَ تبوّء هؤلاء الباحثينَ لمناصبَ تعليميّةٍ قياديّةٍ عندَ عودتِهم في تعديلِ المناهجِ اللُّغويّةِ على وفقِ الرّؤى الغربيّةِ التي اكتسبُوها(٥).

---

(١) ينظر: واقع اللُّغة العربيّة وأثر المستشرقين عليها: ١٥٨.

(٢) ينظر: نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها في الدِّراسات الإسلاميّة: ١٥٩-١٦٠

(٣) ينظر: تحوّلات اللّسانية العربيّة الحديثة من المنحى الوصفيّ إلى المنحى الوظيفيّ: ٢٠٥

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٥.

(٥) ينظر: الاستشراق وأثره في الدِّراسات اللُّغويّة وعلاقته بالسّياسة: ١٢٠-١٢١.

**ثالثًا: نقدُ المنهجِ المعياريّ وإشكاليّةُ عصورِ الاحتجاجِ:**

وجّهَ الخطابُ الاستشراقيّ نقدًا لاذعًا للمناهجِ التي اتّبَعها النّحويّونَ العربُ الأوائلُ، ولا سيّما قضيّةَ (عُصورِ الاحتجاجِ) والضّوابطَ الصّارمةَ التي وضعتْ لجمعِ اللُّغةِ[١]. فقد عابَ مستشرقونَ؛ مثلُ: (نولدكه) و(برجستراسر) و(فيشر) و(رابين) على العربِ تقييدَهم للغةِ بمعاييرِ زمنيّةٍ ومكانيّةٍ محدّدةٍ (نهايةُ القرنِ الثّاني للهجرةِ للحضرِ والرّابعِ للباديةِ)، عادّينَ أنَّ هذه القيودَ خلقتْ حاجزًا أمامَ ثراءِ اللُّغةِ وتطوّرِها[٢]. وقد تبنّى هذا النّقدَ باحثونَ عربٌ؛ مثلُ: الدّكتور إبراهيم أنيس الذي وصفَ تلك الضّوابطَ بـ(دكتاتوريةِ الزّمانِ والمكانِ)[٣]. ورأى الدّكتور كمال بشر أنَّ هذا التّحديدَ أدّى إلى إغلاقِ بابِ البحثِ اللُّغويّ وعجزِ الباحثينَ عن إدراك التّحوّلاتِ اللُّغويّةِ الكبرى عبرَ التّاريخِ[٤]. وذهبَ آخرون للتشكيكِ في تمثيلِ الشّعرِ الجاهليّ للبيئةِ اللُّغويّةِ بدقّةٍ، معتبرينَ الاعتمادَ عليهِ وحدهُ في وضعِ القواعدِ دعوةً غيرَ دقيقةٍ[٥].

**رابعًا: ثنائيّةُ الفصحى والعاميّةِ ودعواتُ الإحلالِ اللُّغويّ:**

أثارَ المستشرقونَ قضيّةَ (الازدواجِ اللُّغويّ) مصورّينَ وجودَ الفصحى إلى جانبِ العاميّةِ كعقبةٍ تواجهُ اللُّغةَ العربيّةَ[٦]. وذهبتْ بعضُ الرّؤى الاستشراقيّةِ إلى وصفِ الفصحى

---

(١) ينظر: الشّامل معجم علوم اللُّغة العربيّة ومصطلحاتها: ٥٥-٥٦، والمعاجم العربيّة رؤية تاريخيّة وتقويميّة: ١٢، والبحث اللُّغويّ عند العرب مع دراسة قضية التّأثير والتّأثر: ٥٠-٥١، وبحوث في الاستشراق: ٣٢٥.

(٢) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة : ٢٠٣-٢٠٥، ونحو معجم تاريخيّ للغة العربيّة: ٨٣، ومجمع اللُّغة العربيّة في خمسين عاماً: ١٤٥، والمعجم العربيّ – نشأته وتطوّره: ٢/ ٨٤، واللّغات السّاميّة: ٧٩.

(٣) ينظر: من أسرار اللُّغة: ٣١.

(٤) ينظر: التّفكير اللُّغويّ بين القديم والجديد: ٣٢١.

(٥) ينظر: لغة الشّعر دراسة في الضّرورة الشّعريّة: ٧، وموقف النّحاة المعاصرين من القراءات: ٤٥.

(٦) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٩٠.

بأنَّها "لغةٌ ميّتةٌ" أو في طريقِها للهلاكِ، مقابلَ الاحتفاءِ بالعامّيّاتِ بوصفها واقعًا لغويًّا حيًّا يَستحقُّ التّقعيدَ(١). وقادَ مستشرقونَ مثلُ (ولهلم سبيتا) و(سلدون والمور) دعواتٍ صريحةً لإحلالِ العامّيّةِ محلَّ الفصحى في الكتابةِ والتّعليمِ بدعوى تيسيرِ النّهضةِ الحضاريّةِ(٢). وتأثّرَ بهذا التّوجّهِ ثلّةٌ من المفكّرينَ العربِ، كانَ من أبكرِهم: رفاعةُ الطّهطاويّ في بعضِ جوانبِهِ(٣)، وسلامة موسى الذي نادى صراحةً بنبذِ الفصحى وعدّ العامّيّةِ هي لُغةَ الابتكارِ والفهمِ(٤). وسارَ في هذا الرّكبِ أحمد لطفي السَّيِّد الذي مجّدَ العامّيّةَ وحثَّ على استعمال مفرداتِها في الكتابةِ(٥)، وأنيس فريحة الذي رأى في العامّيّةِ توفيرًا للجهدِ الذهنيّ المهدرِ في تعلّمِ قواعدِ الفصحى(٦).

**خامسًا: قضيّةُ الإعرابِ ودعواتُ تيسيرِ النّحوِ:**

عدَّ المستشرقون أنّ (نظامَ الإعرابِ) يُمثّل العقبةَ الكبرى في سبيلِ انتشارِ الفصحى، مِمّا دفعَهم للمطالبةِ بإلغائِهِ تحتَ شعارِ (تيسير النّحو)(٧). وزعمَ مستشرقون؛ مثل: (كارل فوللرز)

---

(١) ينظر: التّأثيرات الاستشراقيّة في مسيرة اللُّغة العربيّة الفصحى – بين الإنصاف والإجحاف: ٣١١، والعربيّة الفصحى الحديثة (بحوث في تطور الألفاظ والأساليب): ١٨–١٩، وأضواء على الدِّراسات اللُّغويّة المعاصرة: ٨٩، ومخاطر استهداف المستشرقين للغة العربيّة: ٥٤–٥٥، والمستشرقون وتأثرهم بالفكر اللُّغويّ: ٢٠،

(٢) ينظر: تاريخ الدّعوة إلى العامّيّة وآثارها في مصر: ٢٧–٢٨، وفي علم اللُّغة العامّ: ٢٦٩–٢٧٠.

(٣) ينظر: السّياسة اللُّغويّة في البلاد العربيّة: ٤٥.

(٤) ينظر: تربية سلامة موسى: ٣٤، والبلاغة العصرية واللُّغة العربيّة (سلامة موسى): ٥٤، والتّثقيف الذاتيّ: ١٥٥، ومقالات ممنوعة: ١٨٠.

(٥) ينظر: تاريخ الدّعوة إلى العامّيّة وآثارها في مصر: ١٢٤_ ١٢٥، والموسوعة الإسلاميّة العربيّة: ١٠/ ١٨٧، ورجال اختلف فيهم الرأي من ارسطو إلى لويس عوض: ٢_٨.

(٦) ينظر: نحو عربيّة ميسرة: ١٣٧.

(٧) ينظر: بحوث في الاستشراق واللُّغة: ٣١٤، وواقع اللُّغة العربيّة وأثر المستشرقين عليها: ١٥٩، ١٦٣.

أنَّ الإعرابَ كان من اختراعِ النّحويّين ولم يكنْ موجودًا في العربيّةِ الأولى(١)، وهو ما ردّدهُ (كوهين) و(مارل كون) بوصفِهما للإعرابِ بأنَّهُ صعوبةٌ تمنعُ انسيابَ الفكرِ(٢). وقد انتقلَ هذا الطّرحُ إلى الدِّراساتِ العربيّةِ الحديثةِ، فقد أنكرَ الدّكتور إبراهيم أنيس الدّلالةَ المعنويّةَ للحركاتِ الإعرابيّةِ معتبرًا إيّاها مجرّدَ وسيلةٍ لوصلِ الكلماتِ(٣). ودعا باحثونَ؛ مثلُ: إبراهيم مصطفى(٤) وعبد المتعال الصعيديّ إلى التّخلّصِ من العلاماتِ الإعرابيّةِ أو تسكينِ أواخرِ الكلماتِ(٥)؛ واقترحَ المستشرقُ (وليم ولكوكس) الابتعادَ عن التّكلّفِ(٦).

**سادسًا: نقضُ نظريّةِ (العامل) والبحثُ عن بدائلَ سياقيّةٍ:**

استهدفَ الخطابُ الاستشراقيّ (نظريّةَ العاملِ) بوصفِها حجرَ الزّاويةِ في النّحوِ العربيّ، فقد زعمَ (يوهان فك) أنَّها نشأتْ بتأثّرٍ من الأعاجمِ والمنطقِ الأجنبيّ(٧). وفي محاولةٍ لإيجادِ بديلٍ، اقترحَ المستشرقُ البريطانيّ (فيرث) دراسةَ المستوياتِ اللُّغويّةِ السّياقيّةِ بدلًا من العواملِ النّحويّةِ(٨). وقد تأثّرَ الدّكتور تمّام حسّان بهذا الاتّجاهِ، فقامَ بإعادةِ قراءةِ التّراثِ النّحويّ في ضوءِ النظريّةِ السّياقيّةِ ونظريّةِ القرائن، عادًّا إيّاها وسيلةً لتحريرِ اللُّغةِ من هيمنةِ الإعرابِ

---

(١) ينظر: فقه اللُّغة (مفهومه، موضوعاته، قضاياه): ٤١٥.
(٢) ينظر: واقع اللُّغة العربيّة وأثر المستشرقين عليها: ١٦٣، وفقه اللُّغة (مفهومه، موضوعاته، قضاياه): ٤١٥، وفقه اللُّغة المقارن: ١٢٣.
(٣) ينظر: من أسرار اللُّغة: ٢٠٩
(٤) ينظر: إحياء النّحو: ٤٣-٤٦،
(٥) ينظر: النّحو الجديد: ١٢٢.
(٦) ينظر: تيارات مسمومة ونظريّات هدامة: ٢٧٢.
(٧) ينظر: العربيّة دراسات في اللُّغة واللّهجات والأساليب (يوهان فِك): ١١-١٣.
(٨) ينظر: منهج البحث اللُّغويّ بين التّراث وعلم اللُّغة الحديث: ١٧٤.

وتخليصِ النّحو من التّعقيدِ والتّأويلِ الذي يشوبهُ التّكلّفُ [١].

**سابعًا: الجدلُ حولَ أصالةِ الفكرِ النّحويّ العربيّ:**

شكّكَ قطاعٌ واسعٌ من المستشرقينَ؛ مثلُ: (جولد تسيهر)، و(بروكلمان)، و(فون كريمر) في أصالةِ النّحو العربيّ، مرجعينَ أصولَهُ إلى الفكرِ اليونانيّ أو السّريانيّ أو الآراميّ[٢]. وادّعى هؤلاء أنَّ تقسيمَ الكلامِ والمصطلحاتِ النّحويّةِ ما هي إلّا اقتباساتٌ مترجمةٌ[٣]. إلّا أنَّ التّحقيقَ العلميّ الرّصينَ يؤكّدُ أنَّ هذه الآراءَ تفتقرُ إلى الدّقّةِ؛ فتشابهُ المصطلحاتِ أو العمليّاتِ العقليّةِ لا يعني التّبعيّةَ، بل هو نتاجٌ طبيعيّ لتشابِهِ العقلِ البشريّ في استنتاجِ القواعدِ المنطقيّةِ، وتظلُّ هذه الدّعواتُ محاولاتٍ لتقويضِ ارتباطِ اللُّغةِ الوثيقِ بالقرآنِ الكريمِ الذي حفظَ للعربيّةِ هويّتها وبنيتَها عبرَ القرونِ.

وخلاصةُ ما يُمكنُ قولُهُ _هنا_ إنَّ الخطابَ اللُّغويّ الاستشراقيّ قد أثّرَ في الفكرِ اللُّغويّ العربيّ المعاصرِ، وأحدثتِ الطّروحاتُ الاستشراقيّةُ (أزمةً معرفيّةً) داخلَ المؤسّساتِ الأكاديميّةِ العربيّةِ في مطلعِ القرنِ العشرينَ. وانقسمَ الفكرُ اللُّغويّ العربيّ المعاصرُ إزاءَ هذا الخطابِ على تيّارينِ بارزينِ؛ الأوّلُ: تيّارُ التّبنّي والمحاكاةِ المنهجيّةِ: وهوَ تيّارٌ قادهُ باحثونَ كبارٌ تلقّوا علومهُم في الغربِ أو تأثّروا بمناهجِهِ؛ مثلُ: (الدّكتور إبراهيم أنيس، و الدّكتور تمّام حسّان، و الدّكتور عبد الصبور شاهين)، وغيرهم. وعمدَ هذا التّيّارُ إلى الإفادةِ من آليّاتِ المناهجِ اللُّغويّةِ الغربيّةِ لإعادةِ قراءةِ النّحو العربيّ، وتيسيرِهِ[٤]. والثّاني: تيّارُ الرّدِّ والدّفاعِ الإيديولوجيّ: وهو تيّارٌ انبرى لمواجهةِ الأبعادِ (الخفيّةِ) للخطابِ الاستشراقيّ مستبسلًا في إثباتِ أصالةِ التّراثِ

(١) ينظر: اللُّغة العربيّة معناها ومبناها: ١٨٩، ٢٠٥، واللُّغة بين المعياريّة والوصفيّة: ٤٢-٥٣.
(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربيّ، بروكلمان: ٢/ ١٢٣، والفكر النّحويّ عند العرب أصوله ومناهجه: ١٠٧.
(٣) ينظر: الفكر اللُّغويّ بين اليونان والعرب: ١٧، ونظريّات في اللُّغة: ٣٨.
(٤) ينظر: اللُّغة العربيّة معناها ومبناها: ١٢_١٥، وأسرار اللُّغة: ١٦٥.

اللُّغويّ العربيّ، وعبقريّةِ التّقعيدِ الخليليّ، والتّأكيدِ على أنَّ الدّرسَ اللُّغويّ عندَ العربِ قد اشتملَ على وعي وصفيّ وتاريخيّ مبكّرٍ فاقَ بهِ نظيرهُ الغربيّ بقرونٍ(١).

وأخيرًا؛ إنَّ تكوينَ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ يُمثّلُ صورةً معرفيّةً مُعقّدةً؛ لا يجوزُ اختزالها في تُهمةِ العداءِ المحضِ، ولا ينبغي قبولُها بآليّاتِها وإسقاطاتِها من دونَ نقدٍ وتمحيصٍ معرفيٍّ صارمٍ؛ فقد خدمَ الاستشراقُ التّراثَ العربيّ خدمةً كبيرةً عبرَ تحقيقِ المخطوطاتِ الكبرى وفهرستِها ووصفِ البنى اللُّغويّةِ؛ ولكنّهُ ظلَّ محكومًا بمرجعيّاتِهِ الفكريّةِ وظروفِهِ التّاريخيّةِ الخاصّةِ.

(١) ينظر: تجديد النّحو: ١٥_٢٢.

# الفصل الثّالث

## المادّة اللُّغويّة في الخطاب اللُّغويّ الاستشراقيّ

المبحث الأوّل: المادّة الصّوتيّة في الخطابِ اللّغويّ الاستشراقيّ

المبحث الثاني: المادّة الصّرفيّة في الخطاب اللّغويّ الاستشراقيّ

المبحث الثالث: المادّة النّحويّة في الخطابِ اللّغويّ الاستشراقيّ

**توطئة:**

تُعَدُّ المادّةُ اللُّغوِيّةُ مِحورًا رَئِيسًا في الخِطابِ اللُّغَوِيّ الاستِشراقِيِّ؛ إذِ اتَّخذَها المُستَشرقُونَ مَيدانًا خَصبًا للدِّراسَةِ والتّحليلِ، فَوجَّهُوا عِنَايتهُمْ إِلَى مُختَلفِ مُستَوياتِ اللُّغةِ العَربيَّةِ، مِنْ أَصواتِهَا وبِنيتِهَا الصّرفيَّةِ وَنظَامهَا النَّحوِيّ، مُنطَلِقِينَ مِنْ قَناعَةٍ بأنَّ الإحاطَةَ بِهذهِ المُستَوياتِ تُمثِّلُ سَبِيلًا لِفَهمِ بِنيةِ العرَبِيَّةِ وَالكَشفِ عَنْ خصَائصِهَا وتَفسِيرِ ظَواهِرِهَا. ولم يَقفْ جُهدُهُمْ عِنْدَ حَدِّ الوصفِ وَجَمعِ المادَّةِ اللُّغويَّةِ، بَلْ تَجَاوزهُ إِلَى مُقارنَتهَا بِاللُّغَاتِ السَّاميَّةِ وَغَيرِهَا، وَتفسِيرِ نَشأتهَا وتَطوُّرِهَا في ضَوءِ المناهِجِ اللُّغوِيّةِ الحَدِيثةِ، وَلَا سيّما المَنهجُ الوَصفِيُّ والتَّارِيخيُّ وَالمُقَارنُ.

وَقَد أفضَتْ هَذهِ الجُهُودُ إِلى نَتَائجَ مُتَباينةٍ؛ فَمنهَا مَا اتَّسمَ بِالمَوضُوعيَّةِ والإنصَافِ، وأقرَّ بِأصالةِ الدّرسِ اللُّغوِيِّ العَربِيِّ وريادةِ عُلمائهِ، ومِنهَا ما تَأثّرَ بِخلفِيَّاتٍ فِكريَّةٍ ومَنهَجِيَّةٍ أَدَّتْ إلى إثَارةِ قضَايَا جَدليَّةٍ أو تَبنِّي تَفسيرَاتٍ لا تَنسَجِمُ معَ مَعطيَاتِ التُّراثِ اللُّغوِيّ العرَبِيِّ. ومِنْ هُنَا تَبرزُ أهمِّيَّةُ درَاسةِ المادَّةِ اللُّغوِيَّةِ في الخطَابِ اللُّغوِيِّ الاِستِشرَاقِيّ؛ لأنَهَا تُمكِّنُ مِنَ الوُقُوفِ على مَنهَجِ المُستَشرِقِينَ في مُعالجَةِ المُستَوَياتِ اللُّغَوِيَّةِ المُختَلِفَةِ، وَتُبيّنُ اتِّجاهَاتِهِمْ فِي تَفسِيرِ الظَّواهِرِ اللُّغويَّةِ، وتُقَوِّمُ آراءهُمْ في ضَوءِ مَا أرسَاهُ عُلمَاءُ العَربِيّةِ، وما انتَهَتْ إليهِ الدِّراسَاتُ اللّسانيَّةُ الحَديثَةُ.

## المبحثُ الأوّل

## المادّةُ الصّوتيّةُ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ:

حظي الدّرسُ الصّوتيّ بعنايةٍ كبيرةٍ من لدن المستشرقين؛ لما تُمثّلُهُ الأصواتُ من أساسٍ في فهمِ بنيةِ اللُّغةِ العربيّةِ وخصائِصِها، لذلك اتّجَهَ كثيرٌ منهُم إلى دراسةِ النّظامِ الصّوتيّ دراسةً دقيقةً، فتناولوا مخارجَها وصفاتِها وكيفيّةَ تشكّلِها وتحليلِها، وأفردوا لذلك أبوابًا خاصّةً في مؤلّفاتِهم وأبحاثِهم، وقد كشفتْ هذه الجهودُ عن عناية واضحة بالمستوى الصّوتيّ، فضلًا عن سعيهم إلى موازنةِ ما توصّلوا إليهِ بِما وردَ عندَ علماءِ العربيّةِ القُدماء في تراثِهم اللُّغويّ. وسنتحدّثُ في هذا المبحثِ عن المادّةِ الصّوتيّةِ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ في ضوءِ المحاورِ الصّوتيّةِ الآتيةِ:

### أوّلًا: ريادةُ عُلماءِ العربيّةِ في الدّرسِ الصّوتيّ بمنظارٍ استشراقيّ:

يُعدُّ البحثُ في ماهيّةِ الأصواتِ اللُّغويّةِ ونظامِها المتكاملِ من أقدمِ المجالاتِ اللُّغويّةِ وأكثرِها حيويّةً في دراساتِ اللُّغاتِ القديمةِ والحديثةِ على حدٍّ سواءٍ؛ إذْ لا توجدُ لغةٌ حيّةٌ قابلةٌ للتداولِ البشريِّ إلّا وكانَ نظامُها الصّوتيُّ محطَّ عناية لغويّيها[1]. فالصّوتُ يُمثّلُ الحجرَ الأساسَ والبنيةَ الأوّليّةَ في تشكيلِ المفرداتِ وتراكيبِ الجملِ منذُ عُهودٍ سحيقةٍ، وحيثُ إنَّهُ لا يُمكنُ للمستوياتِ اللُّغويّةِ الأخرى (الصّرفيّة والتّركيبيّةِ والمعجميّةِ والدّلاليّةِ) أنْ تستقيمَ وتؤدّيَ وظيفتَها الاتّصاليّةَ من دونِ انضباطِ الأداءِ الصّوتيّ. غدا الصّوتُ الأداةَ المحوريّةَ للاتّصالِ البشريِّ، والظّاهرةَ الطبيعيّةَ الفيزيائيّةَ التي يُدركُ بِها الإنسانُ ماهيّةَ العالمِ المحيطِ بهِ. وقد أثبتتِ التّجاربُ المخبريّةُ والفيزيائيّةُ في علمِ الأصواتِ الحديثِ أنَّ الصّوتَ المسموعَ هو نتاجُ

---

(١) ينظر: علم اللُّغة، السعران: ٨٧.

اهتزازِ جسمٍ مادّيٍّ، ينتقلُ أثرُهُ التّموّجيُّ عبرَ أوساطٍ مختلفةٍ (غازيّةٍ، أو سائلةٍ، أو صلبةٍ) حتّى يستقرَّ في الجهازِ السّمعيِّ للمتلقّي(١). وبناءً على هذهِ الأهمّيّةِ القصوى، التفتَ المستشرقونَ إلى التّراثِ الصّوتيّ العربيّ، وخصّوهُ بعنايةٍ فائقةٍ ودراسةٍ فاحصةٍ؛ مدفوعينَ بإدراكِهم أنَّ فهمَ بنيةِ العربيّةِ الفصحى وخصائصِها التّركيبيّةِ والاشتقاقيّةِ لا يتأتّى إلّا بالولوجِ من بوّابةِ نظامِها الصّوتيّ. فدرسوا مخارجَ الأصواتِ، وصفاتِها، وآليّةَ تشكُّلِها الفيزيولوجيّةِ، ووازنوا بين تلك المعطياتِ وما أفرزتْهُ المناهجُ الصّوتيّةُ الحديثةُ في الغربِ وبينَ ما سطّرهُ علماءُ العربيّةِ الأوائلُ في مصنّفاتِهم الخالدةِ.

ويُمكنُ توكيدُ مبدأ ريادةِ علماءِ العربيّةِ في هذا الحقلِ المعرفيّ من خلالِ:

**١_ نشأةُ الفكرِ الصّوتيّ العربيّ ودوافعهُ الدِّينيّةُ واللُّغويّةُ:**

يجمعُ مُنْصِفُو الدّارسينَ والباحثينَ، مِنْ عربٍ وغربيّينَ، على أنَّ التّراثَ الصّوتيَّ العربيّ يُعدُّ مِنْ أغنى وأدقِّ ما خلَّفتْهُ العبقريّةُ اللُّغويّةُ القديمةُ؛ فقد كانَ لعلماءِ العربيّةِ السَّبقُ المطلقُ في وضعِ اللبناتِ والأسسِ الأولى لعلمِ الأصواتِ قبلَ أن يتنبَّهَ إليه الغربُ بمئاتِ السّنينِ(٢). ولم تكنْ هذه النّشأةُ وليدةَ التّرفِ الفكريِّ، بل كانتْ مشدودةً برباطٍ وثيقٍ إلى دافعٍ مقدَّسٍ؛ وهو خدمةُ النّصِّ القرآنيِّ الكريمِ، وضبطُ أدائِهِ التّرتيليِّ، وصيانتُهُ مِنَ الخطأِ والتّحريفِ واللّحنِ الذي بدأ يتفشَّى عقبَ اتّساعِ الرّقعةِ الجغرافيّةِ للدولةِ الإسلاميّةِ ودخولِ الأعاجمِ في الدّينِ الجديدِ. وإلى جانبِ هذا الدّافعِ، أسهمتْ طبيعةُ العربيّةِ القائمةُ في جانبٍ أصيلٍ من تلقّيها على السّماعِ والمشافهةِ في توجيهِ عنايةِ علمائِها إلى الأصواتِ ونسيجِها وطرائقِ ائتلافِها في بناءِ الألفاظِ؛

---

(١) ينظر: الأصوات اللُّغويّة: ٦.

(٢) ينظر: دراسة تقويمية لمحتوى الأصوات اللُّغويّة في منهاج اللُّغة العربيّة في ضوء المعايير الواجب توافرها فيه: ٣٣.

فلم يقفْ اهتمامُهم عند حدودِ وصفِ الأصواتِ مفردةً، بل امتدَّ إلى ملاحظةِ انسجامِها وتآلفِها، حتى جعلوا حُسنَ ائتلافِ الحروفِ والأصواتِ وخلوَّها من التّنافرِ من المعاييرِ التي تتّصلُ بفصاحةِ المفردةِ. وفي العصورِ الأولى، كان العربيّ يَنطقُ بالسّليقةِ اللُّغويّةِ النّقيّةِ المُستمدَّةِ مِنْ بيئتِهِ البكرِ من دونِ حاجةٍ إلى موجِّهٍ أو معلِّمٍ. غيرَ أنَّ اختلاطَ الألسنةِ أوجبَ على اللُّغويّينَ الأوائلِ الانكبابَ على دراسةِ الأصواتِ حفاظًا على صفاءِ الفصحى(١).

وتَتّفقُ القراءاتُ التّاريخيّةُ على أنَّ البدايةَ الإجرائيّةَ لهذا الدّرسِ تَمثّلتْ في جهودِ أبي الأسود الدّؤلي (ت ٦٩هـ)، الذي وضعَ الرّموزَ والحركاتِ الإعرابيّةَ (التّنقيطَ) لحمايةِ القراءةِ القرآنيّةِ، وهي الخطوةُ التي مثّلتِ الإرهاصاتِ الأولى للمستوى الصّوتيّ عند العربِ(٢). وتدرَّجَتْ هذه العناية وتكاملَتْ حتّى تبلورَ علمٌ مستقلٌّ بذاتِهِ مِنْ حيثُ الممارسةُ وإنْ تداخلَ تصنيفيًّا مع النّحو، وهو (علمُ التّجويدِ)؛ الذي عُدَّ أوَّلَ محاولةٍ علميّةٍ لإفرادِ الأصواتِ بالبحثِ الوصفيِّ الدّقيقِ لضبطِ الأداءِ الفطريِّ وتحويلِهِ إلى قواعدَ منضبطةٍ. وقد أضفى هذا الارتباطُ الدّينيُّ طابعًا وصفيًّا ومعجميًّا وصرفيًّا على دراساتِ النّحاةِ والقرّاءِ(٣). وعلى الرّغم مِنْ أنَّهم أغفلوا في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ جانبَ التّطوّر التّاريخيِّ للأصواتِ _وهو مأخذٌ سجَّلتْهُ اللّسانيّاتُ الحديثةُ_ فإنَّ أهدافَهم كانتْ محدّدةً بدقّةٍ؛ وهي:

١_ تحقيقُ النّطقِ المعياريِّ السّليمِ للصوتِ العربيّ.

٢_ تبيُّنُ التّشكيلِ البنيويِّ للمفرداتِ.

---

(١) ينظر: فقه اللُّغة وخصائص العربيّة دراسة تحليليّة مقارنه للكلمة العربيّة وعرض لمنهج العربيّة الأصيل في التّجديد والتّوليد: ٤٣.

(٢) ينظر: الدّرس الصّوتيّ العربيّ بين التأصيل والتأسيس –دراسة مقارنة بين ابن جنّي وابراهيم أنيس: ١٢–١٣.

(٣) ينظر: دروس في علم أصوات العربيّة: ١١.

٣_ الكشفُ عن ائتلافِ الأصواتِ وتنافرِها، ومعرفةُ القوانينِ التي تحكمُ ترتيبَ الألفاظِ داخلَ المعجماتِ اللُّغويّة بناءً على مخارجِ الأصوات(١).

وقد وعى القُدماء الفرقَ بينَ (الصّوتِ) بوصفه ظاهرةً فيزيائيّةً عامّةً تشملُ كلَّ ما يصدرُ عن اللّسان والبشرِ من كلامٍ منظومٍ أو منثورٍ للتعبيرِ عن خلجاتِ النّفسِ، وبينَ (الحرفِ) كونه هواءً منطلقًا من الرّئتينِ يتشكّلُ ويتكيّفُ بمرورِهِ بأعضاءِ النّطق والأحبالِ الصّوتيّة ويتحيّزُ في مخرجٍ محدّدٍ(٢).

**٢_ معالمُ الرِّيادةِ في البناءِ الصّوتيّ (الخليلُ، وسيبويهِ، وابنُ جنّي، وابنُ سينا):**

**أ_ الخليلُ بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٧٥هـ):**

يُمثِّلُ الخليلُ بنُ أحمدَ المعلِّمَ الأوَّلَ والمنطلقَ الأساسيّ للدَّرسِ الصّوتيّ العربيّ، ويتجلَّى ذكاؤُهُ الفذُّ وعبقريّتُهُ المستقلَّةُ في مقدّمةِ معجمِهِ الرّائدِ (العين). لقد أحدثَ الخليلُ ثورةً منهجيّةً عندما رتَّبَ حروفَ معجمِهِ ترتيبًا صوتيًّا خالصًا، مبتدئًا مِنْ أقصى الحلقِ (حروفِ الفمِ الدّاخليِّ) ومتدرّجًا نحوَ الشّفتين. وقد نالتْ هذه الخطوةُ إعجابَ اللُّغويّينَ المحدثينَ؛ إذْ أكَّدَ الدّكتور إبراهيم أنيس أنَّ الخليلَ كان عَلَمًا بارزًا لمعَ اسمُهُ في ميادينَ شتّى، وصنعَ ما يعجزُ عنهُ الفردُ في دراسةِ مخارجِ الأصواتِ وصفاتِها وتحديدِ مواضعِ خروجِها وموازنتِها بدقةٍ متناهيةٍ(٣). ولم تقفْ عبقريّةُ الخليلِ عندَ رصدِ المخرجِ، بل كان باحثًا صوتيًّا يمتلكُ قوّةَ استقصاءٍ استثنائيّةٍ سبقتْ عصرَهُ، فغدتْ آراؤُهُ المرجعيّةُ والمادَّةُ الخامُ التي استقى مِنها

(١) ينظر: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، شاده، بحث صحيفة الجامعة المصريّة: ٦-٧.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللُّغة:٣٦٨، ولسان العرب:٣٦٢/٢، والبيان والتبيين: ٧٩/١.
(٣) ينظر: الأصوات اللُّغويّة: ١١١.

اللُّغويّونَ اللّاحقونَ مصطلحاتِهم وشروحَهم[١].

**ب_ سيبويه (ت ١٨٠هـ):**

جاءَ سيبويه، تلميذُ الخليلِ بن أحمد الفراهيديّ النّابغُ، ليُعمِّقَ هذا المجرى الصّوتيَّ في كتابِهِ الخالدِ (الكتاب). لم يقفْ سيبويهِ عندَ حدودِ ما تلقّاهُ عن أستاذِهِ، بل أضافَ واكتشفَ ووصفَ أعضاءَ النّطقِ بدقّةٍ تشريحيّةٍ مذهلةٍ قياسًا بعصرِهِ، ومن شواهدِ ذلكَ وصفُهُ الدّقيقُ لمخرجِ صوتِ القافِ حينَ قالَ: "ومن أقصى اللّسان وفوقِهِ من الحنكِ الأعلى مخرجُ القافِ"[٢]. لقد حفلَ (الكتابُ) بمادّةٍ صوتيّةٍ ناضجةٍ، وصاغَ جملةً من المفاهيمِ والمصطلحاتِ الدّقيقةِ التي أسّستْ للنظريّةِ الصّوتيّة، مثلَ رصدِهِ المعجزِ لظاهرةِ (الإدغامِ) وقوانينِهِ التّيسيريّةِ في النّطقِ البشريِّ. لذا صارَ عملُ الخليلِ وسيبويهِ المرجعيّةَ والملاذَ الأوّلَ لعلماءِ النّحو والقراءاتِ[٣].

**ج_ ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ):**

تطوَّرتِ النّظريّةُ الصّوتيةُ العربيّةُ وتكاملت استقلاليّتُها على يدِ ابن جنّي، ولا سيّما في سفرِهِ النّفيسِ (سرِّ صناعةِ الإعراب). ويُسجِّلُ التّاريخُ لابنِ جنّي أنَّهُ أوّلُ من سكَّ واستعملَ المصطلحَ اللُّغويّ الدّقيقَ: (علم الأصوات)[٤]. وقد قاربَ ابنُ جنّي الأصواتَ العربيّةَ دراسةً وبحثًا بمعزلٍ عن ربقتِها النّحويّةِ التّقليديّةِ، مُتيحًا للبحثِ اللُّغويِّ أفقًا أرحبَ وأعمقَ، ممَّا جعلَهُ يسبقُ الفكرَ اللُّغويّ في إفرادِ فنِّ الأصواتِ ببحثٍ مُشبَعٍ ومستقلٍّ نسبيًّا ومستقرَّ

---

(١) ينظر: كتاب العين: ٦٥، والأصوات العربيّة بين الخليل وسيبويه: ٣٥٣.

(٢) الكتاب: ٤/ ٤٣٣.

(٣) ينظر: علم الصوتيّات: ٧٧-٧٨.

(٤) ينظر: البحث اللُّغويّ عند العرب مع دراسة لقضيّة التّأثير والتّأثر: ١٠١.

المصطلحاتِ[١].

**د_ ابن سينا(ت ٤٢٨هـ):**

يبدو أنَّ الدّرسَ الصّوتيَّ العربيّ قد بلغَ ذُروتَهُ النّظريَّةَ والمنهجيّةَ عندَ ابن سينا، ولا سيّما في رسالتِهِ المعروفةِ بـ(أسبابِ حدوثِ الحروفِ)، إذْ تناولَ فيها القضايا الأساسَيّةَ المتعلّقةَ بالصّوتِ من منظورٍ فيزيولوجيٍّ وفيزيائيٍّ دقيقٍ، مستندًا إلى معارفِ التّشريحِ ووظائفِ الأعضاءِ. وقد اتّسمتْ معالجتُهُ بقدرٍ عالٍ من الدّقّةِ التّحليليَّةِ، إذْ تجاوزتِ الإطارَ اللُّغويّ التّقليديَّ إلى مقاربةٍ علميّةٍ تقتربُ من منهجِ الدّراساتِ الفسيولوجيَّةِ الحديثةِ، من خلالِ وصفِ آليّاتِ إنتاجِ الأصواتِ ورصدِ التّحوّلاتِ التي تطرأُ على أعضاءِ النّطقِ في أثناءِ عمليَّةِ التّصويتِ. وتميَّزَ استعمالُهُ لمصطلحاتٍ ذاتِ طابعٍ علميٍّ خاصٍّ لم تكنْ معهودةً عندَ اللُّغويّينَ والنُّحاةِ السّابقينَ، الأمرُ الذي أضفى على مشروعِهِ الصّوتيّ طابعًا رياديًّا في تاريخِ الدّراساتِ الصّوتيّةِ العربيّةِ، وجعلَهُ من أبرزِ المحاولاتِ التّأسيسيَّةِ في هذا المجالِ[٢].

**٣_ شهاداتُ المستشرقينَ والاعترافُ بالأصالةِ والعبقريّةِ اللُّغويّةِ:**

وقفَ المستشرقونَ أمامَ هذا النّتاجِ الصّوتيّ القديمِ موقفَ المندهشِ والمعجبِ بصدقِ الملاحظةِ اللُّغويّةِ ودقّتِها؛ فقد أقرّوا بأنَّ علماءَ العربيّةِ أحاطوا بالمفهومِ العلميّ للصوتِ مُنْذُ وقتٍ مبكّرٍ، اعتمادًا على صدقِ حسِّهمِ اللُّغويّ وقربِهم من الفصحى المشافهةِ[٣]. وعلى الرّغمِ من خلوِّ عصرِ القُدماء من أدواتِ التّشريحِ المخبريِّ والآلاتِ التّكنولوجيّةِ الدّقيقةِ والمختبراتِ الصّوتيّةِ الحديثةِ، واعتمادِهم الكُلّيِّ على الملاحظةِ الذّاتيّةِ والتّجاربِ الفرديّةِ؛ إنَّهم تمكّنوا من

---

(١) ينظر: سرّ صناعة الإعراب: ٥٦/١.

(٢) ينظر: البحث اللُّغويّ عند العرب مع دراسة لقضيّة التّأثير والتّأثر: ١٠٣.

(٣) ينظر: الأصوات اللُّغويّة: ٤.

تسميةِ أعضاءِ النّطقِ وتحديدِ مخارجِ الأصواتِ بدقّةٍ تضاهي _وفي كثيرٍ من الأحيانِ تطابقُ_ ما انتهتْ إليهِ اللّسانياتُ الغربيّةُ المعاصرةُ المستعينةُ بالتّقنياتِ الحديثةِ(١).

وقد برزتْ في هذا الميدانِ اعترافاتٌ استشراقيّةٌ منصفةٌ دحضتْ مزاعمَ بعضِ المستشرقينَ، مثلَ (فوللرز) و(فانتينو)، الذينَ حاولوا غمطَ حقِّ العربِ بادّعاءِ تأثّرِهم بالهنودِ أو اليونانِ؛ ومنهم:

١_ المستشرقُ الألمانيُّ (شاده): ويُعدُّ مِنْ أبرزِ وأشهرِ المفنِّدينَ لفِريةِ التّأثّر بالهُنودِ. وقد أعلنَ بصراحةٍ في محاضرتِهِ الشّهيرةِ بـ(الجمعيّةِ الجغرافيّةِ الملكيّةِ بالقاهرةِ) الموسومةِ بـ(علمُ الأصواتِ عندَ سيبويهِ وعندَنا) أنَّ منهجَ العربِ مباينٌ تمامًا لمنهجِ الهُنودِ، وأنَّ العربَ استحدثُوا هذا العلمَ بعبقريّتِهِمْ ومداركِهِمُ اللُّغويّةِ الخاصّةِ من دونِ أدنى اقتباسٍ مِنْ أمّةٍ أُخرى. وعبَّرَ (شاده) عن إعجابِهِ البالغِ بريادةِ سيبويهِ، لدرجةِ تأكيدِهِ أنَّ سيبويهِ كانَ يبتكرُ المصطلحاتِ والتّعابيرَ الصّوتيّةَ ابتكارًا ذاتيًّا لعدمِ وجودِ قوالبَ جاهزةٍ لعصرِهِ. واعترفَ بأنَّ الغربيّينَ لم يعرفوا علمَ الأصواتِ بمعناهُ العلميِّ الحقيقيِّ إلّا مُنْذُ قرنينِ على الأكثرِ(٢).

٢_ المستشرقُ الألمانيُّ (كارل بروكلمان): انبرى هو الآخرُ ليدافعَ بقوّةٍ عن أصالةِ الفكرِ الصّوتيّ العربيّ في كتابِهِ (تاريخُ الأدبِ العربيّ)، مفنِّدًا مزاعمَ (فوللرز)، ومبيِّنًا أنَّ أيَّ تشابهٍ بينَ التّرتيبِ الصّوتيّ عندَ الخليلِ بن أحمد الفراهيديّ والهُنودِ هو تشابُهٌ عرضيٌّ تمليهِ الطّبيعةُ الصّوتيّة المشتركةُ وجهازُ النّطقِ البشريُّ الموحَّدُ لدى اللُّغاتِ الإنسانيّةِ(٣).

٣_ المستشرقُ الفرنسيُّ (هنري فليش): على الرّغمِ مِنْ إشارتِهِ إلى بعضِ القصورِ في الدّرسِ

---

(١) ينظر: فقه اللُّغة في الكتب العربيّة: ١٣١، ودروس في علم الأصوات العربيّة: ١٨.
(٢) ينظر: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، شاده، بحث صحيفة الجامعة المصريّة: ١٩_٣٠.
(٣) ينظر: تاريخ الأدب العربيّ: مج٢/٤٤٥.

القديمِ المتمثِّلِ في حصرِ اهتمامِهِمْ في دراسةِ الحرفِ المفردِ بإنتاجِهِ المغلقِ من دونِ الالتفاتِ الكافي للمقاطعِ والتّنغيمِ والموسيقى اللُّغويّةِ[١]، إنَّهُ وصفَ البحثَ الصّوتيَّ العربيّ القديمَ بأنَّهُ مفخرةٌ حقيقيّةٌ مِنْ مفاخرِ الحضارةِ العربيّةِ الباهرةِ[٢]. وقدَّمَ (هنري فليش) عرضًا تاريخيًّا لتطوُّرِ الفكرِ الصّوتيّ يبدأُ بسيبويهِ ويمرُّ بابن جنّي وينتهي بابن سينا في رسالتِهِ التّشريحيّةِ (أسباب حدوثِ الحروفِ)، عادًّا إيّاها الذّروةَ الفسيولوجيّةَ التي أعلنت استقلالَ علمِ الأصواتِ بوصفِهِ علمًا قائمًا بذاتِهِ[٣].

**ثانيًا: المنهج الفيزيولوجيّ والتّشريحيّ عند المستشرقين في دراسة المخارج والصّفات:**

شكَّلتِ الدِّراساتُ الصّوتيّةُ عندَ المستشرقينَ ميدانًا واسعًا ومتشعِّبًا؛ إذْ امتدَّتْ جهودُهم إلى مختلفِ القضايا اللُّغويّةِ، وتنوّعَتْ موضوعاتُهم واتّسعتْ ميادينُها. وقد حظيتْ دراسةُ مخارجِ الأصواتِ بعنايةٍ خاصَّةٍ في بحوثِهم؛ واتَّجهَ عددٌ كبيرٌ منهُم إلى تناولِها من منظورٍ فيزيولوجيٍّ وفيزيائيٍّ، مُستعينينَ بمعطياتِ علمِ التَّشريحِ ووظائفِ الأعضاءِ، الأمرُ الذي أتاحَ لهم تحليلَ الأصواتِ تحليلًا علميًّا دقيقًا، قائمًا على دراسةِ حركةِ أعضاءِ النّطقِ والتّغيّراتِ الطارئةِ عليها في أثناءِ عمليَّةِ التَّصويتِ[٤]، فلم يقتصروا على إثباتِ المخرجِ أو وصفِهِ وصفًا عامًّا، بل تجاوزوا ذلكَ إلى دراسةِ الكيفيَّةِ التي تَتشكَّلُ بها الأصواتُ داخلَ الجهازِ النّطقيِّ، ورصدِ حركةِ أعضاءِ النّطقِ والتّغيّراتِ الطارئةِ، مستفيدينَ في ذلكَ من التّطوّرِ العلميّ الذي شهدتْهُ الدِّراساتُ الفسيولوجيَّةُ والفيزيائيَّةُ الحديثةُ، ومحاولينَ تفسيرَ ما توصَّلَ إليهِ علماءُ العربيّة القُدماء تفسيرًا علميًّا تجريبيًّا، إلّا أنَّ هذا المنهجَ لم يكنْ وليدَ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ

---

(١) ينظر: التّفكير الصّوتيّ عند العرب: ٥٨.

(٢) ينظر: من دراسات المستشرقين للصوت اللُّغويّ العربيّ: ١٥٨.

(٣) ينظر: العربيّة الفصحى: ٥٣_٥٥، والتّفكير الصّوتي عند العرب في ضوء سرّ صناعة الإعراب: ٥٣_٥٤.

(٤) ينظر: دروس فيها علم أصوات العربيّة: ١٠٧.

الحديثةِ، بل عرفَهُ علماءُ العربيّةِ القُدماء قبلَ ذلكَ بقرونٍ؛ إذ اعتمدوا في ترتيبِ مخارجِ الأصواتِ على الجانبِ التَّشريحيِّ لأعضاءِ النّطقِ، واستعانوا بمعارفِ التَّشريحِ في دراسةِ القضايا المتعلِّقةِ بالجانبِ الفيزيولوجيِّ والفيزيائيِّ للأصواتِ. وقد مكَّنهم ذلكَ من تحديدِ مواضعِ خروجِ الأصواتِ ووصفِ آليّاتِ تشكُّلِها وصفًا دقيقًا يَكشفُ عن وعي علميٍّ مبكّرٍ بطبيعةِ العمليَّةِ الصّوتيّةِ[١]، وهو ما دفعَ عددًا من المستشرقينَ إلى الإفادةِ من هذا التّراثِ الصّوتيِّ العربيّ والإشادةِ بما تضمَّنهُ من تصوُّراتٍ علميّةٍ متقدِّمةٍ في دراسةِ صفاتِ الأصواتِ ومخارجِها. ويطيب لي _هنا_ أنْ اتطرقَ إلى هذه الفقرةَ على وفقِ الأبعادِ الصّوتيّةِ الآتيةِ:

**١_ البُعدُ الفيزيائيُّ والتّشريحيُّ لأعضاءِ النّطقِ:**

حينما ولجَ المستشرقونَ إلى تفكيكِ النّظامِ الصّوتيّ للعربيّةِ، جعلوا من دراسةِ الأصواتِ عتبةً أساسيّةً تنبني عليها سائرُ بحوثِهِمُ اللُّغويّةِ؛ انطلاقًا من المبدأِ اللّسانيّ الحديثِ القائلِ إنَّ الصّوتَ هو المادّةُ الخامُ لكلِّ كلامٍ إنسانيٍّ[٢]. بيدَ أنَّ المنهجَ الاستشراقيّ تميَّزَ بالاتّكاءِ على المنظورِ العلميّ الفيزيائيِّ والفسيولوجيِّ والتّشريحيِّ. لقد استعانَ المستشرقونَ بالوسائلِ والآلاتِ الدّقيقةِ في دراسةِ طريقةِ عملِ أعضاءِ النّطقِ: (الرّئتينِ، والحنجرةِ، والوترينِ الصّوتيينِ، واللّهاةِ، واللّسانِ، والحنكِ الأعلى، والأسنانِ، والشّفتينِ)، وملاحظةِ التّحرّكاتِ الميكانيكيّةِ التي تعتري هذه الأعضاءَ في أثناءِ تشكُّلِ الحرفِ وعزلِ الصّوتِ[٣]. وحلَّلوا إنتاجَ الصّوتِ بوصفِهِ نتاجًا لعاملينِ:

الأوَّلُ: النَّفَسُ، وهو الهواءُ المندفعُ الصّاعدُ من الرّئتينِ بوصفِهِ قوَّةً فيزيائيّةً طاردةً.

---

(١) ينظر: البحث اللُّغويّ عند العرب مع دراسة لقضيّة التأثير والتأثر: ١٠٣، والتّفكير الصّوتيّ عند العرب في ضوء سرّ صناعة الإعراب: ٥٣_٥٤.

(٢) ينظر: البحث اللُّغويّ عند العرب: ٩٣.

(٣) ينظر: دروس في علم الأصوات العربيّة: ١٨.

والثّاني: العارضُ، وهو الحاجزُ أو العائقُ التّشريحيُّ الذي يعترضُ مجرى هذا النَّفَسِ في نقطةٍ محدَّدةٍ من جهازِ النّطق؛ ليمنحَ الصّوت جرسَ الحرفِ وتميُّزَهُ(١).

وهذا التّحليلُ، وإنْ غُلِّفَ في العصرِ الحديثِ بأجهزةِ الرّاديوغرافِ والمختبراتِ الصّوتيّة، فإنَّهُ في جوهرِهِ يلتقي وينسجمُ مع ما عاينهُ سيبويه بفطرتِهِ وحسِّهِ السّمعيِّ المرهفِ. غيرَ أنَّ الافتراقَ المنهجيَّ بينَ القُدماء والمستشرقينَ يَكمنُ في أنَّ العربَ انطلقوا من أداءٍ لغويٍّ فطريٍّ وتجريبيٍّ مباشرٍ مسنودٍ بالقراءةِ المشافهةِ(٢)، بينما اعتمدَ المستشرقونَ مناهجَ اللّسانيّاتِ الغربيّةِ التي تقسمُ البحثَ الصّوتيّ على قسمينِ رئيسينِ:

١_ علمُ الأصواتِ العامُّ (Phonetics): الذي يدرسُ الصّوتَ من الناحيّةِ الفيزيائيّةِ والنّطقيّةِ المجرّدةِ دون النّظرِ لقيمتِهِ داخلَ نظامِ اللُّغةِ.

٢_ علمُ الأصواتِ الوظيفيّ (Phonology / Phonemics): والذي يُعنى بدراسةِ القيمةِ التّوزيعيّةِ والدّلاليّةِ للصوتِ داخلَ البنيةِ اللُّغويّةِ(٣).

**٢_ قراءةُ المستشرقينَ لمخارجِ الأصواتِ وترتيبِ الخليلِ وسيبويه:**

انشغلَ الدّارسونَ الغربيّونَ بتحليلِ (المخرجِ الصّوتيّ)؛ فاتَّخذوا من كتابِ (العينِ) وكتابِ سيبويه منطلقًا ومادّةً لبحوثِهِمْ ومقارناتِهِمْ. وعملَ المحدَثونَ من المستشرقينَ الألمانِ والفرنسيّينَ على إعادةِ ترتيبِ الأصواتِ العربيّةِ ومخارجِها، مُحاولينَ دمجَها ومواءمتَها معَ المنظومةِ الصّوتيّةِ الغربيّةِ، مِمَّا أفرزَ تصنيفاتٍ جديدةً واختلافاتٍ طفيفةً في تحديدِ مواضعِ النّطق وعددِ

---

(١) ينظر: هنري فليش ومنهجه في دراسة الأصوات العربيّة من خلال كتابه العربيّة الفصحى: ١٣٦.

(٢) ينظر: علم الأصوات بين القدماء والمحدثين: ١٣-١٤، والقضايا الصّوتيّة في اللُّغة العربيّة بين التّراث واللّسانيّات العربيّة الحديثة_ دراسة مقارنة: ٣٨.

(٣) ينظر: المصطلح الصّوتيّ العربيّ في دراسات المستشرقين: ١.

المخارجِ الإجماليّةِ[١]. وقد ركَّزَ المستشرقونَ جهودَهُمْ وأبحاثَهُمُ النّقديّةَ على طائفةٍ من الأصواتِ العربيّةِ الخاصّةِ التي تتّسمُ بصعوبةِ نطقِها وندرتِها في اللُّغاتِ؛ وهي:

**١ـ المخرجُ الحنجريّ (أقصى الحلقِ):**

اعتمدَ علماءُ العربيّةِ القُدماء في ترتيبِ مخارجِ الأصواتِ على الجانبِ التّشريحيّ، فبدأوا من أقصى الحلقِ حيث تخرجُ (الهمزةُ والهاء)، ثمّ انتقلوا تدريجيًّا إلى الشّفتينِ، انسجامًا مع المسارِ الطبيعيّ لخروجِ الهواءِ والصّوتِ[٢]. وقد سارَ سيبويه على نهجِ الخليلِ بن أحمد الفراهيديّ في هذا التّرتيبِ؛ إذْ جعلا الحلقَ مبدأً للأصواتِ[٣]. وأجمع اللُّغويّون على أنّ (الهمزةَ) تخرجُ من أقصى الحلقِ، وأنّها تميلُ إلى أصواتِ اللّينِ عند التّخفيفِ[٤]. واختلفَ الدّارسونَ في سببِ إلحاقِ (الألف) بأصواتِ الحلقِ عند سيبويهِ؛ فذهب بعضُهم إلى اشتراكِها مع (الهمزةِ والهاءِ) في الطبيعةِ الهوائيّةِ، بينما رأى آخرون أنَّها صوتٌ جوفيّ أُلحقتْ بالحلقِ على سبيلِ التّقريبِ لا التّطابُقِ في المخرجِ[٥].

ويرى سيبويه أنّ (الألفَ) ليستْ من الأصواتِ المهموسةِ؛ لأنَّ مخرجَها واسعٌ يمرُّ فيهِ الهواءُ من غيرِ ضغطٍ أو حصرٍ، مِمّا يدلُّ على أنَّها صوتٌ جوفيّ يعتمدُ على انفتاحِ مجرى الهواءِ لا على تماسِّ أعضاءِ النّطقِ[٦]. ويتبيّنُ أنَّ سيبويهِ جعلَ مخرجَ (الألفِ) سابقًا لمخرجِ

---

(١) ينظر: علم الأصوات، كمال بشر: ١٨٩.

(٢) ينظر: الحواشي المفهمة: ٤٠، والطرازات المعلمة في شرح المقدّمة: ٩٥، والفصول المؤيّدة: ٤٨.

(٣) ينظر: العين: ١/ ٤٧.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٥٨/١.

(٥) ينظر: ارتشاف الضّرب: ٧/١، والمنح الفكريّة: ١١، وجهل المقل: ١٢٢، والبحث اللُّغويّ عند العرب: ١١٩، وفي الأصوات اللُّغويّة دراسة في أصوات المدّ العربيّة: ٧٩.

(٦) ينظر: الكتاب: ٢٨٥/٢.

(الهمزةِ)؛ فقد رتّبَها تنازليًّا: (الهمزةُ)، ثُمَّ (الهاءُ)، ثُمَّ (الألفُ)[١].

وعند التّطرّق إلى مخارج هذه الأصواتِ عندَ المستشرقين؛ نجدُ أنَّ (فيشر) أشار إلى أنَّ "الألفَ المتحرّكةّ تكونُ من إغلاقِ اللّسان المزماريّ، ولذلك فهي قريبةٌ من حرفِ العين الذي يكونُ من ضغطِ الحلقِ؛ ومن أجلِ ذلك كتبها فقهاء اللُّغةِ المتقدّمون مع الهمزةِ، وهذه في الحقيقةِ ليستْ إلّا عينًا صغيرةً. والهمز معناه _كما يظهر_ ضغط اللّسانِ المزماريّ، فكانَ فقهاءُ اللُّغةِ العربيّةِ محقّين في اعتبارِها ضمنَ حروفِ الحلقِ، أو الحروفِ الحلقيّة"[٢] إذْ ألمحَ (فيشر) إلى أنَّ صوتي (الهمزةِ والعينِ) متقاربانِ؛ إذْ رأى أنَّ (الألفَ) المتحرّكةَ تتولّدُ من إغلاقٍ لسانيٍّ مزمارِيّ، وهو ما يَجعلُها قريبةً من حرفِ العينِ الذي ينشأُ من ضغطِ الحلقِ، وذكرَ أنَّ هذا التّقاربَ النّطقيّ هو الذي سوّغَ لعلماءِ اللُّغةِ العربيّةِ الأوائلِ إلحاقَ (الهمزةِ بالعينِ) في الرّسمِ الكتابيّ القديمِ وفي الفكرِ الصّوتيّ التّراثيّ.

وعندما درسَ المستشرقُ اللّسانيّ (دانيال جونز) (الهمزةَ) ذهب إلى أنّ صوتَها في واقعِهِ صوتٌ شديدٌ لا هو بالمجهورِ ولا بالمهموسِ، ويُعلّلُ ذلك بكونِ فتحةِ المزمارِ تُغلقُ إغلاقًا تامًّا عندَ النّطقِ بِها، فلا يُسْمَعُ ذبذبةٌ للوترينِ الصّوتيّينِ، ولا يُسمحُ للهواءِ بالمرورِ إلى الحلقِ إلّا لحظةَ انفتاحِ فتحةِ المزمارِ، وهذا ما يَجعلُها أشقَّ الأصواتِ نطقًا[٣].

ولم يُهملِ المستشرقون صوتَ (الألفِ)، بل بيّنوا رأيَهُم فيهِ بعدَ عرضِهم لآراءِ القُدماء وناقشُوها، فيرى المستشرقُ الفرنسيّ اللُّغويّ (هنري فليش) الذي درسَ صوتَ (الألف) بصورةٍ جدّيّةٍ ومعمّقةٍ ومطوّلةٍ محاولًا تفسيرَ رأي ابن جنّي الذي ركّزَ على الجانبِ الوصفيّ العامّ

---

(١) ينظر: الكتاب: ٤٠٥/٢.
(٢) المعجم اللُّغويّ التّاريخي: ٢.
(٣) ينظر: الأصوات اللُّغويّة: ١٢٩.

(للألفِ)، فجعلَها صوتًا منفتحًا بلا حصرٍ أو ضغطٍ ؛ إذْ أوضحَ (فليش) أنَّ (الألفَ) عند نُطقِها يكونُ الفمُ والحلقُ معًا مُنفتحينِ تمامًا من دونِ أيّ اعتراضٍ لتيّارِ الهواءِ الصّاعدِ، ومن دونِ حدوثِ أيّ ضغطٍ أو حصرٍ في جهازِ النّطقِ(١). وناقشَ بجرأةٍ وتفصيلٍ رأي القُدماء الذين حدّدوا مخرجَ (الألفِ) بأنّهُ من أقصى الحلقِ فوق مخرجِ الهمزةِ مباشرةً، متسائلًا: كيف يتّسقُ قولُ القُدماء بأنَّ الألفَ لا يعترضُها شيءٌ مع وضعِ مخرجِها في أقصى الحلقِ؟. وطرحَ (فليش) نظريّةً بديلةً تُفيدُ بأنّنَا أمامَ (تخصيصٍ مشتركٍ) لمخرجِ الألفِ يَشملُ الحلقَ والفمَ معًا. وافترضَ أنَّ صوتَ الصّدرِ في حالةِ حروفِ المدِّ المفتوحِ هو في حقيقتِهِ صوتُ الفتحةِ النّطقيّةِ ذاتِها التي تخرجُ من فوقِ مخرجِ الهمزةِ ثمّ تُتابعُ طريقَها بحرّيّةٍ في الفمِ والحلقِ المنفتحينِ. وتوصّلَ (فليش) إلى أنَّ مخرجَ (الألفِ) قد يتغيّرُ كلّيًّا ليتّحدَ مع صوتِ (الهمزةِ)، مِمّا يَعني وجودَ حرفينِ متمايزينِ لكلٍّ منهما طبيعتُهُ: أحدهُما في حالِ السّكون وهو (الألفُ) والآخرُ في حالِ الحركةِ وهو (الهمزةُ)(٢).

ويُمكن أنْ يناقش (فليش) في وصف الألف بالسّكون؛ لأنّ الألف صوتٌ صائتٌ طويل، وهي في حقيقتها امتدادٌ للفتحة القصيرة، أو ما يُعبَّر عنه بفتحتين من حيث الزّمن الصّوتيّ، أما الهمزة فهي صامت حنجريّ انفجاري؛ ولذلك فالفرق بينهما فرق في الطّبيعة الصّوتيّة، لا في السّكون والحركة.

**٢_ المخرجُ الحلقيّ (وسطُ الحلقِ):**

يتّفقُ الخليلُ بن أحمد الفراهيديّ وسيبويهِ ومعظمُ علماءِ العربيّةِ القُدماء على أنَّ صوتَي

(١) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ٦٦، وسرّ صناعة الإعراب: ١/٨-٩.
(٢) ينظر: التّفكير الصّوتيّ عند العرب في ضوء سرّ صناعة الإعراب: ٦٣-٦٤.

(العينِ والحاءِ) يخرجانِ من وسطِ الحلقِ[١]، وهو من أدقِّ مناطقِ النّطقِ في الجهازِ الصّوتيّ؛ لتداخلِهِ بينَ عملِ الحنجرةِ وجدرانِ الحلقِ، مِمّا يَمنحُ هذين الصّوتينِ خصائصَ مميّزةً تتّصلُ بالعُمقِ والوضوحِ في النّطقِ.

وقد اهتمَّ المستشرقونَ بهذا المخرجِ نظرًا لخصوصيّتِهِ الشّديدةِ في اللُّغاتِ السّاميّةِ والعربيّةِ؛ فبينما يرى الموروثُ العربيّ (الذي أقرَّهُ المستشرقونَ وعزّزَتْهُ المختبراتُ الحديثةُ) أنَّ صوت (العينِ): هو صوتٌ متوسطٌ بين الشدّةِ والرّخاوةِ (بين البينيةِ والرّخاوةِ)[٢]، ركّزَ الاستشراقُ على آليّةِ تولّدِ هذا الصّوتِ عبرَ ضغطِ عضلاتِ الحلقِ لتضييقِ مجرى الهواءِ[٣].

وأمّا صوتُ (الحاءِ) فقد تتبّعَ المستشرقونَ صفاتِهِ التّراثيّةِ كونه صوتًا مهموسًا رخوًا منفتحًا مستفلًّا، موازنين بينهُ وبينَ صوتِ (الهاء)، ومؤكّدينَ أنَّ الصّفاتِ الصّوتيّةَ التّراثيّةَ هي المعيارُ المختبريّ الأوحدُ الذي منعَ التّباسَ (الحاءِ بالهاءِ أو الخاءِ) نتيجةَ تشاركِ المخرجِ أو الموضعِ النّطقيّ المتقاربِ[٤].

**٣ـ المخرجُ الطّبقيّ (أقصى اللّسانِ وما يحاذيهِ من الحنكِ الرّخو):**

يبيّنُ سيبويه أنَّ (الغينَ والخاءَ) يخرجانِ من أدنى الحلقِ؛ ولذلك يُعدّانِ أقربَ أصواتِ الحلقِ إلى الفمِ، إذْ يتحقّقُ فيهما انتقالُ النّطقِ من المنطقةِ الحلقيّةِ إلى اللّسانيّةِ[٥]. وقد ذهبَ ابن جنّي إلى أنَّ مخرجَهما يُمثّلُ أوّلَ مخارجِ الفمِ لاتّصالِهِ بمخرجِ (القافِ) لقربِ

---

(١) ينظر: الكتاب ٤/٤٣٣.
(٢) ينظر: الكتاب: ٤/٤٣٤ – ٤٣٦، وسرّ صناعة الإعراب : ١/٦٠ – ٦٢ .
(٣) ينظر: المعجم اللُّغويّ التّاريخيّ: ٢.
(٤) ينظر: مناهج البحث في اللُّغة: ٨٤–٨٥، والمدخل إلى علم اللُّغة: ٣٠–٣١.
(٥) ينظر: الكتاب: ٤/٤٣٣.

الموضعينِ[١].

وقد درسَ المستشرقونَ هذه الأصواتَ وعقدوا مقارناتٍ بين توزيعِ الخليلِ وسيبويهِ لها؛ فقد أشارَ سيبويه إلى أنَّ مخرجَ (الكافِ) يقعُ أسفلَ قليلًا من موضعِ مخرجِ (القافِ) (أي أسفلَ أقصى اللّسانِ وما يقابلهُ من الحنكِ الأعلى)[٢]. وأوضحَ المستشرقونَ أنَّ سيبويهِ عندما انطلقَ من مخرجِ (القافِ) وجعلَ (الكافَ) أسفلَ منها، إنَّما جعلَ (الكافَ) في حقيقةِ الأمرِ أقربَ تشريحيًّا ونطقيًّا إلى مخرجِ (الغينِ)، مِمَّا يحقّقُ ظاهرةَ التّقاربِ الصّوتيّ بين الأصواتِ الطّبقيّةِ[٣]. كما تدارسُوا صفةَ تركيبيّةِ (الخاءِ) فيرى (مالمبرج): أنّها: "صامت لهويّ _احتكاكيّ (رخو) _ مهموس _مفخّم (مستعل)، وقد يتقدّم بمخرجه قليلا إلى الطبق إذا وليته كسرة مثل : خفت"[٤]. وصفوها بالأدواتِ الحديثةِ مؤيّدينَ الموروثَ في أنّها صوتٌ مهموسٌ رخوٌ منفتحٌ مفخّم مستعلٌ، موازنينَ صفاتِها بصوتِ (الفاءِ) الشّفويِّ وصوتِ (الحاءِ) الحلقيّ لإثباتِ أنَّ اختلافَ الصّفاتِ والمخارجِ يتكاملُ لتحديدِ الهويّةِ السّمعيّةِ الفرديّةِ لكُلِّ صوتٍ[٥].

**٤_ المخرجُ اللّهويّ (أقصى اللّسان واللّهاةِ):**

أدرجَ الخليلُ بن أحمد الفراهيديّ (القافَ) ضمنَ الأصواتِ اللّهويّةِ، أيْ الأصواتِ التي يَكونُ مبدؤها من أقصى الحلقِ واللّسانِ[٦]، بينما جعلَها سيبويهِ من أقصى اللّسانِ مع ما

---

(١) ينظر: سرّ صناعة الإعراب: ٤٧/٢.

(٢) ينظر: الكتاب: ٤٣٣/٤.

(٣) ينظر: المدخل إلى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ: ٣٠-٣١.

(٤) علم الأصوات (مالمبرج): ١٢٦.

(٥) ينظر : دروس في علم أصوات العربيّة : ٢٥، وعلم الأصوات (مالمبرج): ١٠١، ١٢٥، ومبادئ علم الأصوات العام :٢٨٠.

(٦) ينظر: كتاب العين:١/ ٥٨.

يُحاذيهِ من الحنكِ الأعلى[١]، وهو الرّأي الذي وافقهُ عليه ابن جنّي في تحديدِ مخرجِ (القافِ)[٢].

وقد حظي صوتُ (القافِ) باهتمامٍ واسعٍ في الدّرسِ الاستشراقيّ بسببِ الخلافِ حولَ صفتِهِ الصّوتيّةِ. فعلى الرّغمِ من اتّفاقِ المستشرقينَ مع القُدماء في عدّها صوتًا لهويًّا، فإنَّ الخلافَ ظهرَ في تحديدِ صفتِها من حيثُ الجهرُ والهمسُ. فعندَما عدَّهُ عُلماءُ العربيّةِ القُدماء من الأصواتِ الشّديدةِ المجهورةِ، خالفهُم المستشرقُ الألمانيّ (كارل بروكلمان)، وذهبَ إلى أنَّ (القافَ) في الفصحى القديمةِ لم تكنْ مجهورةً بالمعنى الصّوتيّ الحديثِ؛ بل عدَّها من الأصواتِ السّاميّةِ التي تميلُ إلى الهمسِ، ووصَفها بالصّوتِ الشّديدِ ذي النُّطقِ المهموزِ الذي يتكوّنُ عند الإطباقِ[٣]

وسارَ (موسكاتي) على نهجِ بروكلمان، مؤكّدًا أنَّ (القافَ) تُمثّلُ أحدَ الأصواتِ السّاكنةِ المهموسةِ المشتركةِ في معظمِ اللُّغاتِ السّاميّةِ كالأكديّةِ والأوغاريتيّةِ[٤].

ونقدَ (شاده) وصفَ سيبويهِ لصوتي (الطاء والقافِ) بالجهرِ، فقال: "إنَّ سيبويهِ يعدُّ من المجهورةِ الطاءَ والقافَ، وفي لفظِ عصرِنا لا نصيبَ للأوتارِ الصّوتيّةِ في إنتاجِهما"[٥]. وانطلاقًا من ذلك، اعترضَ على وصفِ سيبويهِ للقافِ بأنَّها صوتٌ مجهورٌ، مستندًا إلى نطقِها في عصرِهِ، ومشيرًا إلى تذبذُبِ نطقِهِ بين الهمسِ في لهجاتٍ معاصرةٍ، وبين النّطقِ القريبِ من

---

(١) ينظر: الكتاب: ٤٠٤/٢.
(٢) ينظر: سرّ صناعة الإعراب: ٢٧٨/١.
(٣) ينظر: فقه اللُّغات السّاميّة: ٣٩-٤٠.
(٤) ينظر: المدخل إلى نحو اللغات السّاميّة المقارن: ٨١.
(٥) الأصوات عند سيبويه وعندنا: ٣٨.

(الجيمِ) القاهريّةِ الشّديدةِ[١]. غيرَ أنَّ هذا الرّأي لا يكفي لإثباتِ اختلافٍ قطعيّ بين النّطقِ القديمِ والحديثِ؛ لأنَّ (شاده) اعتمدَ على الواقعِ اللّهجيّ الحديثِ، بينما يستندُ وصفُ سيبويهِ إلى نظامٍ صوتيٍّ معياريّ لا إلى لهجةٍ بعينِها، وقد أيّدتِ الشّواهدُ الصّرفيّةُ والعروضيّةُ كونَ (القافِ) في أصلِهِ صوتًا شديدًا مجهورًا. ومن ثمّ فإنَّ ما ذهبَ إليهِ (شاده) يُمكنُ فهمهُ بوصفِهِ تفسيرًا للتنوّعِ اللّهجيّ الحديثِ أكثرَ من كونِهِ دليلًا حاسمًا على اختلافِ النّطقِ التّاريخيّ (للقافِ). ولا نغفلُ عن رأي (برجستراسر) في نطقِ (القافِ)، فهو أيضًا من القائلينَ باختلافِ نطقِها الحديثِ عَمّا كانَ عليهِ في العربيّةِ القديمةِ، وعدَّ هذا الاختلافَ موضعَ إشكالٍ بين القُدماء والمحدثينَ[٢]. وفي المقابلِ خالفَ (كانتينو) كلًّا من (بروكلمان) و(شاده)، ووقفَ مدافعًا عن أصالةِ التّراثِ العربيّ؛ إذْ أكّدَ أنَّ جهرَ (القافِ) في العربيّةِ القديمةِ أمرٌ ثابتٌ، مستدلًّا على (الواقعِ اللّهجيّ للألسنةِ الدّارجةِ المعاصرةِ)، ولا سيّما في الجزيرةِ العربيّةِ وبعضِ لهجاتِ الشّامِ وشماليّ أفريقيا. فما زالت تُنطقُ (القافُ) صوتًا مجهورًا مشبعًا حتّى اليومِ. وعدَّ (كانتينو) هذا النّطقَ اللّهجيّ المعاصرَ هو الامتدادَ التّاريخيّ الحيّ لنطقِها المجهورِ في العربيّةِ الفصحى القديمةِ، وأنَّ الهمسَ الطارئ عليها في بعضِ اللّهجاتِ الأخرى ليس سوى تطوّرٍ صوتيّ لاحقٍ ولا يُمثّلُ الأصلَ التّاريخيّ للصوتِ[٣]. وحاولَ (كانتينو) تفسيرَ انتقالِ (القافِ) من الجهرِ إلى الهمسِ تفسيرًا فيزيولوجيًّا، ، إذ قال: "وقولُهم هذا محتملٌ، وإنْ لم يُقيموا عليه البرهانَ القاطعَ، وبه يمكنُ تفسيرُ انتقالِ هذا الحرفِ من الجهرِ إلى الهمسِ؛ إذْ إنَّ كلَّ إغلاقٍ لرأسِ القصبةِ يحولُ دونَ ارتعاشِ الأوتارِ الصّوتيّةِ، ويؤدّي إلى نقيضِ الجهرِ"[٤]. ويكشفُ هذا النصُّ عن أنَّ (كانتينو) لم يقدِّم هذا التّفسيرَ بوصفِهِ حقيقةً صوتيّةً قاطعةً، وإنّما طرحَهُ على

(١) ينظر: الأصوات عند سيبويه وعندنا: ٣٨.
(٢) ينظر: التطوّر النّحوي للغة العربيّة: ١٦.
(٣) ينظر: دروس في علم اصوات العربيّة: ١٠٧-١١٧.
(٤) المصدر نفسه: ١٠٧.

سبيلِ الاحتمالِ؛ إذ ربطَ تحوُّلَ القافِ من الجهرِ إلى الهمسِ بآليّةِ إنتاجِ الصّوتِ، فرأى أنَّ شدّةَ الانغلاقِ عندَ نطقِ (القافِ) قد تعيقُ اهتزازَ الأوتارِ الصّوتيّةِ، ممّا يؤدّي إلى فقدانِ صفةِ الجهرِ فيهيّئ الصّوتَ للهمسِ. غير أنَّ هذا التّفسيرَ لا يكفي لإثباتِ أنَّ (القافَ) القديمةَ كانتْ مهموسةً؛ لأنَّ عددًا من اللّهجاتِ العربيّةِ، ولا سيّما البدويّة، ما يزالُ ينطقُ (القافَ) مجهورًا، وهو ما يؤيّدُ الوصفَ القديمَ لها. في حينِ جمعَ (هنري فليش) بين رأي (بروكلمان) و(برجستراسر) وذهبَ إلى أنَّ (القافَ) في العربيّةِ المعاصرةِ تميلُ إلى الهمسِ، مع إقرارهِ ببقاءِ الجهرِ في لهجاتِ البدو[١]، مِمّا يدلُّ على أنَّ همسَ (القافِ) تطوّرٌ صوتيّ لاحقٌ لا ينفي أصلَهَا المجهورَ. وأمّا (موسكاتي) فقد اتّخذَ موقفًا أكثرَ احترازًا من تحديدِ صفةِ (القافِ)، إذْ يقولُ: "إنَّ وصفَ هذا السّاكنِ الأخيرِ بكونِهِ مهموسًا غيرُ مؤكَّدٍ تمامًا؛ فالنّطقُ العربيُّ التّقليديُّ هو، في حقيقةِ أمرِهِ، مهموسٌ، ولكنَّ طائفةً من النّحاةِ العربِ الخُلَّصِ ولهجاتٍ حديثةً قليلةً تؤيِّدُ الجهرَ فيه"[٢]. ويكشفُ هذا النصُّ عن عدمِ جزمِ (موسكاتي) بأصالةِ الهمسِ في القافِ؛ إذ رأى أنَّ وصفَها بالهمسِ لا يخلو من إشكالٍ، في مقابلِ وجودِ شواهدَ في التّراثِ النحويِّ العربيِّ وبعضِ اللّهجاتِ الحديثةِ يَدعمُ رأي القُدماء في وصفِها بالجهرِ، وهو ما يفتحُ المجالَ أمامَ تفسيرِ اختلافِ صفتِها في ضوءِ التغيّرِ الصّوتيِّ وتنوّعِ البيئاتِ اللهجيّةِ. وهذا يؤكّدُ أنَّ الخلافَ حولَ القافِ يعكسُ تنوّعًا لهجيًّا وتطوّرًا صوتيًّا طبيعيًّا، أكثرَ من كونِهِ دليلًا حاسمًا على اختلافِ أصلِ نطقِها.

**٥. المخرجُ الغاريّ (وسطُ اللّسانِ وحنكُ غارِ الفمِ):**

تتبّعَ المستشرقونَ في مؤلّفاتِهم الألقابَ التّراثيّةَ للأصواتِ (الجيمِ، والشّينِ، والياءِ)، وقد

---

(١) ينظر: العربيّة الفصحى: ٤٠.

(٢) مدخل إلى نحو اللّغات السّاميّة المقارن: ٧٠.

عَدَّ الخَلِيلُ بنُ أَحمَدَ الفَرَاهِيدِيُّ (الجِيمَ وَالشِّينَ وَالضَّادَ) مِنَ الأَصوَاتِ الشَّجَرِيَّةِ؛ لِأَنَّ مَبدَأَ نُطقِهَا مِن شَجَرِ الفَمِ[١]، وَأَسقَطَ (اليَاءَ) مِنهَا، إِذ عَدَّهَا مِنَ الحُرُوفِ الجَوفِيَّةِ، فِي حِينِ خَالَفَهُ سِيبَوَيهِ فِي هَذَا التَّصنِيفِ، فَأَدرَجَ (اليَاءَ) ضِمنَ الأَصوَاتِ الشَّجَرِيَّةِ، وَأَسقَطَ (الضَّادَ) مِنهَا، جَاعِلًا مَخرَجَهَا مِن حَافَّةِ اللِّسَانِ، وَهُوَ مَا يَكشِفُ اختِلَافَهُمَا فِي تَحدِيدِ بَعضِ المَخَارِجِ وَتَقسِيمِهَا[٢].

ويقتضي الاختلافُ السّابق في تصنيفِ الياءِ التمييزَ بين قيمتَيها الصّوتيّتَين؛ فالياءُ الشَّجريّةُ صامتٌ يحمل الحركةَ، نحو الياءِ في(يَد)، أمّا الياءُ الجوفيّةُ فهي صائتٌ طويلٌ، نحو الياءِ في (فِي). ومن ثَمَّ، فإنَّ اختلافَ تصنيفِها لا يُفسَّر باختلافِ تحديدِ المخرجِ فحسب، بل باختلافِ القيمةِ الصّوتيّةِ التي تؤدّيها الياءُ في السّياق، وهو ما ينبغي مراعاتُه عند تقويمِ التّصنيفاتِ الاستشراقيّةِ للأصواتِ العربيّة.

وقد بحثَ المستشرقونَ في صفاتِ هذه الأصواتِ المخبريّةِ فاتّجَهَ عددٌ منهم إلى جمعِ (الشّينِ) مع (الجيمِ) ضمنَ نطاقٍ صوتيّ واحدٍ، على أساسِ أنّهما صوتانِ شديدانِ انفجاريّانِ متقاربانِ في المخرجِ، أحدُهما مهموسٌ والآخرُ مجهورٌ، وظهرَ هذا الاتّجاهُ في الدِّراساتِ المقارنةِ بين اللّهجاتِ العربيّةِ واللُّغاتِ السّاميّةِ. وفي هذا السّياقِ يَذهبُ (رابين) إلى أنَّ المُقابلَ اللّهجيّ (للجيمِ) الفصحى في بعضِ اللّهجاتِ اليمنيّةِ هو صوتٌ يتوسطُ بين (الجيمِ والكافِ)، في إشارةٍ إلى تنوّعِ تحقيقِها الصّوتيّ في اللّهجاتِ[٣]. بينما قدّمَ (لامنس) تفسيرًا مختلفًا؛ إذْ رأى أنَّ (الجيمَ) العربيّةَ ذاتُ أصلٍ حلقيّ، مستندًا إلى ظواهرِ التّبادلِ الصّوتيّ بينها وبينَ بعضِ الأصواتِ الحلقيّةِ، وإلى شواهدِ الإبدالِ التّاريخيّ، مثلِ نُطقِها (كافًا) في بعضِ السّياقاتِ. واستدلَّ أيضًا بما وقعَ في نقلِ الكلماتِ من اللُّغاتِ اليونانيّةِ واللّاتينيّةِ إلى العربيّةِ، مشيرًا إلى

---

(١) ينظر: كتاب العين: ٥٨/١.

(٢) ينظر: مخارج الأصوات الصّامتة عند الدّكتور غانم قدوري حمد في ضوء الدِّراسات القديمة والحديثة: ٥٥-٥٦.

(٣) ينظر: اللّهجات العربيّة الغربيّة القديمة: ٦٨.

كثرةِ هذه الاقتراضاتِ من دونِ وجودِ مقابلٍ دقيقٍ (للجيمِ) الشّجريّةِ في تلك اللُّغاتِ، وأنَّ العربَ استعملوا في المقابلِ (الجيمَ) أو (الغينَ) أو ما يقاربُها صوتيًّا، مضيفًا إلى أنَّ (الجيمَ) قد تتبادلُ في الاستعمالِ مع (الكافِ) و(القافِ) و(الغينِ)، ليخلُصَ إلى أنَّ أصلَ (الجيمِ) العربيّةِ غيرُ محسومٍ بدقّةٍ تاريخيّةٍ، وأنّ اللُّغاتِ القديمةَ لم تكنْ تحوي نظيرًا مطابقًا (للجيمِ) الشّجريّةِ كما في العربيّةِ[١]. وبذلك يطرحُ هذا الاتّجاهُ تصوّرًا يرى أنّ الجيمَ خضعتْ لتطوّراتٍ صوتيّةٍ وتحوّلاتٍ لهجيّةٍ متعدّدةٍ عبرَ الزّمنِ.

وقد بيّنَ (برجستراسر) طبيعةَ (الجيمِ) العربيّةِ القديمةِ، واصفًا إيّاها بأنّها "بسيطةٌ مجهورةٌ شديدةٌ، مثلَ نطقِها الحاليِّ عندَ المصريّينَ، لكنّها لم تكنْ مثلَ الجيمِ المصريّةِ بعينِها؛ لأنَّ مخرجَ الجيمِ المصريّةِ هو مخرجُ الكافِ، ومخرجُ الجيمِ العتيقةِ في جدولِ المخارجِ"[٢]ويكشفُ هذا النّصُّ عن تمييزِ (برجستراسر) بينَ الاشتراكِ في بعضِ الصّفاتِ الصّوتيّةِ والتّطابقِ في المخرجِ؛ إذ رأى أنَّ (الجيمَ) العربيّةَ القديمةَ كانتْ صوتًا بسيطًا مجهورًا شديدًا قريبًا من (الكافِ) التّركيّةِ، وأنَّ مشابهتَها (للجيمِ) المصريّةِ المعاصرةِ لا تعني تطابقَهما من النّاحيةِ المخرجيّةِ. ومن ثَمَّ، ربطَ اختلافَ صورِ نطقِ (الجيمِ) بما طرأَ عليها من تطوّرٍ صوتيٍّ في البيئاتِ اللّهجيّةِ المختلفةِ. مؤكّدًا أنَّ (الجيمَ) العربيّةَ تطوّرت في بعضِ اللّهجاتِ إلى صوتٍ مُركّبٍ أو احتكاكيّ[٣]. في حينِ وضّحَ (جون فيرث) أنَّ (الجيمَ) الفصحى الأصليّةَ غيرُ معطّشةٍ، وأنَّ التّعطيشَ تطوّرٌ صوتيٌّ لاحقٌ، مستدلًّا بندرةِ اجتماعِ (الجيمِ) مع (الكافِ) في العربيّةِ، وبِما ذكرهُ ابن دريد وابن جنّي وهو قلّةُ اجتماعِ هذه الأصواتِ في الكلماتِ[٤]. وفي

---

(١) ينظر: لفظ الجيم عند العرب: ١١٧-١١٨.

(٢) التّطوّر النّحوي للغة العربيّة: ١٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٧.

(٤) ينظر: الأصوات اللُّغويّة: ٨٢-٨٤.

المقابلِ اعترضَ (كانتينو) على التّصوّرِ التّقليديّ، ورأى أنَّ القُدماء لم يُحدّدوا بدقّةٍ درجةَ رخاوةِ (الجيمِ)، وأنَّ النّطقَ الوحيدَ الموثّقَ عندَهم هو النّطقُ المصريّ (g). وقدّمَ تفسيرًا فيزيولوجيًّا لتطوّر (الجيم)، مؤكدًا أنَّ الأصوات الشّديدة اللّسانيّة أو الظهريّة قابلة طبيعيًّا للتليينِ والتّحوّلِ عبرَ الزّمنِ إلى أصواتٍ أكثرَ رخاوةً وتقدّمًا في المخرجِ. فـ(كانتينو) يرى أنَّ (الجيمَ) بوصفِها صوتًا يَميلُ إلى الانغلاقِ والاحتكاكِ، مخالفًا بذلك سيبويهِ الذي عدَّها من الأصواتِ الشّديدةِ، ورأى أنَّ (الجيمَ) الحديثةَ أقربُ إلى الصّوتِ المركّبِ الجامعِ بين الشدّةِ والرّخاوةِ[١]، وهو اتّجاهٌ تبنّاهُ عددٌ من المستشرقينَ اعتمادًا على اللّهجاتِ العربيّةِ الحديثةِ. وفي معرضِ حديثِ (هنري فليش) عن (الجيمِ) أشارَ إلى أنَّها صوتٌ مركّبٌ تطوّرٌ من (جيمٍ) فصيحةٍ (g) مجهورةٍ شديدةٍ إلى صورةٍ أكثرَ رخاوةً في بعضِ البيئاتِ (ǧ)، مِمّا يَعكسُ تطوّرًا صوتيًّا تدريجيًّا في نطقِها[٢].

ولم يُغفلِ المستشرقونَ صفات (الشّين) وتراكيبها الصّوتيّة، بل ركّزوا عليها فوافقوا سيبويهِ والقُدماء في وصفِها بالرّخاوةِ والانفتاحِ والهمسِ والاستفالِ، واهتمّوا بتفسيرِ كيفيّةِ انتشارِ الهواءِ داخلَ الفمِ عندَ النّطقِ بها نتيجةً لاتّساعِ مخرجِها. فقد وصفَ سيبويهِ (الشّين) بصفتي الاستطالةِ والتّفشّي، مبيّنًا أنَّ رخاوتَها تؤدّي إلى امتدادِ الصّوتِ وانتشارِ النّفسِ، وهو ما يمنعُ إدغامَها في بعضِ الأصواتِ[٣].وذهبَ (كارل بروكلمان) و(برجستراسر) إلى عدِّ الشّينِ صوتًا مهموسًا رخوًا في اللُّغاتِ السّاميّةِ، وقد وُصِفَ (كارل بروكلمان) هيئتُهُ النّطقيّةُ بأنَّ "تقعر فيهِ مؤخَّرَ اللّسانِ تقعيرًا شديدًا"[٤]. ويكشفُ هذا الوصفُ عن عنايتِه بالهيئةِ النّطقيّةِ المصاحبةِ لإنتاجِ (الشّينِ)، ولا سيّما وضعَ مؤخّرِ اللسانِ وتقعُّرَهُ، فضلًا عن وصفِهما (للشين) بالهمسِ

---

(١) ينظر: دروس في علم أصوات العربيّة: ٢٥، ٩٨-٩٩.

(٢) ينظر: العربيّة الفصحى: ٣٨.

(٣) ينظر: الكتاب : ٤٤٨/٤ .

(٤) فقه اللّغات السّاميّة: ٣٩.

والرَّخاوةِ، وربطِ بعضِ صورِها بما طرأَ على الأصواتِ السّاميّةِ من تطوّراتٍ صوتيّةٍ أو بما دخلَ العربيّةَ من ألفاظٍ ساميّةٍ معرَّبةٍ. وذهبَ (كارل بروكلمان) و(برجستراسر) إلى عدّ (الشّين) صوتًا مهموسًا رخوًا في اللُّغاتِ السّاميّةِ، ينمازُ بتقعّرِ مؤخّرِ اللّسانِ، ونشأ عن تطوّراتٍ صوتيّةٍ أو عن تعريبِ ألفاظٍ ساميّةٍ[١]، وأمّا بالنّسبةِ لـ(كانتينو) فقد صنّفَ (الشّينَ) ضمنَ الأصواتِ الرّخوةِ، فهي عندهُ صوتٌ متفشٍّ نتيجةَ انتشارِ الهواءِ عبرَ قناةٍ تتكوّنُ في وسطِ اللّسانِ عندَ النُّطقِ بِها[٢]. فيقولُ: "ووسطُ اللّسانِ، ووسطُ الحنكِ الأعلى وهو مخرجُ (الجيمِ)، و(الشّينِ)... حرفًا رخوًا وهي... (الشّينُ) المشأشأةُ... وكذلك لا تحتوى قائمةُ الحروفِ الرّخوةِ أو (المتواصلةِ) عندَهما إلّا على الحروفِ التي نُسمّيها نحن( Spirantes) أي: (الحاء)، و(الهاء)، و(العين) و(الخاء) و(الشّين) و(السّين)"[٣] وتابعَ (موسكاتي) المستشرقينَ في عدّ (الشّين) من الأصواتِ الرّخوةِ[٤]. وبذلك لم تكنْ آراءُ المستشرقينَ في وصفِ (الشينِ) واحدةً، بل اختلفتْ بين من عدَّها صوتًا مهموسًا، وبين من وجدَها صوتًا متوسّطًا بين الشّدّةِ والرّخاوةِ، مع اتّفاقِهم على رخاوتِها وانفتاحِها واستفالِها[٥]. وأمّا فيما يتعلّقُ بـ(الياءِ)، فقد خالفَ (برجستراسر) التّصوّرَ الموروثيّ الذي يجعلُ لها مخرجًا مستقلًّا هو الجوفُ، ورأى أنَّها صوتٌ وسطٌ بينَ الحركاتِ والصّوامتِ، وأنَّها تمثّلُ الكسرةَ بحسبِ موقعِها في المقطعِ الصّوتيّ، وأشارَ إلى أنَّ مخرجَ (الجيمِ) العربيّةِ القديمةِ كانَ قريبًا من مخرجِ (الشّينِ والياءِ) لخروجِها جميعًا من

---

(١) ينظر: فقه اللغات السّاميّة: ٣٩-٤٠، والتطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ٢٤-٢٥.

(٢) ينظر: دروس في علم أصوات العربيّة : ٢٥، ٣٨.

(٣) المصدر نفسه: ٣١، ٣٢، ٣٥.

(٤) ينظر: مدخل الى نحو اللُّغات السّاميّة: ٤٦.

(٥) ينظر: دروس في علم أصوات العربيّة : ٢٥، وعلم الأصوات (مالمبرج): ١٠١، ١٢٥، ومبادئ علم الأصوات العامّ :٢٨٠.

وسطِ اللّسانِ[١].

**٦_ المخرجُ اللّثويّ ومحيطُ طرفِ اللّسانِ:**

ناقشَ المستشرقونَ الخلافَ القائمَ بينَ المدارسِ اللُّغويّةِ العربيّةِ حولَ عددِ مخارجِ الحروفِ وتحديدِ مواضعِها، ولا سيّما في أصواتِ (اللّامِ والرّاءِ والنّونِ). فقد جعلَ سيبويهِ لكلٍّ من هذه الأصواتِ مخرجًا مستقلًّا، فبلغَ عددُ المخارجِ عندهُ ستّةَ عشرَ مخرجًا بعدَ إسقاطِ مخرجِ الجوفِ[٢]، خلافًا لأستاذِهِ الخليلِ بن أحمد الفراهيديّ الّذي عدَّها سبعةَ عشرَ مخرجًا[٣]. وأمّا الفراءُ (ت ٢٠٧هـ)، وبعضُ اللُّغويّينَ، فقد دمجوا (اللّامَ) و(الرّاءَ) و(النّونَ) في مخرجٍ واحدٍ وهو طرفُ اللّسانِ، فصارَ عددُ المخارجِ عندهم أربعةَ عشرَ مخرجًا[٤]. وقد أثارَ هذا الاختلافُ نقاشًا واسعًا بين العلماءِ؛ إذْ رأى بعضُهم أنّ لكلٍّ من (اللّامِ والرّاءِ والنّونِ) خصائصَ صوتيّةً تستوجبُ إفرادَها بمخرجٍ مستقلٍّ، في حينِ اتّجَهَ آخرُونَ إلى الجمعِ بينها لتقاربِها في الموضعِ والعملِ الصّوتيّ[٥]. وقد حدّدَ سيبويهِ مخرجَ (النّونِ) من حافّةِ اللّسانِ إلى طرفِهِ مع ما يحاذيهِ من الحنكِ الأعلى، وبيّنَ أنَّ للخيشومِ أثرًا في (النّونِ) الخفيفةِ، ممّا يُميّزها من بقيّةِ الأصواتِ الفمويّةِ. وجعلَ مخرجَ (اللّامِ) فيما فوقَ الضّاحكِ والنّابِ والرّباعيّةِ والثّنيّةِ، حيثُ يلتقي طرفُ اللّسانِ بجانبِ الحنكِ الأعلى[٦]. وتابعَ عددٌ من العلماءِ رأي سيبويهِ في مخرجِ (النّونِ) مع عدمِ عدِّ الخيشومِ مخرجًا مستقلًّا (للنونِ) الأصليّةِ. إلّا أنَّ بعضَهم اعترضَ

---

(١) ينظر: التّطوّر النّحوي للغة العربيّة:١٧.

(٢) ينظر: الكتاب: ٤٠٥/٢.

(٣) ينظر: كتاب العين:٤/١.

(٤) ينظر: النّشر في القراءات العشر :١٩٨/١.

(٥) ينظر: مخارج الأصوات الصّامتة عند الدكتور غانم قدوري حمد في ضوء الدِّراسات القديمة والحديثة: ٥١.

(٦) ينظر: الكتاب: ٤٣٣/٤.

على تحديدِهِ لمخرجِ (اللّامِ)[١]. في حين هناك من فرّقَ بينَ (اللّامِ والنّونِ)، مستدلًّا بإدغامِ (اللّامِ) في (النّونِ) عند تقاربِهما في المخرجِ، من دونِ أنْ يجعلَهما من مخرجٍ واحدٍ[٢].

وعندما تناولَ (برجستراسر) أصواتَ طرفِ اللّسانِ، أشارَ إلى قربِ صوتِ (الضّادِ) من (اللّامِ) في بعضِ الخصائصِ الصّوتيّةِ، مُستندًا إلى ملاحظاتِ القُدماء في هذا البابِ فقال: "مخرجُ الضّادِ في جدولِ المخارجِ من حافّةِ اللّسانِ، ومن القدماءِ مَن يقولُ: من جانبِهِ الأيسرِ، ومنهم مَن يقولُ: من الأيمنِ، ومنهم مَن يقولُ: من كليهما، فمخرجُها قريبٌ من مخرجِ اللّامِ، الذي هو أيضًا من حافّةِ اللّسانِ؛ وذلك يدلُّ على أنَّ الضّادَ كانتْ تشبهُ اللّامَ من بعضِ الوجوهِ"[٣] ويكشفُ هذا النصُّ عن اعتمادِ (برجستراسر) على الوصفِ المخرجيِّ الذي قدَّمَهُ القدماءُ في تفسيرِ الصّلةِ بينَ (الضّادِ واللّامِ)؛ إذْ رأى أنَّ اشتراكَهما في النّطقِ من حافّةِ اللّسانِ، وتقاربَ مخرجَيهما، يمكنُ أنْ يدلَّ على وجودِ شبهٍ صوتيٍّ بينهما، وهو ما استندَ إليه في تصوّرِ طبيعةِ نطقِ الضّادِ القديمةِ، ورأى أنَّ (اللّامَ) تُمثّلُ صوتًا طرفيًّا واضحًا يَعتمدُ في نطقِهِ على تماسِّ طرفِ اللّسانِ مع اللّثةِ العليا مع بقاءِ مجرى الصّوتِ مفتوحًا من الجانبينِ، وهو ما يفسّرُ صفةَ الانحرافِ فيها. وقد عدَّ (اللّام) من الأصواتِ الصّوتيّةِ الواضحةِ التي يَجري فيها الصّوتُ بسهولةٍ، بخلافِ (الضّادِ) التي تَمتازُ بالإطباقِ والدّويّ، مِمّا يجعلُها أكثر تعقيدًا في النّطقِ[٤]. وأمّا (كانتينو) فقد عدَّ (النّون) من الأصواتِ الأسنانيّةِ التي تُنطقُ بوضعِ طرفِ اللّسانِ على الثّنايا العليا، وجمعَ (الباءَ والرّاءَ واللّامَ) مع الأصواتِ الأدنى حنكيّةً إلى

---

(١) ينظر: الحواشي المفهمة: ٤١.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ١٩٦.

(٣) التطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٨.

(٤) ينظر: التطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٨-١٩.

جانبِ (الجيمِ والشّينِ)[١]. وقد نُسبتْ إلى (اللّامِ) صفةُ الانحرافِ؛ إذْ ينحرفُ الصّوتُ عن جانبي اللّسانِ لاعتراضِ طرفِهِ مجرى الهواءِ، فلا ينحبسُ الصّوتُ فيها انحباسًا تامًّا، بل يَمرُّ عبر جانبي اللّسانِ، وهو ما يمنحُها طابعًا خاصًّا يجمعُ بين الشّدّةِ والرّخاوة حيثُ جريان الصّوتِ، وأمّا صوتُ (الرّاءِ) فقد حظي بدراسةٍ استشراقيّةٍ خاصّةٍ من حيثُ صفاتُهُ التّراثيّةُ المتمثّلةُ في الجهرِ، والتّكرارِ، والتّوسطِ بين الشّدّةِ والرّخاوةِ، والانفتاحِ، والانخفاضِ؛ إذْ أثبتَ المستشرقونَ عبر التّحليلِ الفيزيائيّ المخبريّ دقّةَ رصدِ القُدماء لصفةِ (التّكرارِ) النّاتجةِ عن ارتعادِ طرفِ اللّسانِ ارتعادةً خفيفةً في أثناءِ النّطقِ ارتبطتْ بصفةِ التّكريرِ؛ إذْ وصفَها سيبويهِ بأنّها من الأصواتِ المكرّرةِ، لأنَّ الصّوتَ يجري فيها نتيجةَ تكرّرِ طرفِ اللّسانِ وانحرافِهِ نحو (اللّامِ) حتّى تبدو عندَ النّطقِ الصّحيحِ كأنّها مضاعفةٌ، وهو ما يفسّرُ ما فيها من ارتدادٍ صوتيّ يُعدُّ أساسَ صفةِ التّكريرِ[٢].

**٧_ المخرجُ الأسنانيّ اللّثويّ (الأصواتُ النّطعيّةُ والأسليّةُ ومسألةُ الضّاد والظّاءِ):**

عندما درسَ القُدماء هذه الأصواتَ بيّنوا مخارجَها؛ ومن بينهم سيبويهِ الذي ذهبَ إلى أنَّ مخرجَ (الطّاءِ، والدّالِ، والتّاءِ) من بينَ طرفِ اللّسانِ وأصولِ الثّنايا، وميّزَ (الصّادَ، والضّادَ، والطّاءَ، والظّاءَ) من الأصواتِ المطبقةِ؛ لارتفاعِ اللّسانِ نحو الحنكِ الأعلى عندَ النّطقِ بِها، وجعلَ (للضادِ) مخرجًا مستقلًّا من أوّلِ حافةِ اللّسانِ وما يليها من الأضراسِ، وخصّهُ بصفةِ الاستطالةِ وعدّهُ صوتًا خاصًّا بالعربيّةِ[٣]؛ لذلك اشتهرتْ بصعوبةِ النّطقِ، وأشارَ ابن جنّي إلى أنَّهُ صوتٌ يُنطقُ من أحدِ جانبي اللّسانِ[٤]. بينما وصفوا (التّاءَ) بأنّها صوتٌ

---

(١) ينظر: دروس في علم اصوات العربيّة: ٣٠-٣١.
(٢) ينظر: الكتاب : ١٣٦/٤ ، ٤٣٥_٤٣٦، وفقه اللُّغات السّاميّة: ٨٣.
(٣) ينظر: الكتاب: ٤٣٣/٤.
(٤) ينظر: سرّ صناعة الإعراب: ٥٢/١.

مهموسٌ رخوٌ منفتحٌ، وهي صفاتٌ تدلُّ على جريانِ النّفسِ عندَ النّطقِ بها من غيرِ اهتزازٍ للأوتارِ الصّوتيّةِ، مع وجودِ انفراجٍ نسبيّ في المخرجِ. ومن ثمّ يتّضحُ أنَّ القُدماء اعتمدوا في تقسيمِ الأصواتِ على مجهورةٍ ومهموسةٍ على معيارٍ أساسُهُ اهتزازُ الأوتارِ الصّوتيّةِ في الحنجرةِ أو عدمُ اهتزازِها(١).

ولو ذهبْنا إلى آراءِ المستشرقينَ في هذه الأصواتِ، لوجدنا اختلافًا في تفسيرِ حقيقةِ (الطّاءِ) العربيّةِ؛ فبعضُهم وافقَ القُدماء في تحديدِ مخارجِها وصفاتها، في حينِ خالفَهم آخرونَ؛ تبعًا لمناهجِهم المقارنةِ واعتمادِهم على اللّهجاتِ الحديثةِ، ومن أبرزِ هؤلاء (بروكلمان) الذي خالفَ وصفَ القُدماء لصوتِ (الطّاءِ) فلا يراهُ صوتًا مجهورًا شديدًا مطبقًا؛ بل عدَّه صوتًا مهموسًا ذا نطقٍ مهموزٍ في أغلبِ اللُّغاتِ السّاميّةِ، مستندًا إلى المقارناتِ الصّوتيّةِ السّاميّةِ(٢). وأشارَ (شاده) إلى أنَّ (الطّاءَ) في بعضِ اللّهجاتِ الحديثةِ؛ كاللّهجةِ اليمنيّةِ؛ تميلُ إلى نطقٍ قريبٍ من (الدّالِ) المفخّمةِ، مِمّا يعكسُ تطوّرًا لهجيًّا في أدائِها الصّوتيّ(٣). بينما اتّفقَ (برجستراسر) مع القُدماء في عدِّ (الطّاءِ) صوتًا مجهورًا، لكنّهُ رأى أنَّ نطقَها الحديثَ شهدَ تطوّرًا واختلافًا عن صورتِها الفصحى القديمةِ(٤).

وقد أوضحَ (كانتينو) أنَّ نطقَ (الطّاءِ) قد تغيّرَ إذا ما قورنَ بما وردَ في كتابِ سيبويهِ وما تكشفُ عنه بعضُ اللهجاتِ العربيّةِ، إذ يقولُ: "ونحنُ إذا قارنّا بينَ الفقرةِ التي في كتابِ سيبويهِ وبينَ هذينِ الحديثينِ المتعلّقينِ باللّهجاتِ، قادَنا ذلكَ إلى افتراضِ أنَّ الطّاءَ كانتْ في الأصلِ مجهورةً، أي دالًا مفخَّمةً، وأنَّها سرعانَ ما صارتْ مهموسةً، أي تاءً مفخَّمةً، في جميعِ

---

(١) ينظر: الاصوات اللُّغويّة: ١٣٢_ ١٣٣.
(٢) ينظر: مناهج البحث في اللُّغة: ١٢٢.
(٣) ينظر: علم الاصوات عند سيبويه وعندنا: ٣٨.
(٤) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٥_١٧.

أقسامِ العربيّةِ، بما فيها نطقُ العربيّةِ الفصحى المأثورُ"[١]، ثمَّ حاولَ تفسيرَ هذا التّحوّلِ بقولهِ: "وربّما كانَ السببُ في انتقالِ الطّاءِ من الجهرِ إلى الهمسِ كونَها مفخَّمةً، وحدوثَ ذلكَ التوتّرِ العامِّ في الأعضاءِ عندَ النطقِ بها"[٢]. ويكشفُ هذا التّصوّرُ عن اعتمادِ كانتينو على المقارنةِ بينَ وصفِ سيبويهِ والمعطياتِ اللهجيّةِ في إعادةِ بناءِ النطقِ القديمِ للطّاءِ؛ إذ افترضَ أنَّها كانتْ في الأصلِ صوتًا مجهورًا قريبًا من (الدّالِ) المفخّمةِ، غيرَ أنَّهُ مالَ في لهجاتٍ أخرى إلى الهمسِ بسببِ التّفخيمِ وما يُسبّبُهُ من توتّرٍ يعيقُ اهتزازَ الأوتارِ الصّوتيّةِ.

وقد أوضحَ (كانتينو) أنَّ نطقَ (الطّاءِ) قد تغيّرَ إذا ما قورنَ بِما وردَ في كتابِ سيبويهِ، ففي بعضِ اللّهجاتِ البدويّةِ يُنطقُ نطقًا مجهورًا قريبًا وأمّا (هنري فليش) فقد عدَّ هذا التّحوّلَ من الجهرِ إلى الهمسِ نتيجةً طبيعيّةً للتطوّرِ الصّوتيّ في العربيّةِ، في حين حاولَ (بول كراوس) تفسيرَ (الطّاء) في ضوءِ المقارنةِ السّاميّةِ، فربطَها بأصواتٍ تقابلُها في العبريّةِ والأكديّةِ والآراميّةِ[٣]. وفي الجانبِ الآخرِ قدّمَ المستشرقُ (كراوس) دراسةً تاريخيّةً مقارنةً حولَ صوتِ (الطّاءِ) العربيّ (ṭ)؛ فقد استنتجَ أنَّ هذا الصّوتَ مرَّ بسلسلةٍ طويلةٍ من التّطوّراتِ والتّحوّلاتِ التّاريخيّةِ والفيزيولوجيّةِ داخلَ اللُّغاتِ السّاميّةِ ذاتِها. وأوضحَ (كراوس) أنَّ (الطّاءَ) العربيّةَ في الفصحى تُقابلُ في حقيقتِها التّاريخيّةِ (وفي اللُّغةِ الأكديّةِ القديمةِ) صوتَ (الصّادِ القديمةِ)؛ مِمّا يعني أنَّ صوتَ (الطّاءِ)؛ الذي نعرفُهُ اليومَ؛ لم يكنْ في الأصلِ صوتًا ساميًّا واحدًا ثابتًا، بل هو نتاجُ تطوّرٍ فيزيائيّ وصوتيّ من صوتٍ آخرَ كانَ أقربَ في طبيعتِهِ وتفخيمِهِ إلى (الصّادِ المفخّمةِ). وأشارَ إلى أنَّ اللُّغةَ الآراميّةَ احتفظَتْ بمرحلةٍ صوتيّةٍ أقدمَ

(١) دروس في علم أصوات العربيّة: ٥١.
(٢) المصدر نفسه: ٥١.
(٣) ينظر: العربيّة الفصحى: ٤٠.

تختلفُ عن مسارِ التّطوّرِ الصّوتيّ (للطاءِ) في العربيّةِ والأكديّةِ[١]، وصوتُ (الطّاءِ) عندَ (مالمبرج) من الأصواتِ المهموسةِ الشّديدةِ المفخّمةِ المطبقةِ[٢]، ولكنْ عدّهُ (موسكاتي) من الأصواتِ الشّديدةِ، غيرَ أنَّ أصلَهُ السّاميّ القديمَ كانَ أقربَ إلى (التّاءِ) المهموسةِ منهُ إلى (الطّاءِ) العربيّةِ المفخّمةِ المجهورةِ. واستدلَّ على ذلك بالنّصوصِ المسماريّةِ والكتاباتِ المصريّةِ القديمةِ التي لم تُظهرْ تمييزًا واضحًا بين (الطّاءِ، والتّاءِ، والدّالِ)، مِمّا يشيرُ إلى تغيّرِ صفاتِها عبرَ الزّمنِ[٣].

ولكن من أكثرِ الأصواتِ العربيّةِ التي أثارتِ عناية المستشرقينَ بشكلٍ بالغٍ هو صوتُ (الضّادِ)؛ لما ينمازُ بهِ من خُصوصيّةٍ في المخرجِ والصّفاتِ، فضلًا عن صعوبةِ نطقهِ وتميُّزِهِ من كثيرٍ من أصواتِ اللُّغاتِ السّاميّةِ الأخرى. ولذلك اتّجَهَ عددٌ من المستشرقينَ إلى دراسةِ ما حدّدهُ القُدماء لهُ من مخارجَ وصفاتٍ، ومقارنةِ نُطقهِ في العربيّةِ الفصحى باللّهجاتِ الحديثةِ، وشملَتْ دراساتُهم صوتَ (الظّاءِ) لما بينهُ وبينَ (الضّادِ) من تقاربٍ في بعضِ البيئاتِ اللّهجيّةِ. فذهبَ (بروكلمان) إلى أنَّ (الضّادَ) صوتٌ مجهورٌ رخوٌ في جميعِ اللُّغاتِ السّاميّةِ، في حين عدَّ (الظّاءَ) من الأصواتِ الرّخوةِ المهموسةِ، مؤكّدًا بذلك اشتراكَ السّاميّاتِ في بعضِ الخصائصِ الصّوتيّةِ للضادِ، غيرَ أنَّهُ لم يُفصّلْ في وصفِ مخرجِها العربيّ الدّقيقِ[٤]. وأمّا (فندريس) فرأى أنَّ العربيّةَ قد شهدتْ نوعًا من التّبادلِ بينَ (الضّادِ) و(الظاءِ)، وأنَّها ما تزالُ قادرةً على إنتاجِ مركّباتٍ صوتيّةٍ جديدةٍ بفعلِ التّطوّرِ الصّوتيّ[٥]. بينما ناقشَ (شاده) وصفَ

---

(١) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ١٠٠.
(٢) ينظر: علم الأصوات (مالمبرج): ١٢٣ .
(٣) ينظر: مدخل الى نحو اللُّغات السّاميّة المقارن: ٤٨_٦٠.
(٤) ينظر: فقه اللُّغات السّاميّة: ٣٩
(٥) ينظر: اللُّغة، فندريس: ٧٤.

سيبويهِ لصوتِ (الضّادِ) بالرّخاوةِ، مبيّنًا أنَّ هذا الوصفَ كانَ ينطبقُ على بعضِ اللّهجاتِ العربيّةِ القديمةِ، غيرَ أنَّ (الضّادَ) في العربيّةِ المُعاصرةِ أصبحتْ في أغلبِ اللّهجاتِ صوتًا شديدًا، ولا سيّما في اللّهجةِ المصريّةِ، فقد اتّسمَ نطقُها بانسدادٍ أقوى في مجرى الهواءِ[١]. وبحسبِ رأيهِ فإنَّ (الضّادَ) مرّتْ بتطوّرٍ صوتيّ انتقلتْ فيهِ من الرّخاوةِ إلى الشّدّةِ. ولكنْ عندما تطرّقَ (برجستراسر) إلى صوتِ (الضّادِ) ركّزَ على خصوصيّتهِ في العربيّةِ، مؤكّدًا أنَّهُ صوتٌ فريدٌ لا نظيرَ لهُ في اللُّغاتِ الأخرى، وأنَّ العربَ قد اختصّوا بهِ حتّى وُصفوا بأنّهم أهلُ (الضّادِ). ووضّحَ أنَّ (الضّادَ) القديمة كانتْ قريبةً من (اللّامِ) في بعضِ صفاتِها، وأنَّ نُطقَها العتيقَ قد اندثرَ عندَ أكثرِ العربِ، غير أنَّ بعضَ أهلِ حضرموتَ والأندلسيّينَ احتفظوا بصورةٍ قريبةٍ منهُ. مشيرًا إلى أنَّ (الضّادَ) تحوّلَ مع الزّمنِ من صوتٍ رخوٍ يخرجُ من حافّةِ اللّسانِ إلى صوتٍ أشدَّ يعتمدُ على طرفِ اللّسانِ، وهو ما يفسّرُ اختلافَ نطقِهِ الحديثِ عن نُطقِهِ القديمِ[٢]. ولم يغفلْ (برجستراسر) عن صوتِ (الظّاءِ)، بل تناولَهُ مبيّنًا أنَّ نطقَهُ قد تغيّرَ عمّا كانَ عليه قديمًا؛ "فالضّادُ، فهي الآنَ شديدةٌ عندَ أكثرِ أهلَ المدنِ، وهى رخوةٌ في الجدولِ، كما هي الآنَ عندَ أكثر البدو. ومع ذلك فليسَ لفظُها البدويّ الحاضرُ، نفسَ لفظِها العتيقِ؛ لأنّ مخرجَ (الضّادِ) في جدولِ المخارجِ، من حافّةِ اللّسانِ"[٣] إذْ أصبحَ عندَ أهلِ المدُنِ من أصواتِ الصّفيرِ، بينما يُنطقُ عندَ كثيرٍ من العربِ نطقَ (ذالٍ) مطبقةٍ، وهو نُطقٌ قريبٌ من صورتِهِ العتيقةِ المُشابهةِ (للضادِ). وأثبتَ (برجستراسر) أنَّ التّقاربَ الشّديدَ والتّشابُهَ الجوهريّ بين الضّادِ والظّاءِ أدّى إلى حُدوثِ ظاهرةِ التّبادُلِ بينهما في عددٍ من الألفاظِ العربيّةِ، واستدلَّ (برجستراسر) تاريخيًّا على هذا التّبادُلِ الصّوتيّ بما وردَ في القرآنِ الكريمِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا

(١) ينظر: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا: ٢٨- ٢٩.

(٢) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٨.

(٣) التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٨.

هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾[1] فقد قرأها عددٌ من القرّاءِ والمحدِّثينَ بـ(الظّاءِ) على صورةِ: ﴿بِظَنِينٍ﴾، بدلَ (الضّادِ)، مِمّا يكشفُ بصورةٍ قاطعةٍ عن عمقِ ظاهرةِ التّبادلِ الصّوتيّ والتّقارُبِ الفيزيائيّ بينَ (الضّادِ) و(الظّاءِ) عندَ العربِ القُدماء[2].

أرى أنَّ ما ذهبَ إليه (برجستراسر) في رصدِ التَّغيُّرِ الذي طرأَ على نطقِ (الضَّادِ والظَّاءِ) يُمثِّلُ محاولةً مهمَّةً لتفسيرِ الظَّاهرةِ في ضوءِ التَّطوُّرِ الصَّوتيِّ؛ إذْ إنَّ وصفَ القُدماءِ لمخرجِ (الضَّادِ) وصفاتِها لا يتطابقُ تمامًا مع كثيرٍ من صورِ نطقِها المعاصرةِ، وهو ما يُشيرُ إلى أنَّ هذا الصَّوتَ قد شهدَ تحوُّلاتٍ في مخرجِهِ وبعضِ صفاتِهِ عبرَ مراحلَ تاريخيَّةٍ مختلفةٍ. وأنَّ التَّقاربَ بينَ (الضَّادِ والظَّاءِ) في بعضِ الخصائصِ النُّطقيَّةِ يُمكنُ أنْ يُفسِّرَ جانبًا من ظواهرِ التَّداخلِ والإبدالِ بينهما في بعضِ الاستعمالاتِ العربيَّةِ. إلا أنَّني لا أرى أنَّ اختلافَ القراءةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ بِضَنِينٍ﴾ بينَ (الضَّادِ والظَّاءِ) يَصلحُ وحدَهُ دليلًا قاطعًا على وقوعِ التَّبادلِ الصَّوتيِّ؛ لأنَّ اختلافَ القراءاتِ ينبغي أنْ يُدرسَ في ضوءِ الرِّوايةِ والدَّلالةِ إلى جانبِ المعطياتِ الصَّوتيَّةِ. ومن ثَمَّ، فإنَّ قيمةَ رأيِ (برجستراسرَ) تكمنُ في تنبيهِهِ إلى البعدِ التَّاريخيِّ في تطوُّرِ الأصواتِ العربيَّةِ، على أنْ يُنظرَ إلى شواهدِهِ بوصفِها قرائنَ تُسهمُ في تفسيرِ الظَّاهرةِ، لا أدلَّةً منفردةً قاطعةً عليها.

وأمّا (كانتينو) فقد رأى أنَّ (الضّادَ) صوتٌ انحرافيّ مطبقٌ، مقرًّا بأنَّ النّحويّينَ العربَ قدّموا وصفًا دقيقًا لمخرجِهِ، غيرَ أنَّه عدَّ هذا الوصفَ غيرَ كافٍ لتحديدِ طبيعتِهِ الصّوتيَةِ بدقّةٍ؛ فرجّحَ أنَّ (الضّادَ) القديمةَ كانتْ تقعُ بينَ (الدّالِ) المفخّمة و(الظّاءِ)، مع ميلٍ جانبيّ في النّطقِ يشبهُ الميلَ الذي يحدثُ عند نطقِ صوتِ (اللّامِ). كما أشارَ إلى ما ذكرَهُ القدماءُ من

---

(١) التكوير: ٢٤.

(٢) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٨_١٩.

صعوبةِ نطقِ الضّادِ وتعقيدِها، إذ يقولُ: "ومنذُ القديمِ كانَ هذا الحرفُ المعقَّدُ العسيرُ على النّطقِ عُرضةً للتغييرِ، وقد ذكرَ النّحاةُ القدماءُ منذُ عهدِهم نطقًا مستهجنًا لهذا الحرفِ أسموهُ الضّادَ الضعيفةَ"[١]ويكشفُ هذا النصُّ عن ربطِ صعوبةِ نطقِ الضّادِ بما تعرَّضتْ له من تغيّرٍ صوتيٍّ منذُ وقتٍ مبكّرٍ، مستدلًّا بما سجّلَهُ القدماءُ من وجودِ صورةٍ نطقيّةٍ غيرِ مستحسنةٍ أطلقوا عليها (الضّادَ الضعيفةَ). وأشار أيضًا إلى ظاهرةِ إبدالِها (لامًا) في بعضِ اللّهجاتِ، وهو ما يدلُّ على قُربِها من الأصواتِ الجانبيّةِ. ويؤكّدُ (كانتينو) تبعًا لذلكَ، أنَّ (الضّادَ) قد شهدتْ تطوّرًا واضحًا في العربيّةِ الحديثةِ، فأصبحَ نطقُها المُعاصرُ يختلفُ عن النّطقِ العربيّ القديمِ[٢]. إلّا أنَّ المستشرقَ الفرنسيّ (هنري فليش) أفردَ دراسةً بالغةَ الأهمّيّةِ لصوتِ (الضّادِ)، مرجّحًا نظريّةً صوتيّةً تفيدُ بأنَّ (الضّادَ) العربيّةَ القديمةَ في حقيقتِها النّطقيّةِ لم تكنْ (دالًا) مفخّمةً كما هي في بعضِ النُّطقِ المعاصرِ، بل تحوّلتْ بصُورةٍ عامّةٍ إلى صوتٍ انفجاريٍّ مطبقٍ يَقربُ من (الدّالِ) المفخَّمةِ، أو إلى صوتٍ أسنانيّ يُقاربُ ويُشابهُ صوتَ (الظّاءِ)[٣]، وأكّدَ (بول كراوس) أنَّ العربيّةَ انفردتْ بصوتِ (الضّادِ) دونَ سائرِ اللُّغاتِ السّاميّةِ مبيّنًا أنَّهُ صوتٌ فريدٌ لا نظيرَ لهُ في اللُّغاتِ الأخرى، رافضًا القولَ بوجودِ (ضادٍ) مماثلةٍ في الحبشيّةِ، ومبينًا أنّ ما يُسمّى بـ(الضّادِ) الحبشيّةِ يختلفُ عن (الضّادِ) العربيّةِ في المخرجِ والصّفاتِ[٤].

وبالنّسبةِ لمخرج (الظّاءِ والذّالِ والثّاءِ) فقد تبنّى المستشرقانِ (برجستراسر)، و(كانتينو) التّحديدَ الدّقيقَ الذي وضعَهُ علماءُ العربيّةِ القُدماء لمخرجِها، كونها تخرجُ من بينِ أطرافِ الثّنايا العليا والسّفلى مع طرفِ اللّسانِ. وهو ما يدلُّ على وجودِ توافقٍ واضحٍ بينَ الوصفِ

---

(١) دروس في علم أصوات العربيّة: ٨٦.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٨٥-٨٦.

(٣) ينظر: العربيّة الفصحى:٣٧.

(٤) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ٨٧.

الصّوتيّ القديمِ والدِّراساتِ الصّوتيّةِ الحديثةِ. وأطلقَ (برجستراسر) و(كانتينو) على هذه الأصواتِ تسميةَ الأصواتِ اللِّثويّةِ ما يُقابلُ في اللّسانيّاتِ الغربيّةِ الحديثةِ مصطلحَ (Dental/Interdental Sounds)[١]. فيُوردُ برجستراسر: "ظ، ذ، ث، من بينِ طرفِ اللّسانِ وأطرافِ الثّنايا العليا، وهي الأصواتُ اللّثويّةُ[٢].

ولم تكنِ الآراءُ متشابهةً فيما يخصُّ مخرجَ (الصّادِ، والزّاي، والسّينِ) وصفاتِها، بل دارَ خلافٌ أيضًا بين القُدماء والمستشرقينَ حولَها. فقد رأى (كارل بروكلمان) أنَّ (السّينَ والصّادَ) من الأصواتِ المهموسةِ الرّخوةِ في اللُّغاتِ السّاميّةِ؛ فـ(السّينُ) صوتٌ رخوٌ مهموسٌ يخرجُ من طرفِ اللّسانِ مع الأسنانِ العليا، أمّا (الصّادُ) فهي أيضًا مهموسةٌ لكنّها أشدُّ ضغطًا في المخرجِ بسبب الإطباقِ، في حينِ عدَّ (الزّاي) صوتًا مجهورًا رخوًا[٣]. وتطرقَ (شاده) إلى وصفَ سيبويهِ للإطباقِ في (الصّادِ)، "أمّا الإطباقُ فهو نُطقٌ يعزوهُ سيبويهِ لأربعةِ أصواتٍ؛ وهي (الصّادُ، والضّادُ، والطّاءُ، والظّاءُ)"[٤] موضّحًا أنَّ المتكلّمَ يرفعُ مؤخّرَ لسانِهِ نحوَ الحنكِ الأعلى عندَ النّطقِ بها، بخلافِ (السّينِ)، وهو ما يمنحُ (الصّادَ) صفةَ الإطباقِ ويُميّزُها من الأصواتِ الأخرى[٥]. أمّا (برجستراسر) فقد عدَّ (السّينَ) من أصواتِ الصّفيرِ المهموسةِ الرّخوةِ، ورأى أنَّ بعضَ أصواتِ (السّينِ، والشّينِ) نشأتْ عن تطوّراتٍ صوتيّةٍ أو تعريبِ ألفاظٍ آراميّةٍ. ووصفَ (الصّادَ) بأنَّها صوتٌ رخوٌ مهموسٌ يتضمّنُ الإطباقَ والاستعلاءَ، نتيجةَ ارتفاعِ مؤخّرِ اللّسانِ واقترابِهِ من الحنكِ الأعلى، وهو ما يُكسبُها صفاتِها المميّزةَ[٦]. وأقرَّ (جان

---

(١) ينظر: التّطوّر النّحوي للغة العربيّة: ١٢، ودروس في علم أصوات العربيّة: ٣٢.

(٢) التّطوّر النّحوي للغة العربيّة: ١٢.

(٣) ينظر: فقه اللّغات السّاميّة: ٣٩_٤٠.

(٤) علم الاصوات عند سيبويه وعندنا: ٤٠.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠ _٤١.

(٦) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٥_٢٥.

كانتينو) بوجودِ ثالوثٍ صفيريّ في اللُّغاتِ السّاميّةِ يَتمثّلُ في (السّينِ، والزّاي، والصّادِ)، ومبيّنًا أنّها أصواتٌ تطوّرَتْ بشكلٍ محدودٍ في العربيّةِ من أصواتٍ شديدةٍ إلى أصواتٍ رخوةٍ صفيريّةٍ، واصفًا (السّينَ) بأنّها صوتٌ مهموسٌ متوسطٌ بينَ الشّدّةِ والرّخاوةِ، و(الزّاي) بأنَّهُ صوتٌ رخوٌ مجهورٌ[١]، مُتّفقًا في ذلك مع (كارل بروكلمان). وعلى الجانبِ الآخرِ جعلَ (هنري فليش) (الزّاي والسّينَ والصّادَ) من الأصواتِ الرّخوةِ التي يَجري فيها الصّوتُ دونَ انسدادٍ كاملٍ للمخرجِ[٢]. وأمّا (بول كراوس) فقد أشارَ إلى أنَّ (السّينَ) العربيّةَ تحملُ أثرَ (الشّينِ) العربيّةِ و(السّينِ) السّاميّةِ، مستنتجًا أنَّ العربيّةَ القديمةَ كانتْ تضمُّ ثلاثةَ أصواتٍ صفيريّةٍ اندثرَ أحدُها أو اختلطَ بغيرِهِ مع الزّمنِ[٣]. واتّفقَ (موسكاتي) مع هذا الاتّجاهِ في عدِّ (السّينِ، والصّادِ، والشّينِ، والزّاي) من الأصواتِ الرّخوةِ[٤]، بينما وصفَ (مالمبرج) (الصّادَ) بأنَّها تجمعُ بينَ الهمسِ والرّخاوةِ والإطباقِ والاستعلاءِ، وعدَّ (السّينَ) صوتًا مهموسًا رخوًا، و(الزّاي) صوتًا رخوًا صفيريًّا[٥].

**٨_ المخرجُ الشّفويّ الأسنانِيّ:**

ذهبَ الخليل إلى أنَّ (الفاءَ) تخرجُ من بينِ الشّفتينِ، معتمدًا في نُطقِها على تماسِّ الشّفةِ السّفلى بأطرافِ الثّنايا العُليا[٦]، بينما حدّدَ سيبويهِ مخرجَها بدقّةٍ أكبرَ فجعلَها من باطنِ الشّفةِ

(١) ينظر: دروس في علم أصوات العربيّة: ٧٢، ٢٤-٢٥.
(٢) ينظر: العربيّة الفصحى: ٤٠.
(٣) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ١١٥.
(٤) ينظر: مدخل إلى نحو اللّغات السّاميّة: ٤٨
(٥) ينظر: مدخل إلى نحو اللغات السّاميّة: ٤٨
(٦) ينظر: كتاب العين: ٥١/١(المقدمة).

السّفلى وأطرافِ الثّنايا العليا[١]، وقد تابعَ المستشرقونَ هذا الوصفَ الموروثيّ، فدرسوا صفاتِ (الفاءِ) الفيزيائيّةِ كونها صوتًا مهموسًا رخوًا منفتحًا مستفلًا، وعقدوا مقارناتٍ بينها وبينَ (الخاءِ)؛ لبيانِ اختلافِهما السّمعيّ على الرّغمِ من اشتراكِهما في عددٍ من الصّفاتِ الصّوتيّةِ. ورأى (بروكلمان) أنَّ (الفاءَ) تطوّرتْ عن صوتِ (الباءِ) في اللُّغةِ السّاميّةِ الجنوبيّةِ؛ إذْ يذهب إلى أنَّ "في السّاميّةِ الجنوبيّةِ (العربيّةِ والحبشيّةِ)، تحوّلَ الصّوتُ الشّفويّ الشّديدُ المهموسُ (پ) إلى الصّوتِ الرّخو المهموسِ (ف)"[٢]. وعدَّها أحدَ الصّوتينِ النّاتجينِ عن إغلاقِ الشّفتينِ؛ أحدُهما مهموسٌ يماثلُ (p)، والآخرُ مجهورٌ يماثلُ (b)[٣]. وأشارَ عددٌ من المستشرقين إلى أنَّ (الفاءَ) في حقيقتِها من الأصواتِ الشّفويّةِ الأسنانيّةِ؛ لاشتراكِ الشّفةِ السّفلى مع الأسنانِ العليا في إنتاجِها، بخلافِ (الواو) التي تعتمدُ على الشّفتينِ معًا[٤].

**٩_ المخرجُ الشّفويّ (بين الشّفتينِ / خارجِ جهازِ النّطقِ):**

وقعتْ مخالفةٌ جزئيّةٌ بينَ سيبويهِ وأستاذِهِ الخليل في تحديدِ بعضِ الأصواتِ الشّفويّةِ؛ إذْ رأى سيبويه أنَّ (الباءَ، والميمَ، والواوَ) تَشتركُ جميعُها في مخرجٍ واحدٍ من بينِ الشّفتينِ، ولذلك عدَّها من الأصواتِ الشّفويّةِ[٥]. أمّا الخليل فقد جعلَ (الفاءَ) مع (الباءِ، والميمِ) في هذا المخرجِ[٦]، مخالفًا سيبويهِ الذي أخرجَ (الفاءَ) منهُ وأدخلَ (الواو) بدلًا عنها. ويبدو أنَّ سيبويه بنى رأيهُ على ملاحظةِ طبيعةِ الاعتمادِ الصّوتيّ في هذه الأصواتِ، لما تتطلّبُهُ من انطباقِ

---

(١) ينظر: الكتاب: ٤/٤٣٣.
(٢) فقه اللّغات السّاميّة: ٥١.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٩، ٥١.
(٤) ينظر: علم اللُّغة العام ( الأصوات): ٨٩.
(٥) ينظر: الكتاب: ٤/٤٣٣.
(٦) ينظر: كتاب العين: ١/٥١.

الشّفتينِ أو تقارُبِهما بدرجاتٍ متفاوتةٍ، وهو ما يدلُّ على وحدةِ المخرجِ مع اختلافِ الصّفاتِ الصّوتيّةِ لكلِّ صوتٍ. وقد تناولَ المستشرقُ (شاده) مخرجَ (الباءِ، والميمِ) عند حديثِهِ عن مفهومِ المخرجِ عندَ سيبويهِ، منتقدًا هذا المصطلحَ مع إقرارِهِ بفضلِ سيبويهِ في الدِّراساتِ الصّوتيّةِ، وموضّحًا أنَّ (الميمَ) تشتركُ مع (الباءِ) في موضعِ الشّفتينِ، غيرَ أنَّ جزءًا من صوتِها يخرجُ من الأنفِ، ولذلك رأى أنَّ مخرجَها الحقيقيّ يرتبطُ بالخيشومِ أكثرَ من ارتباطِهِ بالشّفتينِ وحدهما(١). بينما اتّفقَ (برجستراسر) و(كانتينو) مع سيبويهِ وسارا بشكلٍ تامٍّ على نهجِهِ الصّوتيّ وتصنيفِهِ لهذه الأصواتِ الثّلاثةِ (الباءِ، والميمِ، والواو) فأقرّا باشتراكِها جميعًا في مخرجٍ واحدٍ يتكوّنُ من انطباقِ الشّفتينِ أو انضمامِهما. كما تبنّى (برجستراسر)، و(كانتينو) رسميًّا مصطلحَ القُدماء اللُّغويّ بحذافيرِهِ، فأطلقوا عليها في بحوثهم باللّسانيّاتِ المقارنةِ اسمَ الأصواتِ الشّفويّةِ حسب موضعِ نطقِها بأنَّها تخرجُ "ممّا بينَ الشفتينِ، وهي الحروفُ الشّفهيّةُ أو الشّفويّةُ(٢) متّفقينَ مع سيبويه في تحديدِ المخرجِ وفي التّسميةِ معًا، أي أنَّهما قد وافقا سيبويهِ في التّسميةِ والمضمونِ(٣)، وهذا التّطابقُ الكاملُ والتّبنّي الاستشراقيّ دليلٌ يثبتُ استمرارَ التّأثيرِ البالغِ والعميقِ للمنهجِ اللُّغويّ العربيّ الأصيلِ الذي أرساهُ سيبويهِ في اللّسانيّاتِ الغربيّةِ والمقارنةِ الحديثةِ في القرنِ العشرينَ.

وأمّا **فلسفةُ التّرتيبِ التّصاعديّ في مقابلِ التّرتيبِ التّنازليّ**، فقد اعتمدَ علماءُ العربيّةُ القُدماء في ترتيبِهم للأصواتِ منهجًا تصاعديًّا قائمًا على الجانبِ التّشريحيّ لمخارجِ الأصواتِ؛ إذ ابتدؤوا من أقصى الحلقِ، حيثُ تخرجُ (الهمزةُ، والهاءُ)، ثُمّ انتقلوا تدريجيًّا نحو مقدّمةِ الفمِ

---

(١) ينظر: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا: ٢٥.

(٢) التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٢.

(٣) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٢، ودروس في علم أصوات العربيّة٣٢، ومناهج البحث في اللُّغة ٨٤، والمدخل إلى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ٤٢.

حتّى الشّفتينِ، حيثُ تخرجُ (الباءُ، والميمُ، والفاءُ). وعندَما تطرقوا إلى دراسةَ المخارجِ وكيفيّةَ ترتيبِها، جعلوا البدايةَ من الحنجرةِ والنّهايةَ عندَ الشّفتينِ، معلّلينَ ذلك بأنَّ مادّةَ الصّوتِ هي الهواءُ الخارجُ من داخلِ الحلقِ والفمِ، فيبدأ مسارهُ من أقصى الحلقِ وينتهي عندَ الشّفتينِ حيثُ ينقطعُ مجرى الصّوتِ. وبهذا يكونُ ترتيبُهم للأصواتِ ترتيبًا تصاعديًّا من الدّاخلِ إلى الخارجِ، أيْ من الحنجرةِ إلى الشّفتينِ، وهو ترتيبٌ ينسجمُ مع المسارِ الطبيعيّ لخروجِ الصّوتِ الإنسانيّ(١). وقد سلكَ سيبويهِ في ذلك مسلكَ الخليلِ، فابتدأ ترتيبَ الأصواتِ من الحلقِ، جاعلًا أوّلها ما كانَ أقربَ إلى مدخلِ الحلقِ، على نحوٍ يوافقُ منهجَ الخليل في ترتيبِ الأصواتِ بحسبِ مخارجِها. وسارَ على هذا النّهجِ عددٌ من علماءِ العربيّةِ القُدماء الذين عدّوا انبعاثَ الصّوتِ من الصّدرِ أساسًا في تنظيمِ المخارجِ وترتيبِها(٢). وفي المقابل، أعادَ المستشرقونَ ترتيبَ الأصواتِ ترتيبًا تنازليًّا يبدأ من الشّفتينِ وينتهي بالحنجرةِ وأقصى الحلقِ. وعلى الرّغم من هذا الاختلافِ في الاتّجاهِ، فالمستشرقينَ أقرّوا بأنَّ التّرتيبَ العربيّ القديمَ هو نظامٌ أصيلٌ ومعمولٌ بهِ مُنْذُ القدمِ؛ وفي هذا السّياقِ أشادَ (شاده) بمنهجِ سيبويهِ في ترتيبِ الأصواتِ على وفقِ مخارجِها؛ فيقولُ: "بلغَ في تعيينِ مواضعِ الحروفِ ومخارجِها من الصّحّةِ والدّقّةِ ما يعسرُ علينا الزّيادةُ والإصلاحُ"(٣). وأقرَّ (كانتينو) هو أيضًا بدقّةِ هذا التّرتيبِ مبيّنًا أنَّ "نظريّةَ مخارجِ الأصواتِ عندَ نحاةِ العربِ نظريّةٌ أحكموا ضبطَها بعنايةٍ"(٤)، والنّتائجُ التي توصّلَ إليها الطّرفانِ تكادُ تكونُ متقاربةً لدرجةٍ كبيرةٍ. وأنَّ التّرتيبَ التّنازليّ _في حقيقتِهِ _ ليس جديدًا على الدّرسِ الصّوتيّ العربيّ، بل هو امتدادٌ لجهودِ عُلماءِ العربيّةِ القُدماء؛ إذْ عرفَ

---

(١) ينظر: الحواشي المفهمة:٤٠، والطرازات المعلمة في شرح المقدّمة: ٩٥، والفصول المؤيّدة: ٤٨.

(٢) ينظر: كتاب العين: ١/ ٤٧.

(٣) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا: ٢.

(٤) دروس في علم أصوات العربيّة: ٣١.

الموروثُ العربيّ كلا النّمطينِ من التّرتيبِ: التّصاعديّ والتّنازليّ. فكما رتّبَ العربُ الأصواتَ من أقصى الحلقِ إلى الشّفتينِ، وهو التّرتيبُ الشّائعُ في كثيرٍ من المصادرِ القديمةِ، فقد عرفوا أيضًا ترتيبَها من الشّفتينِ إلى الحلقِ(١). ومن هنا يُمكنُ القولُ إنَّ الدِّراساتِ الصّوتيّةَ الحديثةَ قد أفادتْ من التّرتيبِ التّنازليّ للمخارجِ، غيرَ أنَّ بعضَ المحدثينَ ذهبَ إلى أنَّ هذا المنهجَ مقتبسٌ من الدِّراساتِ الصّوتيّةِ الغربيّةِ، وهو رأيٌ يكشفُ عن عدمِ الإحاطةِ الدّقيقةِ بتراثِ العربِ الصّوتيّ؛ لأنَّ التّرتيبَ الجرميّ الطّبيعيّ للمخارجِ كانَ معروفًا ومُستعملًا في الدِّراساتِ العربيّةِ القديمةِ قبل أنْ يظهرَ في الدِّراساتِ الغربيّةِ الحديثةِ(٢).

**٣_ الصّراعُ الاصطلاحيّ (بينَ المسمّياتِ القديمةِ والمصطلحاتِ الغربيّةِ الحديثةِ):**

شهدَ الفكرُ الصّوتيّ الحديثُ معركةً اصطلاحيّةً واضحةَ الأثرِ، تسبّبَ فيها موقفُ بعضِ المستشرقينَ السّلبيُّ أو المتوجّسُ من التّسمياتِ العربيّةِ الأصيلةِ للظواهرِ الصّوتيّةِ. فقد حاولَ فريقٌ من المستشرقينَ تهميشَ المصطلحاتِ المقرّرةِ في الموروثِ العربيّ، وعبّروا عن رفضِهم لبعضِ التّسميّاتِ؛ مثلِ: (الجهرِ، والهمسِ، والشدّةِ، والرّخاوةِ)، مُدّعينَ أنَّها مصطلحاتٌ يشوبُها الغموضُ، أو أنَّها لا تصفُ الحالةَ الميكانيكيّةَ للوترينِ الصّوتيّينِ بدقّةِ اللّسانيّاتِ الغربيّةِ(٣). ومن شواهدِ ذلك محاولةُ المستشرقِ الألمانيّ (برجستراسر) الذي يُعدُّ من أوائلِ من سعى إلى إدخالِ تغييراتٍ جذريّةٍ على المصطلحِ الصّوتيّ العربيّ القديمِ، ودعا بصراحةٍ إلى إحلالِ مصطلحاتٍ غربيّةٍ مترجمةٍ بديلةٍ عن المصطلحاتِ التّراثيّةِ بدعوى عدمِ ملاءمتِها الفسيولوجيّةِ، على الرّغمِ من وضوحِ دلالةِ تلك المصطلحاتِ وعمقِها لدى اللُّغويّينَ القُدماء. فاستعملَ مُصطلحاتٍ صوتيّةً حديثةً بدلًا من المصطلحاتِ العربيّةِ كـ(صوتيّ، غير صوتيّ، متمادٍّ،

(١) ينظر: علم الأصوات، كمال بشر: ١٨٩.

(٢) ينظر: أبحاث جديدة في علم الأصوات والتّجويد: ٧٠.

(٣) ينظر: المصطلح الصوتيّ العربيّ في دراسات المستشرقين: ١.

آنيّ، صوتيّةٍ محضةٍ، آنيٍّ صوتيّ)[١]؛ فهو يصفُ مصطلحاتِ النّحويّينَ العربِ القُدماء بأنَّها "اصطلاحاتٌ غيرُ اصطلاحاتِنا، أصلُ بعضِها غامضٌ، لكنّ معناها واضحٌ"[٢]. وقد سرى هذا التّأثّرُ الاستشراقيّ إلى ثلّةٍ من الباحثينَ العربِ المحدثينَ المتأثّرينَ بالمناهجِ الغربيّةِ، والذين سارعوا إلى استبدالِ المصطلحاتِ القديمةِ كـ(الجهرِ، والهمسِ) بمصطلحاتٍ حديثةٍ مثلِ (الأصواتِ المهتورةِ والمهموسةِ _أو_ المجهورةِ)[٣]. وعلى الرّغمِ من إشادَةِ (شاده) بجهودِ سيبويهِ واعترافِهِ بريادتِهِ في الدّرسِ الصّوتيّ؛ إنَّ ذلك لم يمنعْهُ من مخالفةِ بعضِ مصطلحاتِهِ والاعتراضِ على عددٍ من تسميّاتِهِ، ولا سيّما ما يتعلّقُ بالمفاهيمِ الصّوتيّةِ. فقد رأى أنّ سيبويهِ كان من أوائلِ العلماءِ الذين اضطرّوا إلى ابتكارِ مصطلحاتٍ وتعابيرَ جديدةٍ للتعبيرِ عن مفاهيمِهِ العلميّةِ؛ لعدمِ كفايةِ المصطلحاتِ المُتداولةِ في عصرهِ لاستيعابِ الظّواهرِ اللُّغويّةِ والصّوتيّةِ[٤]. ويكشفُ ذلك عن عُمقِ رؤيتِهِ العلميّةِ، وعن الحاجةِ المبكّرةِ إلى تأسيسِ جهازٍ اصطلاحيّ دقيقٍ في الدِّراساتِ اللُّغويّةِ. غيرَ أنَّ (شاده) انتقدَ بعضَ هذه المصطلحاتِ، وفي مقدّمتِها مصطلحُ (المخرجِ)، فقد عدَّهُ تعبيرًا لغويًّا قاصرًا يفتقرُ للدقّةِ التّشريحيّةِ[٥]. وقد أثارَ المستشرقونَ قضيةَ عدمِ تفريقِ العربِ القُدماء تفريقًا حاسمًا بين (الصّوتِ المنطوقِ المسمُوعِ) وصورتِهِ (الكتابيّةِ الخطّيّةِ)؛ إذ استعمل القُدماء لفظَ (الحرفِ) للدّلالةِ على المفهومينَ معًا بيد أنَّ المنصفينَ ومنهم (شاده) عادوا وعدّوا أنَّ هذا التّداخُلَ ليس قصورًا في الإدراكِ المعرفيّ بل هو سمةٌ اصطلاحيّةٌ واكبتْ بواكيرَ علمِ الأصواتِ في العالمِ أجمعَ، بما في ذلك أوربا التي وقعَ

---

(١) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٤_١٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٤.

(٣) ينظر: بحوث في الاستشراق: ٣١٤، والمصطلح الصّوتيّ العربيّ في دراسات المستشرقين: ١.

(٤) ينظر: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا: ٣.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٣.

لغويّوها الأوائل في الإشكالِ نفسِهِ عندَ بدايات علمِ الأصواتِ الحديثِ لديهم(١).

**ثالثًا: الدّرسُ الصّوتيّ اللّهجيّ وتأصيلُ الظّواهرِ الصّوتيّةِ في الميزانِ الاستشراقيّ:**

يُعَدُّ الدّرسُ الصّوتيّ اللّهجيّ من أبرزِ الميادينِ التي حظيتْ بعنايةِ المستشرقينَ في دراساتِهم للعربيّةِ؛ إذْ وجدوا في اللّهجاتِ العربيّةِ مادّةً لغويّةً حيّةً تكشفُ عن تطوّرِ الأصواتِ وتحوّلاتِها عبرَ البيئاتِ والأزمنةِ المُختلفةِ. وقد انطلقَ كثيرٌ منهم من دراسةِ اللّهجاتِ بوصفِها وسيلةً للكشفِ عن الأصولِ الصّوتيّةِ للأصواتِ العربيّةِ، وتتبّعِ ما طرأ عليها من تغيّرٍ في المخرجِ أو الصّفةِ أو طريقةِ الأداءِ، فضلًا عن محاولةِ تفسيرِ الظّواهرِ الصّوتيّةِ في ضوءِ المقارناتِ السّاميّةِ والدِّراساتِ اللُّغويّةِ الحديثةِ(٢).

ولم تقتصر عناية المستشرقينَ على وصفِ الأصواتِ في العربيّةِ الفصحى، بل اتّجهوا إلى دراسةِ النّطقِ اللّهجيّ في البيئاتِ العربيّةِ المختلفةِ، وعدّوهُ مفتاحًا لفهمِ تاريخِ الأصواتِ العربيّةِ ومراحلِ تطوّرِها. ولهذا حاولوا تأصيلَ عددٍ من الظّواهرِ الصّوتيّةِ، وربطَها بأصولِها القديمةِ أو بما يقابلُها في اللُّغاتِ السّاميّةِ الأخرى، مستفيدينَ من التّنوّعِ اللّهجيّ الذي حفظَ في كثيرٍ من الأحيانِ خصائصَ صوتيّةً اندثرتْ من العربيّةِ الفصحى أو تغيّرتْ صفاتُها بمرورِ الزّمنِ(٣). ومن هنا أصبحتِ اللّهجاتُ في الميزانِ الاستشراقيّ ميدانًا مهمًّا لدراسةِ التّطوّرِ الصّوتيّ؛ إذْ رأى عددٌ من المستشرقينَ أنَّ اختلافَ اللّهجاتِ لا يمثّلُ انحرافًا عن الأصلِ اللُّغويّ، بقدرِ ما يعكسُ مراحلَ متعدّدةً من التّغيّرِ والتّطوّرِ اللُّغويّ. ولذلك سعوا إلى تفسيرِ

---

(١) ينظر: علم الأصوات عند سيبويه وعندنا: ٢١-٢٧، وهنري فليش ومنهجه في دراسة الأصوات العربيّة من خلال كتابه العربيّة الفصحى: ١٣٧.

(٢) ينظر: جهود المستشرق الألمانيّ يوهان فيك في اللّهجات العربيّة ١٣٠

(٣) ينظر: العربيّة دراسات في اللُّغة واللّهجات والاساليب:٩، واللّهجات العربيّة وعلاقتها باللُّغة العربيّة الفصحى دراسة لغويّة:٧٨.

كثيرٍ من الظّواهرِ الصّوتيّةِ العربيّةِ على أساسِ اللّهجاتِ الحديثةِ والقديمةِ، وما تحملُهُ من شواهدَ تساعدُ على فهمِ طبيعةِ الأصواتِ العربيّةِ وتحوّلاتِها التّاريخيّةِ(١).

ويمكنُ دراسةُ هذا الموضوعِ في ضوءِ الفقراتِ الآتيات:

**١_ دوافعُ رصدِ اللّهجاتِ العربيّةِ عند المستشرقينَ وموقفهم من جهودِ القُدماء:**

لم ينحصرِ البحثُ الاستشراقيّ في حدودِ الفصحى المعياريّةِ، بل تمدّدَ بقوّةٍ نحوَ دراسةِ اللّهجاتِ العربيّةِ المُتعدّدةِ (القديمةِ والحديثةِ) ورصدِ ظواهرِها وتوزيعِها الجغرافيّ. وقد تساءلَ كثيرٌ من الباحثينَ عن سرِّ هذا الانكبابِ الاستشراقيّ المكثّفِ على الدّرسِ اللّهجيّ. والواقعُ أنَّ دوافعَهم كانتْ متشعّبةً؛ ومنها:

١_ دافعٌ معرفيّ علميّ: يستندُ إلى قناعتِهم اللّسانيّةِ بأنَّ اللّهجةَ تُمثّلُ البنيةَ اللُّغويّةَ الأولى والأطوارَ الحيويّةَ لنشأةِ اللُّغةِ وتطوّرِها عبرَ التّاريخِ، وأنَّهُ لا يمكنُ الوقوفُ على تاريخِ السّلالةِ اللُّغويّةِ السّاميّةِ دونَ تفكيكِ عناصرِ ألسنتِها الدّارجةِ(٢).

٢_ دافعٌ توثيقيّ موازنٌ: تتبّعُ التّغيّراتِ الصّوتيّةِ الطّارئةِ على مخارجِ الأصواتِ عبرَ الزّمانِ والمكانِ(٣).

٣_ ربطُ اللّهجاتِ بالقراءاتِ: ربطُ تعدُّدِ اللّهجاتِ باختلافِ القراءاتِ القرآنيّةِ وظهورِ الأحرفِ

---

(١) ينظر: مخاطر استهداف المستشرقين للغة العربيّة: ٥٨. واللّهجات العربيّة وعلاقتها باللُّغة العربيّة الفصحى دراسة لغويّة: ٧٧_ ٧٨.

(٢) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ١٥٤.

(٣) ينظر: اللّهجات العربيّة في الفكر الاستشراقيّ ١٧٣، ولهجه تميم أثرها في العربيّة الموحدة: ٣٢.

السّبعةِ، متّخذينَ من المصحفِ العثمانيّ والمادّةِ القرآنيّةِ مادّةً أساسيّةً لبحوثِهم اللّهجيّةِ[١].

وتعدّدتْ _أيضًا_ الوسائلُ التي اعتمدَها المستشرقونَ في دراسةِ اللّهجاتِ العربيّةِ ورصدِ خصائصِها، ولا سيّما في ميدانِ تعليمِ العربيّةِ لغيرِ النّاطقينَ بِها، ومن هذه الوسائلِ:

١_ الاعتمادُ على قواعدِ العربيّةِ الفصحى في شرحِ الظّواهرِ اللّهجيّةِ وتفسيرِ بنيتِها، بوصفِ الفصحى أصلًا مرجعيًّا لفهمِ الاختلافاتِ بينَ اللّهجاتِ.

٢_ استعمالُ اللُّغةِ الأمِّ للدارسِ في شرحِ اللّهجاتِ العربيّةِ، مع تقديمِ أمثلةٍ وتطبيقاتٍ مباشرةٍ من اللّهجاتِ نفسِها لتقريبِها إلى المتعلّمينَ الأجانبِ.

٣_ الجمعُ بينَ الطّريقتينِ السّابقتينِ؛ وذلك بالاعتمادِ على لُغةِ المتعلّمِ الأصليّةِ، إلى جانبِ تدوينِ الألفاظِ والتّراكيبِ اللّهجيّةِ بالحروفِ اللّاتينيّةِ، تسهيلًا للنُّطقِ ومحاولةً لضبطِ الخصائصِ الصّوتيّةِ[٢].

وقد وجَّهَ المستشرقونَ نقدًا لاذعًا لمنهجِ علماءِ العربيّةِ القُدماء في تعامُلِهم مع اللّهجاتِ؛ فزعمَ بعضُهم؛ مثلُ: (يوهان فِك) أنَّ القُدماء أعرضوا عن العنايةِ باللّهجاتِ واكتفوا بنسبتِها العفويّةِ للقبائلِ مثلَ قولِهم: (لُغةٌ لبعضِ العربِ، أو لغةُ تميمٍ، أو لغةُ أسدٍ) من دونِ تقديم تحليلٍ صوتيّ ميكانيكيّ مفصّلٍ لخصائصِها. واستشهدوا بكتابِ سيبويهِ مُدّعين أنَّ ما وردَ فيهِ من أخبارِ القبائلِ لا يتجاوزُ الإشاراتِ العابرةَ المبتورةَ التي لا ترقى لمستوى البحثِ اللّهجيّ المنهجيّ[٣]. غيرَ أنَّ الاستقراءَ المنصفَ للتراثِ يدحضُ هذه التّهمةَ؛ فقد سجّلَ القُدماء (كالأصمعيّ، وأبي عمرو بن العلاء، والفرّاء، وابن دريد) كمًّا هائلًا من الظّواهرِ اللّهجيّةِ

(١) ينظر: تاريخ التّراث العربيّ: ١٩/١ _ ٢٠، والعربيّة بين أمسها وحاضرها: ٦٧، وتاريخ لغات السّاميّة: ٢٠٨

(٢) ينظر: الاستشراق اللُّغويّ في القرن التّاسع عشر والعربيّة اللّهجيّة بالمغرب: ٧٦.

(٣) ينظر: العربيّة دراسات في اللُّغة واللّهجات والاساليب: ٩_١٩.

المنضبطةِ صوتيًّا والمندمجةِ في صلبِ الدّرسِ اللُّغويّ الشّاملِ[١].

ومن المستشرقينَ من رأى أنَّ علماءَ العربيّةِ القُدماء لم يدوّنوا جميعَ التّفاصيلِ المُتعلّقةِ باللّهجاتِ العربيّةِ؛ ولم يثبتوا _في كثيرٍ من الأحيانِ_ أسماءَ القبائلِ التي استعملتْ تلك اللّهجاتِ، ولا الأزمنةَ التي شاعتْ فيها، مِمّا جعلَ المادّةَ اللّهجيّةَ المتاحةَ ناقصةً من وجهةِ نظرِهم ولم يُوفّرِ المعلوماتِ التي كانتْ من شأنِها أنْ تُتيحَ للباحثينَ وضعَ دراساتٍ أكثرَ تكاملًا عن اللّهجاتِ العربيّةِ القديمةِ، ولذلك اضطرَّ المستشرقونَ _بحسبِ تصوّرِهم_ إلى الاعتمادِ على النّصوصِ الأدبيّةِ وشُروحِها في استنباطِ خصائصِ اللّهجاتِ وتحليلِ ظواهرِها، إلّا أنَّ هذا الرّأي في جوهرِهِ لا ينفي الجهدَ الكبيرَ الذي بذلَهُ علماءُ العربيّةِ في حفظِ كثيرٍ من الظّواهرِ اللّهجيّةِ وروايتِها في كُتبِ اللُّغةِ والنّحو والقراءاتِ[٢].

**٢: تحليلُ الظّواهرِ الصّوتيّةِ اللّهجيّةِ (العنعنة، والتّلتلة، والعجعجة):**

لقد أفضتْ جهودُ المستشرقينَ إلى الالتفاتِ نحوَ عددٍ من الظّواهرِ الصّوتيّةِ اللّهجيّةِ تداخلتْ مع بنيةِ الأفعالِ وحركاتِها الإعرابيّةِ؛ ولهذا استوقفتْ وأثارتْ آراءَ العلماءِ العربِ القُدماء سابقًا، وكانتْ موضعَ اهتمامٍ وجذبٍ للمستشرقينَ فيما بعدُ؛ إذْ تداولُوها بالتّحليلِ والمقارنةِ وتعدّدتْ مواقفُهم وتباينتْ تفسيراتُهم حولَها؛ ومنها:

**١_ العنعنةُ:**

تُعدُّ العنعنةُ من الظّواهرِ اللّهجيّةِ التي تقومُ على إبدالِ (العينِ) من (الهمزةِ) أو النّطقِ بـ(الهمزةِ) نطقًا قريبًا من العينِ، ومن شواهدِها قولهم في (أنْ ستصيرَ) بنُطقِها (عن ستصيرَ)،

(١) ينظر: مخاطر استهداف المستشرقين للغة العربيّة: ٥٨.

(٢) ينظر: في اللّهجات العربيّة: ٣٨.

وقد نُسبتْ هذه الظّاهرةُ في الغالبِ إلى لهجةِ تميم[١]. وقد وصفتِ العنعنةُ بأنَّها من أبرزِ الظّواهرِ الدّالّةِ على المُبالغةِ في تخفيفِ (الهمزةِ) عند تميمٍ؛ إذْ لم يقتصرِ التّخفيفُ على تسهيلِها بين بين، بل تجاوزَ ذلك إلى الإبدالِ بصوتٍ حلقيّ مجهورٍ قريبٍ منها في المخرجِ[٢].

وعندما درسَ (يوهان فِك) ظاهرةَ العنعنةِ، أشارَ إلى أنَّها تتمثّلُ في نُطقِ (الهمزةِ) نطقًا مفخمًا، فيقولُ: "العنعنة، أي النّطقُ المُفخّمُ للهمزةِ"[٣]، وتوضيحُه هذا جاءَ في أثناءِ تتبُّعِهِ الاستعمالاتِ اللّفظيّةَ الخاصّةَ ببعضِ القبائلِ العربيّةِ، ورصدِ الفروقِ اللّهجيّةِ التي كانتْ من السّماتِ التي تميَّزتْ بها قبيلةٌ من غيرِها، وذلك في إطارِ سعيهِ إلى الكشفِ عن هذا التّنوّعِ اللّهجيّ في العربيّةِ.

وما تزالُ هذه الظّاهرةُ ماثلةً في بعضِ اللّهجاتِ العربيّةِ المعاصرةِ، ومنها لهجةُ أهلِ الصّعيدِ في مصر، التي تُنطقُ (الهمزةُ) (عينًا) فيقولون: (العنّة) بدلًا من (الأنّة)، وتظهرُ أيضًا في اللّهجةِ السّودانيّةِ نحوَ قولِهم: (العنقة) بدلَ (الأنقة)[٤].

وفي الواقعِ، لا نجدُ وفرةً من الآراءِ عندَ علماءِ العربيّةِ ولا عندَ المستشرقين فيما يتعلّقُ بظاهرةِ العنعنةِ؛ إذ جاءتْ الإشاراتُ إليها محدودةً ومتناثرةً، وغالبًا ما وردتْ عرضًا ضمنَ الحديثِ عن الظّواهرِ اللّهجيّةِ عامّةً، من غيرِ أنْ تُفردَ لها دراساتٌ مستقلّةٌ أو تحليلاتٌ مفصّلةٌ، الأمرُ الذي جعلَ معالمَها أقلَّ وضوحًا مقارنةً بغيرِها من الظّواهرِ اللّهجيّةِ التي حَظيتْ باهتمامٍ أوسعَ. وقد يُعزى ذلك إلى قلّةِ الشّواهدِ الموثوقةِ الواردة عنها، فضلًا عن محدوديّةِ انتشارِها في بعضِ البيئاتِ القبليّةِ الضّيّقةِ، مِمّا صعّبَ تتبُّعَها صوتيًّا وتاريخيًّا. وأنَّ

(١) ينظر: لهجة تميم وأثرها في العربيّة الموحّدة: ٨٦، ولهجات العرب في القرآن الكريم: ٥٤.
(٢) ينظر: الكتاب:٤/٤٩٩.
(٣) العربيّة دراسات في اللُّغة واللّهجات والاساليب: ١٩.
(٤) ينظر: لهجة العنعنة: ظاهرة لغويّة قديمة تنتشر في بعض القبائل العربيّة الحديثة: ١.

اختلاطَها بظواهرَ صوتيّةٍ أخرى قريبةٍ منها أسهمَ في تقليلِ العنايةِ بها، إلّا أنَّ قلّةَ الحديثِ عنها لا يعني نفي وجودِها، بل يدلُّ على محدوديّةِ مادّتِها وقلّةِ انتشارِها قياسًا بغيرِها من الظّواهرِ اللّهجيّةِ الأخرى.

**٢_ التّلتلةُ:**

التّلتلةُ ظاهرةٌ لهجيّةٌ تتمثّلُ في كسرِ تاءِ المضارعةِ أو حروفِ المضارعةِ عمومًا نحو: (تِعلمونَ، نِعلم)، وكذلك في الفعلِ الماضي إذا كانَ على وزنِ (فَعِل) بكسرِ عينِهِ كـ( شَقِيَ بِشقى)، وقد نسبَها سيبويهِ إلى عامّةِ العربِ، غيرَ أنَّهُ استثنى أهلَ الحجازِ منها مبيّنًا أنَّها من الخصائصِ اللّهجيّةِ الغالبةِ في لغةِ تميم(١).

وتُعَدُّ التّلتلةُ من الظّواهرِ الصّوتيّةِ الصّرفيّةِ ذات الامتدادِ السّاميّ؛ إذ ظهرتْ في العربيّةِ، كما عُرفتْ في السّريانيّةِ والحبشيّةِ(٢). ولم تتّفقِ العديدُ من القبائلِ العربيّةِ في تطبيقِها، بل اختلفتْ فيها تبعًا لخصائصِها اللَّهجيّةِ(٣)، فقد مالتْ بعضُ اللّهجاتِ إلى تحقيقِ نوعٍ من التّجانُسِ الحركيّ بين (عينِ) الفعلِ الماضي وحركةِ حرفِ المضارعةِ، مِمّا يكشفُ عن حسٍّ صوتيّ دقيقٍ في بنيةِ الفعلِ العربيّ(٤).

ودرسَ المستشرقُ الألمانيّ (كارل بروكلمان) هذه الظّاهرةَ بعُمقٍ، ورصدَ شياعَ (الكسرِ) في حروفِ المضارعةِ لدى العديدِ من اللّهجاتِ العربيّةِ القديمةِ والحديثةِ، في مقابلِ غلبةِ

---

(١) ينظر: الكتاب: ٤/١١٠.

(٢) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ١٥٨.

(٣) ينظر: اللّهجات العربيّة في التّراث: ١/ ٣٨٨.

(٤) ينظر: لهجه تميم وأثرها في العربيّة الموحدة: ١٨٠، واللّهجات العربيّة في التّراث: ٢٢٩، ولهجات العربيّة في القرآن الكريم: ٦٧.

(الفتحِ) في معياريّةِ العربيّةِ الفصحى. إذْ يقول: "أمّا المضارعُ، فيُصرَّفُ بالمقاطعِ التاليةِ، التي تُزادُ في أوّلِهِ (Präfixe): للغائبِ المذكّرِ المفردِ: (ya)، وللغائبةِ المؤنثةِ المفردةِ: (ta)، وللمخاطبِ المفردِ: (ta)، وللمتكلمِ المفردِ: (a)، وللمتكلمِ الجمعِ: (na). وتدخلُ الكسرةُ (i) في تلك المقاطعِ بدلًا من الفتحةِ (a)، في الأفعالِ اللازمةِ مفتوحةِ العينِ، بسببِ ما يُسمّى بـ(التّحويلِ الحركيِّ) (Ablaut)، غيرَ أنَّ الفتحةَ قد عادتْ إلى الظّهورِ مطلقًا في العربيّةِ، ولا تظهرُ فيها الكسرةُ إلّا في اللهجاتِ"[1] ويكشف هذا النّصّ أنَّ (بروكلمان) لم يذهبْ مذهبَ التّخطئةِ اللُّغويّةِ لهذه الظّاهرةِ، بل وظّفَ نزعتَهُ المنهجيّةَ القائمةَ على (اللّسانيّاتِ التّاريخيّةِ والمقارنةِ)؛ فأطلقَ على التّلتلةِ مصطلحَ (التّحوّلِ الحركيّ الطبيعيّ). فالكسرُ عندَهُ ليس فسادًا لغويًّا أو انحرافًا نطقيًّا، بل هو تحوّرٌ صوتيّ تُمليهِ القوانين الفسيولوجيّةُ لتيسيرِ النُّطقِ البشريّ وتقريبِ الحركاتِ، وهو ما يندرجُ ضمنَ السّيرورةِ الطّبيعيّةِ لتطوّرِ اللُّغاتِ. وبالمثلِ، تتبّعَ (يوهان فك) هذه الظّاهرةَ لبيانِ كيفَ تنعكسُ البنيةُ الصّوتيّةُ القبيليّةُ على تماسكِ الفصحى المشتركةِ وتطوّرِها الزّمنيّ. مشيرًا إلى أنَّها من السّماتِ اللُّغويّةِ لقبيلةِ تميم[2]، غير أنَّهُ لم يتوسّعْ في ذكرِها ولم يوضّحْ أمثلةً أو استعمالاتِها التّفصيليّةَ، تاركًا القارئَ مع معلوماتٍ عامّةٍ من دونِ تحليلٍ معمّقٍ لطبيعةِ هذه الظّاهرةِ أو نطاقِ انتشارِها بينَ أفرادِ القبيلةِ. في حين يرى (بول كراوس) أنَّ ظاهرةَ التّلتلةِ لا تُفهمُ فهمًا دقيقًا إلا في إطارِ اللُّغاتِ السّاميّةِ الأولى؛ إذ يذهبُ إلى أنَّ صيغةَ المُضارعِ في العبريّةِ والآراميّةِ والأكديّةِ كانتْ تُنطقُ بالكسرِ (يِفعلُ)، في حينِ استقرّتِ العربيّةُ الفصحى على الفتحِ (يَفعلُ). وأنَّ أكثرَ اللُّغاتِ السّاميّةِ الفصيحةِ كانتْ تَميلُ إلى الكسرِ، ففي نظرِهِ الكسرُ والفتحُ كِلاهما قديمان، ولهذا بقي أثرُ الكسرِ في العربيّةِ في

---

(١) فقه اللّغات السّاميّة:١١٦.

(٢) ينظر: العربيّة دراسات في اللُّغة واللهجات والاساليب: ١٩.

بعضِ الأفعالِ الثّلاثيّةِ مفتوحة العينِ[١].

**٣_ العجعجةُ:**

تُعدُّ ظاهرةُ العجعجةِ من الظّواهرِ اللّهجيّةِ التي نُسبتْ إلى قبيلةِ قضاعة بشرطِ اجتماعِ (الياءِ) مع (العين)[٢]، وأنّها نُسبتْ إلى بعضِ القبائلِ الأخرى من دونِ التّقيّدِ بهذا الشّرطِ[٣]. وقيلَ بأنَّها ظاهرةٌ تقومُ على قلبِ (الياءِ) المشدّدةِ والمخفّفةِ إلى (جيمٍ)، واشتهرتْ هذه الظّاهرةُ بين بني سعدٍ وبني تميمٍ[٤].

وقد اختلفَ علماءُ العربيّةِ القُدماء في تحديدِ طبيعةِ (الجيمِ) المبدلةِ في هذه الظّاهرةِ؛ فتساءلوا: أهي (الجيمُ) المشدّدةُ أم المخفّفةُ؟ وثارَ الخلافُ حولَ اتّجاهِ الإبدالِ: أهو من (الجيمِ) إلى (الياءِ) أم من (الياءِ) إلى (الجيمِ)؟ وتكشفُ العودةُ إلى سيبويهِ إطارًا تفسيريًّا أدقَّ؛ إذْ تناولَ في بابِ (الحروفِ التي يُبدلُ مكانَها في الوقفِ حرفٌ أبينُ منهُ) ظاهرةَ إبدالِ( الجيمِ) من (الياءِ) في الوقفِ، مبيّنًا أنَّ بعضَ بني سعدٍ كانوا يبدلونَ (الجيمَ) مكانَ (الياءِ) في نحو: (تميمج) بدلَ (تميميّ). ويؤكّدُ وصفُهُ وجودَ ظاهرةِ العجعجةِ في (ياءِ) النّسبِ، ويكشفُ عن تقاربِ (الجيمِ) و(الياءِ) في المخرجِ، مِمّا يُفسّرُ إمكانَ التّبادلِ الصّوتيّ بينهما. وقد أشارَ كذلك إلى (الجيمِ) الشّجريّةِ بوصفِها صوتًا تظهرُ فيهِ سماتٌ انفجاريّةٌ واضحةٌ عندَ الوقفِ، وهو ما يفسّرُ وقوعَ هذا التّغيّرِ في بيئاتٍ صوتيّةٍ محدّدةٍ دونَ غيرِها[٥]

---

(١) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ١٥٨.
(٢) ينظر: الأدب الجاهليّ بين لهجات القبائل واللُّغة الموحدة: ١٥٤_١٥٥.
(٣) ينظر: اللّهجات العربيّة في التّراث: ١/ ٣٧٤.
(٤) ينظر: اللهجات العربيّة الغربيّة القديمة: ٣٥١.
(٥) ينظر: الكتاب: ٢/ ٢٨٤_٢٨٨.

وعندَما تناولَ المستشرقون هذه الظّاهرةَ بالدّراسةِ، تباينتْ آراؤُهم واختلفتْ تفسيراتُهم تبعًا لاختلافِ مناهجِهم واتّجاهاتِهم العلميّةِ. فأقرَّ(إنو ليتمان) بوجودِها في شماليّ بلادِ الحبشةِ في لغةِ "Tiger"[١]، بينما فسّرَ (برجستراسر) سببَ الاستبدالِ الحاصلِ بينَ حرفي (الياءِ) و(الجيمِ)؛ بخروجهما من مخرجٍ واحدٍ في وسطِ اللّسانِ، وكذلك لاشتراكِهما في صفةٍ واحدةٍ؛ إذْ إنَّ كليهما مجهورٌ، وهو ما قد يُبيّنُ سببَ استبدالِهما صوتيًّا[٢]. إلّا أنَّ هذه الظّاهرةَ لم تسلمْ من تشكيكِ (هنري فليش)؛ إذْ رأى أنَّ الأدلةَ الدّالّةَ على تحوّلِ (الجيمِ) إلى (ياءٍ) في العربيّةِ الفصحى أو في بعضِ اللّهجاتِ القديمةِ ليستْ حاسمةً بما يكفي، وعدَّ ما وردَ بشأنِها من تغييرٍ لا يخرجُ في كثيرٍ من الأحيانِ عن كونِهِ تغيُّرًا صوتيًّا محدودًا وذلك عندَ قلّةٍ من المؤلّفين[٣]، ولعلّ سببَ تشكيكِهِ يعودُ إلى قلّةِ الشّواهدِ الموثوقةِ، واختلافِ الرّواياتِ في المصادرِ التي نقلتْ هذه الظّاهرةَ، فضلًا عن اقتصارِ أغلبِ أمثلتِها على قبائلَ معيّنةٍ، مِمّا لا يمنحُها صفةَ العمومِ والاطّرادِ في العربيّةِ.

وأمّا المستشرقُ (موسكاتي) فقد فسّرَ ظاهرةَ العجعجةِ تفسيرًا صوتيًّا مُغايرًا؛ فذهب إلى أنّه "يُوقَفُ على ظاهرةٍ أخرى في هذه اللّهجاتِ، هي تلفّظُ الياءِ جيمًا؛ غيرَ أنَّ المثلَ الجاهزَ الذي يُستشهدُ به في العادةِ، وهو (أيّل)... الذي يصيرُ (إجل)...، ربّما كان نتيجةَ مخالفةِ شبهِ صوتِ المدِّ بالعلاقةِ بصوتِ المدِّ المجانسِ (i) الذي يسبقُه"[٤] إذْ رأى أنَّ وصفَ بعضِ القبائلِ بها قد يرجعُ إلى نوعٍ من المُخالفةِ الصّوتيّةِ، نشأ عن تشبيهِ صوتِ المدِّ بالأصواتِ المتجانسةِ معهُ، ولا سيّما صوتُ المدِّ الأماميّ (i)، وبذلك وضعَ الظّاهرةَ في إطارِ التّفاعلِ الصّوتيّ لا

---

(١) ينظر: بقايا اللهجات العربيّة في الأدب العربيّ: ٣١.

(٢) ينظر: التّطوّر النّحوي للغة العربيّة: ١٥.

(٣) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ١١٢.

(٤) مدخل الى نحو اللغات السّاميّة المقارن: ٨٤.

الإبدالِ المُطلقِ، مع ترجيحِهِ وجودها في بعضِ اللّهجاتِ الشّماليّةِ الغربيّةِ[١]. وفي السّياقِ نفسِهِ أشارَ (رابين) إلى أنَّ الغمغمةَ نُسبتْ إلى قبيلةِ قضاعة في إطارِ تمجيدِ لهجةِ مكّة، غيرَ أنَّ قُضاعة وُصفتْ كذلك بالعجعجةِ التي تقومُ على إبدالِ (الياءِ) (جيمًا) بعد (العينِ). وقد أوضحَ أنَّ بعضَ الباحثينَ رجّحَ انتقالَ هذه الظّاهرةِ من قبائلَ أخرى كـ(طيّء)، مِمّا يوحي عندَهُ بإمكانِ وجودِ قدرٍ من المبالغةِ أو التّلفيقِ في بعضِ الرّواياتِ القديمةِ[٢]. ويبدو أنَّ موقفَ (رابين) السّابقَ يكشفُ عن حذرٍ منهجيّ في التّعاملِ مع الأخبارِ اللّهجيّةِ القديمةِ؛ إذْ لم ينفِ وجودَ الظّاهرةِ نفيًا مطلقًا، وإنّما حاولَ التّمييزَ بينَ ما تثبتُهُ الشّواهدُ الصّوتيّةُ الواقعيّةُ، وبينَ ما قد يكونُ قد أُحيطَ بالمبالغةِ أو التّهويلِ في بعضِ المصادرِ اللُّغويّةِ القديمةِ، ويمكن القول إنَّ تفسيرَ العجعجةِ لا ينبغي أنْ يقفَ عند حدودِ الإبدالِ الصَّوتيِّ المجرَّدِ، بل يمكنُ النّظرُ إليها في إطارِ البنيةِ الصَّوتيَّةِ للكلمةِ وما يُحدثُهُ تحوُّلُ أحدِ عناصرِها من أثرٍ في صورتِها السَّمعيَّةِ. فتحوُّلُ الياءِ إلى الجيمِ يُفضي إلى زيادةِ البروزِ السَّمعيِّ للصَّوتِ داخلَ الكلمةِ؛ لما بينَ الصَّوتينِ من اختلافٍ في طبيعةِ النُّطقِ ودرجةِ الوضوحِ الإدراكيِّ، وهو ما قد يمنحُ البنيةَ المنطوقةَ قوَّةً سمعيَّةً أوضحَ لدى المتلقِّي. غيرَ أنَّ هذا الأثرَ لا يَسوغُ عدُّ العجعجةِ نبرًا صوتيًّا بالمعنى الاصطلاحيِّ الدّقيقِ؛ لأنَّ النبرَ يتعلَّقُ ببروزِ مقطعٍ داخلَ الكلمةِ، في حينِ تتعلَّقُ العجعجةُ بتحوُّلٍ في أحدِ أصواتِها. كما لا يمكنُ الجزمُ بأنَّ الغرضَ من هذا التّحوُّلِ هو التوكيدُ أو لفتُ انتباهِ المتلقِّي ما لم تؤيِّدْ ذلكَ شواهدُ استعماليَّةٌ؛ ولذلكَ أرجِّحُ النّظرَ إلى البروزِ السَّمعيِّ بوصفِهِ أثرًا صوتيًّا محتملًا للظاهرةِ، لا علَّةً مقصودةً لنشأتِها.

---

(١) ينظر: مدخل الى نحو اللغات السّاميّة المقارن: ٨٤.

(٢) ينظر: اللهجات العربيّة الغربيّة: ١٨٩.

**٣_ تقييمُ الأثرِ الاستشراقيّ في اللّسانياتِ العربيّةِ الحديثةِ:**

ولا يمكنُ إغفالُ الأثرِ العميقِ والبالغِ الذي تركتهُ جهودُ المستشرقينَ في مسارِ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ العربيّةِ المعاصرةِ؛ فقد أسهمتْ بحوثُهم في إحياءِ الاهتمامِ بعلمِ اللّهجاتِ وتأسيسِ الجغرافيّة اللُّغويّةِ (الأطلس اللُّغويّ) للتوزيعِ الصّوتيّ في العالمِ العربيّ(١).

لقد دفعتْ مناهجُ المستشرقين الصّارمةُ الجامعاتِ العربيّةَ الحديثةَ إلى إعادةِ قراءةِ تراثِها الصّوتيّ بنظّاراتٍ معاصرةٍ، وتأسيسِ المختبراتِ الصّوتيّةِ التّجريبيّةِ لخدمةِ الفصحى. وعلى الرّغمِ مِمّا تخلّلَ بعضَ تلك البحوثِ الاستشراقيّةِ من شطحاتٍ نقديّةٍ، أو تهجّماتٍ دفينةٍ، أو محاولاتٍ لتهميشِ السّبقِ العربيّ مدفوعةً أحيانًا بالجهلِ بكفاءةِ عُلماءِ العربيّةِ؛ بيد أنَّ المُنصفينَ منهم؛ مثلُ: (كانتينو؛ وشاده؛ وفليش) قدّموا قراءاتٍ تقويميّةً بالمتناولِ الوصفيّ والتّاريخيّ خدمتِ التّراثَ وأبرزتْ قيمتَهُ العالميّةَ(٢).

لقد أثبتَ الدّرسُ الصّوتيّ الاستشراقيّ أنَّ ما قرّرَهُ علماءُ العربيّةِ الأوائلُ مُنْذُ قرونٍ طويلةٍ في طيّاتِ كُتبِ النّحو والمُعجماتِ والتّجويدِ (الإدغامِ، والإبدالِ، والإعلالِ، والإمالة، والاتباع، والتّفخيمِ، والتّرقيقِ، والإشمامِ) لم يكنْ مجرّدَ ملحوظاتٍ عابرةٍ، بل كانَ نظامًا صوتيًّا شديدَ الإحكامِ والعبقريّةِ، ما يزالُ يُمثّلُ النّواةَ الصّلبةَ التي تنبثقُ منها سائرُ اللّسانيّاتِ الحديثةِ(٣).

---

(١) ينظر: الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر: ٢/ ٣٥٩، واللّهجة العربيّة العامّيّة: ٣٥١.

(٢) ينظر: القضايا الصّوتية في اللُّغة العربيّة بين التّراث واللسانيات العربيّة الحديثة_ دراسة مقارنة: ٣، والعربيّة، يوهان فِك: ٩_٣٨، والعربيّة الفصحى: ٥٣_٥٥، ودروس في علم أصوات العربيّة: ١٦_١٧.

(٣) ينظر: العربيّة الفصحى: ٥٣، والتفكير الصوتيّ عند العرب في ضوء سرّ صناعة الإعراب: ٥٣، ومن دراسات المستشرقين للصوت اللُّغويّ العربيّ: ١٥٥.

## المبحثُ الثّاني

## المادّةُ الصّرفيّةُ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ

**توطئة:**

بَعْدَ أنْ أرسى علماءُ العربيّةِ الأوائلُ القواعدَ المنهجيّةَ الصّلبةَ لدرسِ لغةِ الضّادِ، وأبدعوا إبداعًا منقطعَ النّظيرِ في سبرِ أغوارِ مستوياتِها البنيويّةِ المتعدّدةِ، ولا سيّما المستوى الصّرفيَّ الذي تعمّقوا في قضاياهُ وتفاريعهِ، محقّقينَ ثباتًا علميًّا كبيرًا في شتّى مصنّفاتِهِمْ، تتابعتِ الحلقاتُ البحثيّةُ لتشهدَ السّاحةُ اللُّغويّةُ انفتاحًا جديدًا مع ظهورِ المدارسِ الاستشراقيّةِ. فقد انكبَّ المستشرقونَ على دراسةِ هذا التّراثِ اللُّغويّ الأصيلِ، متَّبعينَ آليّاتِ الفحصِ والتّحليلِ والتّعليقِ والنّقدِ، مِمّا أسفرَ عن إسهاماتٍ لغويّةٍ خصبةٍ عكستْها مؤلَّفاتُهُمُ الضّخمةُ التي أرَّختْ لجهودِهِمْ في هذا الميدانِ.

وقد كشفتِ القراءاتُ الاستشراقيّةُ المُتتابعةُ عن عنايةٍ خاصّةٍ أصيلة بعلمِ الصّرف العربيّ؛ لعلمِهِمِ اليقينيِّ أنَّ هذا المستوى يُمثِّلُ المفتاحَ الأساسَيّ والبوّابةَ المعرفيّةَ لفهمِ بنيةِ الكلمةِ وآليّاتِ تصاريفِها، ليسَ في العربيّةِ الفصحى حسبُ، بل في عمومِ المنظومةِ اللُّغويّةِ السّاميّةِ. ورأى هؤلاءِ الباحثونَ في الصّرفِ العربيّ دليلًا كاشفًا يمكنُ من خلالِهِ حلُّ الشفراتِ البنيويّةِ للُّغاتِ السّاميّة، وتتبّعُ مساراتِ تطوُّرِها التّاريخيِّ عبرَ الزّمنِ، فضلًا عن كونِهِ وسيلةً لتقعيدِ الموازناتِ المنهجيّةِ ضمنَ حقلِ اللّسانيّاتِ المقارنةِ. وبناءً على هذه الرّؤيةِ الكلّيّةِ، لم تقفِ المُعالجةُ الاستشراقيّةُ للصرفِ عندَ حدودِ رصدِ التّغيّراتِ السّطحيّةِ التي تطرأُ على أبنيةِ الكلماتِ لتوليدِ دلالاتٍ طارئةٍ _كأثرِ النّواسخِ أو التّحوّلاتِ الصّرفيّةِ الدّاخليّةِ_ بل اتَّسعتْ مجالاتُ بحثِهِمْ لتطالَ طائفةً واسعةً من البُنى، كالأسماءِ، والصّفات، والضّمائرِ، مع التّركيزِ

على رصدِ التّحوّلاتِ الشّكليّةِ والصّوتيّة المُلازمةِ لها[1].

ولما كانَ علمُ الصّرفِ يتبوّأ هذه المكانةَ المركزيّةَ والمحوريّةَ في أثناءِ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ للغةِ العربيّةِ، تفرّعتْ قراءاتُهم لتشملَ مباحثَ لغويّةً شتّى؛ نظرًا لأهمّيّتِهِ الصّارمةِ في تفكيكِ البنيةِ الاشتقاقيّةِ للمفردةِ. ومن ثَمّ، كرّسَ المستشرقونَ شطرًا كبيرًا من مصنّفاتِهم لتقديمِ قراءاتٍ تفسيريّةٍ معمّقةٍ وتحليلاتٍ رصينةٍ لأعقدِ القضايا الصّرفيّةِ؛ وفي طليعتِها دراسةُ الجذورِ والأبنيةِ. فانصبّتْ جهودُهم على تتبّعِ الجذورِ ومساءلةِ طبيعتِها البنيويّةِ (بينَ الثّنائيّةِ، والثّلاثيّةِ، والرّباعيّةِ)، وكيفيّةِ توليدِ الكلماتِ واشتقاقِها منها. وقد أفادوا في هذا المنزعِ من المقارباتِ المنهجيّةِ التي صاغَها النّحويّون واللُّغويّونَ العربُ القُدماء، بيدَ أنَّهم لم يقفوا عندَ حدودِها، بل أضافوا إليها آليّاتِ المنهجِ التّاريخيّ المقارنِ بينَ اللُّغاتِ السّاميّةِ. ووجّهوا عنايتَهم نحوَ تصنيفِ الزّوائدِ الصّرفيّةِ الصّامتةِ والحركيّةِ التي تَلحقُ الجذورَ البنيويّةَ لتوليدِ صيغٍ وأبنيةٍ مستحدثةٍ، سواءٌ أكانتْ تلك الزّياداتُ ناتجةً عن أصلٍ بنيويّ، أم عن تكرارٍ لحرفٍ أصليّ (تضعيفٍ)، أم عن دخولِ حروفِ الزّيادة المتعارفِ عليها.

إنَّ المعالجةَ الاستشراقيّةَ للقضايا الصّرفيّةِ، وطبيعةَ تناولِهم المعمّقِ لها، تكشفُ بصورةٍ جليّةٍ عن مدى تقديرِهم الواعي وعنايتِهم الفائقةِ بالإرثِ اللُّغويّ العربيّ؛ فقد أسهمتْ أطروحاتُهم في رفدِ الدّرسِ اللُّغويّ بأبعادٍ ورؤى جديدةٍ تضعُ اللُّغةَ العربيّةَ في سياقِها الطّبيعيّ الأرحبِ ضمنَ الفصيلةِ السّاميّةِ، الأمرُ الذي أثرى الدِّراساتِ اللُّغويّةَ واللّسانيّةَ الحديثةَ إثراءً بالغًا.

وفيما يأتي بيانٌ تفصيليّ ومُمنهجٌ لأبرزِ هذه القضايا الصّرفيّةِ التي تطرق إليها الخطابُ الاستشراقيّ بالدّراسةِ والتّحليلِ.

---

(١) ينظر: علم اللُّغة العامّ: ١٥٤.

وتتجلّى قضايا المادّةِ الصّرفيّةِ في الخطابِ الاستشراقيّ من خلالِ المحاورِ الرّئيسةِ الآتيةِ:

**أوّلًا: أصلُ الكلمةِ (بين الثّنائيّةِ والثّلاثيّةِ في الفكرِ اللُّغويّ العربيّ والاستشراقيّ):**

تُعدُّ قضيّةُ (أصلِ بنيةِ الكلمةِ) وجذرِها الاشتقاقيّ من المحاورِ البنيويّة الأساسيّةِ التي فجّرتْ نقاشًا علميًّا واسعًا، وجدلًا معرفيًّا مستفيضًا بين اللُّغويّينَ في الفكرينِ العربيّ والغربيّ على حدٍّ سواءٍ، قديمًا وحديثًا، وما تزالُ هذه المسألةُ تشكّلُ أرضيّةً خصبةً للتّنازعِ المنهجيّ. وقد أدّى الخلافُ حولَها في كثيرٍ من الأحيانِ إلى نوعٍ من التّعقيدِ والتّكلّفِ في التّحليلاتِ اللُّغويّةِ. ويمكنُ مُعالجتُها على وفقِ ما يأتي:

**١ـ موقفُ الفكرِ النّحويّ والمعجميّ العربيّ القديمِ:**

لقد أجمعَ النّحويّونَ واللُّغويّونَ العربُ القُدماء على أنَّ السّوادَ الأعظمَ من الألفاظِ والكلماتِ في اللُّغةِ العربيّةِ ينحدرُ من أصولٍ وجذورٍ ثلاثيّةٍ. وجاءتِ الأبحاثُ اللّسانيّةُ المقارنةُ التي أجراها المستشرقونَ على اللُّغاتِ السّاميّةِ لتقرَّ بهذا المبدأ التّطوّريّ، مؤكّدةً أنَّ الأصلَ الثّلاثيّ يُمثّلُ الدّعامةَ الهيكليّةَ الكامنةَ وراء جلِّ المفرداتِ في هذه المجموعةِ اللُّغويّةِ الكبيرةِ؛ إذْ عنها تتفرّعُ الكلماتُ، ومنها تُشتقُّ الدّلالاتُ المُعجميّةُ والصّرفيّةُ. ورغمَ الهيمنةِ الواضحةِ والتّسيّدِ البنيويّ للأصلِ الثّلاثيّ، إنَّ الدّراساتِ المقارنةَ لم تغفلْ وجودَ حزمةٍ من المفرداتِ التي يُمكنُ ردُّها ـبنائيًّا وتاريخيًّاـ إلى أصولٍ ثنائيّةٍ، مِمّا يُؤكّدُ أنَّ قاعدةَ الثّلاثيّةِ، على الرّغمِ من غلبتِها المطلقةِ، لم تكنْ قاعدةً مصمتةً بل جاورتْها بنى مجهورةٌ ومحدودةٌ أقلُّ شيوعًا[١].

وهذا الجدلُ البنيويّ أعادَ إحياءَ النّقاشِ القديمِ حولَ جذرِ الكلمةِ العربيّةِ، متمحورًا بينَ

(١) ينظر: أسس علم اللُّغة العربيّة: ٢٠٩-٢١٠.

أنصارِ النّزعةِ الثّلاثيّةِ المُهيمنةِ، وبينَ المائلينَ إلى فرضيّةِ الأصلِ الثّنائيّ المُحتملِ لبعضِ الصّيغِ. وقد لقيتْ هذه الفرضيّةُ الثّنائيّةُ صدًى وقبولًا لدى طائفةٍ من اللُّغويّينَ المحدثينَ الذين أيدوها مع تمسّكِهم المبدئيّ بالقاعدةِ الثّلاثيّةِ بوصفه جذرًا غالبًا. واستندَ هؤلاء إلى وجودِ ظواهرِ لغويّةٍ وصوتيّةٍ تدعمُ ثنائيّةَ الأصلِ في عددٍ محصورٍ من الألفاظِ، ولا سيّما تلك الكلماتُ التي تبدو ثنائيّةً في مظهرِها الخارجيّ وتتعرّضُ لتغيّراتٍ بنيويّةٍ واضحةٍ عند تقليبِها وتصريفِها(١). وقد مهّدَ هذا الاتّجاهُ المعرفيّ الطّريقَ لإعادةِ قراءةِ القواعدِ الصّرفيّةِ التّقليديّةِ بنظرةٍ نقديّةٍ، والعودةِ إلى دراسةِ معالمِ تطوّرِ العربيّةِ عبرَ حُقبِها التّاريخيّةِ المُتلاحقةِ، مُستعينين بمعطياتِ المناهجِ اللّسانيّةِ الحديثةِ القائمةِ على التّاريخِ اللُّغويّ وعلمِ الأصواتِ المُقارنِ.

فالجذورُ على اختلافِ تفرُّعاتِها وأصولِها تُشكّلُ حقلًا علميًّا غزيرًا بالبحثِ والمساءلةِ؛ لكونِها تظهرُ حجمَ التّعقيدِ البنيويّ في فهمِ اللُّغاتِ السّاميّةِ والعربيّةِ على وجهِ الخصوصِ. وإذا كانَ هناك اتّفاقٌ عامٌّ بينَ النّحويّين العربِ وفريقٍ من المستشرقينَ على أصالةِ الوزنِ الثّلاثيّ ومركزيّتِهِ في بناءِ المفرداتِ(٢)، فإنَّ الدّرسَ المُقارنَ قد كشفَ عن جذورٍ ثنائيّةٍ لبعضِ الألفاظِ، وهو ما يُثري وعينا بآلياتِ التّطوّرِ المعجميّ.

ويبرزُ التّباينُ المنهجيّ بوضوحٍ بينَ الفكرينِ في طبيعةِ المنطلقاتِ والأدواتِ المُعتمدةِ؛ فبينما اتّجَهَ اللُّغويّونَ العربُ نحوَ (المنهجِ الدّاخليّ المعياريّ) الذي يحصرُ دراسةَ اللُّغةِ في ذاتِها ومن خلالِ بنيتِها الدّاخليّةِ، عن طريقِ تقليبِ الكلماتِ المُشتقّةِ من المادّةِ الواحدةِ، وتتبُّعِ تصاريفِها، ورصدِ تقلُّباتِها المعنويّةِ ضمنَ السّياقِ العربيّ الخالصِ لاستنباطِ الجذرِ البنيويّ؛ سلكَ المستشرقونَ المنهجَ التّاريخيّ المقارنَ؛ القائمَ على فحصِ اللُّغاتِ السّاميّةِ المتعدّدةِ

---

(١) ينظر: سرّ اللّيال في القلب والإبدال: في علم معاني الألفاظ:٣١٠، ٥٦٦، ونشوء اللُّغة العربيّة:١-٢.
(٢) ينظر: أسس علم اللُّغة العربيّة: ٢٠٩-٢١٠.

كـ(العبريّةِ، والآراميّةِ، والإثيوبيّةِ، والأكديّةِ، بجانبِ العربيّةِ)، عاقدينَ موازناتٍ بين الكلماتِ التي تنتمي إلى جذرٍ مشتركٍ في تلك اللُّغاتِ مجتمعةً لتتبُّعِ تطوّرِها التّاريخيّ وردِّها إلى صيغتِها الأولى(١). فالأصلُ في المفردةِ يُمثّلُ العنصرَ الجوهريّ البسيطَ الذي لا يَقبلُ التّجزئةَ أو التّفكيكَ إلى وحداتٍ أصغرَ، وهو الرّابطُ البنيويّ الذي يجمعُ كافّةَ الوحداتِ الصّرفيّةِ المنضويةِ تحتَ مظلّةِ عائلةٍ اشتقاقيّةٍ واحدةٍ(٢). ويُعَدُّ الأصلُ هو الصّيغةَ الأقدمَ تاريخيًّا التي تفرّعتْ عنها سائرُ الأبنيةِ الأخرى؛ فهو بمثابةِ النّواةِ أو الجذرِ الأساسيّ الذي انبثقتْ منه الكلماتُ المشتقّةُ(٣).

إنَّ استقراءَ المصنّفاتِ والدِّراساتِ السّابقةِ المعنيّةِ بأصلِ الكلمةِ العربيّةِ وبنيتِها الصّرفيّةِ يُظهرُ أنَّ جلَّ الباحثينَ قد أطالوا الحديثَ في قضيّةِ الأصلينِ الثّنائيّ والثّلاثيّ، واشتدَّ بينهم الخلافُ والجدلُ في تقعيدِ هذين الأصلينِ من دونِ الوصولِ إلى كلمةِ فصلٍ حاسمةٍ ترتضِيها المدارسُ اللُّغويّةُ كافّةً. غيرَ أنَّ الممعن في كتبِ اللُّغويّينَ العربِ القُدماء وتصنيفاتِهم المعجميّةِ يلحظُ بوحًا غيرَ مباشرٍ بفكرةِ (النّظريّةِ الثّنائيّةِ)، فعلى الرّغمِ من عدمِ تصريحِهم بها بوصفه قاعدةً مُمهّدةً، إنَّ صنيعَهم المعجميّ يوحي بإدراكِهم الضّمنيّ لوجودِ الثّنائيّةِ في بنيةِ اللّسانِ العربيّ(٤). فحينما أخذَ القُدماء في تصنيفِ مُعجماتِهم اللُّغويّةِ، نلحظُ بوضوحٍ تقديمَهم للأصلِ الثّنائيّ المضعّفِ والمُكرّرِ على الثّلاثيّ الصّحيحِ؛ وهي ظاهرةٌ راسخةٌ في كتابِ (العينِ) الذي اعتمدَ منهجًا تقليبيًّا يُقدّمُ فيهِ المضعّفَ والمكرّرَ بنيويًّا؛ إذْ يفسّرُ المفردةَ أوّلًا ثُمَّ ينتقلُ لربطِها

---

(١) ينظر: أسس علم اللُّغة العربيّة:٢١٠.

(٢) ينظر: التّباين اللُّغويّ بين الأصول والجذور: ٢٥٠.

(٣) ينظر: المصدر السّابق: ٢١٠.

(٤) ينظر: ظاهرة الأصول المهملة في العربيّة أبعادها وعللها: ٥٠_ ٥٤.

بأصلِها الثّلاثيّ[١]؛ ونجدُهُ يبتدئ بتوضيحِ مادّةِ (عَقّ وعَقعقَ) قبلَ شروعِهِ في ترتيبِ الثّلاثيّ الصّحيحِ[٢].

وفي هذا السّياقِ، ذهبَ ابن دريد إلى تقريرِ أنَّ الثّنائيّ الصّحيحَ لا يمكنُ أنْ يأتي على حرفينِ أصيلينِ البتّةَ في النُّطقِ إلّا ويكونُ حرفُهُ الثّاني ثقيلًا (مضعّفًا)، لكي تؤولَ الكلمةُ عندَ التلفّظِ بها إلى ثلاثةِ أحرفٍ لفظًا لا معنًى[٣]. وبناءً على هذا التّوجيهِ، فإنَّ الألفاظَ التي تبدو في ظاهرِها ثنائيّةَ الحروفِ؛ مثلَ: (قطّ، أو فرّ)، هي في حقيقتِها البنيويّةِ والصّوتيّةِ كلماتٌ ثلاثيّةٌ؛ نظرًا لتضعيفِ عينِها، فهذا التّضعيفُ يجعلُها تُنطقُ على ثلاثةِ أصولٍ صوتيّةٍ؛ وهي: (قَطَطَ، فَرَرَ). وأمّا من حيثُ المعنى، فأصلُها الدّلاليّ يظلُّ مرتبطًا بالجذرِ الثّنائيّ الظّاهرِ في الرّسمِ؛ فكلمةُ (قطّ) _على سبيلِ المثالِ_ تبقى مُستمسكةً بدلالتِها الجوهريّةِ المُتمثّلةِ في (القطعِ)[٤].

ومن هنا، يتّضحُ أنَّ ابن دريد لا ينفي البناءَ الثّنائيّ من حيثُ الرّسمُ والخطُّ، وإنّما يشدّدُ على نفي ثنائيّةِ الأصلِ البنيويّ؛ مرجعًا الأمرَ إلى طبيعتِها الصّوتيّةِ النّاشئةِ عن التّضعيفِ؛ جاعلًا من الثّقلِ الصّوتيّ وسيلةً لتحويلِ الثّنائيّ الظّاهريّ إلى ثلاثيّ نُطقيّ.

وعلى هُدى الخليل بن أحمد؛ سارَ كلٌّ من ابن دريد وابن فارس (ت٣٩٥هـ)، في مصنّفاتِهما المعجميّةِ؛ فقد منحا الأولويّةَ والأسبقيّةَ للكلماتِ ذوات الأصولِ المُضعّفةِ، أو المُكرّرةِ، أو المُعتلّةِ، مُقدّمين إيّاها على الأصولِ الثّلاثيّةِ الصّحيحةِ[٥]. ولم يخرجِ الرّاغب

---

(١) ينظر: المنهج التّاريخي والمنهج المقارن في الدّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٢١٢.
(٢) ينظر: العين: (عق):٦٢/١.
(٣) ينظر: جمهرة اللُّغة: ١٣/١.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللُّغة: ٥/ ١٠١.
(٥) ينظر: المنهج التّاريخيّ والمنهج المقارن في الدّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٢١٢.

الأصفهانيّ (ت٥٠٢هـ) عن هذا المنزعِ المنهجيّ في مُعجمِهِ؛ إذْ قدّمَ الجذورَ المضعّفةَ وآثرَها بالذكرِ قبلَ شروعِهِ في الأصولِ الثّلاثيّةِ(١).

هذا الصّنيعُ المعجميّ يُمثّلُ برهانًا ساطعًا على إقرارِ اللُّغويّينَ العربِ القُدماء بنفي وجودِ أصولٍ ثنائيّةٍ مستقلّةٍ؛ ولذلك لم يخصّصوا لها أبوابًا مستقلّةً، بل أدرجوا مفرداتَها في تضاعيفِ الأصولِ الثّلاثيّةِ بناءً على منطقِهم الصّرفيّ الذي يرى أنَّ الكلمةَ الثّنائيّةَ شكلًا هي ثلاثيّةٌ في جوهرِها الأصليّ ودلالتها المعنويّةِ بفعلِ الإدغامِ والتّشديدِ(٢).

وعليه، فقد تعاملَ القُدماء مع الأسماءِ التي تبدو ثنائيّةً على أنَّها أبنيةٌ ثلاثيّةُ الجذورِ بالرّغمِ من تمظهرِها بحرفينِ؛ واستندوا في هذا التّوجيهِ إلى (التّحويلِ التّصريفيّ) الكاشفِ عن الاشتقاقاتِ المختلفةِ للمفردةِ عندَ جمعِها أو صياغةِ الأفعالِ منها؛ إذْ يبرزُ حرفٌ ثالثٌ مقدّرٌ كان محذوفًا من بنيةِ الكلمةِ. فالتّصريفُ _في نظرِهم_ هو المحكُّ العلميّ الذي يُعيدُ الحرفَ المحذوفَ إلى علانيّةِ النُّطقِ، مِمّا يرسّخُ فكرةَ أنَّ الجذرَ البنيويّ العميقَ ثلاثيٌّ وإنْ بدا سطحيًّا ثنائيًّا، وهو ما يعكسُ إيمانَهم المُطلقَ بمركزيّةِ الجذورِ الثّلاثيّةِ وهيمنتِها على النّظامِ الصّرفيّ للعربيّةِ(٣).

لقد أجمعَ جمهورُ علماءِ العربيّةِ القُدماء على ثلاثيّةِ الجذورِ، ووجّهوا الألفاظَ التي تبدو ثنائيّةً بوضوحٍ في بنيةِ أسمائِها مثلَ: (أخ، ويد، ودم) بوصفِها كلماتٍ ثلاثيّةً طرأ عليها عارضُ الحذفِ؛ واحتجّوا في هذا البابِ بإمكانيّةِ الاستدلالِ على المحذوفِ عبرَ آليّتي التّصريفِ والاشتقاقِ. فحتّى لو لزمتْ هذه الألفاظُ حرفينِ في الاستعمالِ، فإنَّ تمامَ بنيتِها المعنويّةِ

---

(١) ينظر: المنهج التّاريخيّ والمنهج المقارن في الدِّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٢١٣.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢١٣.
(٣) ينظر: أسس علم اللُّغة العربيّة: ٢١٠_٢١١.

والأصليّةِ يقومُ على ثلاثةِ أحرفٍ، ويأتي الجمعُ والتّصغيرُ ليميطا اللّثامَ عن الحرفِ السّاقطِ. وعزوا سببَ الحذفِ في هذه الألفاظِ إلى علّةٍ صوتيّةٍ هي (الاستثقالُ)؛ إذْ من دأبِ العربِ حذفُ أواخرِ الكلماتِ متى ما شعرتْ بثقلِها في النّطقِ رغبةً في التّخفيفِ(١).

ويُمثّلُ الخليل وإمامُ النّحويّينَ سيبويهِ ذروةَ هذا الاتّجاهِ الصّرفيّ؛ إذْ نادى بضرورةِ ردِّ الكلماتِ الثّنائيّةِ الظّاهرِ إلى أصولِها الثّلاثيّةِ المُفترضةِ، مستدلًّا بصيغِها التّصريفيّة المُتنوّعةِ(٢). الذي دفعَ سيبويهِ وغيرَهُ من النّحويّينَ إلى افتراضِ هذا الأصلِ الثّلاثيّ المُستترِ هو مراقبتُهم لتحوّلاتِ البنيةِ الصّرفيّةِ للكلمةِ عندَ انتقالِهَا إلى سياقاتٍ تركيبيّةٍ جديدةٍ كالتّصغيرِ، أو الجمعِ، أو النّسبةِ. ومن ثَمَّ، صرّحَ سيبويهِ صراحةً بنفي الأصلِ الثّنائيّ في متصرِّفِ الأسماءِ والأفعالِ داخلَ اللّسانِ العربيّ، مؤكّدًا أنَّ ما جاءَ على حرفينِ هو نزرٌ يسيرٌ، وأنَّ حقيقتَهُ البنائيّةَ ثلاثيّةٌ جُرّدتْ من أحدِ الحروفِ لعلّةٍ تصريفيّةٍ طارئةٍ. وضربَ لذلك مثلًا بـ (دم، وفم) في الأسماءِ، و(خُذ) في الأفعالِ؛ فكلمةُ (دم) أصلُها عندَهُ (دمي أو دمو) حذفتْ ياؤها أو واوها تخفيفًا، و(فم) أصلُها (فوه أو فمو) حذفتْ هاؤها أو واوها لعللٍ صرفيّةٍ وصوتيّةٍ، أمّا الفعلُ (خُذ) فهو ثلاثيُّ الأصلِ مأخوذٌ من (أخذ) وحذفتْ همزتُهُ في الأمرِ للتخفيفِ(٣).

تُؤكّدُ رؤيةُ سيبويهِ السّابقةُ هيمنةَ مبدأِ الأصلِ الثّلاثيّ في نظامِهِ اللُّغويّ، وأنَّ عوارضَ الحذفِ والتّجريدِ لا تنالُ من أصالةِ الجذر الثّلاثيّ وعُمقهِ البنيويّ؛ إذْ الحذفُ إنّما يقعُ للتخفيفِ الصّوتيّ، وغالبًا ما يطالُ الحرفَ الأخيرَ لتتحوّلَ الكلمةُ من الفضاءِ الثّلاثيّ إلى الفضاءِ الثّنائيّ شكلًا.

---

(١) ينظر: العين: ٥٠/١، وتاج العروس من جواهر القاموس:١٠/١٠، والمنهج التّاريخي والمنهج المقارن في الدِّراسات الصوتية والصّرفية العربيّة الحديثة: ٢١٤.

(٢) ينظر: الكتاب: ٧٩/٢، ١٤٢.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢١٩/٤.

وعلى المنوالِ نفسهِ نسجَ أبو العباس المبرّد في كتابِهِ (المُقتضبِ)، مقرّرًا ما ذهبَ إليه الخليل وسيبويه من أنَّ الثّنائيّ ما هو إلّا بناءٌ ثلاثيّ سقطَ حرفُهُ الثّالثُ لعلّةٍ ما، وأبانَ عن استعادةِ الحرفِ السّاقطِ عبرَ بوابتي الجمعِ والتّصغيرِ. وأشارَ إلى أنَّ الأسماءَ تأتي مجرّدةً على أصولٍ ثلاثةٍ: (ثلاثيّةٍ، ورباعيّةٍ، وخماسيّةٍ)، في حينِ تأتي الأفعالُ مجرّدةً على (ثلاثيّةٍ، ورباعيّةٍ)، وساقَ شواهدَ جمّةً تؤيّدُ مقالتَهُ[١]. هذا التّوافقُ والتّواردُ بينَ أساطينِ النّحو يُرسّخُ فكرةَ أنَّ الجذرَ الثّلاثيّ هو الأصلُ المُهيمنُ، وأنَّ الثّنائيّةَ عارضٌ صرفيٌّ حذفيّ، مُستندينَ إلى حُجّةٍ صوتيّةٍ مفادُها أنَّ أقلَّ ما تتألّفُ منهُ الكلمةُ نطاقًا هو ثلاثةُ أحرفٍ[٢].

أمّا أبو الفتح ابن جنّي، فقد تساوقَ مع هذا الطّرحِ رافضًا للأصولِ الثّنائيّةِ، ومصرّحًا بأنَّ أصولَ الكلمِ العربيّ تَنحصرُ في الأنماطِ: (الثّلاثيّةِ، والرّباعيّةِ، والخماسيّةِ)[٣]. بيدَ أنَّهُ عندَ معالجتِهِ لنظريّةِ (الاشتقاقِ الأكبرِ)، ظهرتْ في أثناءِ تحليلاتِهِ بعضُ الملامحِ التي توحي بتأثُّرِهِ بطروحاتِ الأصلِ الثّنائيّ[٤].

وقد قدّمَ ابن جنّي إسهاماتٍ باهرةً في كشفِ أسرارِ البنيةِ الصّرفيّةِ، ولا سيّما في ربطِهِ بين أصواتِ الحروفِ ودلالةِ الكلماتِ؛ إذْ ذهبَ إلى أنَّ المجموعاتِ الصّوتيّةَ الثّلاثيّةَ (الأصولَ الثّلاثيّةَ، وتقلياتِها) تختزنُ دلالةً عامّةً مشتركةً ومعنًى كلّيًّا جامعًا على الرّغمِ من تباينِ المشتقّاتِ في تفاصيلِها الجزئيّةِ[٥].

---

(١) ينظر: المقتضب:١/ ١٨٥.

(٢) ينظر: تاج العروس: ٢٢/١٠، والمنهج التّاريخيّ والمنهج المقارن في الدّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٢١٤.

(٣) ينظر: الخصائص: ٥٥/١.

(٤) ينظر: في أصول النّحو: ١٣٣.

(٥) ينظر: الخصائص: ١٤/١_١٦.

ومُجملُ القولِ في موقفِ القُدماء، أنَّهم وإنْ لم يتبنّوا الأصولَ الثّنائيّةَ صراحةً في مُتونِهم اللُّغويّةِ لتيقّنِهم من ثلاثيّةِ الجذرِ كأصلٍ أصيلٍ، إلّا أنَّ تصنيفاتِهم المعجميّةَ حملتْ تلميحاتٍ أوليّةً وإرهاصاتٍ بدائيّةً تشي بوعيهم بالثّنائيّةِ البنائيّةِ. وعندَما واجهوا قضايا المضعّفِ والفعلِ الأجوفِ، ألحقوها بالثّلاثيّ بناءً على تحوّلاتِها التّصريفيّةِ في التّثنيةِ والجمعِ والنّسبِ والتّصغيرِ التي تردُّ الكلمةَ إلى فضاءِ الثّلاثيّةِ[1]. وتكمنُ أهمّيّةُ رصدِ هذا الموقفِ في كونِ الخطابِ الاستشراقيّ قد اتّجَهَ في كثيرٍ من أطروحاتِه إلى نسبِ هذا المضعّفِ والأجوفِ إلى أصولٍ ثنائيّةٍ خالصةٍ، وهو ما سيتمُّ تفصيلُهُ في الفقرةِ الآتية.

**٢_ موقفُ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ:**

قبلَ الولوجِ في عرضِ الأطروحاتِ الاستشراقيّةِ، ومواقفِهم من أصلِ البنيةِ الصّرفيّةِ، تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ قراءاتِهم الصّرفيّةَ جاءتْ في أغلبِ أحوالِها مُتداخلةً ومُمتزجةً بالقوانينِ الصّرف–صوتيّة (Morphophonology)؛ بيدَ أنّ نفرًا منهم أفردَ للمستوى الصّرفيّ دراساتٍ مستقلّةً ومعالجاتٍ خاصّةً. وركّزَ هؤلاء على تحليلِ المادّةِ الصّرفيّةِ بموجبِ القوانين الصّوتيّةِ الحاكمةِ للأنظمةِ البنيويّةِ في كلِّ لُغةٍ. وهذه التّوجيهاتُ الصّوتيّةُ وإنْ كانتْ حاضرةً لدى القُدماء، إلّا أنَّ الدّرسَ اللّسانيّ الاستشراقيّ الحديثَ قد قاربَها بمنهجيّةٍ مغايرةٍ، مانحًا عنايةً فائقةً لـ (نظريّةِ المقطعِ الصّوتيّ) في اللُّغةِ العربيّةِ[2].

لقد تباينتْ نظراتُ المستشرقينَ وتعدّدتْ وجهاتُ نظرِهم حولَ عددِ الأصولِ البنيويّةِ للكلمةِ العربيّةِ في أطوارِ نشأتِها وتطوّرِها؛ فقد اعتنى جمعٌ منهم برصدِ حركةِ الانتقالِ التّاريخيّ للجذورِ من الطّورِ الثّنائيّ إلى الطّورِ الثّلاثيّ بوصفِها من أمّاتِ القضايا في فقهِ اللُّغاتِ

---

(١) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّين في اللُّغة العربيّة: ١٩٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٩.

المقارنِ، وسلكَ كلُّ باحثٍ منهم مسلكًا خاصًّا لتتبّعِ مساراتِ الألفاظِ واستكشافِ جذورِها الأولى. ولم تقفْ جهودُهم عندَ حدودِ الوصفِ السّطحيّ الظّاهريّ للبنى، بل قدّموا تفسيراتٍ وحلولًا جديدةً ومبتكرةً لقضايا الصّرفِ التّقليديّةِ، مُسلّطين الأضواءَ على زوايا بنيويّةٍ غابتْ عن ساحةِ التّركيزِ سابقًا، وهو ما أثّرَ في جيلِ اللّاحقين من باحثينَ غربيّينَ، وعربٍ، ودفعَتْهم نحوَ تعميقِ البحثِ في الظّواهرِ الصّرفيّةِ بمنظورٍ لسانيّ حديثٍ. والمُتأمّلُ في هذه المواقفِ يلحظُ أنَّ بعضَ المستشرقين التزمَ موقفًا نقديًّا متوازنًا؛ فقد وافقوا النّحويّينَ العربَ القُدماء في القولِ بأصالةِ الجذرِ الثّلاثيّ، ومركزيّتِهِ، مع إقرارِهم في الوقتِ ذاتِهِ بوجودِ أسماءٍ ذواتِ أصولٍ ثنائيّةٍ حقيقيّةٍ(١). ونبهوا إلى أنَّ هذه الصّيغَ الثّنائيّةَ لا تُمثّلُ قانونًا لغويًّا عامًّا يُمكنُ القياسُ عليهِ، بل هي من قبيلِ الاستثناءاتِ البنيويّةِ النّادرةِ التي لا تُزحزحُ الجذرَ الثّلاثيّ عن عرشِهِ كقاعدةٍ أساسيّةٍ في العربيّةِ.

ويمكنُ تصنيفُ مواقفِ المستشرقين وتيّاراتهم حولَ هذه القضيّةِ الصّرفيّةِ على النّحو الآتي:

**أ_ تيّارُ النّزعةِ التّوازنيّةِ:**

يأتي المستشرقُ الألمانيّ (كارل بروكلمان) في طليعةِ اللُّغويّينَ الذين ردّوا الكلماتِ إلى أصولِها الثّلاثيّةِ؛ إذْ يقولُ: "ترجعُ الكثرةُ العظيمةُ لأبنيةِ الاسمِ في اللُّغاتِ السّاميّةِ إلى ثلاثةِ أصولٍ من الأصواتِ الصّامتةِ، غيرَ أنَّهُ يوجدُ أيضًا بينَ الثروةِ اللُّغويّةِ القديمةِ أسماءٌ ذاتُ أصلينِ من تلكَ الأصواتِ"(٢) ويكشف هذا النّصّ أنَّ (بروكلمان) صرّحَ صراحةً بأنَّ التّنوّعَ الهائلَ والمُطّردَ في أبنيةِ الأسماءِ داخلَ جلِّ اللُّغاتِ السّاميّةِ يعودُ بصفةٍ أساسيّةٍ إلى جذورٍ

(١) ينظر: فقه اللُّغات السّاميّة: ٩٣.

(٢) المصدر نفسه: ٩٣.

تتألّفُ من ثلاثةِ أصواتٍ صامتةٍ. ومع هذا الجزمِ بالثّلاثيّةِ، لم ينكرْ (بروكلمان) الأصلَ الثّنائيّ، بل أثبتَهُ وأقرَّ بوجودِهِ تاريخيًّا؛ لافتًا النّظرَ إلى أنَّ الذّخيرةَ المعجميّةَ القديمةَ للفصيلةِ السّاميّةِ تَشتملُ _في أطوارِها الأولى_ على أسماءٍ تتكوّنُ بنيتُها من صامتينِ اثنين فقط. ومن ثمَّ، يرى (بروكلمان) أنَّ الجذورَ الثّنائيّةَ كانتْ تشكّلُ جزءًا بنيويًّا أصيلًا من التّكوينِ اللُّغويّ السّاميّ في مراحلِهِ التّاريخيّةِ المُبكّرةِ على الرّغمِ من السّيادةِ المُطلقةِ للجذورِ الثّلاثيّةِ.

**ب_ تيّارُ النّزعةِ الثّنائيّةِ التّطوّريّةِ:**

في مقابلِ ذلك، ذهبَ فريقٌ من المستشرقينَ إلى الاعتقادِ بأنَّ طائفةً كبيرةً من الجذورِ الثّلاثيّةِ في اللّسانِ العربيّ ليستْ أصيلةً في هيأتِها الثّلاثيّةِ الحاليّةِ، وإنّما هي نتاجُ تطوّرٍ تاريخيّ انحدر من جذورٍ ثنائيّةٍ موغلةٍ في القدمِ. وعزوا هذا التّوسّعَ البنيويّ إلى قانونِ التّطوّرِ اللُّغويّ الطبيعيّ الذي مرّتْ بهِ العربيّةُ، فقد تبدّلتْ تلك الأصولُ الثّنائيّةُ عبرَ حقبٍ زمنيّةٍ مُتطاولةٍ لتستقرَّ على صيغٍ ثلاثيّةٍ. وقد انتصرَ المستشرقُ (بول كراوس) لهذا المبدأ (الجذرِ الثّنائيّ المتطوّرِ إلى ثلاثيّ)، مستندًا في أطروحتِهِ إلى أدلّةٍ لغويّةٍ استقاها من موادَّ اللُّغةِ العربيّةِ ذاتِها. وأشارَ (كراوس) إلى ظواهرَ صرفيّةٍ تدلُّ على وجودِ هذا الأصلِ الثّنائيّ، ومنها: الأفعالُ المضعّفةُ (وهي الأفعالُ التي يتطابقُ فيها عينها ولامها نحو: شدّ، مرّ). ففي عقيدتِهِ الصّرفيّةِ، تُمثّلُ هذه الأفعالُ المضعّفةُ في جوهرِها التّاريخيّ جذورًا ثنائيّةً، ضُعّفَ فيها الصّامتُ الثّاني لتتّخذَ شكلًا ثلاثيًّا، والأمرُ عينُه ينطبقُ على (الفعلِ الأجوفِ) الذي يتغيّرُ جوفُهُ من شكلٍ أصليّ إلى آخر[1].

وبناءً عليهِ، يرى (كراوس) أنّ التّحوّلَ البنيويّ من الثّنائيّةِ إلى الثّلاثيّةِ في العربيّةِ يتحقّقُ بآليّتين: إمّا عبرَ (التّضعيفِ الصّوتيّ)، أو بواسطةِ (زيادةِ حرفِ مدٍّ). وهو بهذا يُدافعُ عن

(١) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ١٩٢-١٩٣.

ثنائيّةِ الفعلين المضعّفِ والأجوفِ، متسوّقًا مع الرّأي القائلِ بأنَّ الهيكلَ الأصيلَ للجذورِ في اللُّغاتِ السّاميّةِ كان ثنائيًّا ثمَّ لحقهُ التّوسّعُ في مراحلَ لاحقةٍ عبرَ قانون (القياسِ الصّرفيّ)[١]؛ أي بإضافةِ صامتٍ ثالثٍ إلى الجذرِ الثّنائيّ لتوليدِ جذرٍ ثلاثيّ مستحدثٍ، أو تعديلِ البنى القائمةِ لتتوائم مع النّمطِ الثّلاثيّ الذي غدا شائعًا ومستبدًّا بالنّظامِ اللُّغويّ.

**ج_ تيّارُ الجذورِ المعجميّةِ المشتركةِ:**

وأمّا المستشرقُ (سبستينو موسكاتي)، فقد وقفَ موقفًا راديكاليًّا رافضًا فيه رفضًا قاطعًا إلحاقَ الأسماءِ ذوات المظهرِ الثّنائيّ بجذورٍ ثلاثيّةٍ ساكنةٍ؛ إذْ قرّرَ أنَّ هذا الرّبطَ والرّدَّ التّعسّفيّ لا يتّكئ على برهانٍ لغويّ متينٍ، وإنّما هو محاولةٌ قسريّةٌ وتكلّفٌ واضحٌ لإجبارِ هذه الكلماتِ على الانصياعِ للقاعدةِ الثّلاثيّةِ السّائدةِ، حتّى وإنْ كانتْ طبيعتُها التّاريخيّةُ والأصليةُ تأبى ذلك[٢].

وقد اتّخذَ (موسكاتي) من الفحصِ المعجميّ وسيلةً لدعمِ نظريّتِهِ القائلةِ بأنَّ الجذرَ السّاميّ كان في بدئِهِ ثنائيًّا ثُمَّ تطوّرَ تاريخيًّا صوبَ الثّلاثيّةِ؛ إذْ يقول:" ونظرةٌ فاحصةٌ في المعجمِ تكشفُ الظاهرةَ الآتيةَ: ثَمّةَ مجموعاتٌ كثيرةٌ لجذورٍ لها صوتانِ أصليّانِ مشتركانِ يُعبِّرانِ عن معانٍ متماثلةٍ أو متشابهةٍ ... هذه الظّاهرةُ، وهي واسعةُ الانتشارِ في المعجمِ الساميِّ، تثيرُ التساؤلَ الآتيَ: أليسَ كثيرٌ من الجذورِ الثلاثيّةِ السّواكنِ، في حقيقةِ أمرِها، مشتقًّا من الجذورِ الثنائيّةِ السواكنِ؟ ثمَّ ألم يكنْ نظامُ الجذورِ الثنائيّةِ السّواكنِ، فيما يمكنُ، سابقًا للصيغةِ الثلاثيّةِ السواكنِ في الساميّةِ؟"[٣] وفي ضوءِ هذا النصِّ، يتّضحُ أنَّ (موسكاتي) استندَ

---

(١) ينظر: مدخل إلى نحو اللّغات السّاميّة المقارن: ١٢٧.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٥.

إلى التّقاربِ الصّوتيِّ والدّلاليِّ بينَ مجموعاتٍ من الجذورِ السّاميّةِ في طرحِ فرضيّةِ الأصلِ الثنائيِّ؛ إذْ كشفَ التّدقيقُ المعجميّ المُعمّقُ عن ظاهرةٍ لغويّةٍ بالغةِ الأهمّيّةِ، تتمثّلُ في وجودِ مجموعاتٍ معجميّةٍ كبرى من الكلماتِ تشتركُ في صامتينِ أصليّينِ وتُعبّرُ في الوقتِ ذاتِهِ عن معانٍ متجانسةٍ ومتماثلةٍ. ومثّلَ لذلك بوجودِ أفعالٍ شتّى تشتركُ مُجتمعةً في صامتينِ يعبّرانِ عن أصلٍ دلاليّ واحدٍ. وعليهِ، يُعدُّ (موسكاتي) من غلاةِ المناصرين للأصولِ الثّنائيّةِ في اللُّغاتِ السّاميّة والعربيّةِ؛ واصفًا محاولاتِ (تثليثِ الجذورِ الثّنائيّةِ) بأنَّها عمليّةٌ تفتقرُ إلى الطبيعيّةِ اللُّغويّةِ، ولا تُعبّرُ عن ناموسِ التّطوّرِ الحقيقيّ للسانِ، بل هي محضُ تكلّفٍ فرضَهُ النّحويون لتعميمِ نموذجٍ بنيويّ محدّدٍ. ويبدو أنَّ ما ذهبَ إليه موسكاتي يلفتُ النّظرَ إلى وجودِ صلاتٍ صوتيَّةٍ ودلاليَّةٍ بينَ بعضِ الجذورِ، غيرَ أنَّ اشتراكَها في صامتينِ وتقاربَ دلالاتِها لا يكفي وحدَهُ لإثباتِ أنَّ الثُّنائيَّةَ هي الأصلُ التّاريخيُّ للجذرِ السَّاميِّ، وأنَّ الثُّلاثيَّةَ تطوَّرتْ عنها لاحقًا. كما أنَّ انتظامَ الجذورِ الثُّلاثيَّةِ واتِّساعَ نظامِها الاشتقاقيِّ في العربيَّةِ لا يُسوِّغُ عدَّها بناءً متكلَّفًا فرضَهُ النَّحويُّونَ؛ إذ إنَّهم استقرؤوا أنماطًا قائمةً في الاستعمالِ اللُّغويِّ ولم ينشئوها. ومن ثَمَّ، تبقى فرضيَّةُ موسكاتي تفسيرًا محتملًا لبعضِ العلاقاتِ المعجميَّةِ، ولا ترقى إلى حكمٍ تاريخيٍّ عامٍّ من دونِ شواهدَ مقارنةٍ وتاريخيَّةٍ أوسعَ.

**د_ تيّارُ حالةِ الاعتلالِ الوسيطةِ:**

ومن جانبِهِ، طرحَ المستشرقُ (بول) مقاربةً صرفيّةً مغايرةً، رأى فيها أنَّ طائفةً من حالاتِ الاعتلالِ البنيويّ في الأفعالِ إنَّما تُمثّلُ (مرحلةً وسيطةً) وجسرًا تاريخيًّا يربطُ بينَ الطّورِ الثّنائيّ القديمِ، والطّورِ الثّلاثيّ الحديثِ. فالأفعالُ المُعتلّةُ في نظرِهِ هي الرّابطُ البنيويّ بين الجذورِ الثّنائيّةِ الأصليّةِ والأبنيةِ الثّلاثيّةِ التّامّةِ، وعززَ أطروحتَهُ بأدلّةٍ لسانيّةٍ تكشفُ

طبيعةَ العلاقةِ الرّابطةِ بين الأفعالِ المعتلّةِ والصّحيحةِ[١].

**هـ _ تيّارُ الثّنائيّةِ البدائيّةِ التّاريخيّةِ:**

وفي السّياقِ ذاتِهِ، أقرَّ المستشرقُ الأبُ (هنري فليش) بمبدأ الجذرِ الثّنائيّ، فيرى أنَّ " هناكَ أيضًا أصولٌ ثنائيّةٌ في اللُّغةِ العربيّةِ، وهي كذلكَ في أصولِها السّاميّةِ، ولكنْ لننظرْ إلى الأشياءِ من قريبٍ: فالسّاميّةُ المشتركةُ التي تتفرّعُ عنها، كانتْ ذاتَ أصولٍ ثلاثيّةٍ. وأكثرُ من ذلك، ففي المستوى الأعلى . وبقدرِ ما يمكنُ أن~ تبلُغَهُ المقارنةُ الدّاخليّةُ لأبعدِ الأصولِ أي في اللُّغةِ الحاميّةِ السّاميّةِ، لم يمكنِ التّوصّلُ إلى ما وراءَ البناءِ الثّلاثيِّ السّابقِ معرفتُهُ فيما يتصلُ ببناءِ الأصولِ"[٢] وهو بهذا يكون داعمًا فكرةَ أنَّ الجذورَ اللُّغويّةَ كانتْ في مرحلةٍ تاريخيّةٍ ما تتألّفُ من حرفينِ حسب. وصرّحَ بأنَّ الأسماءَ ذوات الأصلِ الثّنائيّ تُمثّلُ ظاهرةً موغلةً في القدمِ ترتدُّ إلى أساسٍ لغويّ قديمٍ جدًّا. ويرى أنَّ مسألةَ الثّنائيّةِ تُثيرُ نقاشًا معقّدًا حولَ الحالةِ البدائيّةِ للجذورِ في اللُّغاتِ السّاميّةِ الأولى. وذهبَ (فليش) إلى أنَّ "التّحليلَ الدّاخليّ للكلمةِ العربيّةِ أو السّاميّةِ لتمييزِ الجذورِ الثّنائيّةِ، وطُرقِ تثليثِها، لما ينتهِ إلى نتيجةٍ مرضيّةٍ (ولعلَّه من المُحالِ أنْ يحدثَ هذا). وخلاصةُ القولِ/ إنَّ مشكلةَ الثّنائيّةِ لما تلقَ حلًّا"[٣].

وعلى الرّغمِ من اتّفاقِهِ مع غيرِهِ في إثباتِ كلماتٍ عربيّةٍ ذات أصلٍ ثنائيّ يصعبُ رصدُ تتبّعِها بيقينٍ قطعيّ؛ إلّا أنَّهُ يرى أنَّ هذه الكلماتِ نزرٌ يسيرٌ وقليلةٌ جدًّا إذا ما قورنتْ بالجذورِ الثّلاثيّةِ المهيمنةِ التي هيمنتْ على المعجمِ العربيّ. وأرجعَ (فليش) الأصولَ الثّنائيّةَ إلى حقبةٍ تاريخيّةٍ سحيقةٍ، الأمرُ الذي يجعلُ من الصّعوبةِ بمكانٍ الوصولَ إليها أو إخضاعَها لدراسةٍ

---

(١) ينظر: في الأصوات اللُّغويّة (دراسة في أصوات المدّ العربيّة): ١٩٦.
(٢) العربيّة الفصحى: ٣٤٢_٣٤٣.
(٣) المصدر نفسه: ٣٤٣.

منهجيّةٍ حاسمةٍ في الوقتِ الحاضرِ لقلّةِ الأدلّةِ المتاحةِ[١]. وعلى الرّغمِ من هذا الاعترافِ، أوضحَ (فليش) أنَّ جدوى محاولةِ إرجاعِ كافّةِ الكلماتِ اللُّغويّةِ إلى أصولٍ ثنائيّةٍ تظلُّ محدودةً وضئيلةً؛ نظرًا لندرتِها وصعوبةِ التّحقّق العلميّ منها. ولذا، اهتدى (فليش) إلى تقديمِ نصيحةٍ منهجيّةٍ للباحثين بضرورةِ التّركيزِ على النّظامِ اللُّغويّ الأكثرِ وضوحًا وقبولًا للدّرسِ المنهجيّ، وهو (النّظامُ الثّلاثيّ) الذي يُمثّلُ العمودَ الفقريّ والمحورَ الهيكليّ للغةِ العربيّةِ[٢]. وينسجمُ موقفُ (فليش) هذا مع أطروحاتِ المدارسِ اللّسانيّةِ الحديثةِ التي تؤثرُ الوصفَ الوظيفيّ للغةِ كما هي مُستعملةٌ في واقعِها الرّاهن، بدلًا من الإغراقِ في فرضيّاتٍ تاريخيّةٍ يصعّبُ إثباتها علميًّا.

**و_ تيّارُ المحافظةِ الظّاهريّةِ:**

وعلى الضّفةِ الأخرى، نجدُ المستشرقَ (جزينس) يبرزُ مؤكّدًا أساسيًّا على أنَّ الأصلَ الثّلاثيّ في الأسماءِ، والأفعالِ يُمثّلُ سمةً لغويّةً دقيقةً ومطّردةً اطرادًا صارمًا في المنظومةِ السّاميّةِ. ويرى أنَّ التزامَ اللّسانِ السّاميّ بهذه الأصولِ كانَ من القوّةِ بمكانٍ، جعلَ اللُّغةَ تلجأ في كثيرٍ من الأحيانِ إلى تبنّي حيلٍ صرفيّةٍ ووسائلَ معيّنةٍ للمحافظةِ على هذا الوزنِ الثّلاثيّ ولو من النّاحيةِ الظّاهريّةِ. ويتبدّى هذا الصّنيعُ في أبنيةٍ لغويّةٍ من قبيلِ: (عِدة، ثِقة)، وكذلك في الأسماءِ السّتّةِ المشهورةِ في العربيّةِ. ومع هذا الانتصارِ للثّلاثيّةِ، لم يغفلْ (جزينس) الإشارةَ إلى أنَّ جملةً من الأصولِ الثّلاثيّةِ يُمكنُ إرجاعُها تاريخيًّا إلى أصولٍ ثنائيّةٍ أقدمَ يُطلقُ عليها مصطلحُ (الجذورِ المُوَلِّدَةِ)، والتي تفرّعتْ عنها لاحقًا الجذورُ الثّلاثيّةُ وما فوقها من

---

(١) ينظر: العربيّة الفصحى: ٢٠١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٢.

الأبنيةِ[١].

**ز_ تيّارُ الصّوتِ الثّالثِ المكيّفِ:**

ويتلاقى هذا الطّرحُ مع أطروحةِ المستشرقِ (إدوارد ألندرف)، الذي يُؤكّدُ بأثرِهِ أنَّ العديدَ من الجذورِ الثّلاثيّةِ في اللُّغاتِ السّاميّةِ قد نبتتْ في أصلِها من منبتٍ ثنائيّ. ويرى أنَّ التّحوّلَ البنيويّ قد تحقّقَ عبرَ آليّةِ التّضعيفِ وتكرارِ أحدِ الصّوامتِ الأصليّةِ للجذرِ[٢]. ويصفُ (إدوارد) هذه العمليّةَ التّحويليّةَ بأنَّها سمةٌ بنيويّةٌ مطّردةٌ وظاهرةٌ متكرّرةٌ في اللُّغاتِ السّاميّةِ وليستْ مجرّدَ حالاتٍ فرديّةٍ شاذّةٍ؛ فهي بمثابةِ نمطٍ لغويٍّ مطّردٍ. ويقدّمُ (إدوارد) رؤيةً دلاليّةً بالغةَ الطّرافةِ؛ إذْ يرى أنَّ الدّلالةَ الجوهريّةَ والمركزيّةَ للجذرِ إنَّما تكمنُ وتختبئ في (الصّامتينِ الأوّلينِ)، أمّا الصّامتُ الثّالثُ الزّائدُ فلا يرفدُ الكلمةَ بدلالةٍ أصليّةٍ جديدةٍ، وإنّما ينحصرُ أثرهُ في كونِهِ (عنصرًا مكيّفًا أو معدّلًا أو مخصّصًا) للمعنى العامِّ الذي يحملُهُ الحرفان الأصليّان، دون أنْ ينشئ معنًى جذريًّا مغايرًا. فهو يُضيفُ ظلالًا دلاليّةً وتفريعاتٍ معنويّةً طارئةً، مِمّا يُمثّلُ منظورًا صرف–دلاليًّا مثيرًا للاهتمامِ حولَ نشأةِ الجذورِ وتطوّرِها، مع التّركيزِ على التّضعيفِ بوصفه آليّةً لتوسيعِ المعاني وتوليدِها[٣].

**ح _ تيّارُ التّحوّلِ الصّرفيّ الصّرفِ:**

وأمّا المستشرقُ الفرنسيّ الكبيرُ (إرنست رينان)، فقد تبنّى رأي القائلين بأصالةِ الجذرِ الثّنائيّ؛ لافتًا إلى أنَّ بعضَ الأفعالِ على الرّغمِ من تمظهرِها في هيأةِ جذورٍ ثلاثيّةٍ، إلّا أنَّها

---

(١) ينظر: الثّنائيّة في اللُّغة: ٣٠٨.

(٢) ينظر: علم اللُّغات السّاميّة المقارن، إدورد ألندرف: ١٨٢.

(٣) ينظر: في الأصوات اللُّغويّة (دراسة في أصوات المدّ العربيّة): ١٩٦.

في جوهرِها البنائيّ ثنائيّةُ الأصلِ[١]. ويفسّرُ (رينان) هذه الظّاهرةَ بأنَّها تقعُ غالبًا في الأفعالِ المضعّفةِ والمعتلّةِ؛ فقد لا تحدثُ الزّياداتُ الصّرفيّةُ أيّ تحوّلٍ جوهريّ في المعنى الأساسيّ المشتركِ للفعلِ الثّنائيّ، بل تجيء هذه التّغيّراتُ الصّرفيّةُ لأسبابٍ وقواعدَ تتعلّقُ بالتّصريفِ الصّرفِ. ولكي يبيّنَ (رينان) صحّةَ مقالتِهِ، ساقَ دليلًا تطبيقيًّا من مادّةِ الفعلِ البنيويّ (نَدَّ)؛ إذْ يرى أنَّ الفعلَ في أصلِهِ ثنائيّ، ومدارَهُ الدّلاليّ يدورُ حولَ (الحركةِ أو الابتعادِ)، وهو معنى ثابتٌ وجوهريّ لا ينالُ منهُ التّحوّلُ الصّرفيّ. فإذا طرأ التّضعيفُ على الحرفِ الثّاني قيل: (نَدَّ)، وإذا لحقتْهُ زيادةٌ حركيّةٌ أو صامتةٌ قيلَ: (ندادَ)، ويبقى المعنى في الحالينِ دالًّا على التّحرّكِ والتّمايلِ. وحينَ يُقالُ: (تندّد الغصن) أي تحرّكَ، فإنَّ الدّلالةَ المركزيّةَ للحركةِ تظلُّ كامنةً وحاضرةً. وإذا وقعَ التّغييرُ بمدِّ الحرفِ الثّاني قيلَ: (ندَا)، نحو قولهم: (ندَا الشيءُ) أي تفرّقَ، و(الإبل النَّوادي) أي الشّوارد[٢]. فهذه الشّواهدُ التّطبيقيّةُ تؤكّدُ _في نظرِ (رينان)_ أنَّ مفهومَ التّفرُّقِ والابتعادِ ظلَّ مشدودًا برباطٍ وثيقٍ بالمعنى الأصليّ للثنائيّ، ولم تبطلِ التّغيّراتُ الصّرفيّةُ المعنى الجوهريّ بل أبقتْهُ فاعلًا في البنيةِ.

**ط_ تيّارُ الإحصاءِ والتّوثيقِ الخامِ:**

وفي مقابلِ هذه التّياراتِ التّحليليّةِ، اتّخذَ المستشرقُ الفرنسيّ (لويس ماسينيون) مقاربةً مغايرةً تمامًا، نأتْ بنفسِها عن التّفسيرِ والتّأويلِ البنيويّ، وركّزتْ بصورةٍ حصريّةٍ على بوابتي (التّوثيقِ والإحصاءِ البارِدِ). فلم يبحرْ (ماسينيون) في غمارِ التّحليلاتِ العميقةِ لأصولِ الجذورِ، وإنَّما طرحَ فكرةً عمليّةً تمثّلتْ في ضرورةِ انتدابِ لجانٍ من الخبراءِ والمُتخصّصينَ في

(١) ينظر: الثّنائيّة في اللُّغة: ٣٠٨_٣٠٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٨_٣٠٩.

اللّسانيّاتِ وفقهِ اللُّغاتِ السّاميّةِ لتوثيقِ رصيدِ نتائجِ أعمالِهم في مجالِ الأصولِ الثّنائيّةِ(١).

وقامَ (ماسينيون) بتقديمِ إحصاءٍ شاملٍ للعددِ الكُلّيّ لتلك الأصولِ، بيدَ أنَّهُ عيبَ على صنيعِهِ المنهجيّ عدمُ قيامِهِ بترتيبِ تلك الجذورِ ترتيبًا معجميًّا أو أبجديًّا أو دلاليًّا، أو حتّى وفقًا لتسلسلِها الزّمنيّ، وهو الأمرُ الذي جعلَ من الصّعوبةِ بمكانٍ الرّجوعَ إليها أو الإفادةَ منها في التّحليلِ البنيويّ. فقد وضعَها في سياقٍ إحصائيّ مصمتٍ من دونِ تمييزٍ، فلم يفرِزِ الجذورَ بناءً على أصولِها المُفترضةِ، ولم يصنّفها بموجبِ حقولِها الدّلاليّةِ(٢). ولذلك، يُعَدُّ صنيعُ (ماسينيون) خطوةً تمهيديّةً توثيقيّةً وكمّيّةً، أكثرَ من كونِها قراءةً تفسيريّةً أو تحليليّةً للمادّةِ الصّرفيّةِ؛ على الرّغمِ من وعيهِ بأهمّيّةِ الإحصاءِ العدديّ لتلك الأصولِ الثّلاثيّةِ. ولعلَّ دافعَهُ وراء هذا المُقترحِ هو توفيرُ مادّةٍ خامٍ تكونُ بين يدي الخبراءِ ليعملوا عليها لاحقًا، بيدَ أنَّهُ غفلَ عن شرطِ التّرتيبِ المنهجيّ، ممّا جعلَ عملَهُ محصورًا في طورِ (الإحصاءِ الخامِ والعدّ)، عاجزًا عن تقديمِ حلولٍ بنيويّةٍ ناجعةٍ لمعضلةِ الثّنائيّةِ، والثّلاثيّةِ، أو صياغةِ تفسيراتٍ علميّةٍ لأصلِ الجذورِ وتحوّلاتِها المعنويّةِ.

نخلصُ من ذلك كلِّهِ أنَّ استعراضَ هذه السّلسلةِ من الآراءِ الاستشراقيّةِ يبرزُ بوضوحٍ تنوّعَ المناهجِ والمشاربِ اللّسانيّةِ في الخطابِ الاستشراقيّ المعني باللُّغاتِ السّاميّةِ. فبينما غرقَ فريقٌ منهم في النّقاشِ والجدلِ النّظريّ حولَ الأصولِ والجذورِ (بينَ الثّنائيّةِ والثّلاثيّةِ)، اتّجهَ فريقٌ آخر صوبَ الإحصاءِ والتّوثيقِ الكمّيّ. وتظلُّ قضيّةُ نشأةِ الكلماتِ وتطوّرِها البنيويّ مثارَ خلافٍ مستمرٍّ؛ فقد قدّمَ المستشرقُ (برجستراسر) منظورًا لغويًّا مغايرًا حولَ هذه القضيّةِ في

---

(١) ينظر: أشتات استشراقية– المستشرق لويس ماسينيوس واللُّغة العربيّة: ٤٠–٤١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤١.

مُصنفاتهِ المتعدّدةِ المعنيّةِ بالتّطوّرِ النّحويّ وتاريخِ اللُّغاتِ السّاميّةِ[١].

ومِمّا تجدرُ الإشارةُ إليهِ في ختامِ هذا المحورِ، أنَّ النّحويّينَ العربَ القُدماء حينما درسوا الكلماتِ التي تبدو ثُنائيّةً مثلَ (فم)، حكموا بثلاثيّةِ جذرِها، وأنَّ أصلَها البنائيّ هو (فَوَهَ)[٢]؛ فاعتبروا الواوَ جزءًا أصيلًا من بنيتها. ويعكسُ هذا التّوجيهُ عقيدتَهم الصّرفيّةَ الصّارمةَ بأنَّ الأصلَ في الجذورِ هو التّثليثُ، وأنّ كُلَّ ما نأى عن ذلك شكلًا لا بُدَّ لهُ من أصلٍ ثلاثيّ مستترٍ يظهرُهُ التّصريفُ والاشتقاقُ أو قوانين الإبدالِ الصّوتيّ. وكانَ سيبويهِ صوتًا عاليًا في تأكيدِ ثلاثيّةِ (فم)، مُقارنًا إيّاها بلفظةِ (بنية) ومُثبّتًا أصالةَ (الميم) فيها، وموجّهًا الحذفَ بأنَّهُ عارضٌ تصريفيّ صيّرها ثنائيّةً في الظّاهرِ[٣]. وبذلك يُباينُ مذهبُ سيبويهِ من ينظرُ إلى (فم) بوصفِها كلمةً أُحاديّةَ الأصلِ.

لقد برهنَ جهابذةُ الصّرفِ العربيّ (كالخليل وسيبويه) على أنَّ العربيّةَ تتأسّسُ بنيويًّا على الأصولِ الثّلاثيّةِ، بجانبِ الأصولِ الرّباعيّةِ والخماسيّةِ المجرّدةِ، مع إقرارِهم النّادرِ بوجودِ جذورٍ ثنائيّةٍ على قلّةٍ ونُدرةٍ[٤]. وبنوا نظامَهم الصّرفيّ والنّحويّ على فاعليّةِ الجذرِ الثّلاثيّ في الاشتقاقِ، وهو نظامٌ أثبتَ نجاحًا باهرًا في وصفِ الظّواهرِ اللُّغويّةِ وتصاريفِها.

بيد أنَّ المستشرقينَ عبرَ منهجِهم المُقارنِ التقطوا وجودَ أبنيةٍ استثنائيّةٍ تتألّفُ من حرفينِ أصليّينِ مثلَ (أب، وأخ، ودم، ويد)، ورأوا ارتباطًا دلاليًّا بينَ بعضِ الجذورِ الثّلاثيّةِ والأصولِ الثّنائيّةِ، مِمّا دفعَهم إلى صياغةِ أسئلةٍ علميّةٍ حرجةٍ، من قَبيلِ: هل هذه الكلماتُ الثّنائيّةُ محضُ استثناءاتٍ طارئةٍ؟ أم أنَّها تُمثّلُ الطّورَ الأقدمَ والأصلَ التّاريخيّ في اللُّغةِ السّاميّةِ الأمِّ؟

---

(١) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ٩٥- ٩٦.

(٢) ينظر: الصّحاح: ٦/٢٢٤٤-٢٢٤٦.

(٣) ينظر: الكتاب: ٤/٢١٩.

(٤) ينظر: العين: ٥٦، والكتاب: ٢/، ٢٢، ١٩٦.

وهل الجذورُ الثّلاثيّةُ الرّاهنةُ أصيلةٌ في تثليثِها، أم أنَّ بعضَها تولّدَ من أصولٍ ثنائيّةٍ عبرَ زيادةِ صامتٍ ثالثٍ؟ وهل الثّنائيّةُ الظّاهرةُ هي بقايا جذورٍ قديمةٍ أم نِتاجُ فقدانِ الثّلاثيّ لأحدِ أحرفِهِ؟ لقد فتحتْ هذه التّساؤلاتُ آفاقًا جديدةً في اللّسانيّاتِ المقارنةِ، حتّى وإنْ انتهى فريقٌ منهم إلى استحالةِ إثباتِ عمليّةِ التّثليثِ تاريخيًّا بالطّرقِ المقترحةِ. وظلَّ النّقاشُ معلّقًا دونَ إجابةٍ قطعيّةٍ ترتضيها المدارسُ اللُّغويّةُ، ولم يتحقّقِ الاتّفاقُ بينَ اللُّغويّينَ العربِ والمستشرقينَ حولَ هذه المسألةِ المعقّدةِ(١).

وقد يتبادرُ إلى ذهنِ القارئِ لمدوناتِ الاستشراقِ أنَّ نظريّةَ الأصلِ الثّنائيّ هي محضُ ابتكارٍ واكتشافٍ غربيّ خالصٍ تفرّدوا بصياغتِهِ؛ غيرَ أنَّ الفحصَ الدّقيقَ للمصادرِ العربيّةِ القديمةِ يدحضُ هذا الادّعاءَ دحضًا عِلميًّا، ويُثبتُ أنَّ هذه النّظريّةَ لم تكنْ غائبةً عن وعي اللُّغويّينَ العربِ. فقد أشارَ كثيرٌ منهم إلى الألفاظِ الثّنائيّةِ وإنْ لم يصرّحوا بمصطلحاتِها صراحةً، وتجلّى ذلك في مسالكِ تصنيفِهم للمُعجماتِ، غير أنَّهم آثروا ردَّها إلى المضعّفِ الثّلاثيّ، مُصرّين على ثلاثيّةِ الأصلِ والعمقِ على الرّغمِ من ثنائيّةِ المظهرِ والشّكلِ(٢).

**ثانيًا: طبيعةُ الزّيادةِ الصّرفيّةِ:**

تُعدُّ قضيّةُ (الزّيادةِ الصّرفيّةِ) من المباحثِ اللّصيقةِ بنظريّةِ الجذورِ؛ فقد تطرق المستشرقُ (جوناثان أونز) إلى هذه المسألةَ بالدّراسةِ والتّحليلِ ضمنَ قراءتِهِ للنظامِ الصّرفيّ العربيّ. وقد اتّجَهَ (أونز) نحوَ تقسيمِ الزّيادةِ على نوعينِ رئيسينِ:

---

(١) ينظر: العربيّة الفصحى: ٢٠٢.

(٢) ينظر: المنهج التّاريخيّ والمنهج المقارن في الدّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٢١٣.

**١_ الزّيادةُ الأصليّةُ البنيويّةُ:**

وهي الزّيادةُ التي تدخلُ في صلبِ الهيكلِ الصّرفيّ للكلمةِ وتكونُ جزءًا لا يتجزّأ من أصولِها، بحيثُ لا يُمكنُ إسقاطُها من دون تدميرِ البناءِ المعجميّ للمفردةِ. ويُمثّلُ لها بالأبنيةِ الرّباعيّةِ أو الخماسيّةِ المجرّدةِ التي تأتي على أوزانٍ مخصوصةٍ، نحوَ وزنِ (فَعْلَلَ) في الفعلِ الرّباعيّ مثلَ: (دَحْرَجَ)،؛ إذْ تُعدُّ جميعُ حروفِ هذه الأبنيةِ حروفًا أصليّةً. ويدرجُ (أونز) تحتَ هذا النّوعِ الزّيادةَ النّاتجةَ عن (تكرارِ حرفٍ أصليّ) من حروفِ الجذرِ، كما في بناءِ كلمةِ (جَلْبَبَ) المشتقّةِ من الجذرِ الثّلاثيّ (ج ل ب)، فقد تكرّرَ حرفُ الباءِ لتتحوّلَ الكلمةُ إلى وزنٍ صرفيّ جديدٍ[١].

**٢_ الزّيادةُ غيرُ الأصليّةِ (الزّوائدُ الصّرفيّة):**

وهي الحروفُ والوحداتُ الصّرفيّةُ (المورفيماتُ) الطارئةُ التي تُضافُ إلى الجذرِ الأصليّ السّاكنِ لأغراضٍ ووظائفٍ صرفيّةٍ متعدّدةٍ؛ ومن أبرزِها: تحويرُ المعنى المعجميّ للمفردةِ، أو تغييرُ صيغتِها ووزنِها الصّرفيّ. ويظهرُ ذلك جليًّا في الأوزانِ الصّرفيّةِ المُشتقّةِ التي تحوي أوزانًا زائدةً متعارفًا عليها، مثلَ دخولِ (الألفِ) في وزنِ (فَاعَلَ) كالفعلِ (كَاتَبَ) المشتقِّ من (ك ت ب)، أو في الأوزانِ الأكثرِ تعقيدًا مثلَ وزنِ (افْعَوْعَلَ) نحوَ (اخْشَوْشَنَ). ونبّهَ (أونز) إلى أنَّ هذه الحروفَ الزّائدةَ هي عينُها المجموعةُ والمحصورةُ تحتَ اسمِ (حروف الزّيادةِ) في مُدوّناتِ الصّرفِ العربيّ التّقليديّ[٢] .

ومن خلالِ هذا التّقسيمِ، يتّضح أنَّ أطروحةَ المستشرقِ (جوناثان أونز) جاءتْ متّسقةً في كُلّيّاتِها مع الطّرحِ الصّرفيّ العربيّ، فقد سعى إلى إعادةِ قراءةِ القواعدِ العربيّةِ الكلاسيكيّةِ

---

(١) ينظر: أسس النّظريّة النّحويّة العربيّة في دراسات المستشرقين: ١٨٥

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٥.

وتأطيرِها المُتعلّقةِ بمباحثِ التّجرّدِ والزّيادةِ صياغةً لسانيّةً حديثةً تبرزُ آليّاتِ التّوليدِ البنيويّ للمفرداتِ.

**ثالثًا: أصلُ الاشتقاقِ (بينَ المصدرِ والفعلِ):**

شهدَتِ المادّةُ الصّرفيّةُ في الخطابِ الاستشراقيّ نقاشًا مُستفيضًا حولَ تحديدِ (أصلِ الاشتقاقِ) في اللُّغةِ العربيّةِ؛ وهي القضيّةُ التّاريخيّةُ التي تفرّعتْ فيها آراءُ اللُّغويّين العربِ القُدماء بينَ مدرستي البصرةِ (الذين قالوا بأصالةِ المصدرِ) والكوفةِ (الذين قالوا بأصالةِ الفعلِ). وقد قاربَ المستشرقونَ هذا التّنازعَ عبرَ مناهجَ لسانيّةٍ متنوّعةٍ؛ ويُمكنُ دراستُها على وفقِ ما يأتي:

**١_ تيّارُ الانتصارِ لأصالةِ المصدرِ:**

نُقِلَ عن المستشرقِ (ويليام رايت) في مباحثِهِ المعنيةِ بتصريفِ الأسماءِ والأفعالِ، إشارتُهُ إلى وجودِ أواصرَ واشتباكاتٍ وثيقةٍ في طورِ النّشأةِ التّاريخيّةِ بين الصّيغِ الاسميّةِ والصّيغِ الفعليّةِ في اللُّغاتِ السّاميّةِ. وذهبَ (رايت) إلى تقريرِ أنَّ الصّيغَ الفعليّةَ إنّما تطوّرَتْ تاريخيًّا وانبثقتْ من رحمِ الصّيغِ الاسميّةِ؛ فالفعلُ في جوهرِهِ البنائيّ والبدائيّ ليس سوى صيغةٍ اسميّةٍ متحوّلةٍ[١]. ومن ثمّ، يُعدُّ (رايت) من المائلين إلى القولِ بأنَّ البنيةَ الفعليّةَ مشتقّةٌ ومتفرّعةٌ من البنيةِ الاسميّةِ، ومقرًّا بتبعيّةِ الفعلِ للاسمِ في سلّمِ النّشوءِ اللُّغويّ.

وفي السّياقِ ذاتِهِ، انضمَّ المستشرقُ (جوناثان أونز) إلى صفِّ المؤيّدينَ لكونِ المصدرِ هو أصلُ الاشتقاقِ وعنصرُهُ الأوّلُ. وحينما تعرّضَ (أونز) لمفهومِ الاشتقاقِ واستعرضَ طروحاتِ القُدماء حولَهُ، طرحَ تساؤلًا لسانيًّا جوهريًّا: هل الأسماءُ مشتقّةٌ من الأفعالِ، أم أنَّ

---

(١) ينظر: فقه العربيّة المقارن: ١٣٣-١٣٤.

الأفعالَ هي المشتقّةُ من المصادرِ؟ وعدَّ (أونز) أنَّ الإجابةَ العلميّةَ عن هذا التّساؤلِ تتبدّى واضحةً في مصنّفاتِ أبي القاسم الزّجاجيّ (ت٣٤٠هـ) وأبي البركات الأنباريّ (ت٥٧٧هـ). وظهرَ تأثّرُ (أونز) البالغُ برأي ابن الأنباريّ الذي يرى أنَّ الاسمَ (المصدر) يتبوّأ الرّتبةَ الأولى والأصيلةَ في النّظامِ اللُّغويّ، ولذلك صُيّرتِ الكلماتُ مشتقّةً منهُ[١]. وباختصارٍ؛ فإنَّ (أونز) يُعيدُ التّأكيدَ على مركزيّةِ المصدرِ بوصفِهِ نبعَ الاشتقاقِ، مستندًا إلى الحُججِ البصريّةِ المعروضةِ في بطونِ الفكرِ النّحويّ العربيّ.

**٢_ تيّارُ الانتصارِ لأصالةِ الفعلِ:**

وعلى النّقيضِ من ذلك، اتّجَهَ فريقٌ آخرُ من المستشرقينَ نحوَ إبطالِ أطروحةِ المصدرِ، منادين بأنَّ الفعلَ هو الأصلُ والرّكيزةُ الأولى للاشتقاقِ. ويبرزُ المستشرقُ (إسرائيل ولفنسون) كأحدِ أبرزِ المناصرينَ لهذا الاتّجاهِ؛ فقد اتّكأ في صياغةِ رأيِهِ على معطياتِ الدِّراساتِ اللّسانيّةِ والدّلاليّةِ المقارنةِ. وكشفتْ لهُ هذه المقارناتُ أنَّ الفعلَ يتمتّعُ بمركزيّةٍ بنيويّةٍ وهيمنةٍ كبرى في المنظومةِ السّاميّةِ بصفةٍ عامّةٍ. وأوضحَ (ولفنسون) من خلالِ تتبّعِ الفصائلِ اللُّغويّةِ المتنوّعةِ، أنَّ الفعلَ هو النّواةُ الأساسيّةُ والرّكيزةُ الأولى لبناءِ الكلماتِ داخلَ اللُّغاتِ السّاميّةِ[٢].

وفي الواقعِ، أَميلُ إلى رأي ولفنسون الذي يذهبُ إلى أنَّ الفعلَ يُمثّلُ الأصلَ والرّكيزةَ الأولى في الاشتقاقِ؛ لما يتمتّعُ بهِ النّظامُ الفعليُّ من مركزيّةٍ واضحةٍ في العربيّةِ وفي عددٍ من اللّغاتِ السّاميّةِ، إذ تقومُ عليهِ شبكةٌ واسعةٌ من الصّيغِ الاشتقاقيّةِ المترابطةِ. ومن ثَمَّ أرى أنَّ القولَ بأصليّةِ الفعلِ يجدُ ما يسندُهُ في طبيعةِ النّظامِ الصّرفيِّ العربيِّ، مع بقاءِ المسألةِ موضعَ خلافٍ بين اللّغويّين.

---

(١) ينظر: أسس النّظريّة النّحويّة العربيّة في دراسات المستشرقين: ١٩٠-١٩٦.

(٢) ينظر: رأي أ. ولفنسون في أصالة الفعل في اللّغات السّاميّة: ١٩٠.

وكانَ (ولفنسون) صوتًا نقديًّا صارمًا في دحضِ نظريّةِ كونِ المصدرِ أصلَ الاشتقاقِ، وقد عبَّرَ عن موقفِهِ من هذهِ المسألةِ بقولهِ:"وقد رأى بعضُ علماءِ اللُّغةِ العربيّةِ أنَّ المصدرَ الاسميَّ هو الأصلُ الذي يُشتقُّ منه أصلُ كلِّ الكلماتِ والصِّيغِ، ولكنَّ هذا الرأيَ خطأٌ _في رأينا_ لأنَّهُ يجعلُ أصلَ الاشتقاقِ مخالفًا لأصلِهِ في جميعِ أخواتِها السّاميّةِ. وقد تسرَّبَ هذا الرأيُ إلى هؤلاءِ العلماءِ من الفرسِ الذين بحثوا في اللُّغةِ العربيّةِ بعقليّتِهم الآريّةِ، والأصلُ في الاشتقاقِ عندَ الآريّينَ أنْ يكونَ من مصدرٍ اسميٍّ، أمّا في اللُّغاتِ السّاميّةِ فالفعلُ هو كلُّ شيءٍ، فمنهُ تتكوّنُ الجملةُ، ولم يخضعِ الفعلُ للاسمِ والضّميرِ، بل نجدُ الضّميرَ مسندًا إلى الفعلِ ومرتبطًا به ارتباطًا وثيقًا. وعلى كلِّ حالٍ، نظريّةُ العقليّةِ الفعليّةِ في اللُّغاتِ السّاميّةِ هي نظريّتُنا الخاصّةُ؛ إذ لم يُشرْ إليها أحدٌ من علماءِ الإفرنجِ"[1]، وفي ضوءِ هذا النصِّ، يتّضحُ أنَّ ولفنسون رفضَ القولَ بأصالةِ المصدرِ في الاشتقاقِ واصفًا إيّاه بـ(الفرضيّةِ المخطئةِ) التي لا تستندُ إلى مقاييسَ علميّةٍ معتبرةٍ. ولفتَ إلى أنَّ القولَ بأصالةِ المصدرِ يجعلُ من النّظامِ الاشتقاقيّ للعربيّةِ نظامًا شاذًّا ومُباينًا لما هو مستقرٌّ في سائرِ اللُّغاتِ السّاميّةِ الشّقيقةِ. وحينما فتّشَ (ولفنسون) عن الجذورِ المعرفيّةِ التي دفعتْ بعضَ اللُّغويّينَ العربِ القُدماء إلى القولِ بأصالةِ المصدرِ، أرجعَ الأمرَ إلى تأثّرِهم البالغِ بـ(الفكرِ اللُّغويّ الفارسيّ)؛ مبيّنًا أنَّ الأصلَ الاشتقاقيّ عندَ الشّعوبِ الآريّةِ، والهندو_أوربيّةِ يقومُ على المصدرِ الاسميّ، بيدَ أنَّ النّاموسَ البنيويّ مختلفٌ تمامًا في الفصيلةِ السّاميّةِ، فقد يُمثّلُ الفعلُ الدّعامةَ الارتكازيّةَ المحوريّةَ التي لا غنى عنها. فالفعلُ في اللُّغاتِ السّاميّةِ هو بؤرةُ الجملةِ ومُحرّكُها البنائيّ، ولذا هو لا ينقادُ للاسمِ أو الضّميرِ، بل هو المركزُ الذي يستقطبُ الضّمائرَ وتتّصلُ بهِ اتّصالًا وثيقًا.

---

(١) تاريخ اللّغات السّاميّة: ١٤-١٥.

**٣_ تيّارُ الموازنةِ والتّحليل الصّرفيّ التّاريخيّ:**

ولم تقفِ القراءاتُ الاستشراقيّةُ عندَ حدودِ الانتصارِ لأحدِ الطّرفينِ، بل سعى فريقٌ منهم إلى تبسيطِ المُعطياتِ اللُّغويّةِ وردِّ المشتقّاتِ إلى نواةٍ بدائيّةٍ واحدةٍ يقاسُ عليها غيرُها. ورأوا أنَّ النّظامَ الاشتقاقيّ لا يمكنُ تفسيرُهُ بالاعتمادِ على القياسِ الجزئيّ وحدهُ، بل أضافوا إليهِ بعدًا تاريخيًّا ومقارنًا يتجاوزُ حدودَ التّحليلِ الدّاخليّ المعياريّ المُستقرّ في الفكرِ التّقليديّ. وفي هذا الإطارِ، قدّمَ المستشرقُ (بول كراوس) نظرةً متوازنةً عالجتْ جدليّةَ الاشتقاقِ من منظورِ العلاقةِ الاشتقاقيّةِ التّفاعليّةِ بينَ الأسماءِ والأفعالِ، مقرًّا بوجودِ أسماءٍ تدلُّ صيغُها الصّرفيّةُ وأوزانُها البنيويّةُ على أصالتِها التّاريخيّةِ(١).

إنَّ التّدقيقَ في هذه الموازناتِ يظهرُ أنَّ المعالجاتِ الاستشراقيّةَ انقسمتْ بينَ دراساتٍ جُزئيّةٍ متخصّصةٍ وأخرى عامّةٍ شاملةٍ، تبدأ عادةً ببحثِ الأصواتِ، ثُمَّ تعرّجُ على نظامِ الكلماتِ (الصّرفِ والأوزانِ الفعليّةِ والاسميّةِ والمصادرِ)، لتنتهي بدراسةِ التّركيبِ البنيويّ للجملةِ(٢).

ويؤكّدُ هذا الحراكُ العلميّ أنَّ الخلافَ حولَ أصلِ الاشتقاقِ لم يكنْ خلافًا عارضًا، بل هو محاولةٌ لسانيّةٌ مستمرّةٌ لفهمِ النّواميسِ العميقةِ الحاكمةِ لبناءِ اللُّغةِ العربيّةِ وتطوّرِها عبرَ العصورِ، ولا سيّما في تحديدِ رتبةِ الاسمِ والفعلِ والمصدرِ(٣). ونبّهَ فريقٌ من اللُّغويّينَ المحدثينَ إلى أنَّ الإغراقَ في البحثِ عن الأصولِ الأولى للمفرداتِ قد يستحيلُ جهدًا مرهقًا وبلا طائلٍ علميّ ما لم ينضبطْ بضوابطَ لسانيّةٍ واضحةٍ وملموسةٍ تمنعُ سقوطَ الدّرسِ الصّرفيّ في دياجيرِ

---

(١) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ١٩٩-٢٠٠.

(٢) ينظر: سمة التّعاون العلميّ بين المستشرقين في نشر الدِّراسات التّاريخيّة: ١٢٥.

(٣) ينظر: في أصول النّحو: ٤٢.

الافتراضاتِ الذّهنيّةِ الجافّةِ[١].

**رابعًا: زمن الفعل (بين الصّرف والنّحو):**

ينمازُ الفعلُ عن الاسمِ في الفكرِ اللُّغويّ بكونِهِ يختزنُ في بنيتِهِ عنصرينِ متلازمينِ: (الحدثَ، والزّمنَ المحدّدَ)، في حينِ يفتقرُ الاسمُ إلى الحيّزِ الزّمنيّ المُباشرِ. وهذه الخصوصيّةُ الزّمنيّةُ تلازمُ الأفعالَ في لغاتِ البشرِ قاطبةً، بيدَ أنَّها تتفاوتُ في آليّاتِ التّعبيرِ عن كيفيّةِ وقوعِ الحدثِ ورصدِ تجلّياتِهِ الزّمنيّةِ. وسندرسُ زمنَ الفعلِ في ضوءِ ما يأتي:

**١_ النّظرةُ العربيّةُ الكلاسيكيّةُ:**

حينما عكفَ النّحويّونَ العربُ على دراسةِ الفعلِ، قسّموا بنيتَهُ الزّمنيّةِ على ثلاثةِ أقسامٍ رئيسةٍ: (الماضي، والمضارع، والأمر). واعتمدوا في هذا التّقسيمِ المعياريّ على (الصّيغةِ الصّرفيّةِ للفعلِ)؛ أي الهيأة والوزن البنيويّ الشّكليّ الذي يتّخذُهُ الفعلُ في الكلامِ (الهيكل المورفولوجي). غيرَ أنَّ الخطابَ الاستشراقيّ قد وجّهَ نقدًا لهذا المسلكِ، بدعوى أنَّ القُدماء على الرّغمِ من تركيزِهم الصّارمِ على الصّيغةِ، إلّا أنَّهم لم يدرسوا الزّمنَ بوصفه قيمةً نحويّةً وسياقيّةٍ متطوّرةٍ دراسةً معمّقةً[٢].

**٢_ النّقدُ والتّحليل الاستشراقيّ:**

أثارَ المستشرقونَ طائفةً من التّساؤلاتِ الحرجةِ حولَ طبيعةِ العلاقةِ الرّابطةِ بينَ الصّيغةِ الصّرفيّةِ وزمنِ الفعلِ، متسائلينَ عن أسبقيّةِ الاستعمالِ التّاريخيّ لتلك الصّيغِ داخلَ العربيّةِ

---

(١) ينظر: المراجعات اللّسانيّة الحديثة للصرف العربيّ وأبعادها التعليميّة: ٣٦٣_ ٣٦٧.

(٢) ينظر: الاشتقاق، فؤاد حنا: ٧٠.

الفصحى واللُّغاتِ السّاميّةِ[١]. ووجّهَ بعضُهم نقدًا بنيويًّا للقدامى، زاعمينَ أنَّهم بالغوا في ربطِ الزّمنِ بأشكالِ الفعلِ الصّرفيّةِ ربطًا صارمًا ومصمتًا. وفي هذا الصّددِ، أوضحَ المستشرقُ (ويليام رايت) في كتابِهِ (قواعدُ اللُّغةِ العربيّةِ) أنَّ النّحويّينَ العربَ عمدوا إلى تقسيمِ الزّمنِ على (ماضٍ، وحاضرٍ، ومستقبلٍ) بصورةٍ حاسمةٍ، ثُمّ ربطوا كلَّ قسمٍ بشكلٍ صارمٍ بصيغةٍ فعليّةٍ محدّدةٍ؛ فجعلوا الزّمنَ الماضي حكرًا على الفعلِ الماضي، وصيّروا المضارعَ دالًّا على الحاضرِ والمستقبلِ[٢].ويبدو أنَّ ملاحظةَ (رايت) تُبرزُ أهميَّةَ التّمييزِ بينَ الصّيغةِ الصَّرفيَّةِ للفعلِ ودلالتِهِ الزَّمنيَّةِ في السّياقِ، إلّا أنَّ وصفَ تصوُّرِ النَّحويِّينَ العربِ للزَّمنِ بالجمودِ والصَّرامةِ لا يخلو من تعميمٍ؛ إذْ أدركَ القدماءُ أثرَ القرائنِ والأدواتِ والسّياقِ في توجيهِ الدَّلالةِ الزَّمنيَّةِ، ولم يحصروا دلالةَ الصّيغةِ في زمنٍ واحدٍ حصرًا مطلقًا. ومن ثَمَّ، فإنَّ الصّيغةَ الصَّرفيَّةَ تمثّلُ أساسًا في الدَّلالةِ على الزَّمنِ، غيرَ أنَّ تحديدَهُ الدَّقيقَ لا يكتملُ إلَّا في ضوءِ السّياقِ والقرائنِ المصاحبةِ لها. وتتلاقى هذه الرّؤيةُ النّقديّةُ الاستشراقيّةُ مع طروحاتِ بعضِ اللُّغويّينَ المحدثينَ الذين رأوا في هذا الرّبطِ جمودًا لا يراعي التّحوّلاتِ الزّمنيّةَ التي تفرضُها السّياقاتُ التّركيبيّةُ والوظائفُ الدّلاليّةُ للجملةِ. فالفعلُ في سياقِ التّركيبِ لا يقتصرُ على رصدِ الحدثِ والزّمنِ الصّرفيّ السّاكنِ، بل يتعدّاهُ ليعكسَ أبعادًا دلاليّةً وحالاتٍ زمنيّةً تُحدّدُها بنيةُ الجملةِ؛ ولذا وسمتِ الجملةُ المبتدئةُ بهِ بـ(الجملةِ الفعليّةِ). واستعملتِ اللُّغاتُ السّاميّةُ أبنيةً فعليّةً مشتقّةً من أصلٍ مشتركٍ لتحقيقِ التّعبيرِ الدّقيقِ عن كيفيّةِ وقوعِ الحدثِ ونوعِهِ[٣].

وقد واجهَ المستشرقونَ عقباتٍ وعرةً وتحدّياتٍ ملحوظةً عندَ دراسةِ النّظامِ الزّمنيّ في اللُّغاتِ السّاميّةِ؛ إذْ انحصرَ تركيزُهم في بداءةِ الأمرِ على الأطوارِ التّاريخيّةِ السّاكنةِ (التّحليل

(١) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة: ٢٠٥.

(٢) ينظر: في النّحو العربيّ نقد وتوجيه: ١٤٦.

(٣) ينظر: الزمن في اللُّغة العربيّة: ٦٦-٧٧، وفقه اللّغات السّاميّة: ١٠٩.

المتزامن)، مقتصرينَ على رصدِ حالاتٍ لغويّةٍ ثابتةٍ دونَ تتبّعِ حركةِ التّطوّرِ الزّمنيّ (التّحليل التعاقبي). بيدَ أنَّهم عندَما اصطدموا باللُّغاتِ السّاميّةِ التي قطعتْ أشواطًا تاريخيّةً مديدةً، وتكشّفتْ لهم أبعادُ تباعدِها المنهجيّ واختلافِ بنياتِها الصّرفيّةِ، أدركوا ضرورةَ الانتقالِ نحوَ المنهجِ التّاريخيّ التّعاقبيّ؛ لفهمِ كنهِ تطوّرِ المنظومةِ الزّمنيّةِ عبرَ حقبِ التّاريخِ.

**خامسًا: ظاهرةُ التّذكيرِ والتّأنيثِ (بينَ الحقيقةِ الصّرفيّةِ والمجازِ اللُّغويّ):**

شغلَتْ قضيّةُ التّذكيرِ والتّأنيثِ _بأبعادِها الصّرفيّةِ، والنّحويّةِ، والمعجميّةِ، والدّلاليّةِ_ مساحةً واسعةً من الاهتمامِ اللُّغويّ، وكانتْ ميدانًا لدرسٍ مستفيضٍ من لدن علماءِ العربيّةِ والمستشرقينَ على حدّ سواء. وأفنى اللُّغويّونَ العربُ قديمًا وحديثًا جهودًا كبيرةً في تقديمِ تصنيفاتٍ دقيقةٍ وتحليلاتٍ معمّقةٍ لهذه الظّاهرةِ؛ لكونِها تُمثّلُ ركنًا أساسيًّا في بناءِ النّظامِ اللُّغويّ وضبطِ استعمالاتِهِ الفصيحةِ وسالمِ تعابيرِهِ. ولم يكُنِ المستشرقونَ بِدعًا من هذا الاهتمامِ، بل اتّخذوا من المادّةِ العربيّةِ وسائرِ اللُّغاتِ السّاميّةِ حبرًا لتدبيجِ قراءاتٍ مقارنةٍ خصبةٍ. ولم يقفْ بحثُهم عندَ رصدِ التّقسيمِ الشّكليّ للألفاظِ، بل تعدّاهُ ليكونَ انعكاسًا لرؤيةٍ لغويّةٍ عميقةٍ ترتبطُ بالتّصوّرِ الفكريّ السّاميّ للكونِ ومظاهرِ الطّبيعةِ. وسيتمُّ دراسةُ هذه الظّاهرةِ على وفقِ الموضوعاتِ الآتيةِ:

**١_ جدليّةُ علامةِ التّأنيث:**

ومن أمّاتِ المسائلِ الصّرفيّةِ التي فجّرتْ خلافًا استشراقيًّا حادًّا، ما طرحَهُ المستشرقُ الألمانيّ (كارل بروكلمان)؛ إذْ زعمَ أنَّ (ألفَ التّأنيثِ الممدودةَ) الكائنةَ في نحو لفظةِ (صحراء)، تُمثّلُ تطوّرًا لغويًّا فريدًا وخاصًّا باللُّغةِ العربيّةِ الفصحى من دونِ سائرِ اللُّغاتِ

السّاميّةِ الأخرى[١]. بيدَ أنَّ هذه الأطروحةَ واجهت اعتراضًا صامدًا من لدن المستشرقِ (سبستينو موسكاتي)، الذي شكّكَ في خصوصيّةِ العربيّةِ بهذه العلامةِ؛ مؤكّدًا أنَّهُ لا يُمكنُ الجزمُ بفرادةِ العربيّةِ بها، إذ لعلَّ لها جذورًا تاريخيّةً أو نظائرَ بنيويّةً مستترةً في لغاتٍ ساميّةٍ قديمةٍ لم تماطِ اللّثامَ عنها الاكتشافاتُ الأثريّةُ بعد. ومع هذا التّنازعِ، اتّفقَ (موسكاتي) و(بروكلمان) على أنَّ نظامَ الجنسِ في المنظومةِ السّاميّةِ يرتدُّ في أصلِهِ التّاريخيّ البعيدِ إلى نظامٍ تصنيفيّ قديمٍ ومعقّدٍ كانَ يحكمُ الأسماءَ[٢]. وتزدادُ الظّاهرةُ تعقيدًا عند مواجهةِ الكلماتِ الكثيرةِ التي يعسرُ تحديدُ جنسِها بالاتّكاءِ على القواعدِ القياسيّةِ المجرَّدةِ؛ مِمّا يُوجبُ الارتحالَ صوبَ (السّماع اللُّغويّ) والاستعمالِ الفعليّ المحفوظِ عن الفصحاءِ. وهذا الجانبُ البنيويّ الدّقيقُ يصعبُ استيعابُهُ وإدراكُهُ على غيرِ أبناءِ العربيّةِ الخلّصِ لكونِها ليستْ لغتَهم الأمّ، مِمّا صيّرَ ظاهرةَ التّأنيثِ المعنويّ والمجازيّ من القضايا الشّائكةِ التي لم تجدْ تفسيرًا لسانيًّا شافيًا وكافيًا في الخطابِ الاستشراقيّ.

**٢_ ظاهرةُ التّأنيثِ غيرِ الإلحاقيّ:**

ومن الزّوايا النّقديّةِ التي التفت إليها المستشرقُ (برجستراسر)، ظاهرةُ (التّأنيثِ غير الإلحاقيّ) في اللّسانِ العربيّ. فيقول: نجدُ اللُّغةَ لم تستخدمِ التاءَ لتمييزِ الذكرِ والأنثى في الزمانِ القديمِ، بل فرَّقتْ بينهما بمادّةِ الاسمِ نفسِها، نحوَ ما ذكرناهُ من الرجلِ والمرأةِ، والحمارِ والأتانِ، وغيرِ ذلك"[٣] وأبانَ أنَّ التّمييزَ الصّرفيّ بينَ المذكّرِ والمؤنّثِ لا يتحقّقُ بصورةٍ مُطّردةٍ عبرَ إلحاقِ علامةِ التّأنيثِ الصّامتةِ كـ(التّاءِ) أو بإحداثِ تحويرٍ في الصّيغةِ والوزنِ الصّرفيّ؛ بل قد يتحقّقُ عبرَ التّباينِ المعجميّ واختلافِ الجذرِ البنيويّ بالكلّيّةِ، أو باستعمالِ لفظةٍ مستقلّةٍ

(١) ينظر: مدخل إلى نحو اللغات السّاميّة المقارن: ١٤٥_١٤٦، والقراءات القرآنيّة: ٨٤.
(٢) ينظر: مدخل إلى نحو اللغات السّاميّة المقارن: ١٤٥.
(٣) التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١١٤.

تُعبّرُ عن الجنسِ الآخرِ، ومثّلَ لها بالثّنائيّاتِ المعجميّةِ نحوَ: (رجلٍ، وامرأة، وحمار، وأتان)[١]. وبهذا الطّرحِ، يتساوقُ (برجستراسر) مع مذهبِ اللُّغويّينَ العربِ القُدماء وأطروحةِ (بروكلمان) في إقرارِ أنَّ بعضَ صورِ التّمييزِ بينَ الجنسينِ تقومُ على التّباينِ المعجميّ الصّرفيّ لا على القواعدِ الصّرفيّةِ القياسيّةِ الإلحاقيّةِ. ويؤكّدُ هذا الصّنيعُ أنَّ التّحوّلَ في الجنسِ اللُّغويّ عبرَ العصورِ يُمثّلُ ظاهرةً ممكنةً ومطّردةً في تاريخِ اللُّغاتِ، بيدَ أنَّها تفتقرُ في بعضِ تفاريعِها إلى الانضباطِ تحتَ قانونٍ لغويّ طبيعيّ موحّدٍ[٢].

### ٣_ اللّواحقُ التّأنيثيّةُ وإشكاليّةُ التّبويب:

وفي ختامِ قراءةِ هذه الظّاهرةِ، تجدرُ الإشارةُ إلى الملاحظةِ النّقديّةِ التي ساقَها المستشرقُ (جوناثان أونز)؛ فقد ذكرَ أنَّ النّحويّينَ العربَ الأوائلَ أدرجوا مباحثَ التّذكيرِ والتّأنيثِ ضمنَ أبوابِ النّحو والتّركيبِ، بخلافِ المدارسِ اللّسانيّةِ الحديثةِ والدّراساتِ الصّرفيّةِ المتأخرةِ التي صيّرَتْها جزءًا لا يتجزّأ من صميمِ مباحثِ علمِ الصّرفِ والبنيةِ المورفولوجيّةِ. ولفتَ النّظرَ إلى أنَّ لاحقةَ التّأنيثِ (التّاء المربوطة) كانتْ ميدانًا لخلافٍ مُستعرٍ بين مدرستي البصرةِ والكوفةِ، مِمّا يكشفُ عن مكانتِها الإشكاليّةِ في الفكرِ اللُّغويّ القديمِ[٣].

ويمكنُ مُناقشةُ ومُساءلة أطروحةِ (أونز) هذه ونقدُها بالعودةِ الصّادقةِ إلى متونِ المُصنّفاتِ العربيّةِ القديمةِ؛ فاستقراءُ كتابِ سيبويهِ يكشفُ عن عنايةٍ فائقةٍ بـ(تاءِ التّأنيثِ)؛ إذْ ناقشَ دلالتَها ومساراتِ حقيقتِها ومجازِها. وتوسّعَ ابن يعيش في تفصيلِ علاماتِ التّأنيثِ والتّمييزِ بين الأصليّ والزّائدِ منها. ولا ننسى جهودَ ابن جنّي الباهرةَ في دراسةِ هذه الظّاهرةِ

---

(١) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١١٤_١١٥.

(٢) ينظر: مقدّمة سريعة للعربيّة الفصحى (Initiation rapide à l’arabe classique): ٢٤.

(٣) ينظر: أسس النّظريّة النّحوية العربيّة في دراسات المستشرقين: ١٧٢-١٧٤.

وربطِها بالوظيفةِ الصّرفيّةِ والتّحوّلِ الصّوتيّ، مِمّا يُبطلُ دعوى إهمالِهم لبعدِها البنيويّ. فالقُدماء لم يغفلوا دمجَها في النّظامِ اللُّغويّ، غيرَ أنَّهم عالجُوها في فضاءٍ أرحبَ يمزجُ بينَ النّحو والصّرفِ والتّركيبِ من دونِ حصرِها في بابٍ مُصمتٍ قائمٍ بذاتِه، بخلافِ اللّسانيّاتِ الحديثةِ التي نظرتْ إليها كوحدةٍ صرفيّةٍ (مورفيم) مستقلّةٍ في البنيةِ المورفولوجيّةِ.

**٤_ المقاربةُ البنيويّةُ والكونيّةُ عند (ويليام رايت):**

حينما نلجُ الفضاءَ الاستشراقيّ المعني بهذه القضيّةِ بعدَ استقراءِ تآليفِ القُدماء لـ(سيبويه، والزّجاج، وابن السَّيِّد البطليوسيّ(ت ٥٢١هـ))[١]، نلحظُ أنَّ المستشرقينَ لم يهملوا هذه المسألةَ، بل أفردوا لها حيّزًا وافيًا في بحوثهم ومقارناتِهم. وربطوا بينَ قضاياها الصّرفيّةِ والنّحويّةِ وبينَ المباحثِ الدّلاليّةِ، واضعينَ إيّاها في إطارِ الموازناتِ السّاميّةِ الواسعةِ. ويبرزُ المستشرقُ (ويليام رايت) بمقاربتِهِ الكونيّةِ؛ فقد ذهبَ إلى أنَّ المخيالَ السّاميّ القديمَ كانَ يتمتّعُ بقدرةٍ خاصّةٍ على تصنيفِ مظاهرِ الطّبيعةِ وعناصرِ الكونِ على وفقِ ثنائيّةٍ جنسيّةٍ صارمةٍ (مذكّرٍ ومؤنثٍ). فكلُّ كائنٍ أو ظاهرةٍ طبيعيّةٍ تقعُ تحتَ وعيهِم يقعُ تصنيفُها في أحدِ هذين الإطارينِ، وانعكسَ هذا التّصوّرُ الذّهنيّ على لغاتِهم، مِمّا أسهمَ في استقرارِ نظامِ الجنسِ الثّنائيّ في البنيةِ الصّرفيّةِ[٢].

**٥_ الثّنائيّةُ الجنسيّةِ الصّارمة عند (سبستينو موسكاتي):**

وعلى صعيدِ التّحليلِ اللّسانيّ المُعمّقِ، انمازَ (سبستينو موسكاتي) بقدرٍ كبيرٍ من الدّقّةِ والتّخصّصِ في مُعالجتِهِ لظاهرةِ التّذكيرِ والتّأنيثِ ضمنَ الفضاءِ السّاميّ المقارنِ؛ إذْ قرّرَ أنَّ الظّاهرةَ تتأسّسُ على ثنائيّةِ المذكّرِ والمؤنّثِ. وأوضحَ أنَّ المذكّرَ يُمثّلُ الأصلَ البنيويّ البسيطَ

(١) ينظر: الكتاب:٢/ ٢٢، ١٩٢، وأسس النظريّة النّحوية العربيّة في دراسات المستشرقين: ١٧٢-١٧٣.
(٢) ينظر: الجنس ونشوؤه في اللغات السّاميّة: ٤٢.

الذي يخلو في غالبِ أحوالِهِ من العلاماتِ الصّرفيّةِ المخصوصةِ أو الوحداتِ الصّوتيّةِ المُميّزةِ. بينما يرتبطُ المؤنّثُ بوجودِ وحدةٍ صرف_صوتيّةٍ (مورفيم) ظاهرةٍ تميّزُهُ من الأصلِ. وساقَ شواهدَ تطبيقيّةً من العربيّةِ كلفظةِ (مَلِكَة) التي تبرزُ فيها (التّاء) بوصفه عنصرًا صرفيًّا زائدًا طارئًا ليدلَّ على التّأنيثِ، وهي مشتقّةٌ من لفظِ المذكّرِ المجرّدِ (مَلِك). ونبّهَ (موسكاتي) إلى أنَّ المؤنّثَ لا يتعيّنُ وجودُهُ دائمًا عبرَ إلحاقِ علامةٍ صرفيّةٍ في مقابلةِ المذكّرِ، بل قد يتحقّقُ التّعبيرُ عنهُ بواسطةِ التّضادِّ والمعاقبةِ المعجميّةِ نحوَ (حمارٍ، وأتانٍ). ومن ثمّ، يقرُّ (موسكاتي) بأنَّ الجنسَ النّحويّ الصّرفيّ لا يُطابقُ بالضّرورةِ الجنسَ الطّبيعيّ الحقيقيّ للذات، ولا يتّفقُ دائمًا مع البنيةِ الكلّيّةِ للاسمِ[1].

(١) ينظر: مدخل إلى نحو اللّغات السّاميّة المقارن: ١٤٥.

## المبحث الثّالث

## المادّةُ النّحويّةُ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ

**توطئةٌ:**

شكّلتِ المادّةُ النّحويّةُ محورًا أساسيًّا في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ؛ إذْ وجدَ المستشرقونَ في النّحو العربيّ ميدانًا خصبًا للكشفِ عن طبيعةِ الفكرِ اللُّغويّ عندَ العربِ، والوقوفِ على الأسُسِ التي قامَ عليها النّظامُ اللُّغويّ العربيّ في مستوياتِهِ المُختلفةِ. وقد ارتبطَ هذا الاهتمامُ بما يتمتّعُ بهِ التّراثُ النّحويّ من عُمقٍ علميٍّ واتّساعٍ معرفيٍّ، جعلَهُ واحدًا من أكثرِ جوانبِ التُّراثِ العربيّ جذبًا للدّراسةِ والتّحليلِ. ومن هنا اتّجَهَ المستشرقونَ إلى دراسةِ النّحو العربيّ، ولم تقتصرْ عنايتُهم على جمعِ مادّتِهِ أو عرضِ قضاياهُ، بل تجاوزتْ ذلك إلى تحليلِ بنيتِهِ الفكريّةِ، وتتبّعِ نشأتِهِ وتطوّرِهِ، والكشفِ عن المؤثّراتِ التي أسهمتْ في تشكيلِ مدارسِهِ واتّجاهاتِهِ. وسعوا إلى قراءةِ النّصوصِ النّحويّةِ قراءةً نقديّةً تستندُ إلى المناهجِ اللُّغويّةِ الحديثةِ. وقد أثمرتْ هذه الجهودُ عن ظهورِ دراساتٍ متعدّدةٍ تناولتْ قضايا النّحو العربيّ من زوايا مختلفةٍ، فبعضُها اتّجهَ إلى تحقيقِ المؤلّفاتِ النّحويّةِ القديمةِ ونشرِها، وبعضُها الآخرُ انصرفَ إلى دراسةِ المصطلحِ النّحويّ، أو تحليلِ البنيةِ التّركيبيّةِ للجملةِ العربيّةِ، أو المقارنةِ بين النّحو العربيّ والنّظريّاتِ اللُّغويّةِ الغربيّةِ الحديثةِ. وبذلك غدتِ المادّةُ النّحويّةُ في الخطابِ الاستشراقيّ مجالًا واسعًا للتّأويلِ والتّحليلِ، ورافدًا مهمًّا من روافدِ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ الحديثةِ. وعلى هذا الأساسِ، فإنَّ دراسةَ المادّةِ النّحويّةِ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ تُعَدُّ من الموضوعاتِ التي تكشفُ عن طبيعةِ التّفاعُلِ المعرفيّ بين التّراثِ اللُّغويّ العربيّ والفكرِ اللُّغويّ الغربيّ، وأنَّها تُبرزُ حجمَ الجهودِ التي بُذلتْ في سبيلِ فهمِ النّحو العربيّ وتقويمِهِ وإعادةِ قراءتِهِ

ضمنَ أطرٍ علميّةٍ ومنهجيّةٍ متعدّدةٍ[١]، ولهذا سنتطرق إلى هذه المادّةَ على وفقِ الفقراتِ النّحويّةِ الآتيةِ:

**أوّلًا: بواكيرُ عناية الغربيّينَ بالنّحو التّراثيّ العربيّ:**

لقد أولى المستشرقونَ التّراثَ اللّغويّ العربيّ عنايةً فائقةً؛ إذْ أنجزوا كثير من البحوثِ والدِّراساتِ الموسّعةِ في مجالاتِهِ الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ، مِمّا أدّى إلى تزايدِ العناية الغربيّة باللُّغةِ العربيّةِ، ومعارِفِها الأدبيّةِ، واللُّغويّةِ بصُورةٍ ملحوظةٍ. وبناءً على ذلك، تضاعفتِ المؤلّفاتُ والأبحاثُ المكتوبةُ باللُّغاتِ الأوربيّةِ والمنشورةُ عن العربيّةِ وعُلومِها بشكلٍ لافتٍ، إلى الحدِّ الذي يثيرُ الدّهشةَ والاستغرابَ لضخامةِ الإنتاج الفكريّ الغربيّ حولَها. ولم يقتصرْ هذا الاهتمامُ على الجوانبِ السّطحيّةِ، بل اتّسعتْ دراساتُهم لتشملَ عمقَ النّحو العربيّ؛ فتعمّقوا فيه، واتّجهوا إلى تحليلِ المفرداتِ ومعانيها وتراكيبِها، ودرسوهُ دراسةً تاريخيّةً وتطوريّةً أكاديميّةً، مؤلّفينَ في هذا المضمارِ بحوثًا لا تُعدُّ ولا تحصى، حتّى غدتْ دراستُهم للعربيّةِ ذات أهمّيّةٍ بالغةٍ، مِمّا أسهمَ بشكلٍ فعّالٍ في تطوّرِ علميّ النّحو والمعجمِ[٢].

إنَّ للمستشرقينَ تاريخًا طويلًا في دراسةِ النّحو العربيّ والعناية بهِ؛ إذْ يُعدُّ عامُ (١٥٠٥م) أوّلَ تاريخٍ موثّقٍ لاهتمامِهم بالدّرسِ النّحويّ. وكانَ أوّلُ كتابٍ كُتبَ عن النّحو العربيّ في إسبانيا قد صيغَ بيد المستشرقِ (بدرو ألكالا)، ثُمَّ أعادَ المستشرقُ (وليم بوستل) طباعتَهُ في باريس على شكلٍ مختصرٍ سنة (١٥٣٨م)[٣]. بينما يذكرُ المستشرقُ الفرنسيّ

---

(١) ينظر: المستشرقون والتّراث النّحويّ العربيّ: ٩.

(٢) ينظر: موقف الحركة الاستشراقيّة من تاريخ النّحو العربيّ ونقدها: ١٨٥، والمستشرقون والتّراث النّحويّ العربيّ: ٩.

(3) See: The Development of western Grammer if Arabic: 223. والمستشرقون والتّراث النّحوي العربيّ:١٢.

(جيرار تروبو) أنَّ أوّلَ ترجمةٍ لكتابِ نحو عربيّ تعودُ إلى المستشرقِ (بيتر كرستين)، الذي طبعَ ترجمتَهُ الأولى لمقدّمةِ ابن داود (الآجروميّة) باللُّغةِ اللّاتينيّةِ. ولا يُمكنُ إغفالُ جهودِ المستشرقِ (رايموند) الذي ترجمَ هو أيضًا كتابَ (التّصريف النّحوي) للبغداديّ الزّنجانيّ (ت٦٥٥هـ) في روما. وأنجزَ (توماس إربنيوس)، بعد سنواتٍ قليلةٍ من ترجمةِ كتابِ (المقدّمةِ)، ترجمتهُ اللّاتينيّةَ الثّانيةَ للكتابِ ذاتهِ في سنةِ (١٦١٧م)[١]. وبحسب ما ذهبَ إليهِ الباحثُ (فوك)، فقد كُتِبَتْ قواعدُ العربيّةِ باللُّغةِ اللّاتينيّةِ التي عُدَّتْ أوّلَ كتابٍ يتحدثُ عن النّحو العربيّ يُكتبُ بجهودٍ ورؤيةٍ أوربيّةٍ خالصةٍ[٢].

وفي هذا السّياقِ، يُعدُّ المستشرقُ (مايكل كارتر) من بينَ أهمِّ المستشرقينَ الذين ركّزوا على الدِّراساتِ النّحويةِ العربيّةِ؛ إذْ قدّمَ دراسةً رائدةً لمبادئ سيبويهِ في التّحليلِ التي عُدّتْ إحدى أهمِّ بداياتِ التّحليلِ الموضوعيّ للنحو العربيّ. وله بحوث عديدةٌ لاقتِ التفاتَ الكثيرين لأهمّيّتِها وإسهاماتِها الجليلةِ في التّراثِ النّحويّ، وبفضلِها احتلَّ مكانةً مرموقةً في الميدانِ المعرفيّ[٣]؛ ولهذا نجدُ المستشرقَ (أونز) يُؤكّدُ أنَّ (كارتر) يُعدُّ من الرّوادِ الذين استوعبوا دورَ اللّسانيّاتِ المعاصرةِ في جعلِ النّظريّةِ النّحويّةِ العربيّةِ أكثرَ وضوحًا وتجليًّا[٤].

ولم تتوقفِ الكتابةُ الاستشراقيّةُ في النّحو العربيّ عندَ هذا الحدِّ، بل تراكمتْ أعمالُهم المهمّةُ، ومنها كتابُ (نحو اللُّغة العربيّةِ) الذي يتكوّن من (٤٨) صفحةً، ونشرَهُ المستشرقان

---

(1) see :Deux traits grammaticaux arabes traduits enlatin arabica: 225.

(٢) ينظر: تاريخ حركة الاستشراق: ٦٩.

(٣) ينظر: المستشرقون والتّراث النّحوي العربيّ: ١٧.

(4) see :The foundations of Grammar: An Introduction to medieval Arabic grammatical theory:1.

(جابريل سيونيتا) و(جان هسرونينا) في باريس سنة ( ١٦١٣م)[١]. ويُعدُّ بحثُ المستشرقِ (كلود إتين سفاري) إنجازًا مهمًّا في الدّرسِ النّحويّ؛ إذْ كانَ لهُ عملٌ نحويّ بارز سنة (١٨١٣م) بعنوانِ: (نحو اللُّغةِ العربيّةِ العاميّةِ والفصحى)[٢]. ولا نغفلُ _أيضًا_ عن كتابِ (مقدّمة وبيبليوغرافيا اللّسانيّات) الذي كتبَهُ (ديم) باللُّغةِ الأجنبيّةِ وأكملَهُ المستشرقُ (فرستيج)، وهو من الكتبِ الاستشراقيّةِ الأساسيّةِ في موضوعِ النّحو العربيّ، ويُعدُّ دليلًا واضحًا على كثرةِ البحوثِ التي كُتبتْ عن اللُّغةِ العربيّةِ بلغاتِ الغربِ[٣].

وأمّا المستشرقُ (سلفستر دي ساسي)، فقد كانَ من أبرزِ من اعتنى بدراسةِ النّحو العربيّ، ولا سيما بعدَ أنْ تعمّقَ في العربيّةِ ونشرَ فيها عددًا لا يُحصى من المؤلّفاتِ والبحوث، في المجالِ النّحويّ، فضلًا عن اهتمامِهِ بالأدبِ العربيّ. ويُعدُّ كتابُهُ (النّحو العربيّ) من أهمِّ مؤلّفاتِهِ النّحويّةِ، وقد صدرَتْ طبعتُهُ الأولى عام (١٨١٠م)[٤]. ومن الجديرِ بالذّكرِ أنَّ مؤلّفاتِ (دي ساسي) في مضمارِ النّحو العربيّ اختلفتِ اختلافًا جذريًّا عن مؤلّفاتِ المستشرقينَ الآخرين؛ إذْ إنَّهُ لمس جوانبَ من النّحو العامّ في معالجتهِ للنحو العربيّ، وكانتْ دراساتُهُ النّحويّةُ متأثّرةً في الغالبِ ببنيةِ النّحو العربيّ الأصيلِ[٥].

وإلى جانبِ التّأليفِ، انصبَّت عناية عدد من المستشرقينَ بالكتبِ النّحويّةِ العربيّةِ تحقيقًا ونشرًا؛ فنشرَ (ديرنبورغ) (كتاب سيبويه) سنة (١٨٨١م). و تُرجمتْ على أيديهم عدّةُ كتبٍ لعلماءِ العربِ النّحويّينَ إلى لغاتِهم، ومن ذلك ترجمةُ (يانز) لكتابِ سيبويه سنة (١٨٩٥م)،

---

(١) ينظر: تاريخ حركة الاستشراق: ٧٧.

(2) see :Grammaires générale et grammaire arabes en France :3.

(٣) ينظر: موقف الحركة الاستشراقيّة من تاريخ النّحو العربيّ ونقدها: ١٨٥-١٨٦.

(٤) ينظر: المستشرقون والتّراث النّحوي العربيّ: ١٩.

(٥) ينظر: المصدر السابق: ١٨٧.

وترجمةُ (ترومب) لكتابِ (شرح الآجرومية). ولو تمعّنّا في جُهودِ (ترومب) لوجدناهُ لم يقمْ بالتّرجمةِ الفنّيّةِ الفلسفيّةِ فحسب، بل أضافَ إليها بعضَ الشُّروحاتِ والتّعليقاتِ؛ ليُقرّبها من القارئ الألمانيّ، ثُمَّ نشرَها تحتَ عنوانِ: (مدخل إلى دراسةِ النّحاةِ العرب)[١].

وقد أظهرتْ تجربةُ المستشرقينَ في التّأليفِ النّحويّ واقترابُ أسلوبِ تدوينِهم من نمطِ نحويّي العربِ، تأثّرَهم العربيّ الواضحَ؛ ومن أبرزِ المستشرقينَ الذين اقتربَ أسلوبُهم البنائيّ من نمطِ القُدماء المستشرقان (هاول) و(رايت)[٢].

وبشكلٍ عامٍّ، كانتْ جهودُ المستشرقينَ في الدّرسِ النّحويّ كثيرة وعظيمةً؛ فقد برزوا في ترجمةِ التّراثِ، ومن أشهرِهم: (نولدكه)، و(برجستراسر)، و(بلاشير)، و(يوهان فك)، و(شاده)، و(إيفالد)، وغيرُهم[٣]. فبالنسبةِ لـ(برجستراسر)، فقد كانَ يلقي محاضراتٍ في النّحو وتاريخِهِ، ونشرَ العديدَ منها في كتابِهِ الشّهيرِ (التّطوّر النّحويّ للغةِ العربيّة)[٤]. بينما حرصَ المستشرقُ (فيشر) على تعريفِ طلّابهِ بأهمّيّةِ النّحو العربيّ، إذْ كانَ يرى أنَّ النّحو يُمثّلُ الأساسَ المتينَ لكافّةِ الدِّراساتِ العربيّةِ، ولهذا أفردَ للنّحو العربيّ مكانًا كبيرًا في بحوثِهِ ومقالاتِهِ[٥].

وعلى الرّغمِ من الأثرِ الإيجابيّ لهذه الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ في تطويرِ مناهج النّحو العربيّ وأساليب دراسته، وفتحِ آفاقٍ جديدةٍ للبحثِ والتّحليلِ، إلّا أنَّ بعضَ المستشرقينَ شكّكوا

---

(١) ينظر: المستشرقون ونظرياتهم: ١٣-١٤.

(٢) ينظر: سمة التعاون العلمي بين المستشرقين في نشر الدِّراسات التّاريخية (تاريخ المغرب والأندلس نموذجًا: ١٢٤.

(٣) ينظر: واقع اللُّغة العربيّة وأثر المستشرقون عليها: ١٥٨.

(٤) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ٣-٤.

(٥) ينظر: موسوعة المستشرقين: ٤٠٤.

في أصالةِ النّحو العربيّ، ووصفوهُ بالغموضِ والتّأثّرِ بالثّقافاتِ الأجنبيّةِ[١]. وتنوّعتْ آراؤُهم واختلفتْ في نشأةِ النّحو؛ حتّى ذهبَ بعضُهم إلى جعلِهِ متأثّرًا بمؤثّراتٍ خارجيّةٍ مُنْذُ بدايةِ تكوينِهِ الأولى[٢]. وقد أثارتْ هذه الآراءُ المُتطرّفةُ كثير من التّساؤلاتِ والتّباياتِ؛ نظرًا لتناقضِ مواقفِهم، فهم أحيانًا يجمعونَ بينَ الإشادةِ بتراثِ النّحويّينَ العربِ وتمجيدِهِ، وأحيانًا أخرى ينتقدونهُ بشدّةٍ ويصفونهُ بالمبالغةِ والتّعقيدِ، مِمّا جعلَ الدِّراساتِ الاستشراقيّةَ تقعُ بينَ القبولِ والرّفضِ من لدن الكثيرِ من الباحثينَ العربِ والمطالعينَ لأعمالِهم.

**ثانيًا: أقسامُ الكلامِ بينَ الأصالةِ العربيّةِ والادّعاءاتِ الاستشراقيّةِ:**

حظيتْ مسألةُ (أقسامِ الكلام) بمنزلةٍ عظيمةٍ لدى عُلماءِ العربيّةِ الأوائلِ، فأرسوا قواعدَ تقسيمِ الكلمِ على ثلاثةِ أقسامٍ أساسيّةٍ. ومن أقدمِ هذه التّقسيّماتِ ما نجدُهُ مدوّنًا في (كتابِ سيبويه)، الذي قسّمَ فيه الكلامَ على: "اسمٍ، وفعلٍ، وحرفٍ جاء لمعنى"[٣]. ولكن عندَما درسَ المستشرقونَ النّحو العربيّ واطّلعوا على هذا التّقسيمِ، سارعَ بعضُهم إلى نسبتِهِ إلى جذورٍ غيرِ عربيّةٍ[٤]. ولهذا عُدّتْ أقسامُ الكلامِ من القضايا الجدليّةِ الأساسيّةِ التي اهتمَّ فيها المستشرقون في دراساتِهم للعربيّةِ؛ فقامَ بعضُهم بإرجاعِها مباشرةً إلى النّحو اليونانيّ، ومنهم المستشرقُ (مركس) الذي أخذَ يُؤكّدُ بأنَّهُ من المستحيلِ أنْ يكونَ النّحويّون العربُ هم من ابتكروا أقسامَ الكلامِ، مُدّعيًا أنّ النّحو اليونانيّ هو الأساسُ الذي نُقلَ عنهُ هذا التّقسيمُ[٥]. وبيّن (مركس) أنَّ أقسامَ الكلامِ تبلغُ سبعةَ أقسامٍ عندَ نحويّي اليونانِ، ولكنّ علماءَ العربِ _بحسب زعمه_ لم

---

(١) ينظر: واقع اللُّغة العربيّة وأثر المستشرقون عليها: ١٥٨-١٥٩.
(٢) ينظر: ضحى الإسلام: ٢/٢٩٢-٢٩٣.
(٣) الكتاب: ١/١٢.
(٤) ينظر: المستشرقون ونظرياتهم: ٤٤.
(٥) ينظر: نظرات في التّراث: ٨٦_٨٧.

يطّلعوا على الأقسامِ كُلّها، فاقتصروا على ثلاثةٍ منها فقط. ولم يقفْ (مركس) عند توجيهِ الاتّهاماتِ المرسلةِ، بل عزا تقسيمَ سيبويهِ الثّلاثيّ (الاسم، والفعل، والحرف) مباشرةً إلى الفيلسوفِ اليونانيّ (أرسطو)، مشيرًا إلى أنَّهُ تقسيمٌ طوّرهُ نحويّو اليونانِ في مرحلةٍ لاحقةٍ لأرسطو(١).

وفي المقابلِ، دحضَ المستشرقُ (هاريس) ما ذهبَ إليهِ (مركس) في أثناءِ حديثهِ عن (أرسطو)؛ مشيرًا إلى أنَّ العربَ لم يكونوا على درايةٍ بتقسيمِ (أرسطو) للكلامِ في بداياتِهم، ولهذا لا يُمكنُ القولُ إنَّهم اقتبسوا تقسيمَهم الثّلاثيّ منهُ. وأوضحَ (هاريس) أنَّ تقسيمَ (أرسطو) للكلامِ لم يُراعِ التّسلسلَ اللُّغويّ، ولا درجاتِ التّرتيبِ والتّصنيفِ النّحويّ؛ ففي رأيِهِ، (أرسطو) لم يُعالجِ الكلامَ بوصفه دراسةً نحويّةً بحتةً، ولم ينظرْ إليهِ من منظورٍ لغويّ إطلاقًا(٢). وتوصّلَ (هاريس) إلى أنَّ تقسيمَ (أرسطو) للكلامِ كانتْ غايتُهُ فلسفيّةً ومنطقيّةً بحتةً ترمي إلى فهمِ القضايا الجوهريّةِ؛ إذْ إنَّ أغلبَ اهتماماتِ (أرسطو) كانتْ فلسفيّةً منطقيّةً وليستْ لغويّةً نحويّةً؛ فهو لم يسعَ إطلاقًا إلى وضعِ قواعدَ لغويّةٍ، بل انصرفَ إلى تحليلِ بنيةِ الفكرِ والمنطقِ من دون العنايةِ بوظائفِ الكلامِ النّحويّةِ. وهذا الأمرُ يختلفُ تمامًا عمّا اتّجهَ إليهِ النّحويّونَ العربُ الذين اهتمّوا ببنيةِ الكلامِ والجُملِ وقواعدِ الإعرابِ والاشتقاقِ(٣)، مِمّا يجعلُ الحكمَ باقتباسِ أقسامِ الكلامِ العربيّةِ من المنطقِ الأرسطيّ حُكمًا مُتسرّعًا ومبالغًا فيه.

وَعَلى الرَّغمِ مِن وَجاهَةِ ما ذَهَبَ إليهِ هاريسُ في نَفيِ الاقتِباسِ المُباشرِ عَنِ التَّقسيمِ الأَرسطيِّ، فَإِنَّ النَّظرَ في الرِّوايةِ النَّحويَّةِ العَربيَّةِ يَكشفُ عَن جَذرٍ مُبكِّرٍ لِلتَّقسيمِ الثُّلاثيِّ لِلكَلامِ يَسبقُ مَرحلةَ النُّضجِ الَّتي بَلغَها النَّحوُ عَلى يَدِ سيبويهِ؛ إذ تَنسبُ الرِّوايةُ التُّراثيَّةُ إلى الإمامِ

(١) ينظر: النّحو العربيّ ومنطق أرسطو: ٧٧.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٧٧.
(٣) ينظر: فنّ النّحو بين اليونانيّة والسّريانيّة:٢١- ٢٣.

عليِّ بنِ أَبي طالبٍ (عَليهِ السَّلامُ) أَنَّهُ أَشارَ عَلى أَبي الأَسودِ الدُّؤليِّ بِأُصولِ هَذا التَّقسيمِ، مُبيِّنًا أَنَّ "الكَلامَ كلّه اسم وفعل وحرف ... انحُ هَذا النَّحوَ"[1] فَمَضى أَبو الأَسودِ في بِناءِ ما نُسبَ إِليهِ مِنَ البِداياتِ الأُولى لِلتَّقعيدِ النَّحويِّ. وَإِذا أُخذَت هَذهِ الرِّوايةُ في إِطارِها التَّاريخيِّ، فَإِنَّها تُعزِّزُ القَولَ بِأَنَّ التَّقسيمَ الثُّلاثيَّ لَم يَكن وَلِيدَ عَصرِ سيبويهِ، بَل كانَت لَهُ جُذورٌ في مَرحلةٍ مُبكِّرةٍ مِن نَشأةِ الدَّرسِ النَّحويِّ العَربيِّ.

بينما أكّدَ المستشرقُ (جيرار تروبو) على أهمّيّةِ تقسيمِ الكلامِ في أيّ نظامٍ نحويّ، مشيرًا إلى أنَّ أقسامَ الكلامِ هي التي تُحدّدُ بنيةَ النّظامِ النّحويّ العامِّ. وأقرَّ (تروبو) بأنَّ نحويّي اليونانِ وضعوا ثمانيةَ أقسامٍ للكلامِ بحسبِ ما وردَ في كتابِ (الشّعرِ) لأرسطو، وهي: (الحرفُ، والمجموعُ، والرّباطُ، والفاصلةُ، والاسمُ، والكلمةُ، والوقعةُ، والقول). وأمّا النّحويّونَ العربُ، فقد صنعوا للعربيّةِ ثلاثةَ أقسامٍ للكلمِ فقط، وهي وفقًا لما جاءَ في كتابِ سيبويهِ: (الاسمُ، والفعل، والحرف). ويرى (تروبو) أنّ التّشابهَ في أقسامِ الكلامِ بين العربيّةِ واليونانيّةِ ينحصرُ في مفهومِ "الاسمِ" فقط، ولا يمتدُّ مطلقًا إلى مصطلحي (الفعلِ) و(الحرفِ)[2].

وفي واقعِ الأمرِ، فإنَّ المرحلةَ الزّمنيّةَ التي تأسّسَ فيها النّحو العربيّ، المُمتدّةَ حتّى وفاةِ سيبويهِ، كانتْ مرحلةً خاليةً من أيّ علمٍ دخيلٍ أو ترجماتٍ؛ إذْ كانتْ مُبتعدةً كُلَّ البعدِ عن أيّ مؤثّراتٍ فكريّةٍ أو منطقيّةٍ سريانيّةٍ أو يونانيّةٍ. وبقيتْ المعالمُ النّحويّةُ في تلك الحقبةِ على حالتِها الفطريّةِ الأصيلةِ، فلم تدخلْ صناعةُ الفلسفةِ على طبقةِ العلماءِ القُدماء، وكانتْ صياغتُهم اللُّغويّةُ طبيعيّةً تتوافقُ مع الأصولِ النّحويّةِ العامّةِ، والبناءِ النّحويّ والتّصاريفِ

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: ١٤.

(٢) ينظر: نشأة النّحو في ضوءِ كتاب سيبويه: ١٣٠_١٣٦.

العربيّةِ[1]. وهذا ما جزمَ بهِ (جيرار تروبو) نفسُهُ؛ فقد أكّدَ استحالةَ اقتباسِ النّحو العربيّ القديمِ لمصطلحاتِهِ من النّحو اليونانيّ، وذلك بالنّظرِ إلى جميعِ الجوانبِ التّاريخيّةِ، واللّسانيّةِ، واللُّغويّةِ؛ إذْ إنَّ المفاهيمَ التي تعبّرُ عنها المصطلحاتُ تختلفُ اختلافًا جوهريًّا في كلا النّظامينِ. ويجدُ هذا التمايزُ ما يعزّزُهُ في اختلافِ طبيعةِ النحوِ عن المنطقِ ومرامي كلٍّ منهما، فقد جاءَ في هذا السياقِ: "إنَّ التطرّفَ صوبَ جادّةِ منطقِ اليونانِ يعكسُ جهلًا بلغةِ العربِ؛ إذ كيفَ تُستخرجُ معاني الحروفِ في اللغةِ ومنطقُ أرسطو لا يفيدُنا فيها شيئًا؟ هنا يفرّقُ متّى بينَ مرامي علمَي النحوِ والمنطقِ، مبيّنًا أنْ لا حاجةَ بالمنطقيِّ إلى النحوِ، وبالنحويِّ حاجةٌ إلى المنطقِ؛ لأنَّ المنطقَ يبحثُ عن المعنى، والنحوَ يبحثُ عن اللفظِ، فإنْ مرَّ المنطقيُّ باللفظِ فبالعَرَضِ، وإنْ عبَّرَ النحويُّ بالمعنى فبالعَرَضِ، والمعنى أشرفُ من اللفظِ، واللفظُ أوضحُ من المعنى. إنّها مشكلةُ العلاقةِ بينَ أولويّةِ اللفظِ وأسبقيّتِهِ على المعنى عندَ النحويِّ، وعكسِ ذلكَ عندَ المنطقيِّ"[2]. وفي ضوءِ ذلكَ، يتعزّزُ القولُ باختلافِ المنطلقاتِ المعرفيّةِ بينَ النّحوِ والمنطقِ؛ إذْ يتّجهُ النّحوُ إلى اللّفظِ وبنيتِهِ وعلاقاتِهِ داخلَ النّظامِ اللّغويِّ، في حين يتّجهُ المنطقُ أساسًا إلى المعنى والعلاقاتِ العقليّةِ التي تنتظمُهُ. ومن ثَمَّ، فإنَّ وجودَ بعضِ أوجهِ التّشابهِ بينَ المصطلحاتِ أو التّصنيفاتِ لا يكفي وحدَهُ لإثباتِ اقتباسِ النّحوِ العربيِّ من المنطقِ اليونانيِّ ما لم تسندْهُ قرائنُ تاريخيّةٌ ومفهوميّةٌ واضحةٌ. ومعَ ذلكَ، لم يقفْ (تروبو) عندَ بيان أنَّ منهجيّةَ النّحو العربيّ تثبتُ صحّةَ عدم الاقتباسِ، بل أخذَ يُثيرُ الأسئلةَ حولَ المنشأ الأصليّ لهذه المصطلحاتِ التي استعملَها سيبويهِ في كتابِهِ، والتي تُمثّلُ الدّليلَ القاطعَ على عدمِ ابتكارِ سيبويهِ لمصطلحاتٍ جديدةٍ من العدمِ؛ إذْ يرجّحُ احتمالَ اعتماده على المصطلحاتِ المتداولةِ في العلومِ الإسلاميّةِ السّابقةِ لهُ وعصرِهِ، مثلَ: (القراءات القرآنيّة،

---

(١) ينظر: الإشكاليّةِ اللُّغويّةِ في الفلسفةِ العربيّةِ: ١١٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٢.

والحديث، والفقه، والنّحو الأصيل)[١]. وقد أقرَّ كثير من المستشرقينَ بأنَّ تلك المصطلحاتِ التي استعملتْ في كتابِ سيبويهِ كانتْ مصطلحاتٍ ذوات أصولٍ فقهيّةٍ أو أخلاقيّةٍ في أصلِ وضعِها اللُّغويّ، لكنَّ سيبويه استطاعَ بعبقريّتهِ أنْ يمنحَها الدّلالةَ النّحويّةَ الاصطلاحيّةَ، ومنها مصطلحاتُ: (جائز، وبدل، وعوض، وشرط...)؛ فقد كانَ سياقُ النّصِّ النّحويّ هو الفيصلَ الذي حدّدَ معناها الاصطلاحيّ الجديدَ[٢].

وعلى نقيضِ ذلك، برزَ فريقٌ من المستشرقينَ حاولَ إرجاعَ الفضلِ في تقسيمِ الكلامِ إلى النّحويّ اليونانيّ (ديونيسيوس التّراقيّ)، مُعتقدينَ بأنَّهُ هو الذي حدّدَ أقسامَ الكلامِ في كتابِهِ اليونانيّ المُختصَّ بالقواعدِ وجعلَها ثمانيةَ أقسامٍ، وهي: (أداةُ التّعريفِ، والاسمُ، والضّمير، والفعل، واسم المفعول، والظّرف، وحرف الجر، وحرف العطف)، ثُمَّ ادّعوا أنَّ هذه الأقسامَ نُقلتْ إلى العربيّةِ عن طريقِ التّرجمةِ السّريانيّةِ[٣]. وسعى المستشرقُ (فرستيج) إلى إنكارِ أصالةِ النّحو العربيّ والتّشكيكِ فيهِ عبرَ الطّعنِ بمصطلحاتِهِ، ومفاهيمهِ، وتقسيّماتِهِ، رابطًا تلك المفاهيمَ بالمنطقِ والثّقافةِ الأرسطيّةِ؛ فقد زعمَ أنَّ العربَ تأثّروا بالمنطقِ من خلالِ التّرجمةِ، وأنَّ تلك الأفكارَ الأجنبيّةَ تسرّبتْ إلى العقولِ العلميّةِ العربيّةِ بشكلٍ غير مباشرٍ حتّى طبّقوها في دراساتِهم النّحويّةِ[٤]. وهو رأيٌ واهنٌ يفتقرُ إلى الدّليلِ العلميّ، ويتجاهلُ كون النّحو العربيّ يُمثّلُ إنجازًا عبقريًّا ونظامًا يتّسمُ بالدّقةِ البالغةِ والبراعةِ في الرّصدِ والتّحليلِ[٥].

إنَّ قيامَ كثير من المستشرقينَ بمقارنةِ تقسيّماتِ الكلامِ في اللُّغةِ العربيّةِ واليونانيّةِ

---

(١) ينظر: الإشكاليّةِ اللُّغويّةِ في الفلسفةِ العربيّةِ: ١٣١-١٣٨.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١١٩.
(٣) ينظر: تاريخ علم اللُّغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين: ٨٨.
(٤) ينظر: الفكر اللُّغويّ بين اليونان والعرب: ٢٩١-٢٩٣.
(٥) ينظر: تاريخ الفلسفة في الإسلام: ٥٩.

لإثباتِ عدمِ أصالةِ التّقسيمِ العربيّ هو مسعًى قاصرٌ؛ لأنَّ وجودَ التّشابهِ في بعضِ التّقسيّماتِ العامّةِ ليس كافيًا لإثباتِ ادّعاءاتِ التّأثّرِ بالمنطقِ الأرسطيّ. فقد غفلَ هؤلاء عن أنَّ العديدَ من التّقسيّماتِ والمُصطلحاتِ العامّةِ وُجدتْ مُستعملةً لدى شُعوبٍ مُتعدّدةٍ(١)؛ مِمّا يُشيرُ إلى أنَّ تقسيمَ الكلامِ يُمثّلُ ظاهرةً لُغويّةً عامّةً موجودةً في أكثرِ لُغاتِ العالمِ، وليس حكرًا على لغةٍ بعينِها(٢). وأنَّ النّحو العربيّ تأسّسَ على أيدي روّادٍ عُلماءَ لم يحتكّوا بالثّقافاتِ الأجنبيّةِ، ونشأ في بيئةٍ لغويّةٍ اشتقاقيّةٍ وتصريفيّةٍ فريدةٍ، بُنيتْ على أسسٍ تحليليّةٍ تطبيقيّةٍ تُخالفُ تمامًا أسسَ النّحو اليونانيّ(٣). ومن المُثيرِ للاستغرابِ أنَّ بعضَ الباحثينَ المُتأخّرينَ تلقّفوا آراءَ أولئك المستشرقينَ وجعلوها كالحقائقِ الرّاسخةِ، مردّدين من دونِ تمحيصٍ مقولةَ تأثّرِ النّحو العربيّ بالمنطقِ الأرسطيّ(٤).

ولإيضاحِ الفروقِ الجوهريّةِ، فإنَّ تقسيمَ سيبويهِ للكلامِ يختلفُ تمامًا عمّا هو عندَ أرسطو؛ فمفهومُ الاسمِ والفعلِ والحرفِ عندَ سيبويهِ لا يُطابقُ نظيرَهُ الأرسطيّ. فسيبويهِ لم يُعنَ في مجملِ تقسيمِهِ بالتّعريفِ النّظريّ الفلسفيّ المُفصّلِ، بل اكتفى بذكرِ الأمثلةِ الدّالّةِ على الاسمِ. بينما (أرسطو) عرّفَ الاسمَ وشرحهُ مطوّلًا مبيّنًا أنواعَه. وفي جانبِ الفعلِ، أوضحَ أرسطو أنَّهُ ما دلَّ على (الحاضرِ) فقط، أمّا إذا دلَّ على (الماضي) أو (المستقبِل) فهو ليس بفعلٍ عندَهُ بل هو (تصريفٌ للفعل)(٥)؛ أمّا عندَ سيبويهِ فالأمرُ مخالفٌ تمامًا، إذْ إنَّ الفعلَ هو: "ما بُني لما مضى، ولما يكونُ ولم يقعْ، وما هو كائنٌ لم ينقطعْ"(٦). واختلفَ مفهومُ

---

(١) ينظر: البحث اللُّغويّ عند العرب: ٣٥١-٣٥٢، وأصالة النّحو العربيّ: ١٣١.
(٢) ينظر: الدِّراسات اللُّغويّة عند العرب إلى نهاية القرن الثالث: ٩٣.
(٣) ينظر: الوجهة الاجتماعيّة في منهج سيبويه في كتابه:٦٠.
(٤) ينظر: المصدر السابق : ٩٢.
(٥) ينظر: كتاب ارسطوطاليس في الشعر :١١٤_١١٥.
(٦) الكتاب:١/١٢.

الحرفِ بينهما؛ فيراهُ (أرسطو) لفظًا غيرَ دالٍّ بذاتهِ ولا يمنعُ ولا يُعطي صوتَ الواحدِ المركّب من أصواتٍ كثيرةٍ ولا يصحُّ استقلالهُ في أوّلِ الجملةِ[١]؛ بينما الحرفُ عندَ سيبويهِ صريحٌ ومحدّدٌ وهو: "ما جاءَ لمعنى"[٢]. وهذا يثبتُ بشكلٍ قاطعٍ أنّ تقسيمَ (أرسطو) نابعٌ من معطياتٍ فلسفيّةٍ ومنطقيّةٍ خاصّةٍ بطبيعةِ اللُّغةِ اليونانيّةِ، ولم يكنْ هدفُهُ تكوينَ نظامٍ نحويّ تطبيقيّ شاملٍ كما فعلَ النّحويّونَ العربُ.

**ثالثًا: أصلُ ظاهرةِ الإعرابِ بينَ الوظيفةِ الدّلاليّةِ والنّزعةِ الاستشراقيّةِ:**

تُعَدُّ ظاهرةُ الإعرابِ إحدى السِّماتِ البارزةِ في النِّظامِ النَّحويِّ للُّغةِ العربيَّةِ الفصحى، ولا تَكمنُ خصوصيَّتُها في وجودِ الإعرابِ في العربيَّةِ دونَ غيرِها من اللُّغاتِ، وإنَّما في طبيعةِ نظامِها الإعرابيِّ واتِّساعِهِ وانتظامِهِ، وما تؤدِّيهِ العلاماتُ الإعرابيَّةُ من وظيفةٍ في بيانِ العلاقاتِ النَّحويَّةِ بينَ عناصرِ التَّركيبِ، والكشفِ عن وظائفِ الكلماتِ داخلَ الجملةِ، مع ما يتيحُهُ ذلكَ من مرونةٍ نسبيَّةٍ في ترتيبِ عناصرِها، والإعرابُ في اصطلاحِ النَّحويِّينَ هو تغيُّرُ أواخرِ الكَلِمِ باختلافِ العواملِ الدَّاخلةِ عليها لفظًا أو تقديرًا[٣]. وقد ربطَ النّحويّونَ العربُ الأوائلُ مُنْذُ نشأةِ الدّرسِ النّحويّ بينَ الحركةِ الإعرابيّةِ والمعنى الدّلاليّ[٤]؛ فالحركاتُ عندَهم لم توضعْ هباءً، بل جُعلتْ دليلًا على المعاني وسياقاتِها في الكلامِ لتمييزِ الفاعلِ من المفعولِ، والمبتدأِ من الخبرِ، والملتَبِسِ من الواضحِ.

بيدَ أنَّ هذه الأصالةَ المعرفيّةَ لظاهرةِ الإعرابِ واجهتْ موجةً عاتيةً من التّشكيكِ والنّقدِ من لدن بعضِ المستشرقينَ، الذين حاولوا جاهدينَ تجريدَ الإعرابِ من ميزتِهِ الدّلاليّةِ

(١) ينظر: كتاب ارسطوطاليس في الشعر: ١٠٨_١١٢

(٢) الكتاب: ١٢/١.

(٣) ينظر: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: ٧.

(٤) ينظر: الأشباه والنظائر في النّحو: ١٧٣.

والوظائفيّةِ، وإرجاعَهُ إلى أصولٍ بدائيّةٍ أو تأثيراتٍ لغويّةٍ أجنبيّةٍ[١]. وكانَ في طليعةِ هؤلاء المشكّكينَ المستشرقُ الألمانيّ (كارل فوهلرز) في دراستِهِ حولَ لهجاتِ العربِ البدويّةِ؛ إذْ زعمَ أنَّ الإعرابَ لم يكنْ ظاهرةً متأصّلةً في لغةِ الحديثِ اليوميّ عندَ العربِ الجاهليّينَ، وإنّما كانَ مُجرّدَ حلياتٍ لفظيّةٍ وزخارفَ أسلوبيّةٍ اصطنَعها الشّعراءُ والخطباءُ لغاياتٍ موسيقيّةٍ وتناغميّةٍ في شعرِهم تلبيةً لمتطلّباتِ القافيةِ والوزنِ[٢]. وادّعى (فوهلرز) أنَّ لغةَ الحياةِ اليوميّةِ (العامّيّةَ الجاهليّةَ) كانتْ خاليةً تمامًا من الحركاتِ الإعرابيّةِ، وأنَّ النّحويّينَ الأوائلَ هم من قعّدوا هذه الحركاتِ وأضفوا عليها الصّبغةَ الإلزاميّةَ والدّلاليّةَ بعد الإسلامِ[٣].

وقد تلقّفَ هذه الفكرةَ وأيّدها المستشرقُ الألمانيّ الآخرُ (بول كاله)، الذي حاولَ إثباتَ أنَّ القرآنَ الكريمَ نفسَهُ لم يكنْ يُقرأُ بالإعرابِ في بدايةِ نزولِهِ، وزعمَ أنَّ القُرّاءَ والنّحويّينَ هم من ألبسوا النّصَّ القرآنيّ حركاتِ الإعرابِ في مرحلةٍ لاحقةٍ مستندينَ إلى لغةِ الشّعرِ الجاهليّ التي كانتْ تتكلُّف الإعرابَ بوصفه نوعًا من التّرفِ الفنّيّ. وبناءً على هذه الرّؤيةِ الاستشراقيّةِ، فإنَّ الإعرابَ ليس لهُ أيّ وظيفةٍ معنويّةٍ أو دلاليّةٍ في تحديدِ الفاعليّةِ والمفعوليّةِ، وإنّما هو أثرٌ صوتيّ تزيينيّ حسب[٤].

وفي المقابلِ، انبرى فريقٌ آخرُ من المستشرقينَ المنصفينَ لدحضِ هذه المزاعمِ وتفنيدِها علميًّا؛ فقد أكّدوا أنَّ الإعرابَ ظاهرةٌ ساميّةٌ قديمةٌ وموغلةٌ في الأصالةِ. وبرزَ في هذا الميدانِ المستشرقُ (نولدكه) والمستشرقُ (برجستراسر)؛ إذْ أثبتا عبرَ الدّراساتِ اللُّغويّةِ المقارنةِ للغاتِ السّاميّةِ كـ(الأكديّةِ التي تنقسم على البابليّةِ، والآشوريّةِ القديمةِ) أنَّ نظامَ الإعرابِ كانَ موجودًا

---

(١) ينظر: قضية الإعراب في العربيّة عند المستشرقين: ١١٦٣.

(٢) ينظر: القرآن الكريم وأثره في الدّراسات النّحويّة: ٢٦٧.

(٣) ينظر: فقه اللُّغة مفهومه- موضوعاته- قضاياه: ٤١٥-٤١٦.

(٤) ينظر: فصول في فقه اللُّغة العربيّة: ٣٧٨، والوجيز في فقه اللُّغة: ٣١٦.

وبقوّةٍ في هذه اللُّغاتِ القديمةِ قبل ظهورِ العربيّةِ بقرونٍ طويلةٍ[١]. وأوضحَ (برجستراسر) في كتابِهِ (التّطوّر النّحويّ للغةِ العربيّةِ) أنَّ العربيّةَ لم تبتكرِ الإعرابَ من العدمِ، ولم تأخذهُ عن اليونانيّةِ، بل هي اللُّغةُ السّاميّةُ الوحيدةُ التي احتفظتْ بنظامِ الإعرابِ السّاميّ القديمِ بكاملِ حركاتِهِ وتفاصيلِهِ، في حينِ فقدتِ اللُّغاتُ السّاميّةُ الأخرى هذا النّظامَ تدريجيًّا بفعلِ الزّمنِ والتّحوّلاتِ الاجتماعيّةِ[٢]. ودافعَ المستشرقُ الفرنسيّ (بلاشير) عن أصالةِ الإعرابِ ووظيفتِهِ الحيويّةِ في النّصِّ العربيّ، مؤكّدًا أنَّ مرونةَ التّقديمِ والتّأخيرِ في الجملةِ العربيّةِ، والحرّيّةَ العاليةَ في ترتيبِ عناصرِها كـ(تقديمِ المفعولِ بهِ على الفاعلِ وجوبًا أو جوازًا)، ما كانتْ لتتحقّقَ لولا وجودُ الحركاتِ الإعرابيّةِ التي تحمي النّصَّ من اللّبسِ وتحفظُ المعنى من الضّياعِ. وبالتالي، فإنَّ القولَ بتجريدِ الإعرابِ من قيمتِهِ الدّلاليّة ينمُّ عن عدمِ استيعابٍ لطبيعةِ النّظامِ الاشتقاقيّ والتّأليفيّ الفريدِ للغةِ العربيّةِ الفصحى[٣].

**رابعًا: الجملةُ العربيّةُ في المنظورِ اللّسانيّ والاستشراقيّ:**

بعدَ دراسةِ المستشرقينَ للتّراثِ الشّرقيّ وتعمّقِهم في لُغاتِهِ، نالتِ (الجملةُ العربيّةُ) وأقسامُها نصيبًا وافرًا من بحوثهم؛ فحاولَ العديدُ منهم إيجادَ نقاطِ التّشابهِ والاختلافِ بينَ أقسامِ الجملِ في لغاتِ العالمِ، وسعوا إلى تطبيقِ المفاهيمِ النّحويّةِ الأجنبيّةِ على النّحو العربيّ، متأثّرينَ بقواعدِ النّحو اللّاتينيّ واليونانيّ.

ويقتضي الحديثُ عن أقسامِ الجملةِ في العربيّةِ عندَ المستشرقينَ الوقوفَ أولًا على مفهومِ الجملةِ في التّراثِ اللُّغويّ العربيّ؛ إذْ لم يحظَ مصطلحُ (الجملةِ) بتعريفٍ اصطلاحيّ

---

(١) ينظر: فقه اللُّغة العربيّة: ١٢٢، والتّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١١٦.

(٢) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١١٦-١١٨.

(٣) ينظر: اتّجاهات البحث في قضيّة الإعراب عند اللُّغويّين العرب المحدثين: ١١١.

موحّدٍ لدى العلماءِ القُدماء، فبعضُهم ساوى بينهُ وبينَ مصطلحِ (الكلامِ)، في حينِ ميّزَ آخرون بينَهما وجعلوا الكلامَ أعمَّ دلالةً وأشملَ[١]. فسيبويهِ يُسمّي الجملةَ في مجملِ حديثهِ بـ(الكلامِ المستغني)، أي الكلامِ الذي يكتفي بنفسِهِ لفظًا ومعنًى ويَحسنُ السّكوتُ عليهِ[٢]. ولم يقتصرْ سيبويهِ على هذا الاستعمالِ، بل وظّفَ مصطلحَ الكلامِ للدّلالةِ على النّثرِ، وأحيانًا على النّظامِ اللُّغويّ العامِّ المُتمركزِ في عقلِ الجماعةِ، أو على الاستعمالِ الصّحيحِ للغةِ[٣]. ونجدُ لابن جنّي رأيًا مُماثلًا؛ إذْ يرى أنَّ مُصطلحي الجملةِ والكلامِ يحملان المعنى ذاتهُ، مشيرًا إلى أنَّ الكلامَ هو كلُّ تعبيرٍ لفظيّ قائمٍ بذاتِهِ ومكتملِ المعنى[٤]. ولم يضعْ غالبيّةُ النّحويّينَ القُدماء فارقًا دقيقًا بينَهما، ونظروا إليهما كترادفينِ معيارهما الأساسيّ هو (تمامُ المعنى واستقلاله)[٥].

وأمّا المبرّد، فقد قدّمَ تصوّرًا أكثرَ تمايُزًا؛ فقد ميّزَ بينَ أقسامِ الجملةِ (الاسميّة والفعليّة)، موضّحًا أنَّ المبتدأَ والخبرَ يشكّلان جملةً، كما يُشكّلُ الفعلُ والفاعلُ جملةً أخرَى[٦]. وجاءَ الرّضيّ الأستراباذيّ (ت٦٨٦هـ) ليبيّنَ أنَّ الجملةَ أشملُ وأوسعُ من الكلامِ؛ فبينما يحوي كلاهما الإسنادَ الأصليّ، إلّا أنَّ التّركيبَ الإسناديّ إذا كانَ قائمًا بذاتِهِ ويؤدّي معنى تامًّا يحسنُ السّكوتُ عليهِ فهو كلامٌ وجملةٌ معًا، فكلُّ كلامٍ جملةٌ وليس كلُّ جملةٍ كلامًا[٧].

وأمّا بالنّسبةِ للمستشرقينَ، فقد تباينتْ آراؤهم في تناولِ الجملةِ العربيّةِ؛ فاتّفقَ فريقٌ منهم مع النّحويّينَ العربِ وخالفَهم فريقٌ آخرُ. ومن الذين وافقوا النّحويّينَ القُدماء الفرنسيّ

---

(١) ينظر: الجملة الفعليّة: ٢٢-٢٨، وبناء الجملة العربيّة: ٢١-٣٢، والجملة العربيّة: تأليفها وأقسامها: ١١-١٢.
(٢) ينظر: الجملة في كتاب سيبويه: ٩٨-١٠٠.
(٣) ينظر: بناء الجملة العربيّة: ٢٢.
(٤) ينظر: الخصائص: ١٧/١.
(٥) ينظر: اللّمع في العربيّة: ٣٠.
(٦) ينظر: المقتضب:١٠٨/٤.
(٧) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٨/١، والجملة العربيّة مكوناتها- أنواعها- تحليلها: ٢١.

(فندريس)، الذي يرى أنَّ الجملةَ هي اللّبنةُ الأساسيّةُ التي يُبنى عليها الكلامُ، إذْ تؤدّي معنى مُكتملًا ومكتفيًا بذاتِهِ حتّى لو تألّفتْ من كلمةٍ واحدةٍ(١).

وفي المقابلِ، يرى المستشرقُ الفرنسيّ (جورج مونان) أنَّ الدِّراساتِ اللُّغويّةَ الغربيّةَ_على سعتِها_لم تتمكّنْ في ذلك الوقتِ من تقديمِ مفهومٍ نحويّ موحّدٍ وشاملٍ للجملةِ، لكنّهُ قدّمَ تعريفًا قريبًا من النّحويّينَ العربِ يرى الجملةَ تعبيرًا عن فكرةٍ تامّةِ المعنى تتكوّنُ من عنصرينِ أساسيّينِ هما: (المسند والمسند إليه)، واللذان يشكّلان وحدةً كلاميّةً يُمكنُ التّوقّفُ عندَها(٢).

وإذا رجعنا إلى الفكرِ اليونانيّ، نجدُ أنَّ (أرسطو) لم يركّزْ عندَ تعريفِهِ للجملةِ على الجانبِ الصّوتيّ والتّركيبيّ حسب، بل أكّدَ على استقلالِها الدّلاليّ وقدرتِها على حملِ المعنى التّامّ، وأولى اهتمامًا كبيرًا لقضيّةِ الإسنادِ لارتباطِها بنظريّاتِه المنطقيّةِ(٣)، وعرّفها بأنّها: "تركيبٌ مؤلّفٌ من عناصرَ صوتيّةٍ تحملُ معنًى محدّدًا قائمًا بذاتِهِ"(٤). وعرّفَها (ديونيسيوس ثراكس) بأنَّها تركيبٌ من الألفاظِ يُعبّرُ عن فكرةٍ كاملةٍ ومفهومةٍ(٥). في حينِ صاغَ اللُّغويّ (يسبرسن) مصطلحًا يرى الجملةَ تعبيرًا بشريًّا ذا معنًى مكتملٍ ومستقلٍّ، وأمّا المستشرقُ (بلومفيلد)، فقد ركّزَ على استقلالِ الجملةِ بوصفِها شكلًا لغويًّا مستقلًّا بذاتِهِ لا يَتّبعُ تركيبًا نحويًّا أكبرَ منهُ، وهو مفهومٌ خاصٌّ بالنّحو الوظيفيّ(٦). ومن النّحويّين الذين ركّزوا على الجانبِ الصّوتيّ والأدائيّ للكلامِ بدلًا من التّركيبِ المُجرّدِ المستشرقُ (هاريس)، الذي ذهبَ

---

(١) ينظر: اللُّغة، فندريس: ١٠١.
(٢) ينظر: مفاتيح الألسنيّة: ١٠١-١٠٢.
(٣) ينظر: اتجّاهات البحث اللّسانيّ: ٩_ ٢٠.
(٤) المصدر نفسه: ١٢.
(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٩-٢٠.
(٦) ينظر: مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة: ١١_١٦.

إلى أنَّ الوقفاتِ وفتراتِ الصّمتِ التي يقومُ بها المُتكلّمُ في أثناءِ الحديثِ هي المؤشّرُ الأساسيّ لتحديدِ حدودِ الجملِ وفصلِها بعضَها عن بعضٍ؛ شرطَ أنْ تفيدَ كلّ جملةٍ معنى تامًّا يريدُ المتكلّمُ إيصالَهُ للسامعِ(١). والجملةُ عندَ (أندري مارتينيه) هي منطوقٌ تتّصلُ عناصرُهُ وتترابطُ بفضلِ القدرةِ البشريّةِ على تنظيمِ الأفكارِ، ويتمُّ هذا التّرابطُ من خلالِ التّلاصقِ بينَ الكلماتِ(٢).

وقد نظرتْ مجموعةٌ من المستشرقينَ إلى الجملةِ من منظورِ وظيفتِها التّواصليّةِ وديناميكيّتها؛ فالجملةُ عندَهم ليستْ مجرّدَ كلماتٍ مرصوصةٍ، بل هي فعلٌ لغويّ حيّ يحدثُ ضمنَ موقفٍ واقعيّ يعملُ على نقلِ تجاربِ المتحدّثينَ وأفكارِهم ومشاعرِهم، ومن أبرزِ من نادى بهذا الرّأي الوظيفيّ: (جاكبسون)، و(دانيس). بينما بنى (هاليدي) نظرتَهُ على الجانبِ الوظيفيّ للغةِ في سياقِها الاجتماعيّ، مؤكّدًا أنَّ فهمَ اللُّغةِ يتطلبُ تحليلًا دقيقًا لكيفيّةِ بناءِ الجملِ لتُشكّلَ أفكارًا تواصليّةً وكيفيّةِ ترابطِها لتكوينِ نصٍّ مُتماسكٍ(٣).

وفيما يتعلّقُ بأقسامِ الجملةِ، فقد قسّمها علماءُ العربيّةِ القُدماء على قسمينِ رئيسينِ بناءً على ركنِها الأساسِ وبدايتِها الفطريّةِ؛ فإذا بدأتْ باسمٍ فهي (جملةٌ اسميّةٌ) نحو: (زيدٌ قائمٌ)، وإذا بدأتْ بفعلٍ فهي (جملةٌ فعليّةٌ) نحو: (قامَ زيدٌ)(٤). وكانَ اعتمادُ علماءِ العربِ ينصبُّ على موقعِ المسندِ إليهِ ومرتبتِهِ متجاهلينَ نوعَ المسندِ في التّسميةِ الصّدريّةِ، فميّزوا نوعَ الجملةِ بناءً على ما ابتدأتْ بهِ. ولم يتّفقِ القُدماء على هذا التّقسيمِ الثّنائيّ حسب، بل قدّمَ بعضُهم أقسامًا

---

(١) ينظر: الألسنية التّوليديّة التّحويليّة وقواعد اللُّغة العربيّة_ الجملة البسيطة: ٢٤.
(٢) ينظر: مباحث في اللّسانيّات: ١١٧.
(٣) ينظر: اللّسانيات العربيّة الحديثة: دراسات نقدية في المصادر والأسس النظريّة والمنهجيّة:٢٥٣-٢٥٧.
(٤) ينظر: مغني اللّبيب:٢/ ٤٩٢.

إضافيّةً؛ مثلَ: الجملةِ الشّرطيّةِ، والظّرفيّةِ التي أضافَها أبو علي الفارسيّ (ت ٣٧٧هـ)[١]. وتوسّعَ الزّمخشريّ (ت ٥٣٨هـ) في تقسيمِها فأضافَ الجملةَ الشّرطيّةَ، والظّرفيّةَ بوصفهما أقسامًا مستقلّةً إلى جانبِ الاسميّةِ والفعليّةِ، مُبيّنًا أنَّ الجملةَ تنقسمُ على أربعةِ أقسامٍ تعكسُ خصائصَ التّركيبِ البنيويّ، والوظيفيّ للجملِ العربيّةِ، مُلزمًا جملةَ خبرِ المبتدأ باحتواءِ ضميرٍ يعودُ عليهِ[٢].

وأمّا من المستشرقينَ، فقد كانَ (برجستراسر) من أبرزِ من تطرق إلى موضوعَ أقسامِ الجملةِ العربيّةِ وشبهِ الجملةِ في كتابِهِ (التّطوّر النّحويّ للغةِ العربيّةِ)، إذْ درَسَها على طريقةِ النّحو الألمانيّ، وقسمَ الجملَ على قسمينِ:

١_الجملةُ البسيطةُ: وهي الجملةُ الاسميّةُ التي تتكوّنُ ببساطةٍ من مبتدأٍ وخبرٍ، أو الفعليّةُ التي تتكوّنُ من فعلٍ وفاعلٍ تقدّم أو تأخّر.

٢_ الجملةُ المركّبةُ أو (النّاقصةُ): وناقشَ فيها بعضَ التّراكيبِ الخاصّةِ[٣].

وأمّا (شبه الجملةِ) فقد قصدَ بها المصطلحَ الألمانيّ (Äquivalent satz)، وهو ما يطلقُهُ الألمان على النّائبِ عن الجملةِ أو ما يسدُّ مسدَّ الجملةِ، أو الجملةِ ذات الطّرفِ الواحدِ[٤].

وعندما تناولَ (برجستراسر) تقسيّماتِ الجملةِ، كانَ جلُّ تركيزِهِ ينصبُّ على الجملِ البسيطةِ المؤلّفةِ من مسندٍ ومسندٍ إليه؛ فإذا كانَ كلاهما اسمًا أو ما يقومُ مقامَهُ فالجملةُ

---

(١) ينظر: الإيضاح العضدي:٤٣، وشرح المفصل: ٨٨-٨٩.
(٢) ينظر: المفصل في صنعة الإعراب: ٤٤
(٣) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٢٥_١٣٢.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٥.

اسميَّةٌ، وإذا كانَ فعلًا أو في حكمِهِ فهي فعليّةٌ. ولكنّهُ عادَ ليصرّحَ بأنَّ الجملةَ الاسميّةَ العربيّةَ تختلفُ عن بقيّةِ اللُّغاتِ السّاميّةِ بكونِها تميلُ إلى تأخيرِ المسندِ (الخبرِ) وتضعُ لتقدّمِهِ قواعدَ ثابتةً تختلفُ عمّا هو موجودٌ في سائرِ اللُّغاتِ السّاميّةِ. فاللُّغةُ العربيّةُ من منظورِ (برجستراسر) تخضعُ لقواعِدِ ترتيبِ الكلماتِ أكثرَ من غيرِها. واعتمدَ على معيارِ (الزّمنِ) لتوجيهِ نقدٍ للجملةِ الاسميّةِ؛ إذْ يرى أنَّ الجملةَ الاسميّةَ في العربيّةِ غيرُ محدّدةِ زمن العلاقةِ بينَ المبتدأِ والخبرِ، ولا تُبيّنُ متى حدثَ الشّيء، مِمّا يجعلُها مُتّسمةً بالغموضِ في تحديدِ الوقتِ من وجهةِ نظرِهِ(١).

ولو نظرنا في المقابلِ إلى تقسيمِ علماءِ العربِ للجملِ، لاتّضحتْ دقّتُها البالغةُ في تحليلِ البنيةِ اللُّغويّةِ؛ إذْ ميّزوا بينَ الأقسامِ بناءً على طبيعةِ العناصرِ المكوّنةِ لها، مِمّا ساعدَهم على فهمٍ أعمقَ للعلاقةِ الإسناديّةِ بينَ (المسندِ والمسندِ إليهِ)؛ ففسّروا نحو (طلعَ البدرُ) بأنَّها جملةٌ فعليّةٌ، و(البدرُ طالعٌ) بأنّها جملةٌ اسميّةٌ. ولم يكنْ هذا التّمييزُ مجرّدَ تخمينٍ، بل هو تمييزٌ نحويّ مسوّغٌ ينسجمُ مع نظريّةِ العاملِ القائمةِ على معيارِ الموقعِ الصّدريّ؛ فالموقعُ هو الفيصلُ الحاسمُ في الحكمِ على الجملةِ(٢).

وقد اختلفَ (برجستراسر) مع النّحويّينَ العربِ في عدِّ بعضِ الكلماتِ المفردةِ أو التّراكيبِ الوظيفيّةِ والإضافيّةِ والاعتراضيّةِ جُملًا مستقلّةً، ولا سيّما (أسلوب النّداء)؛ فبينما عدَّ النّحويّون العربُ النّداءَ من الجملِ الفعليّةِ بناءً على تقديرِهم لفعلٍ محذوفٍ وجوبًا (مثل: يا زيد، بتقديرِ: أدعو زيدًا)، عارضَهم (برجستراسر) بشدّةٍ معتقدًا أنَّ نحو قولنا: (يا حسن) لا يُعدُّ جملةً فعليّةً مقدّرةً، بل هو يُمثّلُ في ذاتِهِ (كلامًا ذا معنى) قائمًا بنفسِهِ ومستقلًّا في إيصالِ

---

(١) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٢٥_١٣٣.

(٢) ينظر: الصّيغ الزمنيّة في اللُّغة العربيّة: ٣٤-٣٥.

المعنى المُرادِ من دون الحاجةِ إلى تقديرِ كلماتٍ إضافيّةٍ لإتمامِهِ، سواء أكانتِ الكلماتُ ظاهرةً أم مقدّرةً. وصرّحَ بأنَّ القواعدَ المقرّرةَ في تقسيمِ الجُملِ ينبغي أنْ تنطبقَ على الخطابِ الهادفِ والواضحِ من دون التّكلّفِ في التّقديرِ والتّأويلِ النّحويّ(١). يلحظ أنَّ الخلافَ بينَ (برجستراسر) والنَّحويِّينَ العربِ في تحليلِ أسلوبِ النِّداءِ يرجعُ، في جانبٍ منهُ، إلى اختلافِ المنطلقِ في تحديدِ مفهومِ الجملةِ؛ فنجده يقول: "ومن الكلامِ ما ليسَ بجملةٍ، بل هو كلماتٌ مفردةٌ، أو تركيباتٌ وصفيّةٌ، أو إضافيّةٌ، أو عطفيّةٌ غيرُ إسناديّةٍ؛ مثالُ ذلكَ: النداءُ، فإنَّ (يا حسن) ليسَ بجملةٍ، ولا قسمًا من جملةٍ، وهو مع ذلكَ كلامٌ، ويشبهُ الجملةَ في أنَّهُ مستقلٌّ بنفسِهِ، لا يحتاجُ إلى غيرِهِ، مظهرًا كانَ أو مقدَّرًا"(٢). فـ(برجستراسرُ) هنا ينظرُ إلى النِّداءِ من جهةِ اكتمالِهِ الدَّلاليِّ ووظيفتِهِ التَّواصليَّةِ، ويرى أنَّ (يا زيدُ) يؤدِّي غرضَهُ في الخطابِ من غيرِ حاجةٍ إلى تقديرِ فعلٍ محذوفٍ، وهو تحليلٌ لهُ وجاهتُهُ من منظورِ الاستعمالِ اللُّغويِّ. أمَّا النَّحويُّونَ العربُ فنظروا إلى النِّداءِ من جهةِ بنائِهِ النَّحويِّ وعلاقاتِ عناصرِهِ، فجاءَ تقديرُ الفعلِ وسيلةً لتفسيرِ تركيبِهِ وأحكامِهِ، لا لمجرَّدِ استكمالِ المعنى. ومن ثَمَّ، لا يبدو أنَّ أحدَ التّصوُّرينِ يُلغي الآخرَ إلغاءً مطلقًا؛ إذ يمكنُ أنْ يكونَ النِّداءُ مكتملًا من النّاحيةِ التَّواصليَّةِ، مع إمكانِ تحليلِ بنيتِهِ على مستوى التَّركيبِ النَّحويِّ. ولهذا فإنَّ الاعتراضَ على الإفراطِ في التَّقديرِ مقبولٌ متى استغنى عنهُ التّحليلُ، إلّا أنَّ وصفَ تقديرِ القدماءِ بالتَّكلُّفِ على نحوٍ مطلقٍ لا يراعي الوظيفةَ التَّفسيريَّةَ التي أدَّاها التَّقديرُ في نظامِهم النَّحويِّ.

---

(١) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٢٥_١٢٨، ومدخل إلى دراسة النّحو العربيّ: ٥٨-٦٣

(٢) التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٢٥.

# الفصل الرّابع

## المناهج اللّغويّة في الخطاب اللّغويّ الاستشراقيّ

المبحث الأوّل: إسهامات المستشرقين في المناهج اللّغويّة

المبحث الثّاني: المنهج التّاريخيّ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ

المبحث الثّالث: المنهج المقارن في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ

المبحث الرّابع: المنهج الوصفيّ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ

**توطئة:**

لم يكنِ اهتمامُ الاستشراقِ باللُّغةِ العربيّةِ مجرّدَ ترفٍ فكريّ أو شغفٍ معرفيّ معزولٍ عن السّياقاتِ الحضاريّةِ والسّياسيّةِ التي أنتجتهُ. بل إنَّ استنطاقَ النّصِّ العربيّ وإخضاعَهُ لأدواتِ التّحليلِ الغربيّةِ كانَ يُمثّلُ القناةَ الأولى والأساسيّةَ المعنيّةَ بصياغةِ (صورةِ الشّرقِ) وتنميطِها. من هنا، تكتسبُ المناهجُ اللُّغويّةُ داخلَ الظّاهرةِ الاستشراقيّةِ خصوصيّةً استثنائيّةً؛ بوصفِها أهمَّ المرتكزاتِ الإجرائيّةِ في الخطابِ الاستشراقيّ؛ التي تحوّلَ من خلالِها الشّرقُ من (ذاتٍ) مُتكلّمةٍ إلى (موضوعٍ) للدّراسةِ والتّشريحِ البنيويّ والتّاريخيّ.

إنَّ المنهجَ اللُّغويّ في سياقِ الاستشراقِ لم يكنْ أداةَ استكشافٍ مُحايدةٍ، بل كانَ (آليّةً إجرائيّةً) مُمنهجةً أتاحتْ للمستشرقِ تفكيكَ البنى الثّقافيّةِ والدِّينيّةِ للمُجتمعاتِ الشّرقيّةِ وإعادةَ تركيبِها بما يتوافقُ مع الرّؤيةِ المركزيّةِ الغربيّةِ. وحينما نُعاينُ المناهجَ اللُّغويّةَ داخلَ المتنِ الاستشراقيّ، نجدُ أنَّها تُشكّلُ (الجهازَ التّنفيذيّ) الذي يمنحُ الخطابَ صبغتَهُ العلميّةَ الصّارمةَ. إنَّ تركيزَ هذا الفصلِ على المناهجِ اللُّغويّةِ ينطلقُ من رؤيةٍ نقديّةٍ تفحّصُ هذه الأدواتِ بوصفِها أهمَّ المرتكزاتِ الإجرائيّةِ في الخطابِ الاستشراقيّ؛ لكونِ الإجراءِ اللُّغويّ هو الذي شرعنَ الأحكامَ الاستشراقيّةَ عبرَ إضفاءِ طابعِ (العلميّةِ والموضوعيّةِ) على قراءاتٍ تفكيكيّةٍ غايتُها إثباتُ قصورِ اللُّغةِ أو ارتباطِها بذهنيّةٍ نمطيّةٍ محدّدةٍ؛ فاللُّغةُ لم تُدرسْ لذاتِها حسب، بل استُعملتْ بوصفها أداةً تشريحيّةً للنفاذِ إلى الوعي الدّينيّ والاجتماعيّ والسّياسيّ للإنسانِ الشّرقيّ.

ويطيبُ لي أنَّ اتطرق إلى هذه المرتكزاتِ الإجرائيّةِ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ بحسبِ ما يأتي:

## المبحثُ الأوّلُ

## إسهاماتُ المستشرقينَ في المناهجِ اللُّغويّةِ

حظيتِ المناهجُ اللُّغويّةُ بعناية بالغةٍ ومُمتدّةٍ من لدن ثُلّةٍ من الباحثينَ والعلماءِ في حقلِ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ، ولم ينحصرْ هذا الاهتمامُ في دراسةِ اللُّغةِ العربيّةِ حسب، بل شملَ لغاتٍ بشريّةً شتّى. وقد شهدَ هذا المنحى المنهجيّ في الآونةِ الأخيرةِ طفرةً علميّةً ونهوضًا معرفيًّا ملحوظًا، انعكستْ آثارهُ بوضوحٍ في غزارةِ المؤلّفاتِ والمُصنّفاتِ العربيّةِ المُعاصرةِ التي تصدّتْ بالبحثِ والدّراسةِ لقضايا لُغويّةٍ مُتنوّعةٍ وشديدةِ الأهمّيّةِ. وتوزّعتْ هذه الدِّراساتُ لتشملَ المُستوياتِ اللُّغويّةَ المختلفةَ، بدءًا من الجوانبِ النّحويّةِ، واللُّغويّةِ، والوصفيّةِ، وصولًا إلى الدِّراساتِ الصّوتيّةِ. وعمدتْ تلك الجهودُ إلى عقدِ مقارناتٍ علميّةٍ رصينةٍ بينَ ما استقرَّ في التّراثِ اللُّغويّ وما استجدَّ من أُطروحاتٍ ونظرياتٍ في فضاءِ الدّرسِ اللُّغويّ الحديثِ(١).

ولا يفوتُ الباحثَ في هذا المقامِ الإشارةُ إلى أنَّ هذه الدِّراساتِ الاستشراقيّةَ والحديثةَ قد أسهمتْ إسهامًا فعّالًا في إماطةِ اللِّثامِ عن الأصولِ المنهجيّةِ والأفكارِ التّأسيسيّةِ في تاريخِ اللُّغةِ العربيّةِ ودراساتِها التّراثيّةِ. وتجلّى ذلك بوضوحٍ عبرَ تفعيلِ آليّةِ المُقارنةِ المنهجيّةِ بينَ اللُّغةِ العربيّةِ والمناهجِ اللُّغويّةِ المُعاصرةِ، وهو ما فتح آفاقًا جديدةً مكّنتْ من إعادةِ قراءةِ التُّراثِ اللُّغويّ العربيّ القديمِ واستنطاقهِ في ضوءِ المُعطياتِ والمُكتشفاتِ التي أفرزَها علمُ اللُّغةِ المُعاصرِ.

وهنا يثورُ تساؤلٌ إبستمولوجيّ لدى الدّارسِ حولَ ماهيّةِ المنهجِ، والقيمةِ العلميّةِ المُتوخّاة من دراستِهِ، فضلًا عن البحثِ في جذورِ هذه المناهجِ العربيّةِ والحديثةِ وكيفيّةِ تشكّلِها وتولُّدِها في الفكرِ الإنسانيّ.

---

(١) ينظر: منهج البحث اللُّغويّ بين التّراث وعلم اللُّغة الحديث: ٧.

إنَّ المنهجَ في جوهرِهِ الاصطلاحيّ والواقعيّ ليس إلّا خطّةً محكمةً ومنظّمةً تتألّفُ من عملياتٍ ذهنيّةٍ وحسّيّةٍ مُتضافرةٍ ومُتعدّدةٍ، يستهدفُ الباحثُ من خلالِها الكشفَ عن الحقائقِ العلميّةِ أو إقامةَ البراهينِ والتّحقّقَ من صحّتِها. وبناءً على ذلك، يُمثّلُ المنهجُ مصفوفةً من الخطواتِ المنطقيّةِ والإجرائيّةِ الصّارمةِ التي يقتفي الدّارسُ أثرَها في أثناءِ معالجتِهِ للظواهرِ اللُّغويّةِ؛ الأمرُ الذي يضمنُ إضفاءَ طابعِ الموضوعيّةِ والدّقّةِ والنّزاهةِ على مسارِ العمليّةِ البحثيّةِ برمّتِها. وأنَّهُ يُسلّحُ الباحثَ بالأدواتِ المعرفيّةِ اللّازمةِ للوصولِ إلى البياناتِ الميدانيّةِ، والوقائعِ الملموسةِ، والقوانينِ الكلّيّةِ التي تنقادُ لها تلك الظّواهرُ اللُّغويّةُ، أو التي تُيسّرُ فهمَها وتفكيكَها وتحليلَها بشكلٍ علميّ سليمٍ(١).

وأمّا عندَ تقصّي الأصولِ التّاريخيّةِ لهذه المناهجِ، فنجدُ أنَّها تشكّلتْ وتبلورتْ نتاجًا لتراكمِ خبراتٍ وتجاربَ بحثيّةٍ كثيرةٍ ومتجذّرةٍ في عُمقِ تاريخِ البحثِ العلميّ؛ فإذا ما غاصَ الباحثُ في بواطنِ تاريخِ العلومِ اللُّغويّةِ العربيّةِ، سيلحظُ من دونِ عناءٍ أنَّ ثمَّةَ أثارًا وإرهاصاتٍ منهجيّةً واضحةً كانتْ قائمةً ومستعملةً لدى علماءِ اللُّغةِ الأوائلِ؛ ومن أبرزِهم: الخليل وسيبويه، وابن جنّي، وابن فارس (ت٣٩٥هـ)، والثّعالبيّ (ت٤٢٩هـ)، وغيرُهم من فحولِ التّراثِ اللُّغويّ. وأمّا في العصرِ الحديثِ، فقد بلغتْ هذه المناهجُ طورَ النّضجِ التّامِّ، واستقامتْ معالِمُها وحدودُها الإجرائيّةُ بشكلٍ لافتٍ، حتّى غدا بمقدورِ الباحثِ والدّارسِ المُعاصرِ الارتكازُ إلى قواعدَ منهجيّةٍ واضحةٍ ومحدّدةٍ يسترشدُ بها في غمارِ بحثِهِ اللُّغويّ(٢).

والحقُّ أنَّ البحثَ اللُّغويّ عندَ العربِ في بواكيرِ نشأتِهِ قد سلكَ مناهجَ متباينةً، واستندَ إلى أُسسٍ معرفيّةٍ شتّى، متّبعًا مساراتٍ ومسالكَ مُتعدّدةً صاغتْ في مُجملِها الملامحَ العامّةَ لمنهجيّتِهم الخاصّةِ في معالجةِ الدّرسِ اللُّغويّ. بيدَ أنَّ السّمةَ الغالبةَ على تلك المنهجيّةِ القديمةِ

---

(١) ينظر: البديل المنهجيّ لدراسة العربيّة عند المستشرقين: ١٤.

(٢) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ١٦- ١٧.

كانتْ تتمثّلُ في الالتزامِ الصّارمِ بالمنحى المعياريّ. ولم تكنْ هذه المعياريّةُ في واقعِ الأمرِ عبارةً عن نسقٍ نظريّ متكاملِ الأركانِ بالمفهومِ الاصطلاحيّ المُعاصرِ _ولا سيّما في الحقلِ النّحويّ_ بل كانتْ بمثابةِ استجابةٍ عمليّةٍ وضرُورةٍ حتميّةٍ فرضتْها الحاجةُ الملحّةُ لصونِ واستقرارِ اللُّغةِ القرآنيةِ، وإبرازِ ثوابتِها البنيويّةِ، وذلك عبرَ الوقوفِ الدّقيقِ عندَ القواعدِ المُطّردةِ والشّائعةِ وضبطِ وجوهِ الاستعمالِ الصّحيحِ للسانِ العربيّ.

ومِمّا يسترعي الانتباهَ والتّأكيدَ في هذا السّياقِ، أنَّ المنهجيّةَ التّراثيّةَ المتّبعةَ كانتْ قد اصطبغتْ بصبغةٍ تعليميّةٍ وتربويّةٍ واضحةٍ، بموازاةِ عُمقِها التّأصيليّ والتّقعيديّ؛ إذ انصبّتْ جهودُ العلماءِ على تقديمِ التّعليلاتِ اللُّغويّةِ، وبيان الأسبابِ والعللِ المفسّرةِ للظواهرِ التي رأوها مقنعةً، مع حرصِهم البالغِ على تجنّبِ الوقوعِ في التّناقضِ والتّعارضِ عندَ صياغةِ القواعدِ والأحكامِ اللُّغويّةِ. ومع ذلك، فإنَّ مدوّنات علماءِ العربيّةِ القُدماء ومصنّفاتِهم لم تخلُ من إشاراتٍ فطريّةٍ ذكيّةٍ تتقاطعُ مع ملامحِ المنهجينِ التّاريخيّ والوصفيّ بمفهومِهما الحديثِ؛ إذْ نجدُ في متونِ كُتبِهم رصدًا لتطوّرِ بعضِ الظّواهرِ اللُّغويّةِ عبرَ الزّمنِ، ووصفًا دقيقًا لصورِ والاستعمالِ اللّسانيّ وجوهِه ، فضلًا عن التّميّزِ في طرائقِ عرضِ المادّةِ اللُّغويّةِ وتبويبِها. إلّا أنَّ تلك الإشاراتِ والالتفاتاتِ التّراثيّةَ بقيتْ في معظمِها حبيسةَ الملاحظاتِ العابرةِ والخواطرِ الجزئيّةِ، ولم ترتقِ لتتغلغلِ في أعماقِ الظّاهرةِ اللُّغويّةِ بصفتِها نظامًا تاريخيًّا واجتماعيًّا مُتكاملًا ومُستقلًّا[1]. ورغمَ ذلك، تظلُّ تلك الجهودُ جديرةً بالإشادةِ والالتفاتِ بوصفِها إرهاصاتٍ تأسيسيّةً أولى أسهمتْ بشكلٍ غيرِ مباشرٍ في صياغةِ الرّؤية المنهجيّة وتشكيلها في العصورِ اللّاحقةِ. وقد أدركَ المستشرقونَ قيمةَ هذه الجهودِ، فأفادوا في دراساتِهم اللُّغويّةِ مِمّا تضمّنَتهُ مصنّفاتُ علماءِ اللُّغةِ العربِ القُدماء، واتّخذوها ركيزةً أساسيّةً في الكثيرِ من بحوثِهم، سواءٌ على صعيدِ عرضِ المادّةِ اللُّغويّةِ أم على صعيدِ تحليلِها ونقدِها وتقويمِها، غيرَ أنَّ تلك

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ١٠.

الاستفادةَ تمّتْ عبرَ إعادةِ توظيفِ المادّةِ التّراثيّةِ داخلَ أطرٍ ونماذجٍ منهجيّةٍ حديثةٍ ومعاصرةٍ(١).

لقد غدتْ مناهجُ البحثِ اللُّغويّ بمثابةِ الدّعائمِ الرّصينةِ والرّكائزِ الأساسيّةِ التي ينهضُ عليها البحثُ العلميّ؛ نظرًا إلى أنَّ علمَ اللُّغةِ في حقيقتِهِ البنيويّةِ يقومُ على هذه المناهجِ. فعلمُ اللُّغةِ يستلزمُ وجودَ منهجٍ رصينٍ يدرسُ الظّاهرةَ اللُّغويّةَ لذاتِها وفي ذاتِها، ويعملُ على إقصاءِ واستبعادِ كلِّ المُؤثّراتِ والعواملِ المُقحمةِ التي تقعُ خارج كيانِ اللُّغةِ ونظامِها الدّاخليّ، وذلك بُغيةَ الوصولِ إلى كُنهِ حقائقِها وقوانينِها الحاكمةِ(٢). من هنا، عُدّتْ مناهجُ البحثِ اللُّغويّ من أبرزِ المُخرجاتِ المعرفيّةِ وأهمِّها التي تمخّضَ عنها الدّرسُ اللُّغويّ الحديثُ، فلا يستقيمُ بحثٌ لغويّ، ولا يُمكنُ الرّكونُ إلى نتائجَ علميّةٍ دقيقةٍ، ما لم يكنِ المنهجُ المعتمَدُ في دراسةِ اللُّغةِ منهجًا صحيحًا، دقيقًا، وملائمًا لطبيعةِ الدّراسةِ. فالمنهجُ الذي يرتضيهِ الباحثُ ويسيرُ على هداهُ في مقاربةِ المادّةِ اللُّغويّةِ، إذا كانَ متوافقًا ومُنسجمًا مع طبيعةِ اللُّغةِ بوصفِها ظاهرةً إنسانيّةً واجتماعيّةً، قادَ البحثَ بالضّرورةِ إلى نتائجَ علميّةٍ منضبطةٍ ويقينيّةٍ. أمّا في حالِ عدم ملاءمةِ المنهجِ لطبيعةِ هذه الظّاهرةِ، فإنَّ النّتائجَ ستكونُ مختلّةً ومشوّهةً ولا يُمكنُ التّعويلُ عليها في الأوساطِ العلميّةِ. ومفادُ ذلك، أنَّ المنهجَ المُتّبعَ في الدّرسِ اللُّغويّ يجبُ أنْ يكونَ نابعًا ومستمدًّا من طبيعةِ البنيةِ اللُّغويّةِ ذاتِها، وألّا يكونَ مستعارًا أو مقحمًا من تصوّراتٍ أو أفكارٍ فلسفيّةٍ غريبةٍ عن كينونتِها. وينبغي أنْ يتّسقَ المنهجُ مع الدّافعِ العلميّ الذي يحفزُ الباحثَ، والغايةِ المعرفيّةِ التي ينشدُ تحقيقها من وراءِ بحثِهِ(٣).

وفي هذا الإطارِ، تلزمُ الإشارةُ إلى جملةٍ من الشّروطِ والضّوابطِ التي يجبُ أنْ تتوافرَ

---

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ١٠.

(٢) ينظر: علم اللُّغة العام: ٣٩.

(٣) ينظر: مناهج في بحث اللُّغويّ بين التّراث والمعاصرة :٧.

في باحثِ الدّرسِ اللُّغويّ؛ إذْ يتعيّنُ عليهِ أنْ يكونَ مستوعبًا ومحيطًا بقواعدِ مناهجِ البحثِ اللُّغويّ وآليّاتِها الإجرائيّةِ، من دون أنْ يقودَهُ ذلك إلى التّعصُّبِ الأعمى لمنهجٍ بعينهِ أو الانفرادِ بهِ من دون سواه. ذلك أنَّ الانكفاءَ على منهجٍ واحدٍ واعتزالِهِ بقيّةِ المناهجِ قد يورّثُ قصورًا في الرّؤيةِ، وعجزًا عن مُعالجةِ بعضِ الظّواهرِ اللُّغويّةِ المعقّدةِ. فإذا ما وظّفَ الباحثُ المنهجَ الوصفيّ في دراسةِ جزئيّةٍ لغويّةٍ محدّدةٍ، ثمَّ جابهتهُ عوائقُ أو صعوباتٌ بنيويّةٌ، وجبَ عليهِ الانتقالُ بمرونةٍ إلى المنهجِ التّاريخيّ أو أيّ منهجٍ آخرَ كفيلٍ بتفكيكِ تلك المُشكلاتِ، مستعينًا بما تُمليهِ وتقتضيهِ طبيعةُ المادّةِ اللُّغويّةِ نفسها. فاللُّغةُ هي الميدانُ الخصبُ الذي تتعاورُ عليه المناهجُ اللُّغويّةُ المُتعدّدةُ بإمكاناتِها المتباينةِ بهدفِ الكشفِ عن حقيقتِها. وما يتوصّلُ إليهِ الباحثُ من نتائجَ وخلاصاتٍ عبرَ تطبيقِ منهجٍ معيّنٍ في مستهلِّ عملِهِ، قد يأتي منهجٌ آخرُ ليتمّمهُ، أو يعزّزهُ، أو يُصوّب مسارهُ؛ ومن ثمَّ فإنَّ تعدّدَ المناهجِ اللُّغويّةِ لا يعني بحالٍ من الأحوالِ وجودَ تعارضٍ أو تضادٍّ بينها، بل يعكسُ حالةً من التّكاملِ والتّعاضدِ المعرفيّ في سبيلِ خدمةِ الحقيقةِ العلميّةِ[1]. وبناءً عليهِ، يُمكنُ للباحثِ الاستعانة بأدواتٍ وآلياتٍ منهجٍ معيّنٍ في مرحلةٍ ما، ثُمَّ يلتزمُ بمسارِ منهجٍ آخر، شريطةَ أنْ يقودَهُ هذا الصّنيعُ إلى الحقيقةِ التي تُمثّلُ الغايةَ الأسمى المُنشودة التي تتطلّعُ إليها كافّةُ المناهجِ العلميّةِ. فالمناهجُ اللُّغويّةُ في نهايةِ المطافِ وسائلُ وطرائقُ إجرائيّةٌ وظيفيّةٌ لتحقيقِ غاياتٍ معرفيّةٍ، والقيمةُ الحقيقيّةُ لأيّ منهجٍ إنّما تقاسُ بمدى نجاعتِهِ وما يُفضي إليهِ من نتائجَ علميّةٍ رصينةٍ. فإذا تبيّنَ للباحثِ أنَّ منهجًا ما يسيرُ بهِ نحوَ عوائقَ وصعوباتٍ تحولُ بينهُ وبينَ بُلوغِ هدفِهِ، وجبَ عليهِ العدولُ عنهُ فورًا والتّحوّلُ إلى منهجٍ بديلٍ يَكونُ أكثرَ كفاءةً وقدرةً على تحقيقِ الغايةِ العلميّةِ[2].

ولا يغيبُ عن الفطنِ أنَّ جُلَّ الأخطاءِ العلميّةِ والكبواتِ المعرفيّةِ التي يقعُ فيها الدّارسونَ

---

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٨.

للغةِ إنّما ترتدُّ في جوهرِها إلى سوءِ اختيارِ المنهجِ المُلائمِ؛ فغيابُ الرّؤيةِ المنهجيّةِ، أو عدمُ وضوحِ معالمِها، أو السّيرُ التّخبطي من دون بصيرةٍ كافيةٍ بخطواتِ المنهجِ وأسسِهِ، يؤدّي بالباحثِ مرغمًا إلى الوقوعِ في زلّاتٍ وأخطاءٍ علميّةٍ جسيمةٍ. ومن هنا تجلّتِ الضّرورةُ المُلحّةُ في أنْ يكونَ الباحثُ مقتنعًا اقتناعًا تامًّا وابتداءً بالمنهجِ الذي يتّخذهُ أداةً لدراستِهِ، وأنْ يكونَ على درايةٍ معرفيّةٍ وإجرائيّةٍ شاملةٍ بمسلّماتِهِ وخُطواتِهِ التّطبيقيّةِ(١).

وتتعدّدُ اتّجاهاتُ مناهجِ البحثِ اللُّغويّ وتتنوّعُ تنوّعًا كبيرًا بتنوّعِ الأغراضِ والدّواعي العلميّة التي تدفعُ الباحثينَ لدراسةِ اللُّغاتِ؛ إذْ إنَّ كلَّ غرضٍ بحثيّ يستلزمُ منهجًا خاصًّا يُمثّلُ الوسيلةَ المُثلى والأجدى لتحقيقِهِ، ولا يصحُّ بحالٍ إحلالُ منهجٍ آخرَ بديلٍ عنهُ ليقومَ مقامهُ. فالمنهجُ الذي يسلكُهُ دارسُ اللُّغةِ لغرضِ استنباطِ القواعدِ والأنظمةِ والقوانينِ البنيويّةِ التي تحكمُ لغةً ما في مرحلةٍ محدّدةٍ، أو التي يلتزمُ بها المُتكلّمونَ في نشاطِهم اللُّغويّ اليوميّ، يغايرُ تمامًا المنهجَ الذي يعتمدُ عليهِ باحثٌ آخرُ يرومُ تتّبعُ ظاهرةٍ لغويّةٍ معيّنةٍ في لغةٍ مخصوصةٍ بقصدِ الوقوفِ على جُذورِها التّاريخيّةِ ورصدِ تحوّلاتِها الزّمنيّةِ لمعرفةِ ما أصابَها من تطوّرٍ وتغيّرٍ على مرِّ العصورِ. ويختلفُ هذان المنهجان بدورِهما عن منهجِ الدّارسِ الذي يهدفُ إلى مقارنةِ لغةٍ ما بغيرِها من اللُّغاتِ الشّقيقةِ التي تنضوي تحتَ أرومةٍ وفصيلةٍ لغويّةٍ واحدةٍ؛ إذْ يقتضي هذا الغرضُ الأخيرُ رصدَ وجوهِ الشّبهِ والافتراقِ بينَ هذه اللُّغةِ وسائرِ لُغاتِ الفصيلةِ نفسِها، بُغيةَ الاهتداءِ إلى الأصلِ المشتركِ الأعلى لبعضِ الظّواهرِ اللُّغويّةِ في تلك اللُّغاتِ(٢).

وعندما انكبَّ المستشرقونَ على دراسةِ المناهجِ اللُّغويّةِ وتطبيقِها على الظّواهرِ العربيّةِ، أدركوا حجمَ تعدّدِها وتنوّعِها، فعملُوا جاهدين على تجديدِ طرائقِ البحثِ ووسائلِ الدّراسةِ، وسعوا نحو تقديمِ تفسيراتٍ وتحليلاتٍ علميّةٍ جديدةٍ لم يسبقْ لعلماءِ العربيّةِ القُدماء أنْ عالجوها

---

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٨.

(٢) ينظر: مناهج البحث اللُّغويّ: ٨ _ ٩.

أو نبّهوا إلى كنهها[١]. فالمناهجُ اللُّغويّةُ ليستْ قوالبَ متشابهةً، بل هي متباينةٌ تتفاوتُ بتفاوتِ الأهدافِ المعرفيّةِ التي يرومُ الباحثُ تحقيقَها في أثناءِ دراستِهِ للغاتِ، ومن ثمَّ يُحظرُ على الباحثِ العلميّ التّعصّبُ لمنهجٍ من دون غيرِهِ، ولا يحقُّ لهُ المُفاضلةُ المُطلقةُ والادّعاءُ بأفضليّةِ منهجٍ على آخر بشكلٍ عامٍّ؛ فكلُّ منهجٍ يمتلكُ مجالَهُ الخاصَّ وفضلَهُ المعرفيّ وحدودهُ التّطبيقيّةَ التي تفرضُها طبيعةُ الظّاهرةِ المدروسةِ والغايةُ العلميّةُ المتوخّاة[٢].

وعند تتّبعِ مسيرةِ الدّرسِ اللُّغويّ عبرَ تاريخِهِ الطّويلِ، تتأكّدُ صحّةُ هذه الطّروحاتِ؛ إذْ عرفَ الدّرسُ اللُّغويُّ مناهجَ متعدّدةً تباينتْ بتباينِ المرجعيّاتِ الفكريّةِ والاتّجاهاتِ العلميّةِ للغويّينَ. والمناهجُ في واقعِها المعرفيّ متداخلةٌ ومترابطةٌ شبكيًّا، ولا يُمكنُ الفصلُ الحاسمُ بينَها إلّا لأغراضٍ إجرائيّةٍ وتدريسيّةٍ بحتةٍ. وقد استقرَّ الرّأي المعاصرُ على تصنيفِ ثلاثةِ مناهجَ بوصفِها المناهجَ الأساسيّةَ والأمَّ في دراسةِ اللُّغةِ، وهي: المنهجُ التّاريخيّ، والمنهجُ الوصفيّ، والمنهجُ المُقارنُ[٣].

وقد شكّلتْ هذه المناهجُ الثّلاثةُ الأداةَ الطّيّعةَ والأبرزَ التي اتّكأ عليها المستشرقونَ في دراستِهم للغةِ العربيّةِ، مستصحبينَ معهم خبراتِهم المنهجيّةَ السّابقةَ التي اكتسبوها من دراسةِ اللُّغاتِ الأوربيّةِ. وكانتْ مدارسُ الاستشراقِ متبوعةً ومتأثّرةً في اعتمادِها لهذه المناهجِ بالزّخمِ العلميّ والحراكِ الفكريّ السّائدِ في بيئاتِهم الغربيّةِ؛ فعمدوا إلى استثمَّارِ تلك الأدواتِ والوسائلِ الحديثةِ وتطبيقِها على اللُّغةِ العربيّةِ، منطلقين من الأطرِ المنهجيّةِ التي درستْ بها لغاتُهم القوميّةُ. وبهذا الصّنيعِ، زاوجَ المستشرقونَ بينَ المناهجِ الغربيّةِ المألوفةِ لديهم وبينَ طرقِ معالجةِ اللُّغةِ العربيّةِ بعدَ أنْ تمكّنوا من ناصيتِها وأدواتِها، مِمّا أسهمَ بدرجاتٍ مُتفاوتةٍ في

---

(١) ينظر: مناهج الدّرس النّحويّ في العالم العربيّ في القرن العشرين: ١٩٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٨_٩.

(٣) ينظر: مقدّمة لدراسة فقه اللُّغة: ١٢٥، وتطبيقات في المناهج اللُّغويّة: ٢٧٨.

إضاءةِ جوانبَ خفيّةٍ من بنيةِ اللُّغةِ العربيّةِ، وتتّبعِ مسارِ تطوّرِها، ورصدِ صلاتِها البنيويّةِ باللُّغاتِ الأخرى[١]. وإذا ما أمعنّا النّظرَ في هذه المناهجِ، لوجدنا أنَّها ترسمُ الطّريقَ الواضحَ والسّبيلَ الأقومَ لدراسةِ اللُّغةِ من حيثُ آليّاتُ التّحليلِ، وتقعيدُ الأحكامِ، واستقراءُ الظّواهرِ، وصولًا إلى نتائجَ دقيقةٍ ومُمنهجةٍ؛ فهي تقومُ في أصلِها على البحثِ المُنظّمِ عبرَ خطواتٍ علميّةٍ تقودُ إلى أدلّةٍ ذهنيّةٍ أو مادّيّةٍ، وتنفردُ كلٌّ منها بخطواتٍ وأدواتٍ إجرائيّةٍ خاصّةٍ[٢].

ومِمّا يدلّلُ على ارتكازِ المستشرقينَ إلى مناهجِهم الغربيّةِ عندَ مقاربةِ اللُّغةِ العربيّةِ، ما صرّحَ بهِ المستشرقُ الألمانيّ (رودي بارت) في أثناءِ حديثِهِ عن الإسلامِ وتاريخِهِ؛ فقد أشارَ إلى أنَّهُ عند تعامُلِهِ مع المؤلّفاتِ العربيّةِ المُخطوطةِ والمطبوعةِ التي اشتغلَ عليها، قد سلكَ منهجًا يتماثلُ في أُسسِهِ وإجراءاتِهِ النّقاشيّةِ مع المنهجِ الذي يُطبّقهُ اللُّغويّونَ الغربيّون عُمومًا في دراسةِ لُغاتِهم القوميّةِ. وهذا يُؤكّدُ مدى تلاحمِ مناهجِ المستشرقينَ وارتباطِهم في نظرِهم للغةِ العربيّةِ بالمعاييرِ النّقديّةِ والتّحليليّةِ التي صُبغتْ بها لُغاتُهم الأصليّةُ[٣].

وقد انسحبَ هذا التّصوّرُ المعرفيّ نفسُهُ على مُجملِ دراساتِ المستشرقينَ للغاتِ الشّرقيّةِ عامّةً؛ إذ لم يكنِ الاهتمامُ باللُّغةِ لذاتِها يُمثّلُ الهدفَ الأوّلَ أو الأوحدَ دائمًا في بواكيرِ البحثِ، بل كانَ يُتّخذُ بوصفه جسرًا ومدخلًا معرفيًّا لفهمِ النّصوصِ الدّينيّةِ والتّاريخيّةِ واستيعابِ معانيها، وسياقاتِها. غيرَ أنَّ نفرًا من المستشرقينَ حين تضلّعوا في هذه الدّراساتِ وتجاوزوا هذا الطّورَ التّمهيديّ، انصرفتِ اهتماماتُهم نحو أهدافٍ لغويّةٍ خالصةٍ، دفعَهم إليها الرّصيدُ العلميّ للتعمّقِ في فهمِ الجوانبِ النّصّيّةِ والدّلاليّةِ، والكشفِ عن الخصائصِ البنيويّةِ الذّاتيّةِ للُّغةِ[٤].

---

(١) ينظر: البحث اللُّغويّ في دراسات المستشرقين الألمان: ١٩٢.

(٢) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٧.

(٣) ينظر: الدّراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة:١٠.

(٤) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ١٥.

ويُستدلُّ على هذا المنحى بالطّريقةِ المنهجيّةِ التي اختطّها المستشرقُ الهولنديّ (توماس إربينيوس) في مصنّفاتِهِ حولَ اللُّغةِ العربيّةِ، وكذلك صنيعِ المستشرقينِ الألمانيّينِ (كريستمان) و(شولتنس) وغيرِهم؛ إذْ اعتمدَ هؤلاء في تناولِهم للعربيّةِ على مناهجَ مُستقاةٍ مُباشرةً من دراساتِهم المُستفيضةِ للغاتِ الكلاسيكيّةِ القديمةِ (كاليونانيّةِ واللاتينيّةِ)، جاعلينَ من اللُّغةِ أداةً طيّعةً لفكِّ مغاليقِ النّصوصِ وتحليلِها أكثرَ من كونِها غايةً معرفيّةً مستقلّةً بذاتِها[١].

وكانتِ الذّريعةُ والحجّةُ التي تسلّحَ بها المستشرقونَ لتسويغِ اعتمادِهم على المناهجِ الغربيّةِ في دراسةِ العربيّةِ، هي رغبتُهم في تقديمِ هذه اللُّغةِ الشّريفةِ إلى القارئِ الغربيّ ضمنَ قالبٍ وإطارٍ معرفيّ مألوفٍ لديهِ؛ نظرًا لأنَّ دراساتِهم في المقامِ الأوّلِ كانتْ موجّهةً ومصاغةً لهذا القارئ الأجنبيّ، فعمدوا إلى عرضِ الظّواهرِ العربيّةِ على وفقِ المناهجِ السّائدةِ في بيئاتِهم العلميّةِ المُعاصرةِ لكي لا تبدو العربيّةُ لغةً غريبةً، غامضةً، أو عصيّةً على الفهمِ والاستيعابِ، لكونها تنتمي إلى أرومةٍ مُغايرةٍ للغتِهِ. ولذا، استقرَّ رأيُهم على أنَّ تقديمَ العربيّةِ بمنهجٍ يألفهُ المُتلقّي الغربيّ أولى وأجدى من عرضِها بمناهجَ تراثيّةٍ قد لا يستوعبُ أدواتِها[٢].

ومن ثمَّ، ابتكرَ المستشرقونَ مناهجَ مُتميّزةً في وصفِ اللُّغةِ العربيّةِ وتبسيطِ قواعدِها للمتعلّمِ الأجنبيّ؛ فسارَ تيّارٌ قليلٌ منهم على نهجِ المنظومةِ النّحويّةِ العربيّةِ التّراثيّةِ في التّعليمِ، في حينِ آثرتِ الكثرةُ الكاثرةُ منهم دراسةَ العربيّةِ وتحليلَها في ضوءِ المناهجِ اللُّغويّةِ التي اعتادوا تطبيقها على لُغاتِهم القوميّةِ. وانعكسَ هذا التّوجّهُ بوضوحٍ على طرائقِ عرضِهم للمادّةِ العربيّةِ وتفكيكِ ظواهرِها، مُنطلقين من أُطرٍ منهجيّةٍ غربيّةٍ رأوا فيها وسيلةً تُيسّرُ فهمَ العربيّةِ لغيرِ النّاطقينَ بها[٣].

---

(١) ينظر: المستشرقون الألمان: ١٦

(٢) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٩١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٧_ ١٨.

والجديرُ بالذّكرِ أنَّ نتاجَ المستشرقينَ لم يكنْ على وتيرةٍ واحدةٍ من حيثُ الالتزامُ بمنهجٍ وحيدٍ؛ فبعضُهم غضَّ الطّرفَ وصرفَ النّظرَ عن بقيّةِ المناهجِ نتيجةً لتعصُّبِهِ أو تزمّتِهِ لمنهجٍ محدّدٍ، بينما انتهجَ فريقٌ آخر أسلوبًا تكامليًّا مرنًا، يزاوجُ ويفيدُ من المناهجِ المُتعدّدةِ للبلوغِ إلى فهمٍ أعمقَ وأشملَ للظواهرِ اللُّغويّةِ(١).

وسنحاولُ في أثناءِ المباحثِ القادمة تسليط الضّوءِ على أبرزِ المناهجِ اللُّغويّةِ التي أسهمَ المستشرقونَ في توظيفِها لدراسةِ المادّةِ اللُّغويّةِ العربيّةِ، وذلك من خلالِ رصدِ الدِّراساتِ والبحوثِ الاستشراقيّةِ وتتبّعِها التي طُبّقتْ إجرائيًّا على اللُّغةِ العربيّةِ. فقد تعاملَ اللُّغويّونَ المستشرقونَ مع المادّةِ العربيّةِ بصبرٍ وأناةٍ، وتؤدةٍ بالغة، مستندينَ في ذلك إلى اطّلاعٍ واسعٍ وإحاطةٍ معرفيّةٍ بمناهجِ البحثِ اللُّغويّ. ولا ينبغي لنا في هذا السّياقِ إغفالُ ما امتلكوه من درايةٍ دقيقةٍ بمناهجِ البحثِ في المدرسةِ الاستشراقيّةِ، فضلًا عن ملكتِهم في الرّبطِ واللّمِّ بينها وبينَ مناهجِ البحثِ اللُّغويّ بوجهٍ عامٍّ. وسنقفُ وقوفًا تفصيليًّا عند أبرزِ المناهجِ التي ساروا عليها في دراساتِهم، وهي: المنهجُ التّاريخيّ، والمنهجُ المقارنُ، والمنهجُ الوصفيّ، مع السّعي الحثيثِ للرجوعِ إلى نماذجَ تطبيقيّةٍ من الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ، لتوضيحِ المناهجِ التي اعتمدَها أصحابُها في تحليلِ وفحصِ اللُّغةِ العربيّةِ(٢).

وقد انتفعَ المستشرقونَ انتفاعًا عظيمًا بهذه المناهجِ بعد تطبيقِها بنجاحٍ في دراسةِ لُغاتِهم القوميّةِ، مِمّا جعلَها في مقدّمةِ المناهجِ المُعتمدةِ لدراسةِ العربيّةِ، ولا سيّما بعدَ الطّفرةِ والتّطوّرِ الكبيرِ الذي شهدَهُ حقلُ الدِّراساتِ اللُّغويّةِ في القرنِ التّاسعَ عشرَ، وتحديدًا عقبَ اكتشافِ اللُّغةِ السّنسكريتيّةِ وإماطةِ اللّثامِ عن صلاتِ القرابةِ البنيويّةِ التي تجمعُها باللّاتينيّةِ والإغريقيّةِ وغيرِها من اللُّغاتِ الأوربيّةِ. ومُنذُ ذلك التّاريخِ الفاصلِ، تبلورتِ الدِّراساتُ اللُّغويّةُ واستقرّتْ في إطارِ

---

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة ١٦_١٧.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٨ _٩.

المناهجِ الثّلاثةِ الرّئيسةِ السّالفةِ الذّكرِ[١].

(١) ينظر: المدخل الى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ: ١٨١.

## المبحثُ الثّاني

## المنهجُ التّاريخيّ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ

قبلَ الولوجِ في بيانِ المفهومِ الاصطلاحيّ للمنهجِ التّاريخيّ وحدودِهِ الإجرائيّةِ، يحسنُ بنا أولًا توضيحُ العلّةِ المنهجيّةِ التي دعتنا للبدء بدراسةِ المنهجِ التّاريخيّ وتقديمِهِ على المناهجِ الأخرى، ولا سيّما المنهجُ الوصفيّ. فعندَ الاطّلاعِ على الدِّراساتِ السّابقةِ ومراجعةِ تاريخِ العلمِ، يتّضحُ لنا أنَّ المنهجَ التّاريخيّ يُعدُّ أسبقَ المناهجِ ظُهورًا وتبلورًا في ميدانِ البحثِ اللُّغويّ؛ إذْ تقدّمَ تاريخيًّا على المنهجِ الوصفيّ الذي لم يزدهرْ ويستقرَّ بوصفه كيانًا معرفيًّا مستقلًّا إلّا في أواخرِ القرنِ التّاسعَ عشرَ ومطلعِ القرنِ العشرينَ. ولا يفوتُنا الإشارةُ إلى أنَّ المستشرقينَ في بداياتِ القرنينِ الثّامنَ عشرَ والتّاسعَ عشرَ قد وقعوا تحتَ تأثيرِ المنهجِ التّاريخيّ أوّلًا، وكانَ لهُ القدحُ المعلّى والأثرُ الأبرزُ في توجيهِ دفّةِ دراساتهم اللُّغويّةِ المبكّرةِ؛ فقد عكفوا في البدءِ على دراسةِ التّراثِ العربيّ القديمِ وتفكيكِهِ، لينطلقوا بعد ذلك نحوَ الاهتمامِ باللُّغاتِ العربيّةِ المعاصرةِ والحديثةِ(١).

ويُعنى المنهجُ التّاريخيّ، في توصيفِهِ الوظيفيّ، بدراسةِ اللُّغةِ ووصفها من خلالِ رصدِ وبيانِ ما يعتريها من تغيّراتٍ وتحوّلاتٍ وتطوّراتٍ في صورِ استعمالها عبرَ امتدادِ الزّمانِ والمكانِ. فهو يقومُ بمراقبةِ صيرورةِ الظّاهرةِ اللُّغويّةِ وتتبُّعِها تتبّعًا دقيقًا؛ ليرسمَ لها مسارًا تاريخيًّا بيانيًّا يوضّحُ كيفيّةَ استعمالِها، ويكشفُ عمّا يتّصلُ بها من عوارضَ تتعلّقُ بمدى كثرةِ شيوعِها أو قلّةِ ورودِها، وعواملِ حياتِها واستمرارِها أو اندثارِها وزوالِها من الاستعمالِ اللّسانيّ، مع السّعي الحثيثِ لاستخلاصِ القوانينِ الكلّيّةِ والصّيروراتِ الحاكمةِ لتلك الظّاهرةِ(٢).

---

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٢٣.

(٢) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٢١، وفي علم اللُّغة : ١١٨ _ ١١٩.

ولأجلِ هذا، عُدَّ المنهجُ التّاريخيّ بمثابةِ الوسيلةِ الأساسيّةِ والأداةِ الأوثقِ للوقوفِ على تاريخِ اللُّغةِ وفهمِ ظواهرها، ورصدِ حركتِها وانتقالِها من عصرٍ تاريخيّ إلى عصرٍ آخر. فهو يُزيحُ السّتارَ عن المسارِ الحقيقيّ للتّغيّرِ والتّطوّرِ الذي يمسُّ البنيةَ الصّوتيّةَ، والصّرفيّةَ، والنّحويّةَ، والمعجميّةَ للغةِ. حتّى إنَّ مُصطلحَ (علمِ اللُّغةِ التّاريخيّ) قد غدا علمًا على كلِّ الدِّراساتِ والبحوثِ اللُّغويّةِ التي اتّخذتْ هذا المنحى المنهجيّ، واعتمدتْ على أدواتِهِ الإجرائيّةِ وآليّاتِهِ العلميّةِ(١).

وينصبُّ جلُّ اهتمامِ المنهجِ التّاريخيّ على دراسةِ لُغةٍ واحدةٍ بعينِها عبرَ امتدادِها الزّمنيّ الطّوليّ، فيرصدُ بدقّةٍ بالغةٍ ما يطرأُ عليها من تطوّراتٍ مسّتْ مُستوياتِها البنيويّةَ المختلفةَ (الصّوتيّةَ، والصّرفيّةَ، والنّحويّةَ، والمعجميّةَ)(٢). ويتتبّعُ مسيرتَها عبرَ الحُقبِ والعصورِ التّاريخيّةِ المتلاحقةِ مُتلمّساً القوانينَ المفسّرةَ للتغيّرِ اللُّغويّ، والوقوفَ على أسبابِهِ وعواملِهِ المتنوّعةِ؛ سواءٌ أكانتْ عواملَ داخليّةً نابعةً من طبيعةِ النّظامِ البنيويّ للغةِ نفسِها، أم عواملَ خارجيّةً مرتبطةً بالظّروفِ السّياسيّةِ، والاجتماعيّةِ، والحضاريّةِ، والثقافيّةِ التي تحيطُ بالجماعةِ اللُّغويّةِ(٣).

وتأسيسًا على ما تقدّمَ، يتّضحُ أنَّ المنهجَ التّاريخيّ يرتكزُ في مُقوماتِهِ الأساسيّةِ على عُنصرِ (الزّمانِ)، بوصفِهِ الوعاءَ والإطارَ الحتميّ الذي تتخلّقُ في أثنائِهِ حركةُ اللُّغةِ وتطوّرُها. فالمنهجُ التّاريخيّ يفسّرُ المظاهرَ اللُّغويّةَ على أنَّها ليستْ قوالبَ جامدةً أو ثابتةً، بل هي في

(١) ينظر: المنهج التّاريخيّ والمنهج المقارن في الدِّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ١١.
(٢) ينظر: دراسات في علم اللُّغة: ١٩، وعلم اللُّغة العربيّة مدخل تاريخيّ مقارن في ضوء التّراث واللّغات السّاميّة ٣٩ _ ٤٠
(٣) ينظر: أصول اللّسانيّات الحديثة وعلم العلامات: ٩١.

حالةِ تحوّلٍ وتغيّرٍ سرمديّ مستمرٍّ يخضعُ لعواملَ مُتعدّدةٍ[١]. ومن هذا المنطلقِ، امتدَّ اهتمامُ المنهجِ التّاريخيّ ليشملَ دراسةَ الظّروفِ السّياسيّةِ والاجتماعيّةِ والثقافيّةِ المُحيطةِ باللُّغةِ، معوّلًا في ذلك تعويلًا كاملًا على كلِّ ما هو مكتوبٌ، ومدوّنٌ، وموثّقٌ في صلبِ النّصوصِ. ولذلك، انكبَّ جمعٌ غفيرٌ من المستشرقينَ على دراسةِ اللُّغةِ العربيّةِ التّراثيّةِ كما سُجّلتْ في أمَّاتِ كُتبِ القُدماء، ولم يغفلوا في الوقتِ نفسِهِ عن دراسةِ اللّهجاتِ، مُتتبّعينَ الظّواهرَ اللُّغويّةَ في أقدمِ صُورِها المُتاحةِ عبرَ الوثائقِ والمدوّناتِ النّصّيّةِ التّاريخيّةِ[٢].

وأمّا في ما يتعلّقُ بالقيمةِ العلميّةِ والأهمّيّةِ البالغةِ للمنهجِ التّاريخيّ في حقلِ الدِّراساتِ العربيّةِ، فإنَّها تتبدّى في مكنتِهِ العاليةِ على تتبّعِ المُتغيّراتِ اللُّغويّة التي تطرأُ على جسمِ اللُّغةِ عبرَ حُقبٍ زمنيّةٍ مُتطاولةٍ، ومُلاحظةِ سلوكِ الظّواهرِ اللُّغويّةِ وتقلُّباتها خلالَ تلك المراحلِ، للكشفِ عمّا لحقَ بها من تطوّرٍ وتغيّرٍ[٣]. فحينما يتّخذُ الباحثُ اللُّغويّ من المنهجِ التّاريخيّ أداةً ومرتكزًا لدراستِهِ، فإنَّهُ يُعنى عنايةً فائقةً بمراقبةِ صيرورةِ الظّاهرةِ اللُّغويّةِ عبرَ الزّمنِ، ويرسمُ مسارَها بدقّةٍ من حيثُ ذيوعُها واستعمالُها أو ضيقُ نطاقِها، وحياتُها أو موتُها، ثمّ يشرعُ في التّنقيبِ عن القوانينِ المُتحكّمةِ في هذا التّطوّرِ، وبيان العواملِ اللُّغويّةِ والحضاريّةِ التي وجّهتْ مسارَ الظّاهرةِ. وبذلك، يجدُ الباحثُ التّاريخيّ نفسهُ مطالبًا بالإجابةِ عن حزمةٍ من التّساؤلاتِ الجوهريّةِ المُتّصلةِ بتاريخِ الظّاهرةِ؛ من قبيلِ: ما أصلُها الأوّلُ؟ وما مراحلُ تطوّرِها؟ وما المآل الذي انتهتْ إليهِ؟ وما الاتّجاهُ والمنحى المستقبليّ الذي تسيرُ نحوه؟. ولتحقيقِ ذلك، ينطلقُ في رحلتِهِ البحثيّةِ مستندًا إلى أقدمِ المصادرِ والمظانِّ المكتوبةِ التي وردتْ فيها الظّاهرةُ، مُتتبّعًا إيّاها مرحلةٍ تلو مرحلةٍ، وصولًا إلى تجلّياتِها واستعمالاتِها في العصرِ

---

(١) ينظر: لغات البشر: ٧٣.

(٢) ينظر: المذاهب النقديّة: ١٨٠_١٨٤ .

(٣) ينظر: الاتّجاهات النّحويّة لدى القدماء دراسة تحليليّة في ضوء المناهج المعاصرة: ٢٦٢.

الحاضرِ، مبيّنًا ومفسّرًا كلَّ ما عراها من تغيّرٍ وتحوّرٍ في رحلتِها الطّويلةِ عبرَ الزّمانِ والمكانِ(١).

**أوّلًا: بدايةُ النّشأةِ:**

قبلَ الاستفاضةِ في الحديثِ عن نشأةِ المنهجِ التّاريخيّ وتطوّره في المدرسةِ الاستشراقيّةِ، يجدرُ بنا وبشكلٍ مُوجزٍ استعراضُ المنهجِ اللُّغويّ الذي اختطّهُ علماءُ اللُّغةِ العربيّةِ القُدماء في دراساتِهم؛ نظرًا لما ينطوي عليهِ هذا الاستعراضُ من أهمّيّةٍ في بيان نقاطِ الالتقاءِ والافتراقِ بين المنهجينِ التّراثيّ والحديثِ، وفهمِ الأسسِ المعرفيّةِ التي انطلقَ منها كلُّ فريقٍ في معالجتِهِ للظواهرِ اللُّغويّةِ. فمن المُستقرِّ والمُقرّرِ علميًّا أنَّ علماءَ اللُّغةِ العربَ القُدماء قد حصروا جلَّ جهودِهم وركّزوا بحوثَهم على دراسةِ اللُّغةِ ضمنَ ما عُرفَ بـ(عصرِ الاحتجاجِ اللُّغويّ). ونتيجةً لهذا التّحديدِ الصّارمِ، جاءتِ الدِّراساتُ التّاريخيّةُ للغةِ العربيّةِ في العصورِ السّابقةِ محدودةَ النّطاقِ والمدى؛ إذْ حدّدَ العلماءُ تلك المرحلةَ الزّمنيّةَ بدءًا من العصرِ الجاهليّ، مرورًا بعصرِ صدرِ الإسلامِ وعصرِ بني أميّة، وانتهاءً بمنتصفِ القرنِ الثّاني الهجريّ (حوالي ١٥٠ هـ) بالنّسبةِ لحواضرِ وبلداتِ العربِ، (وما يقاربُ ٣٠٠ هـ) لساكني البوادي وعُمق الصّحراءِ، وهي مدّةٌ تُقدّرُ في مُجملِها بنحو ثلاثةِ قرونٍ تقريبًا. وكانتِ الغايةُ الكبرى والهدفُ الأسمى من وراءِ هذا التّحديدِ الزّمنيّ الدّقيقِ والمكانيّ الصّارم، هي صياغةُ وإيجادُ معاييرَ لغويّةٍ ثابتةٍ ومستقرّةٍ تلتزمُ بها الأجيالُ المُتعاقبةُ النّاطقةُ بالعربيّةِ في العصورِ اللّاحقةِ، فضلًا عن جعلِ معاييرِ لغةِ عصرِ الاحتجاجِ هي المرجعَ الأوحدَ والحجّةَ القاطعةَ للاستدلالِ على الفصحى(٢).

وبناءً على ذلك، يُمكننا القولُ إنَّ الدِّراساتِ التّاريخيّةَ كانتْ حاضرةً في صورتِها الجنينيّةِ

---

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٢٤، والمنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٣١.

(٢) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٢٣_ ٢٤.

والأوليّةِ في التّراثِ اللُّغويّ العربيّ؛ فقد حدّدَ علماءُ اللُّغةِ عصرَ الاحتجاجِ بأهدافٍ وغاياتٍ واضحةٍ، يأتي في مقدّمتِها صونُ اللّسانِ العربيّ وحفظُه في صورتِهِ المعياريّةِ النّموذجيّةِ المُرتبطةِ ارتباطًا عضويًّا بنصِّ القرآنِ الكريمِ، والسّنّةِ النّبويّةِ المُطهّرةِ، ولسانِ السّلفِ الصّالحِ من المُسلمينَ الأوائلِ(١). أمّا بالنّسبةِ للحقبِ والعصورِ التّاريخيّةِ التي تلتْ عصرَ الاحتجاجِ، فلم تحظَ بدراساتٍ تاريخيّةٍ تفصيليّةٍ ذات بالٍ؛ إذْ كانَ الالتفاتُ إليها التفاتًا هامشيًّا وعارضًا مقارنةً بالتّركيزِ المطلقِ على لُغةِ المعيارِ في عصرِ الاحتجاجِ، الأمرُ الذي وسمَ الدِّراساتِ التّاريخيّةَ في هذا الحقلِ بالضّيقِ والمحدوديّةِ لتفويتها المراحلَ التّاريخيّةَ اللّاحقةَ(٢).

إنَّ الصّنيعَ الذي أقدمَ عليه اللُّغويّونَ العربُ من وضعِ حدٍّ زمنيّ قاطعٍ لعصرِ الاحتجاجِ قد أفضى _بطريقةٍ أو بأخرى_ إلى إغلاقِ بابِ البحثِ اللُّغويّ في صيرورةِ اللُّغةِ العربيّةِ وتطوّرِها بعدَ تلك المرحلةِ؛ إذْ عدّتْ تلك الحدودُ سدًّا نهائيًّا لا يجوزُ تجاوزهُ في الاحتجاجِ والتّقعيدِ. وقد يُثيرُ هذا الموقفُ فضولَ المُتلقّي والدّارسِ المعاصرِ فيتساءلُ: كيف أسهمَ هذا التّحديدُ الزّمنيّ الصّارمُ في إغلاقِ باب البحث اللُّغويّ؟ والإجابةُ تكمنُ في أنَّ معظمَ علماءِ اللُّغةِ والباحثينَ قد أحجموا عن دراسةِ اللُّغةِ العربيّةِ وتطوّرِها من أيّ زاويةٍ منهجيّةٍ بعدَ هذا التّاريخِ الفاصلِ، بل إنَّهم أصدروا أحكامًا قاسيةً على الظّواهرِ والتّراكيبِ اللُّغويّةِ المُستحدثةِ التي ظهرتْ بعدَ عصرِ الاحتجاجِ، فعدّوها أمثلةً صريحةً للخطأ، والانحرافِ، واللّحنِ. ويكشفُ هذا الموقفُ المنهجيّ عن العلّةِ الكامنةِ وراء توقّفِ اللُّغويّينَ العربِ عندَ مرحلةٍ زمنيّةٍ معيّنةٍ من تاريخِ اللّسانِ العربيّ، مُخرجينَ ما تلاها من حُقبٍ عن دائرةِ اهتمامِهم البحثيّ الرّصين، بل إنَّهم نظروا إليها نظرةَ ازدراءٍ ورفضٍ، وعدّوا كلَّ ما استجدَّ فيها خُروجًا ومروقًا عن جادّةِ

---

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٢٤، والمنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٣١.

(٢) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٢٤.

الصّوابِ اللُّغويّ. ومن رحمِ هذا التّوجّهِ المعياريّ، نشأتْ حركةٌ علميّةٌ واسعةٌ استهدفتْ تنقيةَ اللُّغةِ وصونَها من الدّخيلِ، فظهرتِ المصنّفاتُ والكتبُ المُخصّصةُ لما عُرفَ بـ(كتبِ لحن العامّة) و(لحن الخواصّ). وكانتِ الغايةُ الأساسيّةُ من هذه المؤلّفاتِ هي رصد وتصحيح ما شاعَ على ألسنةِ النّاسِ من أوهامٍ وأخطاءٍ لغويّةٍ، وقياسها بالمعاييرِ الثّابتةِ التي رسمَها علماءُ اللُّغةِ الأوائلُ ضمنَ إطارٍ زمانيّ ومكانيّ محدّدٍ لا يقبلُ التّبديلَ[١].

وتأسيسًا على هذا التّحديدِ الصّارمِ للمرحلةِ الزّمنيّةِ والمكانيّةِ المُعتمدةِ من لدن النّحويّينَ واللُّغويّينَ، واستثناءً لبعضِ الإشاراتِ والإيحاءاتِ التّاريخيّةِ المُتفرقةِ التي تناثرتْ في كنهِ كلامِ جملةٍ من اللُّغويّينَ القُدماء، يُمكنُنا الخلاصُ بيقينٍ إلى أنَّ الدِّراساتِ التّاريخيّةَ بمفهومِها الاصطلاحيّ والإجرائيّ الذي يتبنّاهُ المنهجُ التّاريخيّ الحديثُ لم تتبلورْ ولم تنضجْ في التّراثِ اللُّغويّ العربيّ التّقليديّ[٢].

فقد كانتِ الرّغبةُ العارمةُ في حياطةِ لغةِ التّنزيلِ الحكيمِ والسّنّةِ السّنيّةِ وسيرةِ السّلفِ الصّالحِ هي الباعثَ الحقيقيّ والسّببَ الرّئيسَ وراء هذا التّحديدِ المعياريّ؛ ومن ثمَّ لم يولوا عصورَ التّطوّرِ اللّاحقةَ أدنى اهتمامٍ إلّا في الحدودِ الضّيّقةِ التي تردُّ النّاسَ وتجذبُهم نحوَ لغةِ المعيارِ الثّابتِ[٣]؛ على الرّغمِ من أنَّهم كانوا على وعي وفطنةٍ تامّةٍ بأنَّ اللُّغةَ في أصلِها كائنٌ حيّ يخضعُ لما تخضعُ لهُ الكائناتُ الحيّةُ من نواميسِ النّشأةِ، والنّموّ، والتّطوّرِ؛ لكونها ظاهرةً اجتماعيّةً بامتيازٍ تتخلّقُ وتنمو في أحضانِ المُجتمعِ الإنسانيّ وتحيا بهِ، وتستمدُّ كيانَها من عاداتِهِ، وتقاليدهِ، وأنماطِ سلوكِ أفراده، وتتطوّرُ وتتغيّرُ تبعًا لتطوّرِ المجتمعِ وتغيّرِهِ، فترتقي

(١) ينظر: المنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٣٢_ ٣٣.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٣
(٣) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٢٥.

برقيّهِ وتنحطُّ بانحطاطِهِ وتفكّكهِ(١).

إنَّ كلَّ ما سلفَ يُفسّرُ بوضوحٍ العلّةَ الكامنةَ وراءَ اقتصارِ العلماءِ القُدماء على دراسةِ اللُّغةِ حتّى عصرِ الاحتجاج؛ إذْ كانَ دافعُهم هو الحرصَ الشّديدَ على ثبوتيّةِ اللُّغةِ واستقرارِ بنيتِها، وصياغةِ معاييرَ دائميّةٍ تلتزمُ بها الأجيالُ عبرَ القرونِ. فلم يلتفتْ علماءُ العربيّةِ إلى العصورِ التّاريخيّةِ اللّاحقةِ إلّا في الحدودِ الوظيفيّةِ التي تخدمُ ترسيخَ لغةِ المعيارِ الثّابتةِ. ومن هنا، جاءَ اهتمامُهم بالتّاريخِ اللُّغويّ اهتمامًا انتقائيًّا، موجّهًا بضوابطَ معياريّةٍ محكمةٍ، لا بقصدِ تتبّعِ التّطوّرِ الزّمنيّ للغةِ لذاتِهِ. وعلى الرّغمِ من هذهِ الصّبغةِ المعياريّةِ، فإنَّ هذا التّحديدَ الزّمنيّ يُعدُّ في نظرِ النّقدِ الحديثِ بمثابةِ إرهاصٍ مبكّرٍ لنوعٍ من الوعي التّاريخيّ بالظّاهرةِ اللُّغويّةِ، أسهمَ لاحقًا في تشكيلِ التّصوّراتِ المنهجيّةِ وتوجيهِها في الدّرسِ اللُّغويّ العربيّ الحديثِ(٢).

غيرَ أنَّ التزامَ السّوادِ الأعظمِ من اللُّغويّينَ العربِ بالمعياريّةِ الصّارمةِ قد حالَ دون تتبّعِ التّطوّرِ اللُّغويّ في كافّةِ مراحلِهِ التّاريخيّةِ المتلاحقةِ. وربّما تناسى هؤلاء في غمرةِ حرصِهم أنَّ اللُّغةَ العربيّةَ قد تكفّلَ المولى _عزّ وجلّ_ بحفظِها وصونِها، فضمنَ لها ديمومتَها، وبقاءَها، وتميُّزها نطقًا وخطًّا عن سائرِ اللُّغاتِ الإنسانيّةِ القديمةِ والحديثةِ على حدّ سواءٍ؛ فلم تتعرّضِ اللُّغةُ العربيّةُ لما يُعرفُ في علمِ اللُّغةِ بـ(الهرمِ اللُّغويّ) الذي يقودُ حتمًا إلى موتِ اللُّغاتِ وفنائِها(٣).

ويوضّحُ ما سلفَ بيانُهُ أنَّ اهتمامَ علماءِ العربيّةِ كانَ مُنصبًّا بالكلّيّةِ على تثبيتِ صورةِ اللُّغةِ المعياريّةِ وحمايتِها، مِمّا نتجَ عنهُ غيابُ دراسةٍ تاريخيّةٍ شاملةٍ ورصدٍ دقيقٍ للتّحوّلاتِ

(١) ينظر: المنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٣٢.
(٢) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٢٤.
(٣) ينظر: المنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٣٢.

والتّطوّراتِ التي طرأتْ على اللّسانِ العربيّ عبرَ العصورِ في الدّرسِ اللُّغويّ التّقليديّ. وهو الأمرُ الذّاتيّ الذي تفطّنَ إليهِ الباحثونَ المُحدثونَ وعملوا على تلافيهِ عندَ تبنّيهم للمناهجِ التّاريخيّةِ والوصفيّةِ المعاصرةِ في دراسةِ اللُّغةِ(١). ولا ننسى في هذا المقامِ أنَّهُ لولا ذلك القيدُ الزّمنيّ والمكانيّ الصّارمُ الذي فرضَهُ النّحويّونَ واللُّغويّونَ الأوائلُ، لكانَ بمقدورِنا اليوم النّظرُ إلى تلك المُصنّفاتِ والمدوّناتِ القديمةِ بوصفِها دراساتٍ رصينةً في التّاريخِ اللُّغويّ للعربيّةِ؛ إذْ إنَّها تُمثّلُ في حقيقتِها مادّةً لغويّةً فائقةَ الثّراءِ، صوّرتْ وسجّلتْ بدقّةٍ كلَّ ما طرأ على العربيّةِ من تغيّراتٍ وتحوّراتٍ مسّتْ أصواتَها، وبنيتَها الصّرفيّةَ، ومفرداتَها المعجميّةَ، ودلالاتِها وسياقاتِها، وكانَ من المُمكنِ الإفادةُ منها على نحو أوسعَ في تتبّعِ الظّواهر ورصدِها(٢).

**ثانيًا: التّغيّرُ اللُّغويّ:**

يُعدُّ التّغيّرُ اللُّغويّ من الظّواهرِ الرّئيسةِ التي يدرسُها المنهجُ التّاريخيّ؛ إذْ يُمثّلُ صورةً من صورِ التّطوّرِ الطّبيعيّ الذي يُصيبُ اللُّغاتِ في مستوياتِها الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ والنّحويّةِ والدّلاليّةِ(٣). فاللُّغةُ كيانٌ حيٌّ متجدّدٌ، لا يخضعُ للثّباتِ المُطلقِ مهما بُذلتِ الجهودُ للمحافظةِ على ألفاظِهِ وقواعدِهِ من التّحريفِ أو اللّحنِ، بل يظلُّ خاضعًا لقوانينِ النّموّ والتّحوّلِ المرتبطةِ بطبيعةِ الاستعمالِ والتّطوّرِ الحضاريّ(٤). ولم يقتصرْ هذا التّغيّرُ على جانبٍ لغويّ واحدٍ، بل شملَ مختلفَ عناصرِ اللُّغةِ بدرجاتٍ متفاوتةٍ؛ إذْ تختلفُ آليّاتُ التّغيّرِ الصّوتيّ عن الصّرفيّ والدّلاليّ(٥). وقد شهدتِ العربيّةُ تطوّرًا ملحوظًا عبرَ العصورِ بفعلِ عواملَ بيئيّةٍ واجتماعيّةٍ

---

(١) ينظر: لحن العامّة والتّطور اللُّغويّ: ٣٥، ودلالة الالفاظ: ١٢٢ – ١٢٣.

(٢) ينظر: التفكير اللُّغويّ بين القديم والجديد ١٧٩– ١٨٠، ومناهج البحث اللُّغويّ بين التّراث والمعاصرة ١٥٩، والمنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٣٣.

(٣) ينظر: المولد في العربيّة: ٤٤، وفي علم اللُّغة التّاريخي ٣_٤.

(٤) ينظر: علم اللُّغة، الوافي: ٢٥١، واللُّغة والمجتمع: ٧٧، واللُّغة العربيّة كائن حيّ: ١٤_١٥.

(٥) ينظر: التّطوّر اللُّغويّ مظاهره وعلله وقوانينه: ١١.

وسياسيّةٍ، فضلًا عن أثرِ الاحتكاكِ اللُّغويّ بالجماعاتِ الأخرى، مِمّا أسهمَ في إحداثِ تحوّلاتٍ متنوّعةٍ في بنيتِها اللُّغويّةِ(١). وقد ظلَّ التّغيّرُ الذي أصابَ العربيّةَ محدودًا إذا ما قورنَ بغيرِها من اللُّغاتِ؛ وذلك لامتيازِها بالاستمرارِ والثّباتِ(٢)، فضلًا عن ارتباطِها بالقرآنِ الكريمِ الذي أسهمَ في حفظِ بنيتِها العامّةِ وصيانةِ أصولِها، فغدتْ بذلك حالةً متميّزةً بين اللُّغاتِ، ولا سيّما إذا قيستْ باللُّغاتِ الأوربيّةِ التي شهدتْ تحوّلاتٍ سريعةً ومتلاحقةً(٣).

وقد عدَّ بعضُ علماءِ اللُّغةِ القُدماء ما يطرأُ على اللُّغةِ من تغيّرٍ نوعًا من أنواعِ الفسادِ والانحرافِ، ولم يقتصرْ موقفُ المحافظةِ ورفضِ التّغيّرِ على علماءِ العربيّةِ بل وجدَ صداهُ لدى عددٍ من المستشرقينَ، وفي مُقدّمتِهم المستشرقُ الألمانيّ (أوغست شلايشر)، الذي نظرَ إلى التّطوّرِ اللُّغويّ بوصفِهِ عاملًا يُبعدُ اللُّغةَ عن مثالِها الأعلى ويقودُها إلى الضّعفِ والانحلالِ. وشبّهَ اللُّغاتِ الحديثةَ بالكائنِ الذي تنخرُهُ عواملُ الوهنِ تدريجيًّا، فكلَّما امتدَّ بها التّاريخُ ضعفتْ بنيتُها وتراجعتْ قيمتُها، ولذلك عدَّ التّاريخَ عدوًّا للّغةِ لا عاملًا من عواملِ نُموّها وتجدّدِها(٤). غيرَ أنَّ هذا الرّأي يُغفلُ حاجةَ المجتمعاتِ المستمرّة إلى التّعبيرِ عن المستجدّاتِ الحضاريّةِ والفكريّةِ، الأمر الذي يدفعُ اللُّغاتِ إلى توليدِ ألفاظٍ جديدةٍ أو الاقتراضِ من غيرِها(٥). ومن ثمّ فإنَّ التّغيّرَ اللُّغويّ ظاهرةٌ طبيعيّةٌ ملازمةٌ لحياةِ اللُّغاتِ، لا مظهرًا من مظاهرِ الانحلالِ، شريطةَ التّفريقِ بينَ التّطوّرِ المنضبطِ الذي يجري وفقَ سننِ اللُّغةِ وخصائصِها، وبينَ الخطأ أو

---

(١) ينظر: اللُّغة والمجتمع ٧٨، والمنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٣٨.

(٢) ينظر: المنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٣٩.

(٣) ينظر: فقه اللُّغة في الكتب العربيّة: ١٠٠، وفقه اللُّغة وخصائص العربيّة: ٣٣ – ٣٤.

(٤) ينظر: اللُّغة العربيّة كائن حيّ: ٧.

(٥) ينظر: مدخل الى علم اللُّغة: ١٤٥ _١٤٦.

الانحرافِ الذي يُخلُّ بنظامِها وقواعدِها[١].

واتّسمَ التّطوّرُ اللُّغويّ بالطّابعِ النّسبيّ؛ إذْ تختلفُ سرعةُ التّغيّرِ باختلافِ مستوياتِ اللُّغةِ[٢]. فالمستوى الصّوتيّ أكثرُها عرضةً للتبدّلِ؛ وذلك لسهولةِ تحوّل النّطقِ ومخارجِ الأصواتِ، ويليهِ المستوى الدّلاليّ، في حينِ يكونُ التّغيّرُ الصّرفيّ أبطأ نسبيًّا، أمّا التّغييرُ النّحويّ فهو أشدُّ المستوياتِ ثباتًا ومقاومةً للتغيّرِ[٣]. ويعودُ بطءُ التّطوّر اللُّغويّ إلى التّوازنِ بينَ قوّتي المحافظةِ والتّجديدِ، ومن تفاعلِهما تتحدّدُ طبيعةُ التّغيّرِ اللُّغويّ وحدودُهُ[٤].

ومن أبرزِ مظاهرِ التّغيّرِ اللُّغويّ التي تناولَها المستشرقونَ في دراساتِهم التّاريخيّةِ للّغةِ العربيّةِ؛ وهي:

**١_ التّغيّرُ الصّوتيّ:**

برزَ التّغيّرُ الصّوتيّ بوصفِهِ أوّلَ مظاهرِ التّحوّلِ اللُّغويّ وأكثرَها وضوحًا؛ وذلك لأنَّ الأصواتَ من أكثرِ عناصرِ اللُّغةِ قابليّةً للتّبدّلِ بحُكمِ ارتباطِها المُباشرِ بعمليّةِ النّطقِ والاستعمالِ. ولهذا يُعدُّ أسبقَ أنواعِ التّغيّرِ اللُّغويّ ظهورًا، وأكثرَها اطّرادًا وتأثيرًا في البنيةِ اللُّغويّةِ[٥]. ويبدأ التّغيّرُ الصّوتيّ غالبًا بتحوّلٍ يطرأُ على صفاتِ الأصواتِ أو مخارجِها، مِمّا يؤدّي إلى نشوءِ أصواتٍ جديدةٍ أو اندثارِ أصواتٍ أخرى مع مرورِ الزّمنِ. وقد أتاحتِ اللُّغاتُ المدوّنةُ للباحثينِ إمكانيّةَ تتبّعِ تلك التّحوّلاتِ والكشفِ عن مراحلِ تطوّرِها، في حينِ اعتمدتِ الدّراساتُ المقارنةُ في اللُّغاتِ غيرِ المُدوّنةِ على مُوازنتِها باللُّغاتِ المُنتميةِ إلى الفصيلةِ نفسِها

---

(١) ينظر: أسس علم اللُّغة: ١٣٧، ومدخل الى علم اللُّغة: ١٤٥، وفقه اللُّغة وخصائص العربيّة: ٣٢٤ _٣٢٥.
(٢) ينظر: اللُّغة: ٣٠٣ _٢٠٤، ٢٩٧، ودور الكلمة في اللُّغة: ١٧٨، والتّطوّر اللُّغويّ:١١.
(٣) ينظر: التّطوّر اللُّغويّ مظاهره وعلله وقوانينه: ١١ _ ١٣.
(٤) ينظر: الالسنية علم اللُّغة الحديث المبادئ والاعلام: ١٠٧.
(٥) ينظر: اللُّغة ٦٤_ ٦٥، ودراسة الصوت اللُّغويّ: ٣٦٩، والتّطوّر اللُّغويّ :١٥ _١٧.

لاستنباطِ قوانينِ التّغيّرِ الصّوتيّ وتحديدِ مساراتِهِ(١). وأثبتتِ الدِّراساتُ اللُّغويّةُ أنَّ التّغيّراتِ الصّوتيّةَ لا تقعُ على نحوٍ عشوائيّ، بل تخضعُ في الغالبِ لقوانين منتظمةٍ تحكمُ تطوّرَ الأصواتِ داخل السّياقِ اللُّغويّ. ولذلك لا يُمكنُ دراسةُ الصّوتِ بمعزلٍ عن مُحيطِهِ الصّوتيّ، لأنَّهُ يتأثّرُ بالأصواتِ المجاورةِ لهُ داخلَ المقطعِ والكلمةِ والجملةِ، وهو ما يفضي إلى تغيّراتٍ في صفاتِهِ أو مخارجِهِ أو درجةِ وضوحِهِ وقوّتِهِ(٢). وقد شهدتِ الأصواتُ العربيّةُ بأثرها جملةً من التّحوّلاتِ التّاريخيّةِ التي انعكستْ آثارُها في البنيةِ الصّوتيّةِ لبعضِ الألفاظِ، إلّا أنّ دراسةَ هذه التّحوّلاتِ لا يُمكنُ أنْ تتمَّ بمعزلٍ عن سياقِها الصّوتيّ داخلَ الكلمةِ أو المقطعِ أو الجملةِ؛ لأنَّ الصّوتَ لا يُدركُ بوصفِهِ وحدةً مستقلّةً، بل من خلالِ علاقتِهِ بالأصواتِ المجاورةِ لهُ. ومن ثمّ فإنَّ كثيرًا من التّغيّراتِ الصّوتيّةِ تكونُ نتيجةَ التّأثيرِ المُتبادلِ بينَ الأصواتِ في أثناءِ تتابُعِها في السّلسلةِ الكلاميّةِ، الأمرَ الذي يفضي إلى حدوثِ تحوّلاتٍ وتطوّراتٍ في كيفيّةِ النُّطقِ أو في صفاتِ الأصواتِ ومخارجِها(٣).

والصّوتُ في طبيعتِهِ لا يُنطقُ مُنعزلًا، وإنّما يتأثّرُ بما يَسبقهُ وما يلحقهُ من أصواتٍ، ممّا قد يُؤدّي إلى تغيّرِ بعضِ خصائصِهِ أو إلى نشوءِ أصواتٍ جديدةٍ مقابلَ اندثارِ أصواتٍ أخرى(٤). ومن هنا عُدَّ التّغيّرُ الصّوتيّ تحوّلًا منتظمًا يُصيبُ النّظامَ الصّوتيّ للّغةِ على وفقِ قوانين عامّةٍ، لا مجرّدَ تغيّرٍ فرديّ أو عارضٍ، ولذلك لا يُفهمُ إلّا في إطارِ البنيةِ الصّوتيّةِ الكلّيّةِ للّغةِ ومسارِها التّاريخيّ الزّمنيّ(٥).

---

(١) ينظر: في علم الأصوات المقارن التّغيير التّاريخيّ للأصوات في اللُّغة العربيّة واللُّغات السّاميّة: ٦.
(٢) ينظر: فقه اللّغات السّاميّة: ٥٣ _ ٥٤.
(٣) ينظر: التّغييرات الصّوتيّة في اللّهجات العربيّة والتّطوّر النطقيّ بين اللّهجات القديمة والحديثة: دراسة مقارنة: ٤٦٦_٤٧٠.
(٤) ينظر: في علم الأصوات المقارن التغيير التّاريخي للأصوات في اللُّغة العربيّة واللغات السّاميّة: ٦.
(٥) ينظر: التّطوّر اللُّغويّ مظاهره وعلله وقوانينه: ١٧.

وقد مثّلتِ التّغيّراتُ الصّوتيّةُ أبرزَ مظاهرِ التّحوّلِ اللُّغويّ وأكثرَها وضوحًا لدى دارسي اللُّغاتِ واللّهجاتِ؛ لأنَّ أصواتَ كلّ لغةٍ ترتبطُ فيما بينها بعلاقاتٍ عميقةٍ، ودقيقةٍ تكوّنُ نظامًا صوتيًّا متكاملًا، فتكونُ بذلك كلُّ لغةٍ نسيجًا صوتيًّا منظّمًا يُحقّقُ وحدةً صوتيّةً وجماليّةً[١]. ولهذا غدتْ دراسةُ التّغيّرِ الصّوتيّ مدخلًا أساسيًّا لفهمِ تطوّرِ اللُّغةِ عبرَ العصورِ والكشفِ عن أسبابِهِ وقوانينِهِ، ولا سيّما أنَّ هذا التّغيّرَ يرتبطُ بأهدافِ المنهجِ التّاريخيّ المتعدّدةِ، ومن أبرزِها الميلُ إلى التّخفيفِ والتّيسيرِ، فضلًا عن أثرِ الزّمانِ والمكانِ في توجيهِ مسارِ التّطوّرِ اللُّغويّ[٢].

ويرى بعضُ الباحثينَ أنَّ اللُّغةَ تميلُ بطبيعتِها إلى التّيسيرِ والتّخفيفِ في أثناءِ تطوّرِها، من خلالِ استبدالِ الأصواتِ الصّعبةِ بأخرى أسهل، وإلغاءِ التّفريعاتِ الصّوتيّةِ أو تقليلِها، بما يعكسُ قدرتَها على التّكيّفِ مع الاستعمالِ اليوميّ لحاجةِ المتكلّمينَ[٣]. وينطلقُ الدّارسُ في تحليلِ التّغيّرِ الصّوتيّ من تتبّعِ التّحوّلاتِ التّاريخيّةِ التي أصابتْ أصواتَ اللُّغةِ مُنْذُ نشأتِها عن اللُّغةِ الأمِّ، للكشفِ عن انتقالِ الأصواتِ بينَ المخارجِ والصّفاتِ في مُختلفِ سياقاتِهِ الاستعماليّةِ. وقد شهدتِ اللُّغاتُ السّاميّةُ عددًا من هذه التّحوّلاتِ الصّوتيّةِ[٤]، وهو ما دفعَ عددًا من المستشرقينَ إلى دراستِها في إطارِ المنهجِ التّاريخيّ المقارنِ.

لم يُغفلِ القُدماء التّغيّراتِ الصّوتيّةَ في العربيّةِ؛ إذ أشارَ سيبويهِ إلى بعضِ الأصواتِ غيرِ المُستحسنةِ وإلى التّفريقِ بينَ (الضّادِ) و(الظّاءِ)، بما يدلُّ على إدراكِهِ لحدوثِ تغيّرٍ في

---

(١) ينظر: اللُّغة، فندريس: ٦٢.

(٢) ينظر: منهج البحث التّاريخيّ: ٢٧.

(٣) ينظر: الأصوات اللُّغويّة: ١٧٤، والتّطوّر اللُّغويّ مظاهره وعلله وقوانينه: ٧٥.

(٤) ينظر: التطوّر اللُّغويّ مظاهره وعلله وقوانينه: ١٧ _ ١٨.

الأصواتِ[١]. كما كانَ علماءُ التّجويدِ من أوائلِ من لاحظوا هذه الظّواهرَ بدقّةٍ عبرَ عنايتِهم بمخارجِ الأصواتِ وصفاتِها قبلَ الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ بزمنٍ طويلٍ[٢]. بينما تتبّعَ المستشرقونَ التّغيّراتِ الصّوتيّةَ في اللُّغاتِ السّاميّةِ بهدفِ التّمييزِ بينها والكشفِ عن علاقاتِها التّاريخيّةِ، واعتمدوا في ذلك المنظورَ التّاريخيّ في دراسةِ التّحوّلاتِ الصّوتيّةِ ورصدِ مراحلِ تطوّرِها. ومنهم (كارل بروكلمان) الذي أولى عنايةً خاصّةً بهذه الظّاهرةِ، مبيّنًا أثرَها في تمييزِ اللُّغاتِ السّاميّةِ وإعادةِ بناءِ صورِها التّاريخيّةِ، إلّا أنَّهُ على الرّغم من وعيهِ المنهجيّ، لم يلتزمْ بالفصلِ الدّقيقِ بينَ التّغيّراتِ الصّوتيّةِ والتّغيّراتِ التّركيبيّةِ؛ إذْ أدرجَ بعضَ الظّواهرِ التّركيبيّةِ ضمنَ ما سمّاهُ بالقوانين الصّوتيّةِ. ومن أبرزِ ما أشارَ إليهِ من هذه التّحوّلاتِ ما وقعَ على صوتِ (السّين) الجانبيّةِ و(الشّينِ) في بعضِ اللّهجاتِ عندَ عربِ الشّمالِ، فقد تحوّلَ صّوتُ (السّين) الجانبيّةِ /s/ في بعضِ السّياقاتِ إلى (الشّينِ) /ʃ/، مع بقاءِ هذا التّحوّلِ غيرَ منعكسٍ في النّظامِ الكتابيّ، كاشفًا أثرَ العواملِ الجغرافيّةِ والاجتماعيّةِ في التّطوّرِ الصّوتيّ بمعزلٍ عن التّمثيلِ الكتابيّ[٣]. وفسّرَ هذا التّحوّلَ في ضوءِ التّقاربِ بينَ الأصواتِ من حيثُ المخرجُ والصّفاتُ كتقاربِ صوتِ (السّين والشّين)، مِمّا يُسهّلُ انتقالَها داخلَ الاستعمالِ الفعليّ للغةِ[٤]. بينما يرى (برجستراسر) أنَّ "أكثرَ تغيّرات الحروف الصّائتةِ، الواقعةِ في اللُّغةِ العربيّةِ، غيرِ المذكورةِ إلى الآن، اتّفاقيّةٌ، وليس فيها إلّا قليلٌ من المطّردةِ، فبقيتِ الحركاتُ السّاميّةُ على العمومِ سالمةً على حالِها في اللغةِ العربيّةِ"[٥] ففي نظره الصّوائتَ في العربيّةِ اتّسمتْ بقدرٍ كبيرٍ من المحافظةِ على صورتِها السّاميّةِ؛ إذْ ذهبَ إلى أنَّ أكثرَ التغيّراتِ التي أصابتْها كانتْ

---

(١) ينظر: الكتاب: ٤/ ٤٣٢_ ٤٣٥.

(٢) ينظر: الدِّراسات الصّوتيّة عند علماء التّجويد: ٢٤٥ _ ٢٦٩.

(٣) ينظر: فقه اللّغات السّاميّة: ٥٠_٥٤.

(٤) ينظر: الأصوات اللُّغويّة: ١٠٩.

(٥) التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ٦١.

غيرَ مطّردةٍ، وأنَّ التغيّراتِ المطّردةَ فيها قليلةٌ. وقد حصرَ أبرزَ صورِ التّغيّرِ في الصّوائتِ في تقصيرِ الحركاتِ الممدودةِ، وإبدالِ الحركاتِ المقصورةِ وحذفِها وزيادتِها، مشيرًا إلى ندرةِ إبدالِ الحركاتِ الممدودةِ ومدِّ الحركاتِ المقصورةِ. ومن ثَمَّ، يعكسُ تصوّرُهُ نزعةً إلى عدِّ النّظامِ الصّائتيِّ في العربيّةِ أكثرَ محافظةً من حيثُ التغيّرُ الصوتيُّ المطّردُ. فهو يبيّن أنَّ التّطوّرَ الصّوتيّ يَميلُ إلى الظّهورِ في الأصواتِ الصّامتةِ أكثرَ من الأصواتِ الصّائتةِ، وهو ما يُفسّرُ استقرارَ الحركاتِ في اللُّغةِ العربيّةِ مقارنةً بغيرِها من اللُّغاتِ السّاميّةِ[١]. وقد صاغَ هذه التّغيّراتِ في إطارِ ما يُعرفُ بـ(القوانينِ الصّوتيّةِ)، تأكيدًا لطابعِها المنتظمِ وخُضوعِها لقواعدَ ثابتةٍ لا تقومُ على المصادفةِ[٢]. وفي المُقابلِ أكّدَ (ولفينسون) أنَّ صوتَ (الضّادِ) يُعدُّ من الأصواتِ التي تعرّضتْ للتغيّرِ في اللُّغاتِ السّاميّةِ الأمِّ، فهو لم يُحفَظْ بصيغتِهِ الأصليّةِ في اللُّغاتِ اللّاحقةِ، بل استُبدلَ بأصواتٍ قريبةٍ منهُ في المخرجِ أو الصّفات[٣]. في حينِ أشارَ (ماريو باي) إلى وجودِ مبدأ مُعاكسٍ لقانونِ التّيسيرِ اللُّغويّ، يتمثّلُ في (المبالغةِ في التّصحيحِ) في المستوى الفصيحِ، وهو ما يظهرُ لدى المُتحدّثين من خارجِ البيئاتِ الحضريّةِ، إذْ يدفعُهم الوعي بالمعاييرِ اللُّغويّةِ إلى الإفراطِ بدرجةِ المبالغةِ في تصويبِ التّعبيرِ اللُّغويّ، تجنّبًا للبنى غيرِ المطابقةِ للقاعدةِ[٤]. وأمّا (ستيفن أولمان) فيؤكّدُ أنَّ الأصواتَ اللُّغويّةَ تخضعُ للتطوّرِ ضمنَ حدودٍ زمانيّةٍ، ومكانيّةٍ محدّدةٍ، ووفقَ شروطٍ مُحدّدةٍ ودقيقةٍ[٥]. وفي الجانبِ الآخر وضّحَ (موسكاتي) أنَّ التّغيّراتِ الصّوتيّةَ في اللُّغاتِ قد تؤدّي إلى فقدان بعضِ الأصواتِ في لغةٍ ما مقابلَ احتفاظِ لغاتٍ أخرى بها، من دون أنْ يعني ذلك اختفاءَها التّامّ، وهذه التّغيّراتُ تجعلُ

---

(١) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ٦١.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٦.

(٣) ينظر: تاريخ اللُّغات السّاميّة: ٢٨٣ – ٢٩٤.

(٤) ينظر: المنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة:٤٥ –٤٦.

(٥) ينظر: دور الكلمة في اللُّغة: ٢١٣.

اللُّغاتِ السّاميّةَ متقاربةً نسبيًا في بنيتِها الصّوتيّةِ على الرّغمِ من اختلافِ مظاهرِها التّطوّريّةِ(١).

وتتعدّدُ الأسبابُ المؤدّيةُ إلى التّغيّرِ الصّوتيّ في اللُّغةِ؛ إذْ لا يُعزى إلى عاملٍ واحدٍ، بل إلى مجموعةٍ من العواملِ المُتداخلةِ. فمنها ما يرتبطُ بالخطأ في وصفِ الأصواتِ أو عدمِ الدّقّةِ في تحديدِ مخارجِها وصفاتِها، ويُعزى جزءٌ منهُ إلى التّطوّرِ الطّبيعيّ للأصواتِ عبرَ الزّمنِ، إذْ تخضعُ لقوانينِ التّخفيفِ والاقتصادِ في الجهدِ النّطقيّ. ويضافُ إلى ذلك اختلافُ المفاهيمِ والمصطلحاتِ في الدّرسِ الصّوتيّ بينَ القُدماء أنفسِهم، وبينَهم وبينَ المستشرقينَ الذين تناولوا الأصواتَ بمناهجَ ومصلحاتٍ مغايرةٍ، الأمر الذي أسهمَ في تعدّدِ التّفسيراتِ وتباين الأحكامِ. ولا يُغفلُ أثرُ الاحتكاكِ اللُّغويّ النّاتجِ عن التّواصلِ بينَ الجماعاتِ اللُّغويّةِ، وما يُسبّبهُ من انحرافاتٍ نطقيّةٍ تُؤدّي تدريجيًّا إلى تغيّراتٍ قد تستقرُّ في الاستعمالِ اللُّغويّ بمرورِ الزّمنِ(٢).

تُظهرُ الدّراساتُ اللُّغويّةُ أنَّ الأصواتَ تختلفُ في قابليّتِها للتغيُّرِ تبعًا لشيوعِها وسهولةِ نطقِها وتأثّرِها بالأصواتِ المُجاورةِ. فالأصواتُ كثيرةُ الاستعمالِ تكونُ أكثرَ عُرضةً للتخفيفِ، وقد يؤدّي ذلك أحيانًا إلى سقوطِ بعضِها(٣). ويتجلّى التّغيّرُ الصّوتيّ في عدّةِ صورٍ، أبرزُها الإبدالُ والتّعاقبُ بينَ الحروفِ، ويُفسَّرُ ذلك غالبًا بميلِ اللُّغةِ إلى التّيسيرِ وتقليلِ الجهدِ النّطقيّ، فضلًا عن أخطاءٍ سمعيّةٍ وأثرِ التّقاربِ بينَ المخارجِ والصّفاتِ الصّوتيّةِ، مِمّا يؤدّي إلى تفاعلِ الأصواتِ داخلَ الكلمةِ وتبادلِها في السّياقِ اللُّغويّ(٤).

---

(١) ينظر: الحضارات دراسة القديمة: ١١٧_١١٨، والتّطور اللُّغويّ: ٧٥

(٢) ينظر: المعجم اللُّغويّ التّاريخيّ: ٢، والتّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٧_ ٢٦.

(٣) ينظر: الاصوات اللُّغويّة: ١٩٠_ ١٩٢.

(٤) ينظر: المنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٤٥- ٤٦، وفي علم الاصوات المقارن التغيير التّاريخيّ للأصوات: ٧.

**٢_ السّهولة والتّيسيرُ:**

يُعدُّ مبدأُ السّهولةِ والتّيسيرِ من العواملِ المؤثّرةِ في تطوّرِ اللُّغةِ، ولا سيّما على مستوى الاستعمالِ والسّياقِ؛ إذْ تميلُ اللُّغاتُ في مسارِها التّاريخيّ إلى اختيارِ الأبنيةِ الأيسرِ والأكثرِ اقتصادًا في الجهدِ. وتُظهرُ العربيّةُ هذا الاتّجاهَ في مختلفِ مستوياتِها، من خلالِ نُزوعِها إلى تقليلِ الجهدين الذّهنيّ والعضليّ للمتكلّمِ، والتّخفيفِ من التّعقيدِ الاصطلاحيّ، وتقليصِ الصّيغِ والأبنيةِ العسيرةِ، بما يجعلُ هذا المبدأ أداةً فاعلةً في تفسيرِ مظاهرِ التّغيّرِ اللُّغويّ عبرَ العصورِ[١]. ويندرجُ هذا المبدأُ ضمنَ المنهجِ التّاريخيّ بوصفِهِ عاملًا محرّكًا للتغيّرِ اللُّغويِّ، ولا سيّما في مستويَيْهِ الصّوتيِّ والصّرفيِّ؛ إذْ يتّجهُ الاستعمالُ اللُّغويّ مع الزّمنِ إلى تفضيلِ الصّيغِ الأبسطِ والأخفِّ نطقًا، مقابلَ إهمالِ الأبنيةِ الثّقيلةِ للنطقِ أو المرهقةِ للذّاكرةِ أو القليلةِ التّداولِ[٢].

ويقومُ مبدأُ السّهولةِ والتّيسيرِ على تبسيطِ الظّواهرِ اللُّغويّةِ، ولا سيّما الصّوتيّة والصّرفيّة، عبرَ إعادةِ تفسيرِ الصّيغِ بما ينسجمُ مع مُتطلباتِ العصرِ من غيرِ إلغاءٍ للأصولِ التّراثيّةِ[٣]. ويكشفُ هذا المبدأُ عن ميلِ العربيّةِ إلى اعتمادِ الأبنيةِ الأيسرِ تداولًا والأوضحِ دلالةً، وتقليلِ التّعقيد والفروقِ الدّقيقةِ تحقيقًا لاقتصادِ الجهدِ النّطقيّ[٤]. وأنَّ شيوعَ الاستعمالِ قد جعلَ بعضَ الصّيغِ الشّاذّةِ جزءًا من البنيةِ المعياريّةِ للّغةِ[٥]، غيرَ أنَّ التّيسيرَ لا يتحقّقُ بصورةٍ مُطلقةٍ؛ لأنَّهُ

(١) ينظر: ظاهرة الاقتصاد اللُّغويّ في الدرس اللُّغويّ العربيّ: ١١٣.
(٢) ينظر: التّطوّر اللُّغويّ مظاهره وعلله وقوانينه: ٧٥.
(٣) ينظر: الخلاف النّحويّ في ضوء محاولات التّيسير الحديثة: ٨٠.
(٤) ينظر: البحث اللُّغويّ في دراسات المستشرقين الألمان:٢٢٣.
(٥) ينظر: اللُّغة العربيّة بين التشدد والتيسير: ٥٥.

قد يؤدّي أحيانًا إلى الإخلالِ بالوضوحِ الدّلاليّ(١).

وقد تعدّدتِ المصطلحاتُ التي أطلقتْها الدِّراساتُ اللُّغويّةُ الغربيّةُ على مبدأِ السّهولةِ والتّيسيرِ؛ ومن أبرزِها: قانونُ الجهدِ الأقلّ، والاقتصاد في الجهدِ، وقانون الاقتصادِ ( Law of Economy)، واقتصاد الجهدِ أو الميل إلى التّخفيفِ عندَ (ويتني) ( / Economy of Effort Tendency toward Ease)، فضلًا عن تسميتِهِ باقتصادِ اللُّغةِ ( Linguistic Economy)، ومبدأ الجهدِ الأدنى (Principle of Least Effort). وتلتقي هذه المصطلحاتُ جميعُها في الدّلالةِ على نزوعِ اللُّغةِ، في تطوّرِها التّاريخيّ، إلى اختيارِ الأبنيةِ والصّيغِ الأيسرِ نطقًا والأخفّ استعمالًا لتقليلِ الكُلفةِ الجهديّةِ، مع المحافظةِ على وضوحِ الدّلالةِ وكفايةِ التّواصلِ(٢).

وعندَما درسَ (ويتني) هذا المبدأ تناولَهُ في إطارِ قانونِ الاقتصادِ أو اقتصادِ الجهدِ، مُتّخذًا من ظاهرةِ الإدغامِ نموذجًا يبرزُ ميلَ اللُّغةِ إلى تقليلِ الجهدِ النّطقيّ(٣). كما أكّدَ (بوميل ترنكا) أنَّ الإدغامَ يخضعُ بدورِهِ لقانونِ الاقتصادِ الجهديّ؛ إذْ تميلُ اللُّغةُ إلى تقليلِ الفروقِ بينَ الأصواتِ المُتقاربةِ داخل الوحدةِ الصّوتيّةِ تحقيقًا للسّهولةِ والاقتصادِ في الأداءِ(٤). أمّا (أندريه مارتيني) فقد ربطَ مفهومَ الاقتصادِ اللُّغويّ بالعلاقةِ بينَ بنيةِ اللُّغةِ ووظيفتِها، وعدّه من العواملِ الأساسيّةِ في تفسيرِ التّحوّلاتِ اللُّغويّةِ عبرَ الزّمنِ، مبيّنًا أنَّ اللُّغةَ تسعى إلى تحقيقِ توازنٍ بينَ وضوحِ الرّسالةِ من جهةٍ، وتقليلِ الجهدِ الذّهنيّ والعضليّ المبذول في النّطقِ والاستعمالِ من

---

(١) ينظر: علل التغيّر اللُّغويّ: ٣٥.

(2) see :the principle of least effort within the hierarchy of linguistic preferences external evidence from English. Unpublished doctoral :15

(3) see :The principle of economy as a phonetic force in transactions of the American philological association :: 125

(٤) ينظر: مبدأ الجهد الاقل في العربيّة انماطه واغراضه التّداوليّة في كتاب سيبويه: ٦.

جهةٍ أخرى[١]. ومن ثمَّ، فإنَّ (مارتيني) يقرُّ بأنَّ الاقتصادَ اللُّغويّ لا يقتصرُ على الاختصارِ أو التّخفيفِ الشّكليّ، بل يُمثّلُ آليّةً تُنظّمُ التّوازن بينَ حاجاتِ الإفهامِ التي تتطلّبُ وضوحًا ودقّةً في التّعبيرِ، وحاجاتِ التّيسيرِ المرتبطةِ بخمولِ الذّاكرةِ وسهولةِ النّطقِ وتقليلِ الجهدِ الذّهنيّ والعضليّ. مؤكّدًا أنَّ التّوازنَ بينَ المتطلّباتِ المُتعارضةِ هو ما يوجّهُ حركةَ اللُّغةِ ويُشكّلُ مسار تطوّرِها عبرَ الزّمنِ[٢]، ويرى (بيير جيرو) أنَّ مبدأَ السّهولةِ أو الاقتصادِ اللُّغويّ لا يقتصرُ على المستوى الصّوتيّ أو الشّكليّ، بل يمتدُ إلى البعدِ الدّلاليّ؛ إذْ يُسهمُ في توجيهِ المعنى وإحداثِ تغيّرٍ في البنى الصّرفيّةِ[٣].

ولم تكنْ مواقفُ اللُّغويّينَ المحدثينَ إزاء الدّعوةِ إلى السّهولةِ والتّيسيرِ واحدةٍ؛ بل تباينتْ بينَ مؤيّدٍ يعدُّها ضرورةً يفرضُها تطوّرُ اللُّغةِ، ومعارضٍ يرى أنَّ علومَ العربيّةِ ليستْ بحاجةٍ إلى إصلاحٍ جذريّ، مع التّأكيدِ على أنَّ قِدمَ هذه العلومِ لا يعني جمودَها، بل قابليّتَها للتّطوّرِ[٤]. وقد تداخلَ مفهومُ التّيسيرِ عندَ بعضِهم مع مفهومِ التّجديدِ، ليصبحَ جُزءًا من مقاربةٍ تجمعُ بينَ الحفاظِ على التّراثِ واستثمارِ مناهجِ الدّرسِ اللُّغويّ الحديثِ، مع توظيفِ أدواتِ التّفسيرِ والتّعليلِ والدّراسةِ التّاريخيّةِ للتغيّراتِ[٥].

وعدَّ التيسيرُ اللُّغويّ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ ظاهرةً حتميّةً يفرضُها تطوّرُ الحياةِ، لا يمكنُ أنْ تُفرضَ بقراراتٍ معياريّةٍ، وأكّدوا أنَّ الالتزامَ الصّارمَ بالقواعدِ يجعلُ اللُّغةَ عبئًا على المتكلّمِ، ولذلك عدّتْ بعضُ مظاهرِ التّخفيفِ كـ(إسقاطِ الإعرابِ أو توحيدِ الدّلالةِ) تجلّياتٍ للاقتصادِ اللُّغويّ لا خروجًا عن النّظامِ، بما يُفسّر ميلَ العربيّةِ إلى تقليلِ التّعسفِ

---

(1) see :A functional view of language. Oxford:clarendon pres p:139.

(٢) ينظر: مبادئ في اللّسانيّات العامّة: اندريه مارتيني: ١٥٤.

(٣) ينظر: علم الدلالة، بيرجيرو :٧٤.

(٤) ينظر: الخلاف النّحوي في ضوء محاولات التّيسير الحديثة: ٧٩ – ٨٠.

(٥) ينظر: واقع النّحو العربيّ في ضوء محاولات تجديده في العصر الحديث: ٣٥_٤١.

القاعديّ ما دامَ ذلك لا يخلُّ بالإفهام[١].

ومن المنظورِ النَّقديِّ، فإنَّ عدَّ كلِّ خروجٍ عن بعضِ مظاهرِ النِّظامِ اللُّغويِّ ضربًا من التَّيسيرِ والاقتصادِ يحتاجُ إلى قدرٍ من الاحترازِ؛ إذ ينبغي التَّمييزُ بينَ التَّخفيفِ الذي يجري في إطارِ إمكاناتِ النِّظامِ ويحافظُ على وظائفِهِ، وبينَ التَّغييرِ الذي يمسُّ عنصرًا وظيفيًّا فيهِ. فإسقاطُ الإعرابِ، لا يمكنُ تفسيرُهُ دائمًا بوصفِهِ اقتصادًا في الجهدِ؛ لأنَّ العلامةَ الإعرابيَّةَ تؤدِّي وظيفةً في تحديدِ العلاقاتِ النَّحويَّةِ ورفعِ اللَّبسِ بينَ عناصرِ التَّركيبِ. ولهذا فليسَ كلُّ تخفيفٍ تطوُّرًا، وليسَ كلُّ مخالفةٍ للنَّمطِ المعياريِّ فسادًا؛ وإنَّما يكونُ المعيارُ في تقويمِ الظَّاهرةِ مقدارَ ما تُحدثُهُ من تحوُّلٍ في بنيةِ النِّظامِ ووظائفِهِ وقدرتِهِ على الإفهامِ.

ومن أبرزِ مظاهرِ التّيسيرِ التي تناولَها اللُّغويّونَ قديمًا وحديثًا ظاهرةُ تخفيفِ (الهمزةِ)، لما تعكسُه من نزعةِ العربيّةِ إلى التّخفيفِ الصّوتيّ والصّرفيّ؛ إذْ تُعدُّ (الهمزةُ) صوتًا ثقيلًا نسبيًّا لصدورِها من أقصى الحلقِ وما يتطلّبهُ نطقُها من جهدٍ عضليّ. لذلك عُولجتْ بالحذفِ أو الإبدالِ أو التّسهيلِ بين بين في بعضِ اللّهجاتِ، ولا سيّما في لهجاتِ الحجازِ، استجابةً لمبدأ التّخفيفِ وتجنّبًا للثّقلِ النّطقيّ[٢]. وظهرتْ هذه الظّاهرةُ بوضوحٍ في دراساتِ أبي عليّ الفارسيّ في سياقِ تخفيفِ (الهمزِ)؛ إذْ يُبيّنُ أنَّ العربَ قد يلجؤون إلى حذفِ (الهمزةِ)، ولا سيّما (همزة) الوصلِ، تخفيفًا للنطقِ وتقليلًا للجهدِ العضليّ[٣]. ويُؤكّدُ المنظورُ التّاريخيّ استمرارَ هذا الاتّجاه في عددٍ من اللّهجاتِ العربيّةِ الحديثةِ التي حافظتْ على الميلِ نفسِهِ إلى التّخلّصِ من (الهمزةِ) في مواضعَ متعدّدةٍ[٤]. وتُمثّلُ معالجةُ القُدماء لهذه الظّاهرةِ، من منظورٍ

---

(١) ينظر: تبسيط قواعد العربيّة وتبويبها على اساس منطقي جديد: ١٧.

(٢) ينظر: مظاهر التّخفيف في بنية الكلمة العربيّة دراسة في مسالك التّعليل في ضوء علم اللُّغة الحديث: ٦٧.

(٣) ينظر: التّكملة: ٣٦/١.

(٤) ينظر: التّطوّر اللُّغويّ: ٧٠، وأثر القوانين الصوتيّة في بنيه الكلمة العربيّة :٣٠٠.

تاريخيّ، وعيًا مبكّرًا بآليّاتِ التّغيّرِ الصّوتيّ والصّرفيّ، القائم على مبدأِ الاقتصادِ في الجهدِ وتخفيفِ العبء النّطقيّ، بما يجعلُ التّخفيف والحذف عاملينِ أساسيينِ في تطوّرِ الصّيغِ. ويُفهمُ من ذلك أنَّ ما استقرَّ في الاستعمالِ اللُّغويّ إنَّما استقرَّ لملاءمتهِ الحسّ اللُّغويّ وميلهُ إلى الخفّةِ واليسرِ، الأمر الذي يدرجُ هذه الظّواهرَ ضمنَ مسارِ التّغيّرِ اللُّغويّ الطّبيعيّ في العربيّةِ لا بوصفِها شُذوذاتٍ عارضةٍ. ولهذا يُبيّنُ (ويتني) أنَّ اللُّغاتِ تميلُ تاريخيًّا إلى الاستغناءِ عن العناصرِ التي لا يترتّبُ على حذفِها إخلال بالدّلالةِ أو اضطراب في التّواصلِ، انطلاقًا من نزعتِها إلى تقليلِ الجهدِ في النّطقِ. فاللُّغةُ مستعدّةٌ للتخلّي عن بعضِ الوحداتِ متى لم يمسَّ ذلك وضوحَ المعنى، وهو ما يُعدُّ تجلّيًا لمبدأ السّهولةِ والتّيسيرِ. ويُفهمُ هذا التّوجّهُ في إطارِ التّغيّرِ الصّرفيّ بوصفِهِ نتيجةً لتراكمِ الاستعمالِ؛ إذْ تنتقلُ ظواهرُ الحذفِ والاختصارِ من استعمالاتٍ محدودةٍ إلى سماتٍ مُستقرّةٍ داخل البنيةِ اللُّغويّةِ ونظامِها الصّرفيّ(١).

وتميلُ الكثيرُ من الألفاظِ الشّائعةِ إلى التّخفيفِ الصّوتيّ والصّرفيّ ، مِمّا يجعلُ الاستعمال عاملًا مؤثّرًا في التّغيّرِ اللُّغويّ، فقد تتحوّلُ بعض الصّيغِ المرفوضةِ إلى صيغٍ مقبولةٍ بفعلِ الشّيوعِ(٢). وقد بيّنَ (يوهان فِك) أنَّ بعضَ النّحويّينَ القُدماء رفضوا عددًا من الصّيغِ المستحدثةِ تمسّكًا بالقياسِ وما استقرَّ من قواعدِ اللُّغةِ. غير أنَّهُ تبنّى رؤيةً أقرب إلى الدّيناميكيّةِ التّطوريّةِ للّغةِ العربيّةِ؛ إذْ رأى أنَّ اللُّغةَ لا تخضعُ لقواعدَ جامدةٍ ثابتةٍ، بل تحكمها قوانين التّغيّرِ التّاريخيّ والتّطوّرِ اللُّغويّ(٣). ومن هذا المنطلقِ، فإنَّ ما يُرفض في مرحلةٍ ما قد يُقبل في مرحلةٍ لاحقةٍ إذا استقرَّ في الاستعمالِ وشاعَ على ألسنةِ المتكلّمينَ. ولذلك أسهمَ الاستعمالُ اللُّغويّ في دفعِ بعضِ اللُّغويّينَ المتأخّرينَ إلى إجازةِ عددٍ من تلك الصّيغِ، كـ

---

(١) ينظر: التّطوّر اللُّغويّ: ٧٥.

(٢) ينظر: مظاهر التّخفيف في بنية الكلمة العربيّة دراسة في مسالك التّعليل في ضوء علم اللُّغة الحديث: ٧٣.

(٣) ينظر: ظاهرة التطور اللُّغويّ عند يوهان فك: ١٥٠.

(مصائب ومنائر)، إمّا على أساسِ القياسِ المُوسّعِ أو مراعاةً لشيوعِها في التّداولِ، بوصفِ التّيسيرِ آليّةً طبيعيّةً من آلياتِ تطوّرِ العربيّةِ لا مظهرًا من مظاهرِ هدم بنيتها، في مقابلِ استمرارِ الاتّجاهِ المحافظِ في رفضِها والتّمسّكِ بالمأثورِ اللُّغويّ(١).

**٣_التّغيّرُ الصّرفيّ:**

دُرستِ الصّيغُ الصّرفيّةُ في ضوءِ المنهجِ التّاريخيّ من خلالِ تتبّعِ مراحلِ تطوّرِها والكشفِ عمّا طرأ عليها من تغيّرٍ في البنيةِ أو الوظيفةِ عبرَ العصورِ. وقد أتاحَ هذا المنهجُ للباحثينَ، ولا سيّما المستشرقين، تحليلَ الصّيغِ والألفاظِ وتراكيبِها، وبيان مسارِ تطوّرِها حتّى استقرّتْ في هيئاتِها المستعملةِ في العصرِ الحديثِ(٢). وقد يبدو التّغيّرُ الصّرفيّ أوضحَ ظهورًا، غيرَ أنَّهُ أضيقُ نطاقًا؛ لأنَّ الصّيغَ القديمةَ كثيرًا ما تبقى مستمرّةً إلى جانبِ الصّيغِ المستحدثةِ في الاستعمالِ اللُّغويّ(٣).

وقد يُثارُ تساؤلٌ حولَ ما يدرسُهُ التّغيّرُ اللُّغويّ الصّرفيّ؟ وما فائدةُ دراستِهِ؟ يُعنى التّغيّرُ الصّرفيّ بدراسةِ التّحوّلاتِ التي تطرأ على صيغِ الكلماتِ فتؤدّي إلى ظهورِ أبنيةٍ جديدةٍ وتغيّرِ وظائفِها داخلَ النّظامِ اللُّغويّ(٤). ويُسهمُ هذا التّغيّرُ في شيوعِ بعضِ الصّيغِ وهجرانِ أخرى أو اندثارِها، وقد تتحوّلُ بعضُ الصّيغِ السّماعيّةِ إلى قياسيّةٍ بفعلِ كثرةِ الاستعمالِ(٥). ولا يستلزمُ التّغيّرُ الصّرفيّ دائمًا تغيّرًا دلاليًّا؛ إذْ قد يقتصرُ على البنيةِ الشّكليّةِ للكلمةِ من تغيّرٍ في

---

(١) ينظر: العربيّة: ٧٨ – ٧٩، وهذا الصّرف وهذا النّحو اما لهذا الليل من اخر: ٨٩.
(٢) ينظر: المنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٨٨.
(٣) ينظر: اللُّغة: ٢٠٣_ ٢٠٤، وفقه اللغات السامية: ٨٣، وعلم اللُّغة العربيّة: ٣١٠١، ومدخل الى نحو اللغات السّاميّة المقارن: ١٢٩، والمستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٣٧
(٤) ينظر: معجم علم اللُّغة النظريّ: ١٧٤، والكلمة دراسة لغوية معجمية: ٥٣، والتّصريف العربيّ من خلال علم الاصوات الحديث: ١٤، ونظريّة الصّرف العربيّ: ٢٥_ ٢٦.
(٥) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة ٣٨ _ ٧٥.

الحركاتِ والسّكناتِ أو ما يلحقُها من حذفٍ وزيادةٍ، فضلًا عن ظواهرِ الإبدالِ، والإعلالِ، والإدغامِ، استجابةً لقوانين التّخفيفِ والانسجامِ الصّوتيّ أو لمقتضياتِ الاستعمالِ اللُّغويّ[١]. ومع ذلك، فإنَّ التّغيّرَ الصّرفيّ لا يؤدّي غالبًا إلى زوالِ الصّيغِ القديمةِ زوالًا تامًّا، بل تبقى إلى جانبِ الصّيغِ المُستحدثةِ[٢]، وهو ما دفعَ المستشرقينَ إلى دراسةِ الصّرفِ والنّحو في إطارٍ تاريخيّ مُتكاملٍ، مع الإفادةِ من اللّهجاتِ المُعاصرةِ في تفسيرِ كثيرٍ من الظّواهرِ الصّرفيّةِ وتتبّعِ تطوّرِ الأبنيةِ عبرَ الزّمنِ[٣].

ويعملُ التّغيّرُ الذي يطرأ على بنيةِ الكلمةِ إلى توليدِ معانٍ جديدةٍ؛ كتغيّرِ بعضِ صيغِ المصادرِ. لذلك اتّجهَ بعضُ الدّارسينَ إلى بحثِ التّغيّراتِ الصّرفيّةِ التي لا تقترنُ بإنتاجِ دلالاتٍ جديدةٍ، كظواهرِ النّقصِ والإبدالِ ونحوها. وفي المقابلِ أولى علماءُ العربيّةِ القُدماء بنيةَ الكلمةِ عنايةً كبيرةً، فدرسوا أنواعَها وتحوّلاتِها إدراكًا منهم لأثرِ البنيةِ الصّرفيّةِ في الدّلالةِ والاستعمالِ[٤]. وقد تميّزتِ العربيّةُ بين اللُّغاتِ السّاميّةِ بغنى نظامِها الصّوتيّ والصّرفيّ، والنّحويّ، والدّلاليّ، ولا سيّما في تنوّعِ صيغِ الأفعالِ وأبنيتِها، مِمّا أتاحَ مجالًا واسعًا للتجديدِ والتّغيّرِ الصّرفيّ. ويتجلّى ذلك فيما عرضهُ سيبويه من أبنيةِ الفعلِ الثّلاثيّ المُجرّدِ والمزيدِ، وصيغهِ المتعدّدةِ بالزّيادةِ بحرفٍ أو حرفين أو ثلاثةِ أحرفٍ، وهو ما يكشفُ عن طاقةٍ اشتقاقيّةٍ أسهمتْ في اتّساعِ الدّلالةِ وتنوّعِ الاستعمالِ[٥].

وعندَ دراسةِ التّغيّرِ الصّرفيّ في ضوءِ المنهجِ التّاريخيّ تبرزُ محاور أساسيّةٌ تَمثّلُ أدواتٍ لتفسيرِ التّحوّلاتِ التي تصيبُ الأبنيةَ الصّرفيّةِ، والكشفِ عن القوانين التي تحكمُ انتقالَ بعضِ

---

(١) ينظر: دراسات في علم اللُّغة: ٩٧، والتّصريف الملوكي: ٦ _ ٧.
(٢) ينظر: اللُّغة: ٤٢٣.
(٣) ينظر: نظريات في اللُّغة:٤٠.
(٤) ينظر: تطوّر التّأليف في الدرس الصّرفي: ١٩٢ _١٩٤.
(٥) ينظر: تيسيرات لغويّة: ٩٨.

الصّيغِ من السّماعِ إلى القياسِ، أو اندثار بعضِها لصالحِ صيغٍ أبسطَ وأكثرَ شيوعًا في الاستعمالِ ومن أهمِّها:

**أ_ إعادةُ التّحليلِ الصّرفيّ:**

يُعنى التّحليلُ الصّرفيّ بدراسةِ البنيةِ الدّاخليّةِ للكلمةِ من خلالِ تفكيكِ عناصرِها للوصولِ إلى جذرِها اللُّغويّ، بوصفِهِ الأساسَ الذي تقومُ عليهِ عمليّاتُ الاشتقاقِ وتوليدُ الأبنيةِ والمفرداتِ الجديدةِ، وذلك عبرَ تتبّعِ ما يطرأُ على البنيةِ الصّرفيّةِ من تحوّلاتٍ في الصّيغةِ والدّلالةِ[١].لا تُفهمُ الصّيغةُ الصّرفيّةُ في إطارِ التّغيّرِ الصّرفيّ بوصفِها بنيةً ثابتةً، بل بوصفِها بنيةً قابلةً لإعادةِ التّحليلِ الصّرفيّ تبعًا لما يطرأ عليها من تحوّلاتٍ صوتيّةٍ ودلاليّةٍ عبرَ الزّمنِ. ومن ثمَّ فإنَّ انتقالَ الصّيغةِ من صورةٍ إلى أخرى لا يُعدُّ تحوّلًا اعتباطيًّا، وإنَّما يمثّلُ نتيجةً لإعادةِ تنظيمِ البنيةِ الدّاخليّةِ للكلمةِ بما ينسجمُ مع التّطوّرِ الصّوتيّ ويحقّقُ التّخفيفَ النّطقيّ، في ضوءِ مبدأ الاقتصادِ اللُّغويّ وقانون الجهدِ الأدنى[٢].

وقد حظي التّغيّرُ الصّرفيّ باهتمامِ الدّرسِ اللّسانيّ الحديثِ؛ إذْ درسَ عددٌ من المستشرقينَ الصّرفَ العربيّ في ضوءِ إعادةِ التّحليلِ الصّرفيّ، القائم على إعادةِ تفسيرِ الأبنيةِ والصّيغِ على وفق الاستعمالِ اللُّغويّ وتطوّرِه التّاريخيّ، مِمّا منحَ التّحليلَ الصّرفيّ مكانةً بارزةً في الدِّراساتِ اللُّغويّةِ. وكشفَ ذلك عن أثر الوسائلِ الصّرفيّةِ، كإضافةِ الزّوائدِ والتّضعيفِ والتّحويلِ بين الأبنيةِ، في إعادةِ تشكيلِ الجذرِ وتوليد صيغٍ جديدةٍ ذوات دلالاتٍ أكثرَ تخصيصًا، بما يسهمُ في توسيعِ البنيةِ الاشتقاقيّةِ للّغةِ[٣].

---

(١) ينظر: معايير عناصر اللُّغة العربيّة للناطقين بغيرها: ١٢.

(٢) ينظر: التّصريف العربيّ من خلال علم الأصوات الحديث: ١٦_ ١٧، والأصول في اللُّغة العربيّة وآدابها: ٤١.

(٣) ينظر: التّحليل النّحويّ أصوله وأدلته: ١٢٠ _ ١٢١.

**ب_ إعادةُ تفسيرِ البنيةِ الصّرفيّةِ:**

يختصُّ التّغيّرُ الصّرفيّ بما يطرأ على أبنيةِ الكلماتِ وصيغِها من تحوّلاتٍ، فيدرسُ التّغيّرَ الذي يُصيبُ بنيةَ الكلمةِ وعناصرَها الدّاخليّةِ من حيثُ الشّيوعُ والاستعمالُ، من دون أنْ يؤدّي ذلك بالضّرورةِ إلى تبدّلِ القالبِ الصّرفيّ تبدّلًا كلّيًّا، بل قد يقتصرُ على شيوعِ بعضِ الأبنيةِ واندثارِ أخرى تبعًا لحاجاتِ الاستعمالِ وتطوّرِ اللُّغةِ(١). وقد اعتمدَ القُدماء في تفسيرِ هذه التّحوّلاتِ على نظريّةِ الأصولِ المقدّرةِ، إذ ردّوا الفروعَ الصّرفيّةَ إلى أصولٍ ذهنيّةٍ مُفترضةٍ تُفسَّرُ في ضوئِها الظّواهرُ المختلفةُ(٢)، وعدّوا الصّرفَ علمًا يختصُّ بدراسةِ الكلمةِ مفردةً خارج إطارِ التّركيبِ، بخلافِ النّحو الذي يُعنى بعلاقاتِها التّركيبيّةِ(٣). إلّا أنَّ بعضَ المستشرقينَ والمحدثينَ انتقدوا نظريّةَ الأصولِ المقدّرةِ، وعدّوا الإفراطَ في الافتراضِ الذّهنيّ بعيدًا عن الشّواهدِ التّاريخيّةِ والمقارناتِ اللُّغويّةِ أمرًا يُثقلُ الدّرسَ الصّرفيّ ويُضعفُ طابعَهُ العلميّ(٤).

وقد ربطَ الدّرسُ اللُّغويّ الحديثُ مبدأَ التّغيّرِ الصّرفيّ بمفهومِ المورفولوجيّا، فغدتِ المفردةُ تُدرسُ من حيثُ ما يطرأُ عليها من تغيّراتٍ داخليّةٍ تؤثّرُ في دلالتِها ووظيفتِها، مع بقاءِ الفارقِ قائمًا بينَ المنهجِ الصّرفيّ العربيّ القديمِ والمنهجِ المورفولوجيّ الحديثِ في آليّاتِ التّحليلِ والمصطلحاتِ(٥). ولمّا كانتِ العربيّةُ غنيّةً بالأبنيةِ والقوالبِ الصّرفيّةِ، فقد مكّنَها ذلك من الدّقّةِ في التّمييزِ بينَ الأصولِ والزّوائدِ على نحو مختصرٍ، ومنحتْ نظامَها الصّرفيّ قدرةً كبيرةً على

---

(١) ينظر: مدخل الى علم اللُّغة: ١١٥، واللُّغة: ٢٠٣، واختلاف الصّرفيين في وزن الكلمة بين القياس والسّماع: ٦٢٥.

(٢) ينظر: البنيه الصّرفيّة ونظرية الاصول المقدرة: ١٠٠.

(٣) ينظر: تطوّر التأليف في الدرس الصّرفيّ: ١٩٤-١٩٥.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ١٠٢.

(٥) ينظر: تطوّر التأليف في الدّرس الصّرفيّ: ٢٠٣-٢٠٤.

الاختزالِ والتّعبيرِ[١]؛ لذلك أولى المستشرقونَ الصّيغةَ الصّرفيّةَ عنايةً خاصّةً، وعدّوها من أهمِّ وسائلِ تحديدِ المعاني والوظائفِ والكشفِ عن طبيعةِ النّظامِ الصّرفيّ في العربيّةِ[٢].

ولا يسيرُ تطوّرُ الصّيغِ الصّرفيّةِ في خطٍّ تبسيطيّ مطلقٍ، بل يخضعُ لمقتضياتِ الاستعمالِ وحاجاتِ المتكلّمينَ؛ فتستحدثُ بعضُ الصّيغِ وتضعفُ أخرى أو تندثرُ[٣]. وعدّتِ التّحوّلاتُ الدّلاليّةُ المرتبطةُ بالصّيغِ، كالتّوسّعِ والتّضييقِ والرّقيّ والانحطاطِ الدّلاليّ، من أبرزِ مظاهرِ التّغيّرِ التّاريخيّ في اللُّغةِ؛ إذْ لا يقتصرُ التّاريخُ اللُّغويّ على تسجيلِ الماضي، بل يتّخذُ وظيفةً تفسيريّةً تكشفُ عن مسارِ تطوّرِ الأبنيةِ واتجاهاتِها، بما يتيحُ فهمَ القضايا الصّرفيّةِ في ضوءٍ تاريخيّ علميّ بعيدٍ عن الافتراضِ المجرّدِ[٤]. ومن هذا المنطلقِ، ذهبَ بعضُ الباحثينَ إلى أنَّ الأصلَ الذي تُرَدُّ إليهِ الصّيغةُ قد لا يكونُ أصلًا مستعملًا فعلًا، بل مرحلةً افتراضيّةً سابقةً على الصّورةِ النّهائيّةِ للكلمةِ. إلّا أنَّ هذا التّصوّرَ أغفلَ أثرَ التّغيّرِ الصّوتيّ، لأنَّ التّحوّلاتِ الصّوتيّةَ تفترضُ إمكانَ النّطقِ بالصّيغِ النّاتجةِ، وإنْ كانتْ ثقيلةً في بعضِ مراحلِها؛ إذْ تنتقلُ الكلمةُ تدريجيًّا من صورةٍ أثقلَ إلى أخرى أخفَّ، انسجامًا مع مبدأ الاقتصادِ اللُّغويّ وقانونِ الجهدِ الأدنى نحو: (بقيوا _ بقوا)[٥].

وتُظهرُ المراحلُ التي تمرُّ بها الصّيغةُ الصّرفيّةِ قبلَ استقرارِها وجودَ رؤيةٍ تقليديّةٍ تقومُ على التّسلسلِ الخطّيّ للتغيّرِ؛ إذْ افترضَ الدّارسونَ وجودَ صيغٍ وسيطةٍ تفسّرُ التّغيّرَ الصّرفي، مع أنَّ بعضَها لا يتحقّقُ نطقيًّا في الاستعمالِ الفعليّ. وأدّى ذلك إلى ترسيخِ فكرةِ التّصوّرِ القائمِ على وجودِ مراحلَ صرفيةٍ افتراضيّةٍ لا تتحقّقُ في الاستعمالِ الفعليّ. غيرَ أنَّ مقاربةَ

(١) ينظر: المغني في تصريف الافعال: ٣٥.
(٢) ينظر: فقه اللُّغة وخصائص العربيّة: ١١٦ _١١٧
(٣) ينظر: اللّسان والإنسان مدخل الى معرفه اللُّغة: ١٢٥.
(٤) ينظر: اللُّغة العربيّة معناها ومبناها: ١٤٤.
(٥) ينظر: البنية الصّرفيّة ونظريّة الأصول المقدرة: ١٠٧

إعادةِ تفسيرِ البنيةِ الصّرفيّة أكّدتْ ترابطَ التّغيّرِ الصّرفيّ بالتّغيّرِ الصّوتيّ، وأنَّ الصّيغَ النّاتجةَ عنهما ينبغي أنْ تكونَ مُمكنةَ النّطقِ، ولو اتّسمتْ بثقلٍ مؤقّتٍ. وعلى وفق هذا التّصوّرِ تُفهمُ الصّيغةُ بوصفِها بنيةً قابلةً لإعادةِ التّحليلِ والتّنظيمِ الدّاخليّ تبعًا للتّحوّلاتِ الصّوتيّةِ والدّلاليّةِ، بما يُحقّقُ التّخفيفَ النّطقيّ والانسجامَ الصّوتيّ وفقَ مبدأ الاقتصادِ اللُّغويّ(١).

ويتجلّى مبدأُ إعادةِ تفسيرِ البنيةِ الصّرفيّةِ في كلمةِ (مبيع)، التي تُفسَّرُ بوصفِها نتيجةَ تحوّلٍ تاريخيّ بدأ من الصّيغةِ (مبيوع). وأدّى التّغيّرُ الصّوتيّ بحذفِ شبهِ الحركةِ لالتقاءِ الياء والواو إلى ظهورِ صيغةٍ وسيطةٍ، ومن ثمَّ أُعيدَ تنظيمُ العناصرِ الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ حتّى استقرّتِ الصّيغةُ على (مبيع). ويكشفُ ذلك أنَّ الصّيغةَ لا تُفهمُ على وفق تركيبِها الأوّلِ، بل تبعًا لما استقرَّ عليهِ الاستعمالُ من إعادةِ تنظيمٍ للبنيةِ الصّرفيّةِ(٢). ومع ذلك لم يؤدِّ هذا التّطوّرُ إلى إلغاءِ الصّيغِ الأقدمِ إلغاءً تامًّا؛ إذْ احتفظتِ العربيّةِ ببعضِ الشّواهدِ التي تُمثّلُ الأصلَ التّاريخيّ للصيغِ اللّاحقةِ، مثلَ: (مَبيوع)، و(مَعيوب)، و(مَغيُوم)(٣)، وبذلك يتّضحُ أنَّ إعادةَ تفسيرِ البنيةِ الصّرفيّةِ لا تقتصرُ على تغيّرٍ شكليّ في الصّيغةِ، بل تُمثّلُ إعادةَ بناءٍ للعلاقاتِ الدّاخليّةِ بينَ مكوّناتِها، بما يفضي إلى إعادةِ توزيعِ الوظائفِ الصّرفيّةِ داخل الكلمةِ، ويكشفُ عن الطّبيعةِ الدّيناميكيّةِ للنظامِ الصّرفيّ في ضوءِ تفاعلِهِ المُستمرِّ بينَ الصّوتِ والدّلالةِ والاستعمالِ.

**ج_ انتقالُ الصّيغةِ من وظيفةٍ إلى أخرى:**

يبرزُ المنهجُ التّاريخيّ في الدِّراساتِ الصّرفيّةِ من خلالِ تتبّعِ تطوّرِ الأبنيةِ والصّيغ عبرَ

---

(١) ينظر: التّصريف العربيّ من خلال علم الأصوات الحديث: ١٦_ ١٧، الأصول في اللُّغة العربيّة وآدابها: ٤١.

(٢) ينظر: ظاهرة التّخلص من التقاء الساكنين في العربيّة الفصحى:١٩٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٤ _ ١٩٥.

العصورِ، ولا سيّما انتقال بعضِ الصّيغِ من السّماعِ إلى القياسِ بفعلِ شيوعِ الاستعمالِ والحاجةِ اللُّغويّةِ، كما في بعضِ المصادرِ الصّناعيّةِ التي غدتْ قياسيّةً بعدَ أنْ لم تكنْ كذلك في أصلِها(١). وقد تعاملَ المستشرقون مع الصّيغِ الصّرفيّةِ بوصفِها وحداتٍ تاريخيّةٍ قابلةٍ لإعادةِ التّحليلِ والتّفسيرِ، فضلًا عن قابليّتِها للانتقالِ من وظيفةٍ إلى أخرى؛ لذلك فسّروا كثيرًا من الظّواهرِ الصّرفيّةِ تفسيرًا تاريخيًّا قائمًا على تغيّرِ الاستعمالِ وضعفِ الشّفافيّةِ الصّرفيّةِ وإعادةِ تحديدِ الوظائفِ، مِمّا قادَ إلى إعادةِ النّظرِ في مفاهيمِ القياسِ والشّذوذِ والإنتاجيّةِ الصّرفيّةِ. وعدّوا التّطوّرَ اللُّغويّ عاملًا أساسيًّا في تفسيرِ قضايا صرفيّةٍ متعدّدةٍ، ومن أبرزِها الاشتراكُ الصّرفيّ؛ إذْ استقرّتْ بعضُ الصّيغِ واندثرَ بعضُها الآخرُ، وانتقلتْ دلالاتُ عددٍ منها واتّسعتْ معانيها بفعلِ الاستعمالِ والتّطوّرِ التّاريخيّ. ويكشفُ ذلك عن مرونةِ الصّيغةِ الصّرفيّةِ في العربيّةِ وحيويّتِها، وما تتمازُ بهِ اللُّغةُ من قدرةٍ اشتقاقيّةٍ على توليدِ الصّيغِ وتعدّد الدّلالاتِ(٢). وفي سياقِ دراسةِ انتقالِ الصّيغِ الصّرفيّةِ وتحوّلِ وظائفِها، أشارَ المستشرقُ (برجستراسر) إلى أنَّ أكثرَ الأسماءِ المبنيّةِ على الأوزانِ الصّرفيّةِ تتدرجُ ضمنَ أسماءِ المعاني والصّفاتِ، وقد عبَّرَ عن ذلكَ بقولهِ: "وأكثرُ الأسماءِ المبنيّةِ على الأوزانِ هي أسماءُ المعاني والصّفاتِ، فلكلِّ وزنٍ منها حيّزٌ في المعنى والخدمةِ، وكلُّ اسمٍ معناهُ وخدمتُهُ داخلٌ في ذلكَ الحيّزِ يُبنى على ذلكَ الوزنِ، مع أنَّ كثيرًا من الأوزانِ تجمعُ بينَ معانٍ مختلفةٍ، وكثيرٌ من المعاني يُؤدَّى بها بأوزانٍ متعدّدةٍ"(٣) وفي ضوءِ هذا النصِّ، يتّضحُ أنَّ (برجستراسر) أقامَ صلةً بينَ البنيةِ الصّرفيّةِ والدّلالةِ والوظيفةِ مبينًا أنَّ لكلِّ وزنٍ دلالتهُ ووظيفتهُ الخاصّة التي يكتسبُها داخلَ الإطارِ الصّرفيّ الذي ينتمي إليهِ. غيرَ أنَّهُ لاحظَ في الوقتِ نفسِهِ أنَّ عددًا من الأوزانِ قد تتداخلُ دلالاتها وتتعدّدُ وظائفها، كما قد يُعبَّرُ عن المعنى الواحدِ بأكثرَ من وزنٍ صرفيّ. ويكشفُ هذا

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٣٣ _ ٣٦.
(٢) ينظر: اشتراك الصّيغة: ٩٨.
(٣) التّطوّر النّحوي للغة العربيّة: ١٠٠.

التّصوّرُ عن رؤيةٍ تاريخيّةٍ للصيغةِ الصّرفيّةِ، تقومُ على تتبّعِ تحوّلاتِها الاستعماليّةِ وإمكانِ انتقالِها من وظيفةٍ إلى أخرى، بما يدلُّ على أنَّ الصّيغَ ليستْ وحداتٍ جامدةً، بل أبنيةٌ مرنةٌ قابلةٌ للتعدّدِ الدّلاليّ والوظيفيّ تبعًا لتطوّرِ الاستعمالِ اللُّغويّ.

وفي الاتّجاهِ نفسِهِ، تناولَ (هنري فليش) الصّيغَ الصّرفيّةَ من منظورٍ تاريخيّ زمنيّ، فرصدَ تطوّرَ عددٍ من الأوزانِ العربيّةِ عبرَ مراحلِ الاستعمالِ المختلفةِ، ملاحظًا أنَّ صيغًا مثلَ: (فَعَال)، و(فِعَال)، و(فُعَال)، و(فَعِيل) كانتْ واسعةَ التّداولِ في مراحل مبكّرةٍ، ثمَّ شهدتْ تحوّلاتٍ أدّتْ إلى ظهورِ صيغٍ أخرى مثل: (فعّال)، و(فعّيل)، و(فعّول). ويعكسُ هذا التّحوّلُ انتقالَ الصّيغِ من أنماطٍ صرفيّةٍ إلى أخرى نتيجةَ التّطوّرِ التّاريخيّ للنظامِ الصّرفيّ، وما يرافقُهُ من إعادةِ توزيعٍ للوظائفِ والدّلالاتِ داخل البنيةِ اللُّغويّةِ[١]. ويؤكّدُ هذا المسارُ ما أحدثَهُ التّطوّرُ اللُّغويّ من تغيّرٍ في ثباتِ الصّيغِ وانتشارِها؛ إذْ لم تكنْ صيغةُ (مفعُول) الصّيغةَ الوحيدةَ الدّالّةَ على اسمِ المفعولِ في تاريخِ العربيّةِ، بل شاركتْها صيغٌ أخرى في أداءِ هذه الوظيفةِ، مثلَ: (فعول)، و(فعِيل)، قبل أنْ يستقرَّ الاستعمالُ اللُّغويّ على الصّيغةِ الأشهرِ[٢]. ويكشفُ ذلك عن أنَّ انتقالَ الصّيغِ وتعدّدَ وظائفِها يُعدّان من أبرزِ مظاهرِ الحيويّةِ التي اتّسمَ بها النّظامُ الصّرفيّ العربيّ عبرَ مراحلِهِ التّاريخيّةِ المختلفةِ.

وتُظهرُ الدّراسةُ التّاريخيّةُ أنَّ كثيرًا من الصّيغِ الصّرفيّةِ ظلّتْ محتفظةً بقدرتِها الاشتقاقيّةِ، وأنَّ تطوّرَها تمثّلَ في انتقالِها من دلالةٍ إلى أخرى إمّا لتقاربِ المعاني أو على سبيلِ التّشبيهِ[٣]. ومن أبرزِ ذلك صيغةُ (فعّال) التي انتقلتْ من الدّلالةَ على النّسبةِ إلى الصّنعةِ والمزاولةِ إلى دلالةِ المبالغةِ؛ لاشتمالِ المعنيين على معنى التّكرارِ والمداومةِ على

---

(١) ينظر: العربيّة الفصحى: ٧٤.

(٢) ينظر: اشتراك الصّيغ الصّرفيّة في العربيّة: ٩٩.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٩٩.

الفعلِ. ولهذا أشارَ المبرِّد إلى أنَّ العربَ استعملوا هذه الصّيغةَ فيما يكثرُ وقوعَه من الفعلِ، نحو: (قَتَّال) و(خَيّاط)، بخلافِ ما لا يقومُ على معنى الفعلِ والتّكرارِ[١]. ورجّحَ عددٌ من العلماءِ انتقالَ صيغةِ (مِفعال) من دلالةِ الآلةِ إلى دلالةِ المبالغةِ، لما بينَهما من صلةٍ قائمةٍ على الكثرةِ وتكرارِ الفعلِ، وكذلك صيغةُ (مِفعَل) التي استُعملتْ للمبالغةِ في نحو: (مِرحَم) و(مِخرَب)، بعد أنْ كانتْ تدلُّ على الآلةِ[٢]. وامتدَّ هذا التّطوّرُ إلى انتقال بعضِ الصّيغِ إلى دلالةِ الزّمانِ والمكانِ على سبيلِ التّشبيهِ، كما في استعمالِ (مِفعال) في أسماءِ الأمكنةِ، التي أشارَ القُدماء إلى أصالتِها في بابي المبالغةِ والآلةِ، غيرَ أنَّها نتيجةُ التّغيّرِ والتّطوّرِ النّحويّ والصّرفيّ، تحوّلتْ دلالتها إلى الزّمانِ والمكانِ، ولهذا استعيرتْ لأسماءِ الأمكنةِ على سبيلِ التّشبيهِ نحو: (الميناء) و(المرصاد) و(المضمار)[٣].

وقد دفعتْ ظاهرةُ انتقال الصّيغِ من وظيفةٍ إلى أخرى العديدَ من المستشرقينَ إلى توظيفِ المنهجِ التّاريخيّ في تتبّعِ مسارِ الصّيغِ الصّرفيّةِ وتحليلِ ما طرأ عليها من تحوّلاتٍ دلاليّةٍ ووظيفيّةٍ عبرَ مراحلِ الاستعمالِ المختلفةِ[٤].

**د_ الاشتقاقُ كونهِ وسيلةً لإعادةِ التّحليلِ:**

تميّزتِ العربيّةُ من بينَ اللُّغاتِ السّاميّةِ بغنى نظامِها الصّرفيّ، ولا سيّما في مجالِ تصريفِ الأفعالِ وتنوّعِ أبنيتِها، مِمّا أتاحَ لها قدرةً واسعةً على التّوليدِ والتّغيّرِ الصّرفيّ. وقد أشارَ سيبويهِ إلى ذلك من خلالِ بيانهِ صيغَ الفعل الثّلاثيّ المجرّدِ والمزيدِ، وما يطرأ عليه من زياداتٍ بحرفٍ أو أكثر، الأمر الذي كشفَ عن طاقةٍ اشتقاقيّةٍ أسهمتْ في اتّساعِ الدّلالةِ وتنوّعِ

---

(١) ينظر: المقتضب: ٣ /١٦١.

(٢) ينظر: الفروق اللُّغويّة: ٢٤.

(٣) ينظر: فلسفه النّحو والصّرف واللُّغة والرسم: ١٨١.

(٤) ينظر: المنهجُ التّاريخيّ والمنهجُ المقارن في الدِّراسات الصَّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة: ٨٨.

الاستعمالِ في العربيّةِ[١]. ولهذا حظي الاشتقاقُ بعنايةٍ كبيرةٍ عندَ علماءِ العربيّةِ، وعدّوهُ من القضايا المركزيّةِ في دراسةِ بنيةِ الكلمةِ ونموّها، فعلى الرّغمِ من اختلافِ المدرستين البصريّة والكوفيّة في تحديدِ أصلِ الاشتقاقِ؛ إلّا أنّهما اتّفقتا على عدّ الاشتقاق وسيلةً أساسيّةً لمرونةِ العربيّةِ وقدرتِها على التّجدّدِ؛ إذْ أتاحَ توسيعَ الثّروةَ اللُّغويّةَ وتوليدَ ألفاظٍ جديدةٍ منسجمةٍ مع الأوزانِ العربيّةِ وقياساتِها، مساهمًا في إثراءِ المعجمِ من دون الإخلالِ بنظامِ اللُّغةِ[٢]. لذلك استمرَّ الاهتمامُ بالاشتقاقِ قديمًا وحديثًا، فأولتْهُ المجامعُ اللُّغويّةُ عنايةً واضحةً، ولا سيّما مجمع اللُّغةِ العربيّةِ بالقاهرةِ الذي أقرَّ عددًا من الألفاظِ المشتقّةِ استجابةً لمتطلّباتِ العصرِ والتّطوّرِ الحضاريّ[٣].

وعندما تناولَ المستشرقونَ قضيّةَ أصلِ الاشتقاقِ في العربيّةِ، أعادوا طرحَ الخلافِ القديمِ بينَ البصريّينَ والكوفيّينَ حولَ أصلِ المشتقّاتِ؛ غيرَ أنَّ المستشرقينَ تناولوا هذه القضيّةَ من منظورٍ مقارنٍ متأثّرٍ بالدِّراساتِ الهنديّةِ الأوربيّةِ، فبيّنَ (كارل بروكلمان) أنَّ الاشتقاقَ من الخصائصِ الجوهريّةِ المُشتركةِ بينَ العربيّةِ واللُّغاتِ السّاميّةِ، وهو في العربيّةِ يقومُ غالبًا على جذورٍ ثلاثيّةٍ صامتةٍ تمثّلُ العنصرَ الأساسيّ في تحديدِ المعنى، في حينِ تؤدّي الحركاتُ وظيفةَ تعديلِ الدّلالةِ وتحويلِها[٤]. ووافقَهُ في ذلك (برجستراسر)[٥]، فالاشتقاقُ يُعدُّ من أبرزِ الآليّاتِ التي تقومُ على إعادةِ تفسيرِ العلاقاتِ بينَ الجذرِ والصّيغِ المشتقّةِ منهُ، وتحديدِ اتّجاهاتِ التّوليدِ بين الأسماءِ والأفعالِ على وفقِ تطوّرِ الاستعمالِ والدّلالةِ عبرَ الزّمنِ. ومن هذا المنظورِ، لا يُنظرُ إلى الاشتقاقِ بوصفِهِ وسيلةً إنتاج صيغٍ حسب، بل بوصفِهِ آليّةً

---

(١) ينظر: تيسيرات لغويّة: ٩٨.

(٢) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين: ١/١٩٠، والتّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ١٠.

(٣) ينظر: مدخل الى علم اللُّغة ١٠٢_ ١٠٣.

(٤) ينظر: فقه اللغات السّاميّة: ١٤_١٥.

(٥) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ٩٨ _٩٩.

تاريخيّةً تعكسُ تغيّرَ فهمِ البنيةِ اللُّغويّةِ وإعادةَ تنظيمِها في ضوءِ التّطوّرِ اللُّغويّ. فيرى (بول كراوس) أنَّ العلاقةَ بينَ الاسمِ والفعلِ علاقةٌ متبادلةُ الاتّجاهِ؛ إذْ قد تُفسَّرُ بعضُ الأسماءِ على أنَّها مشتقّةٌ من أفعالٍ سابقةٍ، أو تُشتقُّ أفعالٌ من أسماءٍ، بما يعكسُ إمكانَ إعادةِ تفسيرِ الأصلِ الاشتقاقيّ وفقَ المُعطياتِ الاستعماليّةِ والتّاريخيّةِ[1]. أمّا (هنري فليش) فينظرُ إلى الاشتقاقِ بوصفِهِ نظامًا بنيويًّا يقومُ على الجذرِ الصّامتِ وإضافةِ العناصرِ الصّوتيّةِ لتوليدِ صيغٍ مختلفةٍ، وقد بيّنَ ارتباطَ بناءِ بعضِ الأوزانِ بموقعِ المصوّتِ داخلَ البنيةِ اللُّغويّةِ نفسِها بقولهِ: "وكلماتُ هذهِ المرتبةِ ليسَ فيها سوى مصوّتٍ قصيرٍ بعدَ الصّامتِ الأوّلِ من الأصلِ الاشتقاقيِّ، وهي صيغٌ بزنةِ: فَعْل، وفِعْل، وفُعْل، ومن أمثلتِها: كلب، ورجل، وأذن. وينبغي أن يكونَ هذا المصوّتُ القصيرُ بعدَ الصّامتِ الأوّلِ الأصليِّ، أمّا الصّيغُ بزنةِ: فْعَل (fʿal)، وفْعِل (fʿil)، وفْعُل (fʿul)، فلا يمكنُ أن توجدَ بسببِ مجموعةِ الصّوامتِ في بدايةِ الكلمةِ، وهو ما لا تسمحُ بهِ اللّغةُ العربيّةُ الفصحى"[2]. ويشيرُ هذا الطّرحُ إلى أنَّ (فليش) لا ينظرُ إلى الوزنِ الصّرفيِّ بوصفِهِ قالبًا شكليًّا منفصلًا عن البنيةِ الصّوتيّةِ، بل يربطُ تكوينَ الصّيغةِ بالقيودِ التي تحكمُ انتظامَ الصّوامتِ والمصوّتاتِ داخلَ الكلمةِ؛ فوجودُ المصوّتِ القصيرِ بعدَ الصّامتِ الأوّلِ يحقّقُ بناءً تسمحُ بهِ العربيّةُ، في حين يؤدّي حذفُهُ إلى تجمّعِ صامتينِ في بدايةِ الكلمةِ، وهو نمطٌ لا تجيزُهُ العربيّةُ الفصحى بحسبِ تصوّرِهِ. ومن ثَمَّ، تتجلّى في معالجتِهِ الصّلةُ بينَ البنيةِ الصّرفيّةِ والبنيةِ الصّوتيّةِ، إذ تخضعُ الصّيغةُ الصّرفيّةُ للقيودِ الصوتيّةِ التي ينتظمُ بها بناءُ الكلمةِ العربيّةِ. وفي ضوء هذين التصوُّرينِ، يتَّضحُ أنَّ الاختلافَ بينهما لا يقومُ على نفيِ أحدِهما للآخرِ بقدرِ ما يقومُ على اختلافِ زاويةِ النّظرِ إلى الاشتقاقِ؛ فـ(كراوسُ) ينظرُ إليهِ في امتدادِهِ التّاريخيِّ والاستعماليِّ، في حينِ ينطلقُ (فليش) من انتظامِ البنيةِ الصّرفيَّةِ وعلاقاتِ

---

(١) ينظر: جهود المستشرقين اللُّغويّة: ١٣٨

(٢) العربيّة الفصحى: ٩٧_١٠٧.

الجذرِ بصيغِهِ المختلفةِ. ويمكنُ الإفادةُ من التّصوُّرينِ معًا؛ لأنَّ البنيةَ تكشفُ عن العلاقاتِ القائمةِ بينَ الصّيغِ، في حينِ يكشفُ التّاريخُ والاستعمالُ عن مسارِ نشأتِها وتحوُّلِها. ومن ثَمَّ، فإنَّ تحديدَ الأصلِ الاشتقاقيِّ لا ينبغي أنْ يقومَ على التّشابهِ البنيويِّ وحدَهُ، ولا على الافتراضِ التاريخيِّ المجرَّدِ، وإنَّما على تضافرِ الشّواهدِ الصّرفيَّةِ والدلاليَّةِ والتاريخيَّةِ؛ بما يجعلُ الاشتقاقَ نظامًا بنيويًّا من جهةٍ، وظاهرةً قابلةً للتطوُّرِ وإعادةِ التحليلِ من جهةٍ أخرى.

وتعملُ آليّاتُ الاشتقاقِ على إعادةِ تشكيلِ الجذرِ وتوليدِ صيغٍ جديدةٍ، مثلُ: اسم الفاعل، واسم المفعول والمصدر، والصّفة المشبّهة، وغيرها، ضمنَ نظامٍ قياسيّ مُنتظمٍ. في حينِ تبقى بعضُ الأسماءِ أقربَ إلى الطّابعِ المعجميّ غيرِ المطّردِ كما أشارَ (أندريه مارتينيه)، حيثُ تغلبُ الخصوصيّةُ على القياسيّةِ(١).

ويكشفُ الاشتقاقُ عن ديناميكيّةِ البنيةِ اللُّغويّةِ وقدرتِها على إعادةِ تنظيمِ نفسِها وتوسيعِ إمكاناتِها الدّلاليّةِ عبرَ الزّمنِ؛ لهذا لجأ العديدُ من الباحثينِ إلى توليدِ مفرداتٍ جديدةٍ عبرَ الاشتقاقِ والتّرجمةِ لمواكبةِ المستجدّاتِ المفهوميّةِ والمصطلحيّةِ(٢)، ولا سيّما في سياقِ الألفاظِ المعرّبةِ والدّخيلةِ؛ إذْ أسهمَ ذلك في إحياءِ بعضِ الصّيغِ الصّرفيّةِ المهجورةِ أو قليلةِ الاستعمالِ، وإعادةِ توظيفِها في التّعبيرِ عن التّحوّلاتِ الحضاريّةِ والفكريّةِ. وقد برزَ في هذا الإطارِ استعمالُ صيغةِ (فَعْلَنَ) وتحوّلاتِها، مثل (أَنْسَنَ الشّيء)، و(عَلْمَنَ)، للدلالةِ على إكسابِ المفاهيمِ طابعًا إنسانيًّا أو تجريديًّا/علميًّا(٣). ولهذا يُعرَّفُ الاشتقاقُ عندَ غالبيّةِ اللُّغويّين بأنَّهُ توليدُ ألفاظٍ جديدةٍ من أصلٍ واحدٍ مشتركٍ، مع اختلافِ الدّلالةِ الجزئيّةِ تبعًا للصيغةِ

---

(1) see: Roman (André) Etude de la phonologie et de la morphologie de la koinè arabe,(thèse), p. 1009

(٢) ينظر: التّطوّر اللُّغويّ في العربيّة المعاصرة: ٧.

(٣) ينظر: خصائص العربيّة المعاصرة: ١٥٤

الصّرفيّةِ[١].

وقد توصّلتِ الدِّراساتُ اللُّغويّةُ الاستشراقيّةُ إلى أنَّ الاشتقاقَ يُدرسُ من منظورٍ بنيويّ وتاريخيّ معًا؛ إذْ يُعنى ببنيةِ الكلمةِ مُنذُ نشأتِها وتطوّرِها وتوليدِ صيغٍ جديدةٍ منها، بالاعتمادِ على النّظامِ الصّرفيّ العربيّ بوصفِهِ إطارًا ضابطًا لعمليّةِ الاشتقاقِ. كما أبرزتْ هذه الدِّراساتُ ثراءَ النّظامِ الصّرفيّ في العربيّةِ، وفاعليّتهُ في توليدِ الألفاظِ وتحديدِ العلاقاتِ بينَ الكلماتِ داخلَ السّياقِ اللُّغويّ[٢].

**٤_ التّغيّرُ النّحويّ:**

يُعدُّ التّغيّرُ النّحويّ من التّحوّلاتِ اللُّغويّةِ التي تمسُّ النّظامَ النّحويّ في العربيّةِ، ويرتبطُ في جوهرِهِ بأنّماطِ الاستعمالِ وطريقةِ تفكيرِ المتكلّمينَ. وقد ظلَّ هذا المجالُ من أصعبِ ميادينِ الدّرسِ اللُّغويّ؛ لندرةِ الدِّراساتِ التّاريخيّةِ المُتخصّصةِ التي تتبّعُ تطوّرَ بناءِ الجملةِ والأساليبِ مُقارنةً بما هو متاحٌ في التّغيّرِ الصّوتيّ والصّرفيّ. ويرى بعضُ المستشرقينَ أنَّ ما طرأَ على النّحو العربيّ لا يمثّلُ انهيارًا في بنيتِهِ، بل تطوّرًا في الأدواتِ والأساليبِ وطرائقِ الرّبطِ والتّعبيرِ، بما يعكسُ تحوّلَ الاستعمالِ اللُّغويّ أكثرَ من كونِهِ اختلالًا في القواعدِ، وهو تغيّرٌ تدريجيّ محدودٌ تحكمُهُ حاجاتُ التّواصلِ ضمنَ إطارٍ من الثّباتِ النّسبيّ للنظامِ النّحويّ[٣]. ولهذا لم يحظَ الجانبُ النّحويّ بالاهتمامِ الكافي في الدِّراساتِ التّاريخيّةِ، فكانَ التّركيزُ في غالبِهِ منصبًّا على المستوياتِ الأخرى لسهولةِ رصدِها، وظلَّ التّغيّرُ النّحويّ أقلَّ حضورًا، ولا سيما فيما يتّصلُ بعلاقاتِ الإسنادِ وبنيةِ الجملةِ، فلم يشهدْ تغيّرًا جذريًّا في جوهرِهِ، بل اقتصرَ التّغيّرُ فيهِ على مظاهرَ محدودةٍ وتعديلاتٍ جزئيّةٍ لا تمسُّ بنيتَه الأساسيّةَ، ويُعزى

(١) ينظر: دراسات في فقه اللُّغة: ١٧٤، العربيّة لغة العلوم والتّقنيّة: ٢٦٠

(٢) ينظر: الأبنية الصّرفيّة ودلالتها في سوره يوسف عليه السلام: المقدمة.

(٣) ينظر: البحث اللُّغويّ في دراسات المستشرقين الألمان: ٢٢٤.

ذلك إلى ثباتِهِ مُنْذُ مرحلةِ التّقعيدِ واستقرارِهِ ضمنَ نظامٍ وصفيّ محافظٍ حافظَ على أصولِهِ العامّةِ عبرَ الزّمنِ(١).

وهناك عددٌ من مظاهرِ التّغيّرِ النّحويّ في العربيّةِ التي نوقشتْ من لدن العديدِ من الباحثينَ العربِ والمستشرقينَ ومنها:

**أ_ التّغيّرُ في الإعرابِ وبنيةِ الجملةِ:**

تتجلّى مظاهرُ التّغيّرِ النّحويّ في العربيّةِ، في المستوى النّحويّ، في مظهرين أساسيّين؛ أوّلهما: تلاشي علاماتِ الإعرابِ في الاستعمالِ اللُّغويّ لدى العامّةِ والخاصّةِ على السّواءِ. ولا يُعدُّ الإعرابُ من المنظورِ التّاريخيّ معيارًا كافيًا لتمييزِ الفصحى؛ لأنَّهُ يرتبطُ بطريقةِ نطقٍ خاصّةٍ بعربِ الباديةِ، ولا يكشفُ وحدهُ عن البنيةِ النّحويّةِ العميقةِ للغةِ. فقد يُستعملُ أحيانًا بوصفِهِ مظهرًا شكليًّا لإضفاءِ طابعٍ فصيحٍ على تراكيبَ مضطربةٍ في بنيتِها. ومن ثمَّ فإنَّ معيارَ الفصاحةِ الحقيقيّ يقومُ على سلامةِ النّظامِ اللُّغويّ في كُلّيّتِهِ، لا على العلاماتِ الإعرابيّةِ وحدِها(٢). وانطلاقًا من هذا التّصوّرِ يُعدُّ غيابُ الإعرابِ من سماتِ العربيّةِ المولّدةِ، مع إمكانِ بقاءِ بعضِ علاماتِهِ شكليًّا على الرّغم من التّغيّرِ النّحويّ الدّاخليّ النّاتجِ عن التحوّلِ الحضريّ واتّساعِ الاستعمالِ وتبدّل أنّماطِ التّخاطبِ. وقد أشارَ (يوهان فِك) إلى هذا التّحوّلِ وما رافقَهُ من تمايزٍ في الاستعمالِ اللّغويِّ بقولِهِ: "وامتلكتِ العناصرُ الطّامحةُ من هذهِ الطّبقاتِ زمامَ اللّغةِ التي تنطقُها الطّبقةُ العربيّةُ العليا، على حينِ بقيَ السّوادُ الأعظمُ عندَ أسلوبٍ لغويٍّ دارجٍ، ظهرتْ فيهِ، بوساطةِ تركِ التّصرّفِ الإعرابيِّ قبلَ كلِّ شيءٍ، سماتٌ من التّطوّرِ إلى العربيّةِ المولّدةِ. ومن هذهِ اللّغةِ الدّارجةِ في القرنِ الأوّلِ، التي أخذتْ –كما يبدو– بعضَ الخصائصِ المحلّيّةِ في المدنِ المختلفةِ، نشأتِ اللّهجاتُ المتأخّرةُ في المدنِ

(١) ينظر: المنهج التّاريخيّ والمقارن في الدّراسات النّحويّة الحديثة عند العرب: ١_٣، ٤٥.
(٢) ينظر: العربيّة، يوهان فِك : ١٠_١٣.

الإسلاميّةِ"[١]

وفي ضوءِ هذا النصِّ، يربطُ فك بينَ تراجعِ التّصرّفِ الإعرابيِّ والتّحوّلِ نحوَ العربيّةِ المولّدةِ؛ إذ رأى أنَّ السّوادَ الأعظمَ ظلَّ يستعملُ نمطًا لغويًّا دارجًا أخذتْ تظهرُ فيهِ سماتُ هذا التّحوّلِ، وكانَ تركُ الإعرابِ من أبرزِها. كما ربطَ بينَ هذهِ اللّغةِ الدّارجةِ في القرنِ الأوّلِ وما اكتسبتْهُ من خصائصَ محلّيّةٍ في البيئاتِ الحضريّةِ المختلفةِ وبينَ نشأةِ اللّهجاتِ المتأخّرةِ في المدنِ الإسلاميّةِ. أمّا اكتمالُ النّظامِ الإعرابيِّ السّائدِ لدى عربِ الباديةِ، هو ما يفسّرُ سبب اعتمادِ النّحويّينَ على لغتِهم في الاستشهادِ حتّى القرن الرّابع الهجريّ.

ومن التّطوّراتِ النّحويّةِ التّاريخيّةِ التي تناولَتْها الدّراساتُ اللُّغويّةُ ما يُدرجُ عادة ضمنَ الضّروراتِ الشّعريّةِ التي ارتبطتْ بالاستعمالِ الفنّيّ، ومحاولةِ الحفاظِ على انتظامِ البنيةِ اللُّغويّةِ في الشّعرِ الرّفيعِ. ومن أبرزِ هذه الظّواهرِ تركيبُ نصب معمولي (ليت)؛ إذْ يشيرُ (يوهان فِك) إلى أنَّ هذا الاستعمالَ يعودُ في أصلِهِ إلى لهجةٍ قبليّةٍ قديمةٍ، وردتْ في شعرِ رؤبة بن العجّاج وبعضِ شعراءِ الهذليّين، بما يجعلُهُ ظاهرةً لهجيّةً تاريخيّةً لا استعمالًا طارئًا. وفي المقابل، ذهبَ (شبيتالر)، مُتابعًا (فليشر) و(بروكلمان)، إلى أنَّ تركيبَ (ليت زيدًا قائمًا)، يمكنُ تفسيرهُ بوصفِهِ تطوّرًا تركيبيًّا داخليًّا في العربيّةِ، ناتجًا عن توسيعِ بنيةِ (ليت) على نمطٍ سابقٍ من نحو: (رأيت زيدًا قائمًا)، مِمّا يربطُهُ بمسارِ تطوّرٍ بنيويّ لا بانحرافٍ عن النّظامِ[٢]. وربطَ بعضُ المستشرقينَ استمرارَ بعضِ ملامحِ هذه الظّاهرةِ في اللّهجاتِ الحديثةِ بإمكانيّةِ امتدادِ تطوّرِها تاريخيًّا، مع تفسيرِ رفعِ خبرِ (ليت) في بعضِ الاستعمالاتِ المعاصرةِ بوصفِهِ نتيجةَ قياسٍ نحويّ على أدواتٍ مشابهةٍ كـ(أنّ)، و(لعلّ)، الأمر الذي يعكسُ فاعليّةَ القياسِ في توجيهِ

(١) العربيّة، يوهان فِك: ١٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٩٩.

التّطوّر، وتداخل الضّرورةِ الشّعريّةِ والاستعمالِ اللّهجيّ والقياسِ في تشكيلِ البنيةِ النّحويّةِ[١]. في حين يرى الدّكتور رمضان عبد التواب أنَّهُ لا وجودَ لظاهرةٍ مستقلّةٍ تُعرفُ بنصبِ معمولي (ليت) بوصفِها نظامًا مطّردًا؛ إذْ يمكنُ تفسيرُ هذه الشّواهدِ ضمنَ تأويلاتٍ تركيبيّةٍ أو سياقاتٍ أسلوبيّةٍ خاصّةٍ، لا ترقى إلى مستوى القاعدةِ النّحويّةِ العامّةِ[٢]. وينطلقُ هذا الموقفُ من منهجٍ تحليليّ تاريخيّ يُميّزُ بينَ الظّاهرةِ النّظاميّةِ المطّردةِ والاستعمالاتِ الجزئيّةِ، مؤكّدًا أنّ القياسَ النّحويّ لا يُبنى على الشّواهدِ النّادرةِ أو المقيّدةِ بسياقاتٍ خاصّةٍ، بل على الاستعمالِ الغالبِ المستقرِّ[٣]، وهو ما يكشفُ عن تباين واضحٍ بينَ التّناولِ الاستشراقيّ الذي يميلُ إلى تعميمِ الشّواهدِ، والتّناولِ العربيّ الحديثِ الأكثر تحفّظًا في إقرارِ الظّواهرِ النّحويّةِ. وفي ضوءِ هذا الخلافِ، لا أجدُ في الشَّواهدِ المحدودةِ لنصبِ معمولي (ليت) ما يكفي لإقرارِها ظاهرةً نحويَّةً مطَّردةً أو عدِّها مرحلةً ثابتةً من مراحلِ التَّطوُّرِ التَّركيبيِّ في العربيَّةِ، وإن كانتْ هذهِ الشَّواهدُ ذاتَ قيمةٍ في الكشفِ عن إمكاناتٍ استعماليَّةٍ أو لهجيَّةٍ عرفتها العربيَّةُ في بعضِ بيئاتِها. ومن هنا يكتسبُ موقفُ الدّكتور رمضان عبد التواب قدرًا أكبرَ من الاحترازِ المنهجيِّ؛ لتمييزِهِ بينَ الشَّاهدِ الجزئيِّ والظَّاهرةِ النِّظاميَّةِ المطَّردةِ. أمَّا تفسيرُ (يوهان فِك) لها بوصفِها امتدادًا لهجيًّا قديمًا، أو تفسيرُ كل من(شبيتالر وفليشر وبروكلمان) لها على أساسِ التَّطوُّرِ الدَّاخليِّ والقياسِ التَّركيبيِّ، فيظلُّ تفسيرًا ممكنًا، غيرَ أنَّهُ يحتاجُ إلى شواهدَ تاريخيَّةٍ واستعماليَّةٍ أكثرَ انتظامًا لإثباتِهِ. وعليهِ، فإنَّ وجودَ الشَّاهدِ يثبتُ إمكانَ الاستعمالِ، لكنَّهُ لا يثبتُ بمفردِهِ اطِّرادَ الظَّاهرةِ أو عمومَها؛ إذْ إنَّ التَّطوُّرَ النَّحويَّ لا يُستدلُّ عليهِ بندرةِ الشَّواهدِ وحدَها، وإنَّما بانتظامِها وتعدُّدِها وامتدادِها في الاستعمالِ.

---

(١) ينظر: ظاهرة التّطوّر اللُّغويّ عند يوهان فك من خلا كتابه العربيّة: ١٦٥-١٦٦.

(٢) ينظر: العربيّة، يوهان فِك: ١٠٠.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٠.

ولا نغفلُ عن تطوّرِ نظامِ إعرابِ المثنّى الذي شهدَ انتقالًا بينَ صورٍ مختلفةٍ من الاستعمالِ، بينَ لزومِ (الألف) في جميعِ الحالاتِ الإعرابيّةِ وبينَ النّظامِ القياسيّ المعروفِ برفعهِ بـ(الألف) ونصبِهِ وجرّهِ بـ(الياء)، كما في بعضِ اللّهجاتِ القديمةِ المنسوبةِ إلى قبائل كبني كِلاب ونحوها. ويكشفُ هذا التّغيّرُ أنَّ الإعرابَ لم يكنْ نظامًا ثابتًا على نحو مطلقٍ، بل خضعَ لمسارٍ تطوّريّ تاريخيّ، وإنْ ظلَّ في المراحلِ المبكّرة أكثرَ استقرارًا وتمامًا، مِمّا جعلَهُ أقلَّ عرضةً للتّغيّرِ في العصرِ الجاهليّ مقارنةً بالمراحلِ اللّاحقةِ التي اتّسعَ فيها الاختلاطُ اللّهجيّ وتحوّلتْ فيها العربيّةُ إلى لغةِ حضارةٍ[١]. كما شهدَ الإعرابُ بعضِ التّحوّلاتِ الجزئيّةِ في المبنياتِ، مثل انتقال بعضِ التّراكيبِ من البناءِ إلى الإعرابِ على الإضافةِ، وقد أشار (يوهان فِك) إلى ذلك بقوله:" التّرتيبُ الخالي من الإعرابِ: بينَ بينَ، صباحَ مساءَ؛ وهما ليسا منصوبينِ على الظّرفيّةِ، وإنّما خُتِما بالفتحةِ مراعاةً لجمالِ الصّوتِ. ولكنَّ معاصري الحريري يقولونَ بدلًا من التعبيرِ الأوّلِ: بينَ البينِ، على حينِ يستبدلونَ من الثّاني خطأً: صباح مساءٍ، على الإضافةِ أيضًا"[٢] وفي ضوءِ هذا النصِّ، يتّضحُ أنَّ (يوهان فِك) رصدَ تحوّلًا في المعالجةِ النّحويّةِ لبعضِ التّراكيبِ؛ إذ رأى أنَّ (بينَ بينَ) و(صباحَ مساءَ) كانا في الأصلِ تركيبينِ خاليينِ من الإعرابِ، وأنَّ الفتحةَ فيهما لم تكنْ، في تصوّرِهِ، علامةَ نصبٍ على الظّرفيّةِ، وإنّما جاءتْ مراعاةً لجمالِ الصّوتِ. ثمَّ أشارَ إلى تغيّرِ هذا الاستعمالِ في عصرِ الحريري، فظهرَ (بينَ البينِ)، وأُعيدَ تحليلُ (صباحَ مساءَ) على صورةِ الإضافةِ، فأصبحَ (صباحَ مساءٍ)، وهو ما يمثّلُ عندَهُ صورةً من صورِ التّحوّلِ في البنيةِ النحويّةِ للتّركيبِ. وفسّرَ بعضُ الباحثينَ أنَّ هذه التّغيّراتِ تعكسُ ميلَ النّظامِ النّحويّ إلى التّبسيطِ والتّيسيرِ، عبرَ الانتقال من أنماطٍ إعرابيّةٍ أكثر تعقيدًا إلى أخرى أقلّ كلفةٍ في النّطقِ، من دون المساسِ بالبنيةِ الدّلاليّةِ[٣]. ومن ثمَّ

(١) ينظر: ظاهرة الإعراب في النّحو العربيّ :١١-١٢.

(٢) ينظر: العربية: ٢١٣.

(٣) ينظر: في تاريخ العربيّة: ١١٥.

يتّضحُ أنَّ الإعرابَ، على الرّغمِ من طابعِهِ النّظاميّ، ليس بمنأى عن التّغيّرِ، بل يخضعُ بدورهِ لقوانين التّطوّرِ اللُّغويّ، وإنْ كانَ ذلك بوتيرةٍ أبطأ وأقلّ حدّةً مقارنةً بالمستوياتِ الصّرفيّةِ والأسلوبيّةِ. وبذلك يندرجُ التّغيّرُ النّحويّ، في حدودِهِ النّسبيّةِ، ضمنَ الحركةِ العامّةِ لتطوّرِ العربيّةِ عبرَ تاريخِها(١).

وقد بيّنَ (يوهان فِك) أنَّ إسقاطَ العلاماتِ الإعرابيّةِ أدّى إلى قدرٍ من الاضطرابِ على المستويين الدّلاليّ والوظيفيّ داخلَ الجملةِ؛ إذْ أصبحَ التّمييزُ بينَ الوظائفِ النّحويّةِ، ولا سيّما الفاعلُ والمفعول، أقلّ وضوحًا بعد فقدانِ العلاماتِ الإعرابيّةِ، باستثناءِ ما يميّزهُ الضّميرُ المتصلُ. وبناءً على ذلك، اتّجهَ الاستعمالُ اللُّغويّ إلى تعويضِ هذا الفقدِ عبرَ الوسائلِ التّركيبيّةِ؛ مثل: تثبيتِ ترتيب العناصر، بتقدّمِ الفاعلِ غالبًا وتأخّرِ المفعولِ، بما يعكسُ تحوّلًا في آليّاتِ تنظيمِ الجملةِ. ويترتّبُ على هذا التّحوّلِ تراجعُ الفروقِ الإعرابيّةِ التّقليديّةِ، ومنها التّمييزُ بينَ الحالاتِ الإعرابيّةِ وبينَ بعضِ الصّيغِ كـ(المثنّى وجمع المذكّرِ السالمِ) في حالاتِ الإضافةِ والإطلاقِ(٢). ويؤكّدُ (يوهان فِك) أنَّ ضعفَ التّصرّفِ الإعرابيّ أو اختلالَه لا يُعدُّ سببًا للتغيّرِ اللُّغويّ بقدرِ ما هو نتيجةٌ لهُ، مبيّنًا أنَّ هذه الظّاهرةَ لفتتْ انتباه الدّارسينَ العربِ مُنذُ وقتٍ مبكّرٍ، فربطوا بينَ تراجعِ الإعرابِ واتّساعِ الاستعمالِ وتحوّلِ العربيّةِ من نطاقٍ قبليّ محدودٍ إلى لغةِ تواصلٍ حضاريّ، بما ينسجمُ مع الرّؤيةِ التّاريخيّةِ التي تفسّرُ التّغيّرَ النّحويّ بوصفِهِ استجابةً طبيعيّةً لتبدّلِ وظائفِ اللُّغةِ وشروطِ استعمالِها عبرَ الزّمنِ(٣).

**ب_ التّغيّرُ في التّراكيبِ والأساليبِ:**

يُعنى التّغيّرُ النّحويّ ببنيةِ التّركيبِ؛ إذْ يقومُ على تحليلِ الكلمةِ في ضوءِ علاقتِها

---

(١) ينظر: ظاهرة الإعراب في النّحو العربيّ: ١٢ – ١٣.

(٢) ينظر: العربيّة: ١١٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١١٤_ ١١٨.

بالكلماتِ المجاورةِ داخلَ الجملةِ، بوصفِها الوحدةَ الأساسيّةَ للتّحليلِ النّحويّ. ومن ثمّ تحتلُّ كلُّ كلمةٍ موقعًا محدّدًا في البنيةِ التّركيبيّةِ، لا يُعدلُ عنهُ إلّا على وفق قواعدَ نحويّةٍ مضبوطةٍ وضعَها علماءُ العربيّةِ، مِمّا يجعلُ هذا المستوى من أبرزِ مظاهرِ التّطوّرِ اللُّغويّ لارتباطِهِ المباشرِ بتنظيمِ العلاقاتِ بينَ مكوّناتِ الجملةِ. وقد حظيتْ مسألةُ ترتيبِ الجملةِ باهتمامِ الدّارسينَ العربِ والمستشرقينَ على السّواءِ؛ إذْ اتّسمتِ الجملةُ العربيّةُ بقدرٍ من الحرّيّةِ في ترتيبِ عناصرِها اعتمادًا على العلاماتِ الإعرابيّةِ التي تضمنُ وضوحَ الوظائفِ النّحويّةِ، الأمر الذي أتاحَ تنوّعًا في أنّماطِ التّقديمِ والتّأخيرِ من دون الإخلالِ بالمعنى، عاكسًا في الوقتِ نفسِهِ مرونةّ النّظامِ النّحويّ وقدرتَه على استيعابِ التّغيّر ضمنَ إطارٍ من الضّبطِ والنّسقِ[1]. وفيما يتعلّقُ بالتّغيّراتِ النّحويّةِ في الأساليبِ، رصدَ (يوهان فِك) تحوّلًا في علاقةِ المطابقةِ بينَ الفعلِ والفاعلِ الظاهرِ المثنّى أو المجموعِ؛ إذ يقولُ: "ومن المشهورِ في قواعدِ النّحوِ أنَّ الفعلَ المسندَ إلى المثنّى والجمعِ الظّاهرينِ الواقعينِ بعدَ الفعلِ، يلازمُ حالةَ الإفرادِ، ولكنَّ اللُّغةَ الشّعبيّةَ طابقتْ هنا أيضًا بينَ الفعلِ والفاعلِ (كما في لغةِ أكلوني البراغيث)، وعلى هذا طابقَ معاصرو الحريري أيضًا بينهما"[2]. يظهرُ هذا النّصّ أنَّ بعضَ التّراكيبِ قد شاعتْ في الاستعمالِ بينَ الكتّابِ والمتأدّبينَ حتّى تجاوزتْ نطاقَها الأوّلَ وانتقلتْ إلى لغةِ الفلاسفةِ والمترجمينَ النّصارى، ومن ذلك ما عُرفَ بتركيبِ (أكلوني البراغيث) الذي أخذَ بالانتشارِ بوصفِهِ نمطًا في بناءِ الجملةِ الفعليّةِ. وبيّنتْ بعضُ الدّراساتِ اللُّغويّةِ الاستشراقيّةِ شيوعَ التّركيبِ الاسميّ والمصادرِ الصّريحةِ، ومنها ما أشارَ إليهِ (نولدكه)، ميلُ العربيّةِ إلى استعمالِ المصدرِ الصّريحِ بدلَ المصدرِ المؤوّلِ، مثل (ضرورة جلوسك) بدلَ (ضروري أنْ تجلس)، وهو استعمالٌ استثمرَهُ الأسلوبُ الفلسفيّ للتّعبيرِ الدّقيقِ عن المعاني المجرّدةِ، بعد أنْ كانَ ميزةً

(١) ينظر: التّطوّر اللُّغويّ مظاهره وعلله وقوانينه: ٢٠٧

(٢) العربيّة: ٢١٥ –٢١٦.

خاصّةً بالعربيّةِ[١].

في حينِ أوضحَ (يوهان فِك) أنَّ تقديمَ المسندِ إليهِ في الجملةِ الفعليّةِ يُعدُّ من سماتِ العربيّةِ المولّدةِ[٢]، أمّا أنَّ النّحو القديمِ، ولا سيّما البصريّ، لم يفرضْ حفظَ ترتيبِ الفاعلِ والمسندِ إليهِ إلا في حالةِ غيابِ قرائن واضحةٍ تميّزُ الفاعلَ من المفعولَ؛ مثل: (ضرب موسى عيسى)؛ إذْ يوضّحُ السّياقُ من هو الفاعل، ومن هو المفعول[٣].

وقد شهدتْ قضيّةُ مسألةِ الفصلِ بينَ المتضايفينَ تغيّرًا نحويًّا، ففي العصرِ الحديثِ أقرَّ عددٌ من المجامعِ اللُّغويّةِ، ومنها مجمعُ القاهرةِ، إلى جانبِ بعضِ الدّارسينَ، جوازَ هذا الأسلوب استنادًا إلى شواهدَ من الاستعمالِ الفصيحِ[٤]، حتّى غدتْ ظاهرةُ الفصلِ بينَ المضافِ والمضافِ إليهِ (الإقحام) سمةً أسلوبيّةً في العربيّةِ المعاصرةِ، أسهمتْ في قدرٍ من التّيسيرِ عبرَ تخفيفِ التّقييدِ الصّارمِ للعلاقاتِ داخلَ الجملةِ. ويرى (هانز فير) أنَّ شيوعَ هذه الظَاهرةِ في العربيّةِ المعاصرةِ يعودُ في جانبٍ منهُ إلى تأثيرِ اللُّغاتِ الأوربيّةِ، ولا سيّما في الأساليبِ المترجمةِ، بما أتاحَ مرونةً تركيبيّةً أوسعَ انسجمتْ مع متطلّباتِ التّعبيرِ الحديثِ[٥].

يتجلّى _أيضًا_ التّطوّرُ النّحويّ في البنيةِ الحديثةِ للجملةِ في مظاهرَ أخرى، منها تصديرُ المفعولِ لأجلهِ، وهو أسلوبٌ لم يكنْ شائعًا في العربيّةِ القديمةِ، ويُرجّحُ بعضُ الباحثينَ ظهورهُ تحت تأثيرِ الأساليبِ الأجنبيّةِ المُترجمةِ؛ إذْ يتقدّمُ الغرضُ أو العلّةُ في مواضعَ مُماثلةٍ. ويُضافُ إلى ذلك الميلِ إلى الاستغناءِ عن المفعولِ المطلقِ واستبدالهِ بتراكيب الجارِّ

---

(١) ينظر: اللّغات السّاميّة: ٨٣_ ٨٤.
(٢) ينظر: العربيّة: ١١٤ _ ١١٥، ١٨١_ ٢١٤.
(٣) ينظر: شرح كتاب سيبويه: ١/ ٢٦٣.
(٤) ينظر: مظاهر التّجديد النّحويّ :٤٤ _ ٤٦.
(٥) ينظر: العربيّة الفصحى الحديثة بحوث في تطوّر الألفاظ والاساليب: ٢٠١.

والمجرورِ؛ مثل: (تكلّم بشكلٍ جيّد)، و(وكتب مقالًا بصورةٍ سطحيّة)، في مقابلِ الأسلوبِ العربيّ التّقليديّ الذي يعبّرُ بالمفعولِ المطلقِ نحو: (تكلّم كلامًا جيّدًا)، و(كتب مقالًا سطحيًّا)، ويُعزى ذلك إلى أثرِ التّرجمةِ والاحتكاكِ باللُّغاتِ الأخرى، فضلًا عن تأثيرِ اللّهجاتِ المعاصرةِ[١].

**ج_ التّغيّرُ في الأدواتِ النّحويّةِ:**

يُعدُّ التّغيّرُ في الأدواتِ النّحويّةِ مظهرًا من مظاهرِ حيويّةِ اللُّغةِ وتطوّرِها؛ إذْ تخضعُ الأدواتُ عبرَ الزّمنِ لتحوّلاتٍ تمسُّ وظائفَها ودلالاتِها واستعمالاتِها التّركيبيّة، على الرّغمِ من طابعِها الوظيفيّ شبه الثّابت. فالأداةُ ليستْ عنصرًا جامدًا، بل تتأثّرُ بالسّياقِ والاستعمالِ، مِمّا قد يؤدّي إلى انتقالِها من وظيفةٍ إلى أخرى أو إلى اتّساعِ دلالتِها وتضييقِها. ومن مظاهرِ هذا التّغيّرِ ما أثارَهُ النّحويّون حولَ دخول أداةِ التّعريفِ (ال) على ألفاظٍ؛ مثل: (كلّ) و(بعض) و(غير)، إذْ منعَ بعضُهم ذلك وعدّهُ مخالفًا للقياسِ[٢]، في حينِ أجازَهُ آخرون، ولا سيّما بعدَ شيوعِه في لغةِ الفلسفةِ والمنطقِ[٣]، ثُمَّ أقرَّهُ مجمعُ اللُّغةِ العربيّةِ بالقاهرةِ متى اقتضاهُ الاستعمالُ[٤]. وفي المقابلِ، هناك بعضُ الألفاظِ امتنعتِ اللُّغةُ عن تعريفِها بـ(ال)؛ لأنّها لا تصحُّ مفردةً دونها، ومن هذه الكلماتِ: (صغرى، وكبرى)، وكلّ أفعالِ المؤنّثِ من صيغةِ أفعل للتفضيلِ، إلّا إذا صارت اسمًا، كما في كلمةِ (دنيا)[٥].

وبيّنَ (جوزيف فندريس) أنَّ أكثرَ العناصرَ نشاطًا في البنيةِ التّركيبيّةِ، ولا سيّما في بابِ

---

(١) ينظر: العربيّة الفصحى المعاصرة واصولها التّراثية: ١٤١ _ ١٤٢.
(٢) ينظر: الكتاب ٣ ٤٧٩ والمقتضب: ٢/ ٢٠٤٧، والجمل في النّحو :٥/ ٢٤ _ ٢٥.
(٣) ينظر: القرارات النّحويّة والتّصريفيّة: ٦٨، والاشكالية اللُّغويّة في الفلسفة العربيّة: ١٤٢– ١٤٤.
(٤) ينظر: القرارات النّحويّة والتّصريفيّة: ٦٥، ١٧٤.
(٥) ينظر: العربيّة، يوهان فِك: ١٠٠ – ١٠١.

الأدواتِ، هي حروفُ الجرِّ والظّروفِ، ولا سيّما التّراكيب المركّبة منها، ويُعزى ذلك إلى طبيعتِها التّجريديّةِ وكثرةِ استعمالِها؛ إذْ تفقدُ هذه العناصرُ تدريجيًّا جانبًا من دلالاتِها المعجميّةِ لتتحوّل إلى أدواتٍ وظيفيّةٍ تؤدّي أدوارًا تركيبيّةً داخلَ الجملةِ. ويُعدُّ هذا التّحوّلُ نتيجةً مباشرةً لشيوعِ الاستعمالِ وتنوّعِ السّياقاتِ اللُّغويّةِ ولهذا نجده يقول: "الكلمات التي صارتْ لواحقَ بعدَ أنْ أفرغتْ من معانيها الحقيقيّةِ، أخذتْ قيمةً تجريديّةً جعلتْها قابلةً للتعبيرِ عن فصيلةٍ صرفيّةٍ. فبعضِها مثلًا يُعبّرُ عن الصّفةِ، وبعضها عن الحالةِ: بعضها يميّزُ أسماءَ الحدثِ، وبعضها أسماء الفاعلين. هذه القيمةُ التّجريديّةُ لا تمنعها بعدَ أنْ نشأتْ من أنْ تتلوّن بألوانٍ من العاطفةِ"[1]. ويتّضح من ذلك أنَّ حروفَ الجرِّ عند (فندريس) لا تخلو من الدّلالة، وإنّما تتمثّل قيمتُها أساسًا في الوظيفة العلائقيّة التي تؤدّيها داخل التّركيب؛ إذْ تحدّد طبيعةَ العلاقة بين عناصره. فقولنا: (ذهب زيدٌ إلى المدرسة) يختلف عن: (خرج زيدٌ من المدرسة) و(جلس زيدٌ في المدرسة) باختلاف حرف الجر، إذْ أفادت (إلى) انتهاء الغاية، و(من) الابتداء، و(في) الظّرفيّة. ومن ثمَّ، فإنَّ وصفَ هذه الحروف بـ(الكلمات الفارغة) لا يعني خلوَّها من المعنى، بل ضعفَ دلالتها المعجميّة المستقلة في مقابل بروز دلالتها النّحويّة الوظيفيّة، ولذلك يبدو وصفها بالعناصر العلائقيّة أو الوظيفيّة أكثر دقّة. وفي السّياقِ نفسِهِ، أشارَ (أوغست فيشر) إلى ازديادِ استعمالِ حروفِ الجرِّ وظروفِ الزّمانِ والمكانِ في العربيّةِ الحديثةِ، بما يعكسُ اتّساعَ وظائفِها التّركيبيّةِ ودخولَها في أساليبَ جديدةٍ، وهو ما يُعدُّ من مظاهرِ التّغيّرِ النّحويّ المرتبطِ بتطوّرِ الاستعمالِ اللُّغويّ[2]. ويُعدُّ شيوعُ الاستعمالِ وكثرةُ تداولِ التّراكيبِ من أبرزِ عواملِ التّغيّرِ النّحويّ؛ إذْ يؤدّي تكرارُ الصّيغ إلى نوعٍ من الاختزالِ والتّخفيفِ، فتفقدُ بعضَ خصائصِها الأصليّةِ وتصبحُ أبسطَ تركيبًا وأكثرَ قابليّةً للتداولِ. ومن ثمَّ يغدو الاستعمالُ

---

(١) اللُّغة، فندريس: ٢٢١.

(٢) ينظر: رأي المستشرق الألمانيّ فولف ديتريش فيشر في تطوّر أساليب الكتاب العربيّة ومسائل لغويّة شتى: ٥٠٩.

عنصرًا حاسمًا في إعادةِ تشكيلِ البنيةِ النّحويّةِ وتوجيهِ تطوّرِها عبرَ الزّمنِ(١).

وَأَرى أَنَّ ما ذَهَبَ إِليهِ فيشرُ يَكشفُ عَن أَهميَّةِ الاستعمالِ في تَفسيرِ بَعضِ مَظاهرِ التَّغيُّرِ النَّحويِّ، غَيرَ أَنَّ كَثرةَ الاستعمالِ لا تُمثِّلُ، في ذاتِها، دَليلًا كافيًا عَلى وُقوعِ التَّغيُّرِ؛ إِذ يَنبغي التَّمييزُ بَينَ ازديادِ تَواترِ العُنصرِ اللُّغويِّ وَبينَ تَحوُّلِ وَظيفتِهِ النَّحويَّةِ. فَالتَّغيُّرُ يَغدو أَكثرَ وُضوحًا حينَ يَقترنُ شُيوعُ الاستعمالِ باتِّساعِ الوَظيفةِ التَّركيبيَّةِ، أَو إِعادةِ تَحليلِ البِنيةِ، أَو اكتسابِ العُنصرِ استعمالاتٍ جَديدةً. ولهذا فإِنَّ الاستعمالَ عاملٌ فاعلٌ في التَّغيُّرِ النَّحويِّ، وَلَكنَّهُ لا يَعملُ بِمَعزلٍ عَن سائرِ العَواملِ المُؤثِّرةِ في تَطوُّرِ النِّظامِ اللُّغويِّ.

(١) ينظر: اللُّغة، فندريس: ٢٧٤

## المبحثُ الثّالث

## المنهجُ المقارنُ في الخطابّ اللُّغويّ الاستشراقيّ

### أوّلًا: نشأتُهُ وتجذيرهُ في الدِّراساتِ اللُّغويّةِ:

إنَّ تتبّعَ الجذورِ التّاريخيّةِ للمنهجِ المقارنِ يُبرهنُ على أنَّهُ ليس وليدَ الفكرِ الحديثِ بصيغتِهِ الحاليّةِ الفجائيّةِ، بل هو آليّةٌ معرفيّةٌ موغلةٌ في القدمِ، ترتبطُ ببنيةِ الفكرِ الإنسانيّ وسعيهِ الدّؤوبِ لفهمِ الظّواهرِ المختلفةِ وتحليلِها عبرَ الموازنةِ والمقايسةِ. فقد عرفتِ الحضاراتُ القديمةُ تطبيقاتٍ أوّليّةً لهذا الأسلوبِ؛ فقد توقّفتِ الفلسفةُ اليونانيّةُ عندَ مقارنةِ النّظمِ السّياسيّةِ، وبرزَ (أرسطو) كأحدِ أهمِّ من وظّفَ الآليّةَ المقارنةَ حين وازنَ بينَ قوانين (أثينا) وتشريعاتِ المدنِ اليونانيّةِ الأخرى لاستنباطِ قواسمِ التّشابهِ والتّباين. وفي سياقٍ شرقيّ قديمٍ، تشكّل (قانون حمورابي) تاريخيًّا عبرَ مقارنةِ وتقنينِ العاداتِ والأعرافِ المُجتمعيّةِ السّائدةِ آنذاك وصياغتِها في أطرٍ تشريعيّةٍ مُحكمةٍ[١]. وعلى الرّغمِ من أنَّ الأدبياتِ اللّسانيّةَ الغربيّةَ المعاصرةَ دأبتْ على إرجاعِ التّأسيسِ العلميّ المُنظّم للمنهجِ المقارنِ إلى أواخرِ القرنِ الثّامن عشرَ الميلاديّ، إلّا أنَّ الشّواهدَ التّاريخيّةَ تؤكّدُ أنَّ الوعي بوجودِ صلاتِ قرابةٍ ورحمٍ لغويّةٍ بينَ الألسنِ قد سبقَ هذا التّاريخَ بقرونٍ مديدةٍ، مُتجلّيًا في ثقافاتٍ وحضاراتٍ شتّى، وفي مقدّمتِها الثّقافةُ اللُّغويّةُ الإسلاميّةُ[٢].

فقد اندفعَ علماءُ المسلمينَ، بدوافعَ دينيّةٍ ودعويّةٍ وحضاريّةٍ، نحو الانفتاحِ على لغاتِ الأمّمِ المجاورةِ، ولا سيّما القريبة من العربيّةِ، بُغيةَ تبليغِ الرّسالةِ الإسلاميّةِ والتّواصلِ الحضاريّ. وولّدَ هذا الاحتكاكُ المباشرُ وعيًا علميًّا بالفروقِ والتّشابهاتِ اللُّغويّةِ. وتزخرُ

---

(١) ينظر: منهج البحث العلميّ: ٦١.

(٢) ينظر: المنهج المقارن عند المستشرقين ودوره في الدّرس اللُّغويّ المعاصر: ٢١٤.

مدوّناتُ السّيرةِ النّبويّةِ بإشاراتٍ ناصعةٍ حولَ تمكّن الصّحابةِ من لغاتٍ غيرِ عربيّةٍ؛ إذْ تذكرُ المصادرُ أنَّ (زيد بن ثابت) تعلّمَ العبريّةَ والسّريانيّةَ بأمرٍ نبويّ وصارَ مُترجمًا للرسولِ (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما كانَ (عبد الله بن عمر) عارفًا بالسّريانيّةِ. وفي العصرِ الأمّويّ، امتدَّ هذا الوعي اللُّغويّ إلى الشّعراءِ، كالشاعرِ (الطّرماح بن حكيم الطّائيّ) الذي وظّفَ في نتاجِهِ الشّعريّ ألفاظًا نبطيّةً، مِمّا يُمثّلُ دليلًا ملموسًا على تلمّسِ الفروقِ اللُّغويّةِ النّاجمةِ عن الممازجةِ والاحتكاكِ(١).

ولم يقفْ علماءُ العربيّةِ الأوائلُ عندَ حدودِ الملاحظةِ العابرةِ، بل امتلكوا رؤيةً مبكّرةً حول صلةِ القرابةِ بينَ العربيّةِ وأخواتِها؛ إذْ يُنسَبُ إلى (الخليل بن أحمد الفراهيديّ) إدراكُهُ للّتقاربِ البنيويّ بينَ العربيّةِ واللُّغاتِ السّاميّةِ الأخرى كـ(الكنعانيّةِ)،(٢) مشيرًا إلى أنَّ لغةَ الكنعانيّين تُضارعُ العربيّةَ وتشابهها(٣). ومع أنَّ تلك الموازناتِ التّراثيّةَ _سواء عندَ الخليل أو غيرِه من القُدماء_ جاءتْ في صورةِ إشاراتٍ مبثوثةٍ لم تنتظمْ في منهجٍ لغويّ صارمٍ بالمفهومِ المعاصرِ، إلّا أنَّها شكّلتِ الجذورَ الحقيقيّةَ واللّبناتِ الأولى التي اتكأتْ عليها الدّراساتُ السّاميّةُ لاحقًا. وبذلك، فإنَّ الجهودَ الاستشراقيّةَ الغربيّةَ لم تخلقِ المنهجَ المقارنَ من عدمٍ، بل وجدتهُ أرضيّةً خصبةً في التّراثِ العربيّ.

وفي فضاءِ الأندلسِ الذي اتّسمَ بالتّعدّديّةِ الثّقافيّةِ، برزَ العالمُ اللُّغويّ اليهوديّ (ابن بارون) كرائدٍ مبكّرٍ في حقلِ المقارناتِ اللُّغويّةِ، فقد وضعَ دراسةً منهجيّةً موازنةً بين اللّغتينِ

---

(١) ينظر: دراسات في علم اللُّغة المقارن: ٩٩_ ١٠٠.

(٢) ينظر: مدخل الى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ: ٢٠٢.

(٣) وللاطلاع على الدِّراسات التي ناقشها علماء العربيّة القُدماء ينظر: المدخل الى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ: ٢٠١.

العربيّةِ والعبريّةِ[١]. بيدَ أنَّ عملَهُ _على أهمّيّتِهِ الرّياديّةِ_ ظلَّ محكومًا بالملاحظاتِ العامّةِ، ولم يتطوّرْ ليصبحَ قانونًا صوتيًّا أو تاريخيًّا مُطّردًا كما تبلورَ لاحقًا في المدارسِ الأوربيّةِ.

وجاءَ المنعطفُ الحاسمُ والفاصلُ في مسارِ المنهجِ المقارنِ مع أواخرِ القرنِ الثّامن عشر الميلاديّ، مُتمثّلًا باكتشافِ اللُّغةِ السّنسكريتيّةِ (اللُّغةِ الهنديّة القديمةِ). فقد وفّرَ هذا الاكتشافُ للباحثينَ مادّةً لغويّةً قديمةً ومستقرّةً، ذات نظامٍ صرفيّ ونحويّ شديدِ الانضباطِ والدّقّةِ، مِمّا أتاحَ الكشف عن أسرارِ الفصيلةِ اللُّغويّةِ (الهندو_أوربيّة)[٢]. واقترنَ هذا التحوّلُ التّاريخيّ باسمِ المستشرقِ البريطانيّ (ويليام جونز)، الذي كانَ يشغلُ منصبَ قاضٍ بالمحكمةِ العليا في البنغالِ[٣]. لاحظَ (جونز) وجودَ تقابلاتٍ وتشابهاتٍ مُنتظمةٍ ومتكرّرةٍ بين السّنسكريتيّةِ من جهةٍ واللّغتينِ اليونانيّةِ واللّاتينيّةِ من جهةٍ أخرى، ليعلنَ صيحةً علميّةً مفادها أنَّ هذا التّطابقَ في جذورِ الأفعالِ والمنظومةِ الصّرفيّةِ لا يمكنُ بأيّ حالٍ من الأحوالِ إرجاعه إلى محضِ المصادفةِ، بل هو دليلٌ قاطعٌ على انحدارِ هذه اللُّغاتِ وتفرُّعِها من أصلٍ مشتركٍ واحدٍ اندثرَ مع عادياتِ الزّمنِ. ووصفَ (جونز) السّنسكريتيّةَ بأنَّها تتمازُ ببنيةٍ رفيعةٍ جعلَتها أكملَ من اليونانيّةِ وأغنى من اللّاتينيّةِ[٤].

وإنَّ هذه الخلاصاتِ المعرفيّةَ شكّلتْ حجرَ الأساسِ للنظريّةِ المقارنةِ؛ إذْ تحوّلَ هدفُ البحثِ اللُّغويّ نحو السّعي إلى إعادةِ بناءِ "اللُّغةِ الأمّ المفترضةِ" عبرَ استقراءِ اللُّغاتِ الحيّةِ والموثّقةِ والمقارنةِ بينها. واندفعَ علماءُ السّاميّاتِ لتطبيقِ هذه المنهجيّةِ على اللُّغاتِ السّاميّةِ، طامحين إلى تلمّسِ ملامحِ (اللُّغةِ السّاميّةِ الأمّ)، مع إدراكِهم التّامِّ بأنَّ هذه اللُّغةَ الأمَّ ليستْ

---

(١) ينظر: موجز تاريخ علم اللُّغة: ١٧١، والبحث اللُّغويّ عند العرب: ٣٣٣ _ ٣٣٧.

(٢) ينظر: المدخل الى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ: ٢٠١.

(٣) ينظر: مدخل الى علم اللُّغة: ١٩.

(٤) ينظر: تاريخ علم اللُّغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين: ١٦٢، ومبادئ اللّسانيّات: ١٣.

كيانًا ماديًّا معثورًا عليهِ، بل هي بناءٌ نظريّ افتراضي قابلُ للتعديلِ والمراجعةِ في ضوءِ ما تسفرُ عنهُ الاكتشافاتُ اللّاحقةُ. وبذلك، مثل القرن التّاسع عشر الميلاديّ العصرَ الذّهبيّ ومرحلةَ النّضجِ الحقيقيّ للمنهجِ المقارنِ والتّاريخيّ في أوربا، فقد تكثّفَ النّشاطُ اللُّغويّ وخرجَ من العباءةِ الفلسفيّةِ إلى الاستقلالِ العلميّ(١).

**ثانيًا: بواكير المنهج المقارن في الخطاب الاستشراقيّ والمدونات الكبرى:**

تأسّستِ البداياتُ الحقيقيّةُ للمنهجِ المقارنِ في الفضاءِ الاستشراقيّ عبرَ مسارين متميّزينِ: المسارُ الأوّلُ مرتبطٌ بالدِّراساتِ الهندو_أوربيّة التي دشّنها (ويليام جونز) بجعلِ السّنسكريتيّةِ محورًا للمقارناتِ اللُّغويّةِ، مِمّا مهّدَ الأرضيّةَ للعديدِ من المستشرقينَ والباحثينَ الذين انتظموا في مدارسَ لسانيّةٍ شتّى(٢). وتوطّد هذا الاتّجاهُ بفضلِ اللُّغويّ الألمانيّ (فرانز بوب) الذي منحهُ صبغةً علميّةً صارمةً عبرَ كتابِهِ الشّهيرِ الذي حلّلَ فيه (النّظام التّصريفيّ للسنسكريتيّةِ) ووازنَ بينَهُ وبينَ أنظمةِ اللُّغاتِ اليونانيّةِ، واللّاتينيّةِ، والفارسيّةِ، والجرمانيّةِ، واضعًا بذلك القواعدَ العلميّةَ الدّقيقةَ لعلمِ المقارنةِ اللّسانيّةِ(٣).

وأمّا المسارُ الثّاني، فيتّصلُ بنشأةِ المقارنات السّاميّةِ التي ولدتْ تاريخيًّا في أحضانِ كلّيّاتِ اللّاهوتِ والمؤسّساتِ الدّينيّة الغربيّة. فقد تنبّه الباحثون ورجالُ الدّينِ هناك إلى وشائجِ القربى التي تجمعُ بينَ العبريّةِ، والعربيّةِ، والسّريانيّةِ، بهدفِ توظيفِ هذه اللُّغاتِ في تفسيرِ وشرحِ النّصوصِ الدّينيّةِ المكتوبةِ بالعبريّةِ. وشهدتْ هولندا في القرنِ الثّامن عشرَ قفزةً علميّةً على يدِ (ألبرت شولتنس)، الذي أقامَ مقارنةً منهجيّةً بينَ العربيّةِ والعبريّةِ، مُستعينًا بالثّراءِ المعجميّ والبنيويّ للغةِ العربيّةِ لتفكيكِ الظّواهرِ والصّيغِ العبريّةِ الغامضةِ والمُبهمةِ وفهمِها.

---

(١) ينظر: علم اللُّغة العربيّة: ١٢٦. مناهج البحث اللُّغويّ: ٨٤.

(٢) ينظر: مناهج البحث اللُّغويّ: ٨٥.

(٣) ينظر: موجز تاريخ علم اللُّغة: ٢٧٧، وعلم اللُّغة المقارن: ٥٤.

وسارَ على هذا النّهجِ المقارنِ المستشرقان الألمانيّان (هاينريش إيفالد) و(يوستوس أولسهوزن)، اللذان درسا العبريّةَ في ضوءِ معطياتِ العربيّةِ، ممّا رسّخَ التّوجّهَ المقارنَ داخلَ الحقلِ السّاميّ[١].

واتّسعتْ دائرةُ البحثِ المقارنِ لتشملَ اللُّغةَ الآراميّةَ بدراساتِ المستشرقِ الفذّ (تيودور نولدكه). ثمَّ تبلورَ هذا التّراكمُ العلميّ في مؤلّفاتٍ مرجعيّةٍ رائدةٍ، كانَ في طليعتِها محاضراتُ المستشرقِ (ويليام رايت) حول (النّحو المقارن للغات السّاميّة). وتتابعتِ المصنّفاتُ؛ فقد أسهمَ (باول دو لاغارد) و(يعقوب بارت) في تتبّعِ (أبنيةِ الأسماء السّاميّةِ)، وألّفَ المستشرقُ السّويديّ (لاندبرج) في النّحو المقارنِ[٢].

إلّا أنَّ الذّروةَ الكبرى والنّقطةَ المفصليّةَ في هذا السّياقِ تجسّدتْ في الجهودِ العلميّةِ للمستشرقِ الألمانيّ (كارل بروكلمان)، الذي أصدرَ موسوعتهُ الضّخمةَ المُعنونةَ بـ(الأساس في النّحو المقارن للغاتِ السّاميّة) الصّادرة في جزأين؛ تفرّغَ الجزءُ الأوّلُ منها لبحثِ الأصواتِ اللُّغويّةِ وأبنيةِ الأسماءِ والأفعالِ، في حينِ خصّصَ الجزء الثّاني بدراسةِ أنظمةِ الجملةِ وتراكيبِها في الفصيلةِ السّاميّةِ، مشعرًا بمادّةٍ علميّةٍ بالغةِ الشّمولِ والإحاطةِ لم يسبقْ إليها. ولم يقفْ (بروكلمان) عندَ هذا الحدِّ، بل وضعَ مصنفينِ موجزين؛ هما: (فقه اللُّغات السّاميّة) و(مختصر النّحو المقارن للغات السّاميّة)، ليُمثّلا خلاصةً مركّزةً لنظريّاتِهِ وأبحاثِهِ. وعقبَ هذه المرحلةِ، غدا (بروكلمان) المرجعَ الأبرزَ الذي استندتْ إليهِ كلُّ البحوث الاستشراقيّةِ اللّاحقةِ[٣]، فسارَ على دربِهِ المستشرقُ الألمانيّ (غوتلف برجستراسر) في كتابِهِ (التّطوّر

(١) ينظر: المدخل الى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ: ٢٠٢.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٢_ ٢٠٣.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٣.

النّحويّ للغةِ العربيّةِ)[١].

ومن بينَ الذين تأثّروا بإرثِ (بروكلمان) المنهجيّ، برزَ المستشرقُ (دي لاسي أوليري) في مُصنّفِهِ (النّحو المقارن للغاتِ السّاميّةِ). والمستشرقُ الألمانيّ (يوهان فك) عبرَ عملِهِ المهم (العربيّة: دراساتٌ في تطوّرِ اللُّغة) _الذي عُرف لاحقًا بـ(تطوّرِ النّحو العربيّ)_ فقد عقدَ موازناتٍ مستفيضةً بينَ العربيّةِ وسائرِ اللُّغاتِ السّاميّةِ لرصدِ مساراتِ التّحوّلِ التّاريخيّ والبنيويّ في لغةِ (الضّادِ). وفي الطّورِ نفسِهِ، برزَ اسمُ (ساباتينو موسكاتي) بكتابِهِ الذّائعِ الصّيتِ (محاضرات في اللُّغاتِ السّاميّة) الذي تُرجِمَ للإنجليزيّةِ ثُمَّ طُبِعَ في ألمانيا تحتَ عُنوانِ (مقدّمة في النّحو المقارن للغاتِ السّاميّةِ)، بالتّعاونِ مع ثلّةٍ من كبارِ الباحثين الاستشراقيّين؛ من أمثالِ: (أنطون شبيتالر)، و(إدوارد أولندورف)، و(فولفرام فون سودن)[٢].

وفي مقابلِ هذه المدارسِ، يرى بعضُ المؤرّخين اللّسانيّين أنَّ النّواةَ الأولى للمنهجِ المُقارنِ تشكّلتْ في الأوساطِ الأكاديميّةِ الألمانيّةِ تحديدًا عندما أعلنتْ أكاديميّةٌ علميّةٌ هناك عن جائزةٍ لأفضلِ بحثٍ يتناولُ (طرائقَ التّعبيرِ اللُّغويّ)، مِمّا حفّزَ الباحثين على إجراءِ مقارناتٍ مُنظّمةٍ بينَ اللُّغاتِ الأوربيّةِ القديمةِ والحديثةِ[٣].

ويقترنُ تاريخُ المنهجِ المقارنِ السّاميّ بالمستشرقِ الألمانيّ (أوغست لودفيغ شلوتسر)، الذي يُجمعُ الدّارسونَ على أنَّهُ أوّلُ من اجترحَ وصكَّ مُصطلحَ (اللُّغاتِ السّاميّةِ) عام (١٧٨١م)، بعدَ مراجعتِهِ لجدولِ تقسيمِ الشّعوبِ والأممِ الواردِ في الإصحاحِ العاشرِ من (سفرِ التّكوينِ) في العهدِ القديمِ، ليجمعَ تحتَ هذا المعطفِ اللُّغويّ: العربيّةَ، والعبريّةَ، والآراميّةَ،

(١) ينظر: الاتّجاهات النّحويّة لدى القدماء دراسة تحليليّة في ضوء المناهج المعاصرة: ٣٢.
(٢) ينظر: المدخل الى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ: ٢٠٤.
(٣) ينظر: فقه اللُّغة في الكتب العربيّة: ١٣.

والحبشيّةَ[١]. وعلى الرّغمِ من أنَّ المصطلحَ شاعَ علميًّا، إنَّ العديدَ من اللُّغويّينَ المحدثينَ انتقدوا المرجعيّةَ التّوراتيّةَ لهذا التّقسيمِ، مُنبّهينَ إلى أخطاء فادحةٍ فيهِ؛ كإقحامِ الكنعانيّين ضمنَ أبناءِ سامٍ، وإدراج جماعاتٍ بشريّةٍ أخرى لا تربطُها صلاتٌ لغويّةٌ بالسّاميّين[٢].

ويقتضي النظرُ في هذه المسألةِ قدرًا من الاحتراز؛ إذ لا تتّفق الرّواياتُ القديمةُ اتّفاقًا تامًّا في تحديدِ الأصول النَّسَبيّة للكنعانيّين. فقد ذكر الطّبريُّ أن الكنعانيّين ينحدرون من سلالةِ لاوذ بن سام بن نوح، وعرض ابن خلدون اختلافَ الأقوال في أنساب الأمم، وأورد ضمنها نسبةَ كنعان إلى سلالة حام بن نوح. ولهذا لا يصحُّ اتخاذُ هذه الأنساب القديمة أساسًا حاسمًا للتصنيف اللّغويّ؛ لاختلاف رواياتها من جهة، ولاختلاف مفهوم النَّسَب عن مفهوم القرابة اللّغويّة من جهة أخرى. أمّا في التّصنيف اللّسانيّ، فتندرج اللُّغاتُ الكنعانيّة ضمن مجموعة اللغات الساميّة الشماليّة الغربيّة، وهو تصنيفٌ قائمٌ على القرابة والخصائص اللّغويّة المشتركة.

ولم تقتصرْ هذه السّاحةُ المعرفيّةُ على المؤلّفاتِ الموسوعيّةِ، بل رفدَتها بحوثٌ ومقالاتٌ تخصّصيّةٌ رصدَتِ التّحوّلاتِ الصّوتيّةَ، والصّرفيّةَ، والنّحويّةَ، والدّلاليّةَ بينَ اللُّغاتِ السّاميّةِ، ممّا جعلَ المنهج المقارن الأداةَ المحوريّة في الدّرسِ الاستشراقيّ واللّسانيّ الحديثِ[٣]. وقد ارتبطَ المنهجُ المقارنُ في أروقةِ اللّسانيّاتِ بمفهومِ (فقهِ اللُّغةِ المقارن / الفيلولوجيّا)، وهو ما أكّدَهُ اللُّغويّ السّويسريّ (فرديناند دي سوسير) في كتابِهِ العمدةِ (محاضراتٌ في اللّسانيّاتِ العامّة). فقد أوضحَ (دي سوسير) أنَّ اكتشافَ العلاقاتِ الصّارمةِ والمُنتظمةِ بين اللُّغاتِ القابلةِ للمقارنةِ مثّلَ بدايةَ التّأسيسِ الفعليّ لفقهِ اللُّغةِ المقارنِ، وهي الخطوةُ التي مهّدتْ لاستقلالِ علمِ اللُّغةِ؛

---

(١) ينظر: الاتّجاهات النّحويّة لدى القدماء دراسة تحليليّة في ضوء المناهج المعاصرة: ٢٥، وفصول في فقه العربيّة: ٣٦.

(٢) ينظر: علم اللُّغة المقارن، حازم علي كمال الدين: ٥٥.

(٣) ينظر: المدخل الى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ: ٢٠٣.

إذْ أدركَ الباحثونَ أنَّ اللُّغاتِ المُنحدرةَ من أرومةٍ واحدةٍ تشكّلُ موضوعًا لعلمٍ مستقلٍّ يستندُ إلى المقارنةِ النّسقيّةِ لا الملاحظةِ العرضيّةِ المفاجئةِ. ونوّه (دي سوسير) بعبقريّةِ (فرانز بوب) الذي تجاوزَ مجرّدَ رصدِ المُتشابهاتِ الشّكليّةِ، ليرتقي بالمنهجِ المُقارنِ إلى مصافّ التّفسيرِ؛ إذْ سعى (بوب) إلى تفسيرِ الصّيغِ البنيويّةِ للُغةٍ معيّنةٍ بالرّجوعِ إلى نظيراتِها في لغةٍ أخرى تنتمي لذاتِ الأسرةِ، وهو كشفٌ منهجيّ مهّدَ الطّريقَ لظهورِ اللّسانيّاتِ المعاصرةِ(١).

وتعزّزتِ المدرسةُ المقارنةُ بأسماء لامعةٍ؛ فبرزَ المستشرقُ اللُّغويّ (ماكس مولر) الذي روّجَ للدّراساتِ الهندو أوروبيّةِ في الأوساطِ الثّقافيّةِ الغربيّةِ. وقدّمَ اللُّغويّ (جورج كورتيوس) بحوثًا مُركّبةً في المقارنةِ الصّرفيّةِ والنّحويّةِ. وفي سياقٍ مُتّصلٍ، طوّرَ اللُّغويّ (أوغست شلايخر) النّظريّةَ الشّجريّةَ (Stammbaumtheorie) لتفسيرِ تفرّعِ اللُّغاتِ الهندو_ أوربيّةِ، مُتأثّرًا بالنّظريّاتِ البيولوجيّةِ؛ فقدَ نظرَ إلى اللُّغةِ بوصفِها كائنًا حيًّا يخضعُ لقوانينِ النّموّ، والتّطوّرِ، والموتِ(٢). وأمّا (ياكوب غريم)، فيتبوّأ مكانةً رفيعةً كأحدِ الآباء المؤسّسينَ للمدرسةِ التّاريخيّةِ المقارنةِ؛ إذْ اشتهرَ بحوثهِ الصّوتيّةِ المُعمّقةِ التي توّجتْ بـ(قانونِ غريم) الصّوتيّ، مكشوفًا عبرَهُ عن انتظامِ تحوّلِ الحروفِ الصّحيحةِ الصّامتةِ وانتقالِها من اللُّغةِ الهندو أوربيّةِ الأمِّ إلى اللُّغاتِ الجرمانيّةِ على وفق قوانين مطّردةٍ صارمةٍ(٣). ويلتقي (غريم) في هذا المضمارِ مع اللُّغويّ (فريدريش فون شليغل)، الذي يُعدُّ أوّلَ من دعا علانيّةً وبمُصطلحٍ صريحٍ إلى (النّحو المقارن) في كتابِهِ (عن لغةِ وحكمة الهنود)، جاعلًا من دراسةِ السّنسكريتيّةِ المدخلَ المعرفيّ الأوحدَ لاستيعابِ تاريخِ اللُّغاتِ الهندو أوربيّةِ(٤).

---

(١) ينظر: علم اللُّغة العامّ: ١٠.

(٢) ينظر: علم اللُّغة مقدمه للقارئ العربيّ: ٢٧٢.

(٣) ينظر: تاريخ علم اللُّغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ١٦٩ _ ١٨٥.

(٤) ينظر: فقه اللُّغة في الكتب العربيّة: ١٤.

إذن، قد تضافرتْ هذه الجهودُ الألمانيّةُ والأوربيّةُ المكثّفةُ في القرنِ التّاسع عشرَ لتصيغَ هويّةَ المدرسةِ المقارنةِ، ناقلةً إيّاها من التّخميناتِ العشوائيّةِ إلى أطرِ القوانين الصّوتيّةِ والتّفسيراتِ التّاريخيّةِ.

**ثالثًا: موقعُ اللُّغةِ العربيّةِ في دراساتِ المستشرقينَ المقارنةِ:**

تبوأتِ اللُّغةُ العربيّةُ مكانةً مركزيّةً واستثنائيّةً في إطارِ الدِّراساتِ السّاميّةِ المقارنةِ التي أنجزَها المستشرقونَ؛ نظرًا للمزايا البنيويّةِ الفريدةِ التي تتمازُ بها. فقد أجمعَ جمهورُ المستشرقين على أنَّ العربيّةَ تُعدُّ أقربَ اللُّغاتِ السّاميّةِ الموثّقةِ إلى الصّورةِ الافتراضيّةِ لـ(اللُّغةِ السّاميّةِ الأمِّ). ويعودُ هذا التّميّزُ إلى قدرةِ العربيّةِ الفائقةِ على الحفاظِ على كمٍّ هائلٍ من الخصائصِ والأصولِ السّاميّةِ العتيقةِ والقديمةِ التي فقدتْها أو تخلّتْ عنها بقيّةُ اللُّغاتِ الشّقيقةِ عبرَ حقبِ التّطوّرِ؛ وتتجلّى هذه المحافظةُ في نظامِها الصّرفيّ المحكمِ، وجهازِها الاشتقاقيّ المرن، وظواهرِها الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ والنّحويّةِ المشتركةِ، فضلًا عن احتفاظِها بنظامٍ إعرابيّ بيّن وواضح[1]. ولهذه الاعتباراتِ، تبارى كبارُ المستشرقين للدعوةِ إلى دراسةِ العربيّةِ وتوظيفِها مفتاحًا لفكِّ شفراتِ السّاميّاتِ، وكانَ من أبرزِهم: (تيودور نولدكه)، و(كارل بروكلمان)، و(غوتلف برجستراسر)، و(إسرائيل ولفنسون)، و(كارل فوللرز)، و(يوهان فك). ورأى هؤلاء أنَّ العربيّةَ _وإنْ خضعتْ كسائرِ اللُّغاتِ لعواملِ التّطوّرِ، والتّخصيصِ، والتّنوّعِ الدّاخليّ عبرَ مراحلِ تاريخِها_ إلّا أنَّ جذعَها ظلَّ وثيقَ الصّلةِ بالأصلِ الأوّلِ المُفترضِ[2]. ومن ثمَّ، تشعّبتْ تطبيقاتُ المنهجِ المقارنِ في رحابِ العربيّةِ لتشملَ أربعةَ مستوياتٍ لسانيّةٍ رئيسةٍ درسَها المستشرقونَ بكثافةٍ وعُمقٍ؛ وهي:

---

(١) ينظر: المدخل الى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ: ٢٠١.

(٢) ينظر: العربيّة في ضوء المنهج المقارن دراسات المستشرقين الألمانيّ إنموذجا:١٨٤.

**١ـ المستوى الصّوتيّ المقارنُ:**

ركّزَ الخطابُ الاستشراقيّ على فحصِ القوانين الصّوتيّةِ التي تحكمُ إنتاجِ الأصواتِ وتحوّلاتِها بين لغاتِ الأسرةِ الواحدةِ. وانطلقَ الباحثون من دراسةِ (الأصواتِ المشتركةِ) الثّابتةِ والمستقرّةِ في الفصيلةِ السّاميّةِ، التي لم تقعْ في فخِّ التّغيّرِ، ومثلوا لذلك بـ (صوتِ الرّاء) الذي حافظَ على هويّتِهِ النّطقيّةِ في جُلِّ لغاتِ الأسرةِ[١]. وعُنيتِ الدِّراساتُ المقارنةُ برصدِ ظاهرةِ (تحوّل الأصواتِ وتغيّرِ صفاتها الفونيتيكيّةِ)؛ إذْ تتغيّرُ الصّفةُ الصّوتيّةُ لتُولّدَ صوتًا جديدًا أو تتسبّبّ في اندثارِ صوتٍ قديمٍ، متتبّعينَ عبرَ ذلك قضايا أصواتِ الحلقِ، والإطباقِ، والأصواتِ الشّفويّةِ في السّاميّاتِ[٢]. وفي هذا السّياقِ، قدّمَ (تيودور نولدكه) أطروحةً صوتيّةً مقارنةً مهمّةً عندَ معالجةِ اللُّغةِ الأكديّةِ؛ إذْ ذهبَ إلى أنَّ الأكديّين كانوا في واقعِهم الصّوتيّ القديمِ ينطقونَ بأصواتِ الحلقِ السّاميّةِ المشهورةِ، بيدَ أنَّهم عجزوا عن تمثيلِها بدقّةٍ في تدويناتِهم المكتوبةِ. وعزا (نولدكه) هذا القصورَ إلى طبيعةِ (الخطّ المسماريّ) الذي تفتقرُ رموز علاماتِه إلى القدرةِ على التّمييزِ الدّقيقِ لأصواتِ الحلقِ، مِمّا أدّى لغيابِ رسمِها أو اضطرابِ تمثيلِها في اللّوحاتِ الطّينيّةِ. ومن هنا، أسّس (نولدكه) لفرضيّة إجرائيّة تفصلُ بينَ (الواقعِ الصّوتي المفترض) للغةِ وبينَ (صورتِها الكتابيّة الموثّقة)[٣].

وأمّا المستشرقُ (سبتينو موسكاتي)، فقد درسَ صوتَ (الضّادِ) في العربيّةِ بوصفِهِ علامةً فارقةً؛ ولاحظَ في المقابلِ أنَّ هذا الصّوتَ في اللُّغةِ البابليّةِ لم يُفردْ بعلامةٍ كتابيّةٍ مسماريّةٍ مستقلّةٍ، بل كانَ يُعوّضُ عنهُ ويُمثّلُ غالبًا بالعنصرِ النّقشيّ الحرفيّ (d)، مِمّا يعكسُ ملمحًا ناطقًا بأنَّ البابليّين كانوا يلفظونهُ (دالًا) مفخّمةً أو صوتًا قريبًا جدًا من (الضّادِ)

---

(١) ينظر: في علم الأصوات المقارن التغيير التّاريخي للأصوات في اللُّغة العربيّة واللّغات السّاميّة:٦/ ٣٦.
(٢) ينظر: مدخل إلى علم اللُّغة :٢١ ـ ٢٢.
(٣) ينظر: تاريخ اللّغات السّاميّة: ٦٧.

العربيّةِ[١]. وأرجعَ (موسكاتي) هذا الاضطرابَ المكتوبَ لعدمِ استقرارِ المنظومةِ المسماريّةِ في تمييزِ الفروقِ الصّوتيّةِ الدّقيقةِ. وقد سمحتْ هذه المقابلاتُ الصّوتيّةُ للمستشرقينَ بإعادةِ بناءِ المنظومةِ الصّوتيّةِ السّاميّةِ القديمةِ وتفسيرِ تباين الألسنِ الشّقيقةِ كونها تطوّراتٍ لاحقة طرأتْ على الأصلِ المشتركِ[٢].

**٢_ المستوى الصّرفيّ المقارن:**

لم يقفِ المنهجُ المقارنُ عند حدودِ الفونيتيكا، بل تغلغلَ في بنيةِ الكلمةِ (المورفولوجيّا) والقواعدِ الصّارمةِ لصياغتِها عبرَ المقارنةِ بينَ لغتينِ أو تتبّعِ أطوارِ اللُّغةِ الواحدةِ تاريخيًّا[٣]؛ مُستهدفين دراسةَ الأوزانِ، والسّوابقِ (Prefixes)، واللّواحقِ (Suffixes)، والوظائفِ الصّرفيّةِ. وحظيتْ دراسةُ (الضّمائرِ) في اللُّغاتِ السّاميّةِ بعنايةٍ بالغةٍ نظرًا لاتّصالِها الوثيقِ بهيكلِ الكلمةِ، وتكاملتْ معها دراسات أبنيةِ الأفعالِ، وصيغ اسم الفاعل، والمصادر، بغيةَ كشفِ وشائجِ القربى داخلَ الأسرةِ السّاميّةِ[٤]. وأسهمتْ هذه البحوث في إزاحةِ الستارِ عن صيغٍ لغويّةٍ وصرفيّةٍ كانتْ قد دخلتْ في طورِ الهجرانِ والنّسيانِ.

ومن أبرزِ القضايا الصّرفيّةِ التي عالجَها المستشرقون موازنة أوزانِ الأفعالِ؛ فقد تبيّن أنَّ العربيّةَ تشتركُ مع اللُّغةِ الحبشيّةِ (الجعزيّةِ) في طائفةٍ من الخصائصِ والأوزانِ، غيرَ أنَّ الحبشيّةَ انفردتْ بزيادةِ أوزانٍ فعليّةٍ معيّنةٍ، وبالمثلِ ابتكرتِ العربيّةُ أوزانًا خاصّةً بها لا توجدُ في الآراميّةِ أو العبريّةِ. وبرهنَ هذا على اتّفاقِ اللُّغاتِ في معاني الأوزانِ الصّرفيّةِ الكبرى، مِمّا

---

(١) ينظر: مدخل إلى نحو اللغات السّاميّة: ٦٠.
(٢) ينظر: المنهج المقارن عند المستشرقين ودوره في الدرس اللُّغويّ المعاصر: ٢١٩.
(٣) ينظر: المعجم المفصل في مصطلحات فقه اللُّغة المقارن: ٨٠.
(٤) ينظر: مناهج البحث اللُّغويّ: ٨٩، ومدخل إلى علم اللُّغة محمود فهم حجازي: ٢٢، ومحاضرات في علم اللُّغة العامّ مع دراسة تطبيقيّة في علم اللُّغة المقارن: ٤٥.

يؤكّدُ انحدارها من أرومةٍ واحدةٍ مع تمتّعِ كلِّ لغةٍ بمسارٍ تطوّريّ ذاتيّ[١]. ودرسَ المستشرقونَ أيضًا ظاهرةَ (التّصغيرِ) في أسماءِ الأعلامِ العربيّةِ، مبيّنينَ أنَّ القواعدَ الصّرفيّةَ المدونةَ في كتبِ النّحو التّراثيّةِ تُعبّرُ عن الأغلبِ القياسيّ المستقرِّ، ولا تستوعبُ كافّةَ الأنماطِ الاستعماليّةِ التّاريخيّةِ[٢].

وتبرزُ مسألةُ (نظام التّثنيةِ) (المثنّى) كإحدى روائعِ التّطبيقاتِ الصّرفيّةِ المقارنةِ؛ فبينما حافظتِ اللُّغةُ العربيّةُ _والأكديّةُ القديمةُ بدرجةٍ معينةٍ_ على صيغةِ التّثنيةِ المستقلّةِ والواضحةِ في الأسماءِ والضّمائرِ بصورةٍ مُطّردةٍ[٣]، نجدُ أنَّ بقيّةَ اللُّغاتِ السّاميّةِ قد خلتْ في معظمِ مراحلِها التّاريخيّةِ من صيغةِ مثنّى حقيقيّةٍ وقائمةٍ بذاتِها. فاللُّغةُ العبريّةُ في استعمالِها العامّ تلجأ إلى صيغةِ الجمعِ للدّلالةِ على المثنّى، ولم تُبقِ إلّا على آثارٍ ضامرةٍ ومحدودةٍ في كلماتٍ بعينِها[٤]، وكذلك تخلّتِ السّريانيّةُ عن المثنّى تمامًا وعوّضتْ عنهُ بالجمعِ[٥]. وكشفتْ هذه المُقارنةُ عن تباينِ مساراتِ التّطوّرِ التّاريخيّ داخلَ العائلةِ اللُّغويّةِ الواحدةِ.

**٣_ المستوى النّحويّ المقارنُ (التّركيبيّ):**

شكّلتِ (الدّراسةُ النّحويّةُ المقارنةُ) المحورَ التّركيبيّ الثّالث في الدّرسِ الاستشراقيّ؛ إذْ انصبّتِ الجهودُ على تشريحِ البنى والتّركيباتِ الجمليّةِ (الاسميّةِ والفعليّةِ) ورصدِ تحوّلاتِها التّاريخيّةِ، وبحثِ الجملةِ الخبريّةِ والإنشائيّةِ في السّاميّاتِ. ودرسَ المستشرقونَ أنّماطَ التّعبيرِ اللُّغويّ النّحويّ التي انحسرتْ في العربيّةِ ولم تخلّفْ وراءها سوى بقايا وأثرٍ ضئيلٍ؛ كصيغةِ

---

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٧٣.
(٢) ينظر: المنهج المقارن عند المستشرقين ودوره في الدرس اللُّغويّ المعاصر: ٢٢٢ _ ٢٢٣ .
(٣) ينظر: قواعد اللُّغة الأوغارتية ١٨٩ _ ١٩٠
(٤) ينظر: مدخل إلى اللُّغة العبريّة: ٣٨_٤٠.
(٥) ينظر: مدخل إلى نحو اللغات السّاميّة المقارن: ٢٣١.

الفعلِ المضارعِ المجزومِ بعدَ (لم) أو الواقعِ في سياقِ أدواتِ الشّرطِ[١].

ووظّفَ المستشرقونَ المنهجَ المقارنَ لإثباتِ أصالةِ بعض الظّواهرِ النّحويّةِ الموروثةِ وعراقتها، ومن ناصعِ الشّواهدِ على ذلك دراستِهم لظاهرةِ (المطابقةِ بين الفعلِ والفاعلِ) في الجمعِ، والتي تُعرفُ في التّراثِ النّحويّ العربيّ بلغةِ (أكلوني البراغيث)، أو كما تجلّتْ في الشّاهدِ القرآنيّ والأثرِ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[٢] ونحو قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: "يتعاقبون فيكم ملائكة..."[٣]. فبينما نظرَ النّحويّونَ القُدماء إلى هذهِ الظّاهرةِ بنوعٍ من الرّيبةِ وعدّوها عيبًا أو شذوذًا عن القياسِ الفصيحِ، أثبتَ الدّرسُ المقارنُ أصالةَ هذه الظّاهرةِ لغويًّا؛ لكونِها تمثّلُ ملمحًا تركيبيًّا ساميًّا قديمًا، ومشتركًا، وله نظائر مطّردة في اللُّغاتِ الشّقيقةِ[٤].

وعلى نقيضِ ذلك، التفتَ المقارنونَ إلى المزايا النّحويّةِ التي تفرّدتْ بها العربيّةُ واختصّتْ بها من دونِ سائرِ أخواتِها؛ ولا سيّما في نظامِ إعرابِ الفعلِ المضارعِ؛ فقد ذهبَ (برجستراسر) إلى أنَّ العربيّةَ طوّرتْ نظامَها في هذا الجانبِ على نحوٍ خاصٍّ، إذ يقولُ: "وأنَّها ابتدعتْ مضارعًا منصوبًا، علاوةً على المجزومِ والمرفوعِ، مختصّةً بذلكَ وحدَها دونَ سائرِ أخواتِها"[٥]. وفي ضوءِ هذا النّصِّ، يتّضحُ أنَّ (برجستراسر) يرى أنَّ العربيّة قد ابتكرتْ صيغةَ (المضارع المنصوب) (يفعلَ) المسبوق بأدواتِ النّصبِ، وهو نمطٌ تركيبيّ وإعرابيّ فريدٌ لا يوجدُ لهُ أيّ مثيلٍ أو نظيرٍ في معظمِ اللُّغاتِ السّاميّةِ الأخرى، مِمّا جعلَها علامةً فارقةً في التّطوّرِ النّحويّ الدّاخليّ للعربيّةِ.

---

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٧٣.

(٢) الأنبياء :٣.

(٣) شرح التسهيل تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد:٤٩/٢، وعلم اللُّغة المعاصر مقدّمات وتطبيقات :١٤٢.

(٤) ينظر: لغة اكلوني البراغيث بين العربيّة الفصحى ولهجات شبه الجزيرة العربيّة :٢٠١.

(٥) التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ٨٩.

**٤_ المستوى الدّلاليّ والمعجميّ المقارنُ:**

امتدّتْ يدُ البحثِ المقارنُ لتطالَ المتنَ المعجميّ والدّلاليّ للألسنِ السّاميّةِ، وتجسّدتِ القيمةُ التّطبيقيّةُ العليا لهذا المنحى في المشروعِ الموسوعيّ الضّخم للأوربيّةِ القديمةِ والصّادرِ عن مجمعِ اللُّغةِ العربيّةِ بالقاهرةِ؛ فقد اتّكأ الباحثونَ والمجمعيّونَ على المقارناتِ السّاميّةِ لتتبّع أصول المفرداتِ العربيّةِ الشّاردةِ وتحديد هويّتِها(١). وجمعَ المستشرقونَ الكلماتِ المشتركةَ، فلاحظوا أنَّ ثمّةَ ألفاظًا تتطابقُ تمامًا في دلالتِها، بينما تتقاربُ أخرى في ظلالِ المعنى، واضعينَ نصبَ أعينِهم رصدَ (التّغيّرِ الدّلاليّ) الذي يصيبُ الكلمةَ عبرَ الزّمنِ والبيئاتِ الجغرافيّةِ(٢).

ولم يغفلِ المنهجُ المقارنُ عن التّمييزِ الدّقيقِ بينَ الألفاظِ الأصيلةِ المتوارثةِ من الأرومةِ السّاميّةِ، وبينَ الألفاظِ الدّخيلةِ والمعرّبةِ (المُقترضةِ) التي دخلتْ متنَ العربيّةِ جراء الاحتكاكِ التّاريخيّ والتّبادلِ الحضاريّ مع اللُّغاتِ المجاورةِ. وكمثالٍ تطبيقيّ مشهودٍ، تتبّعَ المستشرقونَ (الألفاظَ العربيّة ذوات الأصلِ الآراميّ والسّريانيّ)(٣)؛ كدراستِهم للفظةِ (جُذاذ) التي تعني في المعجماتِ العربيّةِ صغار الشّجرِ أو ما قُطعَ منهُ، مبرهنين بالدّليلِ المقارنِ على صلتِها بلفظٍ آراميّ مُجاورٍ وقريبٍ في بنيتهِ ودلالتِهِ(٤). وأولى المستشرقونَ عنايةً فائقةً لدراسةِ المعنى والسّياقِ تاريخيًّا؛ مثل: دراستِهم المقارنةِ للفظةِ (أبر / بار)، موضّحينَ أنَّ دلالتَها تختلفُ وتتنوّعُ من لهجةٍ ساميّةٍ إلى أخرى، وأنَّ تطوّرَ المعنى محكومٌ بالسّياقِ الاستعماليّ والظّرفِ التّاريخيّ لكلِّ بيئةٍ لغويّةٍ. وأسهمَ هذا التّفتيشُ المعجميّ في الكشفِ عن ألفاظٍ ظُنّتْ لوهلةٍ أنَّها

---

(١) ينظر: مدخل إلى علم اللُّغة: ٢٢ _ ٢٣، ومحاضرات في علم اللُّغة العام مع دراسة تطبيقيّة في علم اللُّغة المقارن: ٤٦.

(٢) ينظر: مدخل إلى علم اللُّغة، حجازي محمود فهمي: ٢١.

(٣) ينظر: مقدّمة في فقه اللُّغة العربيّة واللّغات السّاميّة: ١٧٨.

(٤) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٦٣_ ٦٤.

دخيلةٌ على العربيّةِ، بيدَ أنَّ البحثَ المقارنَ برهنَ على أنَّ لها أصلًا ساميًّا مشتركًا، أو أنَّها انتقلتْ للعربيّةِ عبرَ لغةٍ ساميّةٍ مجاورةٍ كلفظةِ (الدُّمَية / دُمَية) التي اتّضحَ بالمقايسةِ انتقالها للعربيّةِ من رافدٍ ساميّ مجاورٍ(١).

**رابعًا: الدّوافعُ الاستشراقيّة لتبنّي المنهجِ المقارنِ:**

إنَّ الاندفاعَ الاستشراقيّ المحمومَ نحو التّوسّلِ بالمنهجِ المقارنِ وتطبيقهِ على اللُّغاتِ لم يكنْ تحرّكًا مجردًّا من الغاياتِ، بل حركتهُ حزمة من الدّوافعِ المركّبةِ؛ وهي:

**١_ الدّافعُ الدّينيّ واللّاهوتيّ:**

تربّعَ الهدفُ الدّينيّ على رأسِ المحفّزاتِ الاستشراقيّةِ؛ إذْ انطلقَ الباحثونَ الغربيّونَ في البدايةِ برغبةٍ عارمةٍ في التّحقّقِ من (صحّةِ النّصوصِ والقصصِ الواردةِ في الكتابِ المقدّسِ) (العهد القديم). وسيطرَ عليهم هاجسٌ لاهوتيّ قديمٌ يزعمُ أنَّ (اللُّغةَ العبريّةَ هي أصل لغات البشرِ طُرًّا). ومع تقدّم البحث واصطدامه بالحقائقِ اللّسانيّةِ، تحوّلَ هذا الهدفُ من مُجرّدِ الدّفاعِ العقديّ الضّيقِ إلى غايةٍ علميّةٍ أرحبَ تدرسُ العلاقاتِ القائمةَ بينَ اللُّغاتِ والشّواهدِ اللُّغويّةِ الموثّقةِ(٢).

**٢_ دافعُ الفضولِ المعرفيّ والاستكشافِ:**

أثر الشّغفُ العلميّ والفضولُ الفكريّ تأثيرًا كبيرًا؛ إذْ رغبَ المستشرقونَ في كشفِ الرّوابطِ الجغرافيّةِ واللّسانيّةِ بينَ البلدانِ والشّعوبِ. واستلزمَ هذا التّوجّه ارتحالَهم وتعلّمهم للغاتِ المشرقِ، وهو ما يفسّرُهُ بوضوحٍ مسارُ المستشرقِ (ويليام جونز) الذي قادهُ تواجدهُ في الهندِ

---

(١) ينظر: المنهج المقارن عند المستشرقين ودوره في الدّرس اللُّغويّ المعاصر: ٢٢٤ _ ٢٢٦.

(٢) ينظر: المنهج المقارن مع دراسات تطبيقيه:٤٤.

لتعلّمِ السّنسكريتيّةِ ومقارنتِها، مِمّا فجّرَ ثورةَ الدِّراساتِ المقارنةِ[١].

**٣_ الدّافعُ الجغرافيّ والسّياسيّ (الاستعماريّ):**

واكبَ ازدهارُ المنهجِ المقارنِ الصّعودَ القوي لحركةِ الاستعمارِ الأوربيّ في المشرقِ خلال القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر. فوجدَ ثلّةٌ من المستشرقينَ واللُّغويّينَ أنفسهم خارجَ أوطانِهم بصفاتٍ رسميّةٍ؛ كالإداريّين، أو الدّبلوماسيّين، أو الرّحّالةِ. وولّدتِ الحاجةُ العمليّةُ الماسّةُ لإدارةِ الشّعوبِ المُستعمرةِ وفرضِ السّيطرةِ الإداريّةِ والسّياسيّةِ ضرورةً حتميّةً لتعلّمِ لغاتِ تلك الأممِ الخاضعة للاحتلالِ وتفكيكِ بنيتِها، مِمّا انعكسَ إيجابًا _من زاويةٍ علميّةٍ بحتةٍ _على تنشيطِ البحوثِ اللُّغويّةِ والمقارناتِ اللّسانيّةِ وتمويلها، ويُمثّلُ (جونز) في البنغالِ النّموذجَ الأبرزَ لهذا التّداخلِ بينَ الوظيفةِ القضائيّةِ الاستعماريّةِ والبحثِ اللّسانيّ[٢].

**٤_ الدّافعُ الفكريّ وحركةُ استقلالِ العلومِ:**

عاصرَ بزوغُ المنهجِ المقارنِ حراكًا فكريًّا عامًّا في أوربا تمثّلَ في (انفصالِ العلومِ الإنسانيّةِ والطبيعيّةِ عن الفلسفةِ) (كالفيزياء، والكيمياء، والطّبّ). وسعتِ اللّسانيّاتُ لتأسيسِ منهجِها الخاصّ القائمِ على الملاحظةِ، واستنباطَ القوانين، والتّجريب. فاتّجهَ لغويو القرنِ التّاسعِ عشرَ للبحثِ عن القوانينِ الصّوتيّةِ المطّردةِ داخلَ كلِّ لغةٍ أوّلًا، ثُمَّ داخلَ الفصيلةِ الواحدةِ ثانيًا. وحاولَ بعضُهم موازنةَ القوانين اللُّغويّةِ المُكتشفةِ بالقوانين الصّارمةِ للعلومِ التّطبيقيّةِ، بغيةَ إضفاءِ الطّابعِ العلميّ الدّقيقِ والموضوعيّةِ المنهجيّةِ على الدِّراساتِ الأدبيّةِ واللّسانيّةِ، وتخليصِها من الأحكامِ الانطباعيّةِ[٣].

---

(١) ينظر: المنهج المقارن مع دراسات تطبيقيه: ٤٤.

(٢) ينظر: مناهج البحث اللُّغويّ بين التّراث والمعاصرة: ١٧٣– ١٧٤.

(٣) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة الحديثة: ٤٥ – ٤٦.

**خامسًا: الميزانُ العلميّ للمنهجِ المقارنِ (الإيجابيّات والسّلبيّات)**

يقفُ المنهجُ المقارنُ في ميزانِ النّقدِ اللّسانيّ المعاصر بوصفِهِ أداةً بالغةَ الخطورة، لا تخلو _كغيرِها من المناهجِ _من مكاسبَ علميّةٍ جليلةٍ، وعثراتٍ أو تحدّياتٍ تطبيقيّةٍ يَتعيّنُ التّوقفُ عندَها بحسبِ ما يأتي:

**١_ الإيجابياتُ والمكتسباتُ العلميّةُ:**

حلُّ المشكلاتِ الصّرفيّةِ والنّحويّةِ؛ أسهمَ في حلِّ عويصِ القضايا في البنيةِ والتّركيبِ وتفسيرِها، ولم يقفْ عندَ الهندو_أوربيّةِ؛ بل قدّمَ خدماتٍ جليلةً للعربيّةِ؛ فقد كشفَ عن جذورِ ظواهرِها، وفتّشَ في تقلّباتِها عبرَ الحقبِ(١).

أ_ تحقيقُ الظّواهر اللُّغويّة وتأصيلُها: نقلَ دراسة المسائلِ اللُّغويّةِ من الأطرِ الوصفيّةِ التّقليديّةِ السّاكنةِ إلى آفاقِ الأصولِ الأولى، مُحقّقًا نشأةَ الظّواهرِ وردّها إلى ينابيعِها الجنينيّةِ.

ب_ التّصنيفُ العلميّ المنهجيّ: منحَ اللّسانيّينَ المعيار الصّارمَ لتصنيفِ اللُّغاتِ الإنسانيّةِ وتوزيعِها في عائلاتٍ بناءً على السّماتِ الصّوتيّةِ، والصّرفيّةِ، والتّركيبيّةِ، والدّلاليّةِ المُشتركةِ، مِمّا عمّقَ فهمَ التّاريخِ اللُّغويّ للبشرِ(٢).

ج_ إثباتُ حركيّةِ اللُّغاتِ وسدُّ الثّغراتِ: برهنَ على أنَّ اللُّغاتِ كائناتٌ حركيّةٌ تتغيّرُ عبرَ الزّمنِ، ونجحَ في سدِّ الثغراتِ المفقودةِ في تاريخِ الألسنِ عبرَ الكشفِ عن الرَوابطِ المنسيّةِ، مستعينًا بآليّتي الاستقراءِ والاتّكاءِ على القوانين الصّوتيّةِ(٣).

---

(١) ينظر: مناهج المستشرقين في دراسة الأدب العربيّ جاك بارك إنموذجًا: ٦٣.
(٢) ينظر: فقه العربيّة المقارن دراسات في أصوات العربيّة وصرفها ونحوها على ضوء اللّغات السّاميّة: ٦٥.
(٣) ينظر: دراسات في علم اللُّغة الوصفيّ والتّاريخيّ والمقارن: ٦٠.

**٢_ السّلبياتُ والتّحدّياتُ المنهجيّةُ:**

أ_ الجهلُ بالتّرتيبِ الزّمنيّ والحلقاتِ المفقودةِ: واجهَ بعضُ المستشرقينَ معضلةً حقيقيّةً تمثّلتْ في عدمِ درايتهم الكافيةِ بالحقائقِ التّاريخيّةِ والتّرتيبِ الزّمنيّ الدّقيقِ لانفصالِ اللُّغاتِ السّاميّةِ عن أصلِها المُفترضِ، ولا سيّما اللُّغاتِ والألسنِ غيرِ المدوّنةِ، مِمّا خلقَ (حلقاتٍ مفقودةً) في السّلسلةِ التّطوّريّةِ شوّشتْ على دقّةِ النّتائجِ(١).

ب_ عقدةُ التّمييزِ بينَ الأصيلِ والدّخيلِ: ترتّبَ على الجهلِ بالتّرتيبِ الزّمنيّ والتّداخلِ اللُّغويّ الكثيفِ عبرَ القرونِ صعوبة التّمييزِ بينَ ما هو (موروثٌ وأصيلٌ) (Inherited) ينتمي لذات الأسرةِ، وبينَ ما هو (مكتسبٌ ودخيلٌ أو مقترضٌ) (Borrowed) نتيجةَ التّمازجِ. فإذا عجزَ الباحثُ عن الفصلِ بينهما، قادتهُ المقارنةُ إلى نتائجَ لسانيّةٍ مضلّلةٍ ومخطئةٍ(٢).

ج_ معضلةُ عدمِ اكتمالِ السّلسلةِ التّاريخيّةِ والتّغيّرِ المُستمرِّ: تُعاني الفصيلة السّاميّةُ من عدمِ تمثيلِ ألسنتِها في حلقاتٍ متّصلةٍ اتّصالًا تامًّا أو واضحةِ المعالمِ، مِمّا جعلَ عمليّةَ إعادةِ بناءِ (اللُّغة السّاميّة الأمّ) بدقّةٍ مئويّةٍ أمرًا بالغَ الصّعوبةِ(٣). فضلًا عن أنَّ المنهجَ المقارنَ يعتمدُ بالدرجةِ الأولى على (النّصوصِ القديمةِ المكتوبةِ والمكتشفةِ)، واللُّغةُ بطبيعتِها كائنٌ دائمُ التّغيّرِ والتّحوّلِ؛ والنّصوصُ المكتوبةُ لا تعكسُ في الغالبِ إلّا مرحلةً زمنيّةً محدودةً وجامدةً من تاريخِ اللُّغةِ الطّويلِ، مِمّا يحرمُ الباحثَ من مواكبةِ الحقيقةِ اللُّغويّةِ في صورتِها الحيّةِ والمستمرّةِ(٤).

---

(١) ينظر: علم اللُّغة: ٢٦٦_ ٢٦٩، وعلم اللُّغة العربيّة: ١١٩_١٢٧، وفصول في فقه اللُّغة: ٤٧، وعلم اللُّغة المقارنة: ١٨، والمستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٤١.

(٢) ينظر: مناهج المستشرقين في دراسة الأدب العربيّ جاك بارك إنموذجًا: ٦٢.

(٣) ينظر: مباحث في علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ: ٢٩٠.

(٤) ينظر: المدخل إلى علم اللُّغة: ٢٠٠ _ ٢٠٥، وفقه اللّغات السّاميّة: ٧، والمستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ٥٠ _ ٦١، ومناهج الدرس النّحويّ في العالم العربيّ: ١٩٢_ ١٩٣، وأسس علم اللُّغة: ١٦٤.

د_ إشكاليّةُ البحثِ الذّريّ والتّركيزِ على الجزئيّاتِ: عابَ المنهجَ المقارنَ في بداياتِهِ الأولى افتقارُهُ إلى (نظريّةٍ لغويّةٍ كلّيّةٍ ومتكاملةٍ)، مِمّا أوقعَ الباحثينَ المقارنين في مصيدةِ التّركيزِ على الجزئيّاتِ المفردةِ والمعزولةِ ما يُعرفُ في النّقدِ اللّسانيّ بـ(البحثِ الذرّيّ Atomistic Approach). وظلَّ هذا القصورُ مهيمنًا إلى أنْ ظهرتْ بذورُ المنهجِ الوصفيّ البنيويّ مع (دي سوسير)، فتحوّلَ الاهتمامُ تدريجيًّا من تفتيتِ الظّواهرِ جزئيًّا إلى دراسةِ المنظومةِ اللُّغويّةِ وبنيتِها الكلّيّةِ المتضامنةِ[١].

(١) ينظر: هندسه اللغات، فيفن لو ٨٨٢/٣.

## المبحثُ الرّابعُ

## المنهجُ الوصفيّ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ

وبوصفِهِ أحدَ أهمّ المرتكزاتِ الإجرائيّةِ في الخطابِ الاستشراقيّ؛ سنفصّلُ القول فيه بحسب ما يأتي:

### أوّلًا: التّكوينُ المعرفيّ للمنهجِ الوصفيّ في الفكرِ اللُّغويّ:

إنَّ قراءةَ تفكيك الحفرِ المعرفيّ (الأركيولوجيّ) لتشكّلِ الآليّاتِ المنهجيّة في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ تكشفُ عن أنَّ المنهج الوصفيّ (Descriptive Method) لم يكنْ نتاجَ قطيعةٍ إبستمولوجيّةٍ فجائيّةٍ مع المناهجِ التّقليديّةِ السّابقةِ، ولا هو وليدُ اللّسانياتِ الغربيّةِ الحديثةِ في القرنِ العشرينَ بافتراضٍ قطعيّ. بل إنَّ المتأمّلَ في تكوينِهِ التّاريخيّ يلحظُ إرهاصاتٍ وملامحَ وصفيّةً مبكّرةً ضربتْ بجذورِها في الفكرِ اللُّغويّ القديمِ؛ إذْ اتّجهتْ ثُلّةٌ من العلماءِ عبرَ حضاراتٍ مُتباينةٍ إلى رصدِ الظّواهرِ اللُّغويّةِ الحيّةِ ووصفِها وصفًا واقعيًّا نابعًا من سياقِها الاستعماليّ الفعليّ. وكانَ هذا المنحى متجرّدًا _في كثيرٍ من أشكالِهِ التّمهيديّةِ_ من سلطةِ الأحكامِ المعياريّةِ الصّارمةِ أو الإسقاطاتِ الفلسفيّةِ والمنطقيّةِ المسبقةِ. وتجلّتْ هذه النّزعةُ في محاولاتٍ مبكّرةٍ لتحليلِ البنى الصّوتيّةِ، والصّرفيّةِ، والدّلاليّةِ للغاتِ الحيّةِ، مدفوعةً بواعزٍ دينيّ أو تعليميّ تعبّديّ أو تواصلٍ بيئيّ. وعلى الرّغمِ من وضوحِ الطّابعِ الوصفيّ في تلك الممارساتِ المبكّرةِ، إنَّها ظلّتْ تفتقرُ إلى الأطرِ النّظريّةِ المُكتملةِ والنّظمِ المنهجيّةِ المُستقلّةِ الكفيلةِ بجعلِها علمًا قائمًا بذاتِهِ[1]. ولذلك، يُجمعُ المحقّقونَ على أنَّ هذه الجهودَ التّراثيّةَ تُمثّلُ الأسسَ المعرفيّةَ والتّراكميّةَ المُمهّدةَ لنشأةِ الدّرسِ الوصفيّ الحديثِ، داحضةً فكرةَ الطّفرةِ العلميّةِ الفجائيّةِ في اللّسانياتِ الغربيّةِ والدّراساتِ الاستشراقيّةِ. ولأجلِ تتبّعِ أبعادِ (التّكوينِ) في هذا

---

(١) ينظر: المستشرقون والمناهج اللُّغويّة: ١٦– ١٧.

المنهجِ، يمكنُ تقصّي مراحله التّأسيسيّةِ على النّحو الآتي:

**١_ الإرهاصاتُ التّاريخيّةُ المبكّرةُ لتشكّلِ الرّؤيةِ الوصفيّةِ:**

تُرجّحَ القراءاتُ الأكاديميّةُ التّاريخيّةُ أنَّ البداياتِ الأولى المُمهّدةَ للمنحى الوصفيّ تعودُ إلى ما لا يقلُّ عن قرنينِ قبلَ الميلادِ. ويتمثّلُ ذلك التّكوينِ الأوّل في الجهودِ المُتميزةِ لعلماءِ اللُّغةِ الهنودِ وفي مقدّمتِهم (بانيني) في وصفِهم الرّياضيّ الدّقيقِ للغةِ السّنسكريتيّةِ. لقد انطلقَ الوصفُ الهنديّ من بنيةِ اللُّغةِ ذاتِها، مُتوجّهًا نحو مخرجاتٍ لُغويّةٍ خالصةٍ شملتْ مستوياتِ الأصواتِ والبنيةِ وتراكيبِ الجملِ. ولم تقفْ حدودُ هذه المادّةِ التّاريخيّةِ عندَ عصرِها؛ بل إنَّ لغويّي القرنِ الثامن عشر في الغربِ وظّفوا هذا الإرثِ الوصفيّ الهنديّ ومزجوه بالمنزعِ المقارن لمقارنةِ اللُّغاتِ الأوربيّةِ بالسّنسكريتيّةِ. ومع تحوّلِ الاهتمامِ العلميّ لافتتاحِ القرن التّاسع عشر نحوَ دراسةِ اللُّغاتِ المنطوقةِ، تبلورَ علمُ اللُّغةِ الوصفيّ تدريجيًّا ليكونَ علمًا معنيًّا باللّسانِ الحيّ المُتداول، موجّهًا بُوصلتَهُ نحوَ المنطوقِ ومقلّلًا _من دون إهمالٍ تامٍّ_ من أولويّةِ المدوّناتِ المكتوبةِ[١]. ومن هنا، يربطُ مُؤرّخو اللّسانيّاتِ بينَ ظهورِ المنهجِ الوصفيّ في أوربا وبينَ حادثةِ اكتشافِ السّنسكريتيّةِ على يدِ المستشرقِ البريطانيّ (وليم جونز)[٢].

وفي ذاتِ السّياقِ التّكوينيّ، لا يمكنُ إغفالُ الدّرسِ اللُّغويّ العربيّ القديمِ؛ فالعلماءُ العربُ سلكوا مسلكًا وصفيًّا استقرائيًّا أصيلًا في جمعِ المادّةِ اللُّغويّةِ وتقعيدِها. غيرَ أنَّ الدّرسَ اللّسانيّ الحديثَ يسجّلُ على تلك التّجربةِ المعياريّةِ بعضَ المؤاخذاتِ المنهجيّةِ؛ كخلطِهم في جمعِ المادّةِ بينَ الفصحى المشتركةِ ولهجاتِ القبائلِ المعزولةِ، وعدمِ الالتزامِ ببيئةٍ زمنيّةٍ محدّدةٍ بدقّةٍ، والخلطِ بينَ المستوياتِ اللُّغويّةِ المتباينةِ كشواهدِ الشّعرِ والنّثرِ العالي واللّهجاتِ المحلّيّةِ لبناءِ قاعدةٍ اطّراديّةٍ عامّةٍ. ومعلومٌ أنَّ للشعرِ رتبةً لغويّةً تتمازُ بخصائصَ بنيويّةٍ تفارقُ النّثر

(١) ينظر: ملامح المنهج الآني الوصفيّ في التّراث اللُّغة العربيّ مقاربة لسانيّة بنيويّة: ٦٦.

(٢) ينظر: النّحو العربيّ والدّرس الحديث ٢٣ _٢٥، ومنهج البحث اللُّغويّ: ١٠ – ١١، والألسنيّة: ١٤٤.

العادي. وهذا الخلطُ المنهجيّ هو ما تنبّهتْ له اللّسانيّاتُ الوصفيّةُ الحديثةُ، فدعتْ إلى وجوبِ الفصلِ الحاسمِ بينَ المستوياتِ تحقيقًا للموضوعيّةِ العلميّةِ[1]. وعليه، فإنَّ الممارساتِ الهنديّةَ أو العربيّةَ القديمةَ _على الرّغم من طابعِها الوصفيّ التّحليليّ في المستوياتِ الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ_ لم تَرتقِ إلى رتبةِ (المنهجِ بالمعنى الاصطلاحي المُكتمل)؛ نظرًا لكونِها كانتْ محكومةً بغاياتٍ تعليميّةٍ دينيّةٍ تفتقرُ إلى التّنظيرِ اللّسانيّ المستقلِّ والإجراءاتِ المنهجيّةِ الواعيةِ بذاتِها، فبقيتْ إرهاصات تمهيديّة مهّدتِ الطّريقَ للتأسيسِ الحديثِ.

لقد ظلَّ التّأسيسُ الفعليّ للمنهجِ الوصفيّ مرتهنًا بصدورِ كتابِ (محاضرات في علمِ اللُّغة العامّ) للعالمِ السّويسريّ (فردينان دي سوسير)؛ الذي أحدثَ ثورةً إبستمولوجيّةً عارمةً أعادتْ صياغةَ المفاهيمِ اللُّغويّةِ. وانعكستْ هذه الأفكارُ سريعًا على المدارسِ اللّسانيّةِ، ولا سيّما المدرسة الوصفيّة الأمريكيّة (التّوزيعيّة) مع (بوعز)، و(سابير)، و(بلومفيلد)؛ فقد نزلَ الباحثونَ إلى الميدانِ لرصدِ لغاتِ الهنودِ الحمرِ المهدّدةِ بالاندثارِ وتوصيفِها، وتوجيهِ العنايةِ للهجاتِ المحلّيّةِ التي طالَها التّهميش[2]. وثبتَ علميًّا أنَّ التّغيّرَ المنهجيّ لم يكنْ طفرةً اعتباطيّةً، بل مسارًا تدرّجَ فيه الفكرُ اللُّغويّ بالتّزامنِ مع تراجعِ اليقينِ بالنّزعةِ المعياريّةِ الصّارمةِ، ليتحوّلَ اللّسانُ المنطوقُ المستعملُ في التّواصلِ البشريّ من مجرّدِ خيارٍ إجرائيّ إلى معطى علميّ حتميّ، وغدتِ اللُّغةُ موضوعًا للملاحظةِ والاستقراءِ المباشرِ لا مادّةً لإسقاطِ الأحكامِ القبليّةِ.

**٢_ الملامحُ الأولى للمنهجِ الوصفيّ في الفكرِ اللُّغويّ الغربيّ:**

تؤكّدُ المتونُ البحثيّةُ أنَّ المنهجَ الوصفيّ في الفكرِ اللُّغويّ الغربيّ تشكّلَ في رداءِ ردِّ الفعلِ العلميّ على هيمنةِ النّزعةِ المعياريّةِ التي سادتِ الدّراساتِ اللُّغويّةَ والأدبيّةَ الأوربيّةَ

(١) ينظر: مدخل إلى علم اللُّغة: ١٤٠.
(٢) ينظر: مناهج البحث اللُّغويّ ومدارسه: ٤٩٠.

لمراحلَ طويلةٍ، فقد كانَ يُعتقدُ أنَّ التّقييمَ المعياريّ هو الصّيغةُ العلميّةُ الوحيدةُ الممكنةُ لدرس اللُّغاتِ[١]. وقد تجلّى هذا التّوظيفُ الوصفيّ بوضوحٍ في بحوث المستشرقين الألمان الذين اتّخذوا من الأدواتِ الوصفيّةِ ركيزةً في فحصِ المتونِ اللُّغويّةِ الشّرقيّةِ. وتذهبُ الأدبيّاتُ اللّسانيّةُ إلى جعلِ المنهجِ الوصفيّ ثورةً على استبدادِ (المنهج التّاريخيّ) ( Historical Method) الذي احتكرَ السّاحةَ اللُّغويّةَ طوالَ القرن التّاسع عشر[٢]، وحصرَ البحثَ في رصدِ التّحوّلاتِ التّعاقبيّةِ بعيدًا عن معاينةِ اللُّغةِ في واقعِها الحيّ. بيدَ أنَّ التّحليلَ الإبستمولوجيّ الدّقيقَ يُبرهنُ على أنَّ المنهجَ الوصفيّ لم ينشأ كقطيعةٍ حاسمةٍ ومفاجئةٍ مع التّاريخيّةِ، بل برزَ تدريجيًّا؛ إذْ ظلَّ الوصفُ مُمتزجًا بالتّحليلِ التّاريخيّ في كثيرٍ من المُدوّناتِ اللُّغويّةِ الاستشراقيّةِ المبكّرةِ. ومع افتتاحِ القرن العشرين، انقلبتِ الموازينُ المنهجيّةُ، فبينما وُسمَ القرنُ التّاسع عشر بـ(الغلبةِ التّاريخيّةِ والمقارنةِ)، صُبغَ القرنُ العشرون بطابعٍ وصفيّ هيمنَ على الدّرسِ اللُّغويّ مُنذُ عشرينياتِ ذلك القرن[٣].

وعزفَ الدّارسونَ عن المناهجِ القديمةِ مُفسحين المجالَ للبحوثِ الوصفيّةِ لتغدو الأساسَ المتينَ لكلِّ تحليلٍ لسانيّ. وعلى الرّغمِ من تبنّي المستشرقين للمنهجِ الوصفيّ، إلّا أنَّ خطابَهم اللُّغويّ اتّسمَ بخصوصيّةٍ إجرائيّةٍ؛ فهم لم يقطعوا الصّلةَ نهائيًّا بالبُعدِ التّاريخيّ، بل زاوجوا بينَ الوصفِ والتّاريخِ نظرًا لطبيعةِ (المادّةِ اللُّغويّةِ العربيّةِ) وتراثِها المَمتدِّ، مِمّا يعكسُ وعيهم بخصوصيّةِ هذه المادّةِ الاستثنائيّةِ[٤]. فتأسّستِ الوصفيّةُ عندَهم على محاولةِ الكشف عن نظامِ اللُّغةِ الدّاخليّ وبنيتِها الظّاهرةِ في الاستعمالِ بعيدًا عن الأحكامِ القيميّةِ. وغدا الوصفُ هو الخطوةُ الأولى والمنطلق الحتميّ لضبطِ المادّةِ اللُّغويّةِ وتحديدِ ماهيّتِها، ومن ثمَّ يُمكنُ للباحثِ

---

(١) ينظر: مدخل إلى علم اللُّغة: ٢٣.

(٢) ينظر: مناهج البحث اللُّغويّ بين التّراث والمعاصرة :٩٤.

(٣) ينظر: مناهج البحث في اللُّغة: ٢٨.

(٤) ينظر: فقه اللُّغة في الكتب العربيّة: ٢١.

_إنْ شاءَ_ تتبّع سياقِها التّاريخيّ أو مقارنتها باللُّغاتِ الأخرى المجاورة[١].

لقد ظهرتِ البوادرُ الوصفيّةُ جزئيًّا في الخطابِ الاستشراقيّ عندَ المستشرقِ الألمانيّ (برجستراسر) عبرَ ما أسماهُ بمصطلحِ (النّظاميّةِ)[٢]. لكنّ ملاحظاته لم تجدْ طريقًا للانتشارِ الواسعِ كمنهجٍ مستقلٍّ مُكتملِ الأركانِ في تلك الحقبةِ، وظلّتِ الرّيادةُ للمناهجِ التّاريخيّةِ والمقارنةِ. ويُحتملُ تأثّرُ برجستراسر بأطروحاتِ (دي سوسير)؛ بيدَ أنَّهُ طبّقَ (النّظاميّة) في إطارٍ تاريخيّ[٣]، فجاءتْ وصفيّتها وصفيّةً علميّةً محضةً لا معياريّةً تهدفُ للتّقعيدِ، فقد اكتفى برصدِ الحقائقِ القائمةِ في الاستعمالِ اللُّغويّ الفعليّ من دون تمييزٍ بينّ مقبولٍ ومردودٍ، ومن دون غاياتٍ توجيهيّةٍ[٤]. وكانَ (برجستراسر) يسلسلُ موضوعاتِه على وفقِ المنهجِ الوصفيّ ثمَّ يختبرُ نتائجَها تحتَ مظلّةِ المنهجِ التّاريخيّ أو المقارنِ[٥]. وتبدّتْ هذه المعالمُ الوصفيّةُ _أيضًا_ بوضوحٍ لدى المستشرقِ الكبيرِ (كارل بروكلمان) في سفرِهِ النّفيسِ (فقه اللُّغات السّاميّة)[٦]. تجلّتِ النّزعةُ الوصفيّةُ عندَ (بروكلمانَ) في انطلاقِهِ من المادّةِ اللُّغويّةِ ذاتِها، ورصدِ مظاهرِها الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ والنّحويّةِ، وتصنيفِ صيغِها وتراكيبِها واستعمالاتِها قبلَ الانتقالِ إلى موازنتِها بنظائرِها في اللُّغاتِ السّاميّةِ الأخرى. فلم يكنِ الوصفُ عندَهُ غايةً مستقلّةً بقدرِ ما كانَ قاعدةً منهجيّةً تُبنى عليها المقارنةُ ويُستعانُ بها في تفسيرِ العلاقاتِ والتّحوُّلاتِ التّاريخيّةِ بينَ اللُّغاتِ السّاميّةِ. ومن هنا تتجلّى قيمةُ منهجِهِ في الجمعِ بينَ مستوياتٍ متكاملةٍ من التّحليلِ؛ إذ يبدأُ بوصفِ الظّاهرةِ كما تكشفُ عنها الشّواهدُ، ثمَّ يصنّفُ عناصرَها

---

(١) ينظر: فقه اللُّغة في الكتب العربيّة: ٢١.

(٢) ينظر: الوصفيّة في لسانيّات العربيّة الحديثة: ٣١.

(٣) ينظر: علم اللُّغة العامّ: ٢٧، وفي علم اللُّغة العامّ: ٣٢.

(٤) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ٧، ومناهج البحث اللُّغويّ بين التّراث والمعاصرة :٩٥.

(٥) ينظر: التّطوّر النّحويّ للغة العربيّة: ٢٠٣، والوصفيّة في اللّسانيّات العربيّة الحديثة: ٤٢.

(٦) ينظر: البحث اللُّغويّ في دراسات المستشرقين الألمان: ١٩٩.

ويوازنُ بينها وبينَ ما يقابلُها في اللُّغاتِ ذاتِ الصِّلةِ، وصولًا إلى تفسيرِ ما بينها من اتفاقٍ واختلافٍ. ولكن لا يمكنُ وصفُ منهجِ (بروكلمانَ) بأنَّهُ وصفيٌّ خالصٌ، بل الأدقُّ عدُّ الوصفِ لديهِ منطلقًا إجرائيًّا يخدمُ مشروعًا أوسعَ ذا طبيعةٍ مقارنةٍ وتاريخيَّةٍ.

وعلى نقيضِ الملامحِ الجزئيّةِ عندَ المستشرقين الألمان، يُعدُّ (فرديناند دي سوسير) الواضعَ الصّريحَ للمنهجِ الوصفيّ كإطارٍ بحثيّ مستقلٍّ بذاتِهِ في لسانيّاتِ القرنِ العشرين، مسخّرًا أدواته في فحصِ مستوياتِ اللُّغةِ الصّوتيّةِ، والصّرفيّةِ، والنّحويّةِ، والدّلاليّةِ. فاللُّغةُ في تصوّرِهِ كائنٌ حيٌّ، والدّراسةُ الوصفيّةُ التّزامنيّةُ (Synchronic) هي الكفيلةُ برصدِ النّظامِ الدّاخليّ الحاكمِ للمجتمعِ اللُّغويّ في لحظةٍ زمنيّةٍ مُعيّنةٍ بعيدًا عن التّأويلاتِ التّاريخيّةِ[١]. ومن الطّريفِ معرفيًّا أنَّ الإرهاصاتِ الغربيّةِ الأولى للوصفِ لم تنطلقْ من اللّسانِ، بل استُلهمتْ من (البحوثِ الاجتماعيّةِ) في القرنِ الثّامن عشرَ، التي استهدفتْ رصدَ الواقعَ الطّبقيّ، كدراساتِ (فريديريك لوبلاي) حولَ الحالةِ الاقتصاديّةِ للعمّالِ في فرنسا باستخدامِ الاستبيانِ والمقابلةِ[٢]. ثمّ ما لبثَ اللُّغويّون والمستشرقون أنْ اقتبسوا هذه الآليّاتِ الوصفيّةَ وطوّروها لتتكيّفَ مع دراسةِ اللّسانِ البشريّ والظّواهرِ التّواصليّةِ في زمانٍ ومكانٍ محدّدينِ.

وتأسيسًا على ذلك، ترسّختْ قواعدُ الوصفِ بصدورِ كتاب (دي سوسير)، ونهضَ تلامذتهُ كـ (شارل بالي) و(ألبير سيشهاي) بنقلِ أفكارِهِ وتطبيقِها، مُعتبرين اللُّغةَ بنيةً نسقيّةً مغلقةً تُدرس _في ذاتِها ولأجلِ ذاتِها_ بعيدًا عن المؤثّراتِ الخارجيّةِ[٣]. وتأثّرَ (دي سوسير)

---

(١) ينظر: دراسات في علم اللُّغة الوصفي والتّاريخي والمقارن:٦٤، ومناهج البحث اللُّغويّ بين التّراث والمعاصرة:٩٥.

(٢) ينظر: المنهج الوصفيّ ومظاهره في اللّسانيات الغربيّة الحديثة: ٣، ودراسة نقديّة لبعض المناهج الوصفيّة وموضوعاتها في البحوث الاجتماعيّة والتربويّة النفسيّة: ٢٨.

(3) see: voir Le dictionnaire des sciences humaines, sous la direction de Jean-François Dortier, Auxerre-France, 2008, Seuil. P: 786_787. والدّراسات اللُّغويّة عند العرب: ٣٧٤ – ٣٧٥.

في ذلك بأطروحاتِ عالم الاجتماع الفرنسيّ (إميل دوركايم) الذي نظرَ للغةِ بوصفها ظاهرةً اجتماعيّةً عامّةً تخضعُ للملاحظةِ الموضوعيّةِ(١). فشكّلَ هذا الطّرحُ منعطفًا نقلَ البحثَ من (التّعاقبِ الزّمنيّ) (Diachronic) إلى (التّزامنِ الوصفيّ) بوصفه أداةً مركزيّةً لفهمِ بنيةِ النّسقِ اللّسانيّ. وتلقّفَ المستشرقون هذه الآليّاتِ تاليًا، وثاروا على النّمطِ التّاريخيّ المعياريّ القديمِ لإعادةِ تقعيدِ اللُّغاتِ على أسسِ الوصفِ المباشرِ للاستعمالِ(٢). وانعكسَ ذلك على الحقولِ التّعليميّةِ والمؤسّسيّةِ لتركيبِ مناهج تعليم اللُّغاتِ(٣)، ودعا بنيويون كبارٌ كـ(فرانز بوعز)، و(إدوارد سابير)، و(جان بياجيه) إلى تفعيلِ الوصف البنيويّ لفهمِ النُّظمِ الدّاخليّةِ للألسنةِ البشريّةِ(٤). حتّى أضحى مُصطلحُ "علم اللُّغةِ الحديث" مرادفًا حتميًّا لـ(اللّسانيّاتِ الوصفيّةِ)(٥).

**ثانيًا: مميزاتُ المنهجِ الوصفيّ وخصائصُه عندَ المستشرقين:**

انمازَ المنهجُ الوصفيّ في الخطابِ الاستشراقيّ بجملةٍ من الخصائصِ البنيويّة التي منحتِ المادّةَ اللُّغويّة أبعادًا تحليليّةً جديدة، ومن أبرزِها:

١_ التّحليلُ العلميّ القائمُ على الملاحظةِ المباشرةِ: ينطلقُ الوصفُ من معاينةِ الاستعمال الفعليّ وتحليلِ مكوّنات البنيةِ اللُّغويّةِ في إطارِها الزّمنيّ القائم(٦).

٢_ إسقاطُ الفروقِ الطّبقيّةِ بينَ اللُّغةِ واللّهجةِ: يتعاملُ المنهجُ مع اللُّغةِ السّائدةِ واللّهجاتِ المحليّةِ بوصفِها نظمًا لغويّةً متساويةَ القيمةِ العلميّةِ وصالحةً للدّراسةِ. فيعمدُ الوصفيّون إلى

---

(١) ينظر: موسوعة مرجعيّة لمصطلحات علم اللُّغة النّفسيّ: ١١٧.
(٢) ينظر: أصول النّحو العربيّ في نظر النّحاة وراي بن مضاء وضوء علم اللُّغة الحديث: ٦٠
(٣) ينظر: المنهج الوصفيّ في كتاب في النّحو العربيّ نقد وتوجيه: ٣٩.
(٤) ينظر: في علم اللُّغة : ١١٠ – ١١١.
(٥) ينظر: مدخل إلى علم اللُّغة: ٢٣ – ٢٤.
(٦) ينظر: منهج البحث اللُّغويّ: ١١٦.

فحصِ البنى اللّهجيّةِ تفصيليًّا (صوتيًّا، وصرفيًّا، وتركيبيًّا، ودلاليًّا) بوصفِها أدواتٍ تعبيريّةً مشحونةً بالقيمِ الوظيفيّةِ والسّياقيّةِ داخلَ بنيةِ النّصِّ(١).

٣_ التّمحضُ لبيئةٍ محدّدةٍ: ركّزَ المستشرقون على دراسةِ لغةٍ واحدةٍ أو لهجةٍ معيّنة في حقبةٍ زمنيّةٍ ومكانيّةٍ مضبوطةٍ بدقّةٍ، متجنّبين خلطَ المراحلِ التّاريخيّةِ السّابقةِ أو اللّاحقةِ(٢).

٤_ تفعيلُ المادّة المنطوقة كأساسٍ للتّقعيدِ: اعتمدَ الوصفُ على اللّسانَ المحكيّ؛ لكون اللُّغة في جوهرِ التّكوينِ المعرفيّ هي أصواتٌ منطوقةٌ قبلَ أنْ تكونَ رموزًا خطيّةً مكتوبةً، وما الكتابةُ إلّا تمثيلٌ ثانويّ لها. وتتبّعُ المنطوقِ يكشفُ عن التّحوّلاتِ الفونولوجيّةِ السّريعةِ، مِمّا أتاحَ للمستشرقينَ مراجعةَ القواعدِ التّراثيّةِ المستقرّةِ وربطَها بالواقعِ اللُّغويّ المعيش(٣).

٥_ الكشفُ عن الأسسِ الفونيميّةِ والمورفيميّةِ: قدّمَ علمُ اللُّغةِ الحديثُ عبرَ آليّاتِهِ الوصفيّةِ وصفًا تشريحيًّا دقيقًا للبنى الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ بالاعتمادِ على الأجهزةِ المخبريّةِ والآذان المُدرّبة، متجاوزًا الانطباعاتِ العشوائيّةَ القديمةَ(٤).

٦_ مبدأ الدّيمقراطيّةِ اللُّغويّةِ (عدم المفاضلة القيميّة): ينظرُ الباحثُ الوصفيّ إلى كلِّ لغةٍ أو لهجةٍ على أنَّها جديرةٌ بالبحثِ العلميّ المتجرّدِ، رافضًا أحكامَ المفاضلةِ أو التّعالي القيميّ بين اللُّغاتِ؛ كون المفاضلة تتصادمُ بنيويًّا مع شرطِ الموضوعيّةِ(٥). فالمنهجُ وصفيّ خالصٌ يكشفُ خصائصَ النّسقِ وعلاقاتِهِ الدّاخليّة دون إقحامٍ للرغباتِ الذّاتيّةِ أو الفروضِ الشّخصيّةِ السّابقةِ،

---

(١) ينظر: منهج البحث اللُّغويّ: ١١٦.
(٢) ينظر: اللُّغة العربيّة مبناها ومعناها: ١٤.
(٣) ينظر: المدخل الى علم اللُّغة: ١٣٥ – ١٣٦.
(٤) ينظر: أسس علم اللُّغة: ١٢٠.
(٥) ينظر: أسس المنهج الوصفيّ في ضوء الدّراسات العربيّة القديمة والحديثة: ١٠٢.

مِمّا يُتيحُ تلاحُم النّتائج مع واقعِ المادّةِ المدروسةِ دون تزييفٍ[١].

٧_ الشّموليّةُ المستعرضةُ والمستقلّةُ للمستوياتِ: يستوعبُ الوصفُ دراسةَ مستوياتِ اللّسانِ كافّةً (الصّوت، والصّرف، والتّركيب، والدّلالة) للوقوفِ على البنياتِ الدّاخليّةِ[٢]. بيدَ أنَّهُ يشترطُ الإقامةَ في (مستوى واحدٍ) في أثناءِ التّحليلِ وتجنّبَ الخلطِ المنهجيّ المُضلّل بينها[٣]. وقد نادى روّادُ الوصفيّةِ الأوربيّون بوجوبِ فصلِ الدّراسةِ الصّوتيّةِ عن الصّرفيّةِ والدّلاليّةِ مع إدراكِ وشائجِ التّفاعلِ البينيّ بينها؛ نظرًا لأنَّ عدم الفصلِ في الدِّراساتِ التّقليديّةِ كانَ سببًا رئيسًا في عدمِ دقّةِ أحكامِها وقواعدِها. فدراسةُ البنيةِ الصّوتيّةِ للفصحى المعاصرةِ تظلُّ عذراء وصافيةً ما دامتْ مقتصرةً على فحصِ النّظامِ الفونولوجيّ، وكذا الأمر في الصّرفِ والتّركيبِ اللذين يمتلكان أدواتهما المستقلّة[٤].

٨_ الفصلُ بينَ اللّسانِ الفرديّ والنّظامِ الجماعيّ: ارتكزَ الوصفُ على التّفرقةِ السّوسيريّةِ بينَ (الكلامِ الفرديّ) و(اللُّغةِ بوصفِها مؤسّسةً اجتماعيّة عامّة). فاللُّغةُ ظاهرةٌ مجتمعيّةٌ تُدركُ بالملاحظةِ والتّجربةِ والخبرةِ، وليستْ مجرّدَ نشاطٍ عقليّ معزولٍ للمتكلّمِ[٥]. وظهرَ هذا جليًّا في خطابِ المستشرقِ الفرنسيّ (فندريس) الذي أصّلَ للغةِ باعتبارِها رمزًا مشتركًا بينَ الجماعةِ وآليّةً لحفظِ الرّوابطِ الإنسانيّةِ، تتطوّرُ في جريان تفاعلي مستمرٍّ[٦].

---

(١) ينظر: أصول النّحو العربيّ في نظر النّحات ورأي ابن مضاء وضوء علم اللُّغة الحديث: ٦٠.
(٢) ينظر: فقه اللُّغة العربيّة وخصائصها: ٩٣.
(٣) ينظر: معجم المصطلحات اللُّغويّة: ١٤٤.
(٤) ينظر: أصول تراثيّة في اللّسانيّات الحديثة: ٦٧.
(٥) ينظر: المنهج الوصفيّ وتطبيقاته في الدّرس اللُّغويّ الحديث: ٣٧٤.
(٦) ينظر: دراسات في تفسير النّصّ القرآنيّ: ٤١/١.

**ثالثًا: البنيةُ المنهجيّةُ والنّظامُ الدّاخليّ للوصفِ الاستشراقيّ**

يتأسّسُ النّظامُ الإجرائيّ للمنهجِ الوصفيّ في البحوثِ الاستشراقيّةِ على قواعدِ الفلسفةِ الوضعيّةِ والمنحى التجريبيّ. وتتشكّلُ أدواتُهُ الدّاخليّةُ من حزمةٍ من المراحلِ المتسلسلةِ تضمنُ رصانةَ المخرجاتِ:

**١. مرحلةُ الاستقراءِ:**

وهي حجرُ الزّاويةِ والخطوة الإجرائيّة الأولى في معمارِ الوصفِ؛ إذْ ينتقلُ الباحثُ بذهنِهِ من تتبّعِ الجزئيّاتِ الميدانيّةِ إلى استنباط القوانين الكلّيّةِ العامّةِ (من المشخّص إلى المجرّد)[١]، مُفارقًا بذلك آليّةَ (القياس النّحويّ القديم) الذي ينطلقُ من القاعدةِ القبليّةِ المفروضةِ نحو التّطبيقِ[٢]. ويتطلّبُ الاستقراءُ استيعابَ المادّةِ اللُّغويّةِ وعيناتِ المدوّنةِ ضمنَ ظروفٍ بيئيةٍ مضبوطةٍ. ويتحقّقُ ذلك عبرَ التّواصلِ المباشرِ مع النّاطقينَ باللّسانِ، والاستماعِ الواعي لمنطوقِهم، والاعتمادِ على الرّواةِ الأصليّين مع مراعاةِ مُستوياتِهم الثّقافيّةِ لضمانِ سلامةِ التّوصيفِ[٣].

**٢. مرحلةُ التّصنيفِ والتّحليلِ الشّكليّ والوظيفيّ:**

بعدَ تجميعِ المادّةِ واستقرائِها، تقتضي المنهجيّةُ فرزَ المعطياتِ وتصنيفِها بنيويًّا، والاشتغالَ على دراسةِ (الشّكلِ والوظيفةِ) من داخلِ بنيةِ اللُّغةِ ذاتِها[٤]. ويرفضُ أغلبُ الوصفيّينَ إقحامَ أو نقلَ المفاهيمِ النّفسيّةِ أو الاجتماعيّةِ لتفسيرِ اللّسانِ تجنّبًا لتمييع استقلاليّة

---

(١) ينظر: رؤية حديثة في مناهج العلوم: ١٩٦.
(٢) ينظر: اللُّغة بين المعياريّة والوصفيّة: ١٥٨.
(٣) ينظر: أهمّيّة المنهج الوصفيّ للبحث في العلوم الإنسانيّة: ٤٨ -٤٩.
(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٩.

العلمِ[١]. بيد أنَّ الخطابَ الاستشراقيّ الأمريكيّ _ولا سيّما عندَ (بلومفيلد)_ زاوجَ بينَ الوصفِ والمفاهيمِ النّفسيّةِ المُنبثقةِ عن المدرسةِ السّلوكيّةِ (Behaviorism)، معتمدًا على ثنائيّةِ (المثيرِ والاستجابةِ) اللُّغويّةِ القابلة للملاحظةِ العيانيّةِ كمادّةٍ للتّحليلِ العلميّ[٢]. ويشترطُ على الباحثِ الوصفيّ تجنّبُ التّصنيفاتِ المسبقةِ، والارتضاءُ بمعيارٍ شكليّ أو وظيفيّ واضحٍ عندَ صياغةِ النّواميسِ اللُّغويّةِ[٣].

**٣. مرحلةُ التّقعيدِ والتّفسيرِ البنيويّ:**

لا يعودُ التّقعيدُ (Normative Formulation) في المنهجِ الوصفيّ فرضًا فوقيًّا للقوانين، بل هو عمليّةٌ تنظيميّةٌ وصياغةٌ نسقيّةٌ للأنماطِ المتكرّرةِ الثّابتةِ في المدوّنةِ اللُّغويّةِ المستقرأة لتتحوّلَ إلى مبادئ إجرائيّةٍ قابلةٍ للاختبارِ[٤]. فالتّقعيدُ يمثّلُ مرحلةً تركيبيّةً تجمعُ بينَ الاستقراءِ والتّفسيرِ للكشفِ عن النّظامِ الكامن وراءَ الاستعمالِ الفعليّ، مُتأثّرًا بطرحِ (دي سوسير) للغةِ كنسقٍ محكومٍ بعلاقاتٍ داخليّةٍ[٥].

ومن أجلى مظاهرِ التّقعيدِ في الخطابِ الاستشراقيّ: اعتمادُ التّفسيرِ الصّوتيّ للظواهرِ الصّرفيّةِ والنّحويّةِ. فقد رأى المستشرقون أنَّ كثيرًا من القواعدِ المجرّدةِ التي صاغَها النّحويّون العربُ يمكنُ ردّها ببساطةٍ إلى عللٍ وفواصلَ صوتيّةٍ؛ كظواهرِ الإعلالِ، والإبدالِ، والإدغامِ، والحذفِ، أو قضايا التّذكيرِ، والتّأنيثِ، والبناءِ، مُفسّرين إيّاها في ضوءِ (التّخفيفِ الصّوتيّ) أو

---

(١) ينظر: مناهج البحث في اللُّغة: ٣٧.

(٢) ينظر: اللّسانيات الحديثة في الجامعات الاردنية وأثرها في تنمية اللُّغة العربيّة ومعالجة قضايّاها: الواقع وسبل النّهوض: ٥١٣ – ٥١٤، والمنهج الوصفيّ بين التّراث اللُّغويّ العربيّ واللسانيات الحديثة: ٦.

(٣) ينظر: فقه اللغات السّاميّة: ٨٥ – ٩٢، والتّطور النّحويّ للغة العربيّة: ٧٥– ٨٧، والبحث اللُّغويّ في دراسات المستشرقين الألمان:٢٠٣_٢٠٤.

(٤) ينظر: اللُّغة بين المعياريّة والوصفيّة :١٦٢ – ١٦٥.

(٥) ينظر: علم اللُّغة العامّ: ٢٥٣.

(الانسجامِ الفونيميّ). وبذلك تحوّلَ التّحليلُ اللُّغويّ في أطروحاتِهم من مُجرّدِ تلمّسٍ لعللٍ نحويّةٍ افتراضيّةٍ إلى كشفٍ طبيعيّ يربطُ الصّيغةَ الصّرفيّةَ بالبنيةِ الفونولوجيّةِ، مِمّا أضفى على تقعيدِهم طابعًا تفسيريًّا بنيويًّا مُتكاملًا(١).

**رابعًا: أثرُ المنهجِ الوصفيّ الاستشراقيّ في الدّرسِ اللُّغويّ العربيّ الحديثِ:**

تأثّرَ الفكرُ اللُّغويّ العربيّ المعاصرُ بالخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ ومناهجِهِ الوصفيّةِ الوافدةِ تأثّرًا عميقًا، وتجلّى هذا الأثرُ الإيجابيّ في إعادةِ قراءةِ التّراثِ النّحويّ وصياغةِ الدّرسِ اللّسانيّ الحديثِ(٢). ويبرزُ في طليعةِ الرّوّاد المتأثّرين بهذا المنزعِ وصاحبُ الأثرِ البالغِ؛ الدّكتور تمّام حسّان. لقد نهلَ من معينِ المنهجِ الوصفيّ وتأثّرَ تأثّرًا حاسمًا بأستاذِهِ المستشرق الإنجليزيّ (جون فيرث) _رئيس مدرسة لندن اللّسانيّة_ الذي كانَ من أساطين التّوظيفِ الوصفيّ وسياقاتِ الاستعمالِ. وأسّسَ (فيرث) رؤيتَهُ على معالجةِ اللُّغةِ في سياقِها الوظيفيّ والاجتماعيّ الواقعيّ، وهو ما عُرفَ بـ(النّظريّةِ السّياقيّة) (Contextual Theory). وقد تشرّبَ تمّام حسّان هذه الأفكارَ المنهجيّةَ والنّظريّةَ الاستشراقيّة، وانعكسَ ذلك التّلاقحُ المعرفيّ في تصوّرِهِ المعجب للغةِ العربيّةِ بوصفِها نظامًا وظيفيًّا مُتكاملًا وشبكةً من العلاقاتِ البنيويّةِ، يُدرسُ من داخلِهِ وبأدواتِهِ، ويُعاينُ في ضوءِ استعمالِهِ الواقعيّ الحيّ. فدعا بقوّةٍ إلى الخروجِ من ربقةِ المعاييرِ النّحويّةِ التّقليديّةِ والتّأويلاتِ الفلسفيّةِ والمنطقيّةِ والتّقديريّةِ المُسبقة التي أثقلتِ النّحو التّعليميّ، ليغدو بذلك من ألمعِ رُوّادِ الوصفيّةِ في الدّرسِ اللُّغويّ العربيّ الحديثِ(٣).

وتبنّى تمّام حسّان الأطروحةَ السّوسيريّةَ بحذافيرِها؛ ورفضَ النّظرَ للغةِ بوصفها شكلًا

---

(١) ينظر: فقه اللغات السّاميّة: ٧٧– ٩٨، والتطور النّحويّ للغة العربيّة: ٦٦–١٢٠، والبحث اللُّغويّ في دراسات المستشرقين الألمان: ٢٠٥.

(٢) ينظر: العقل والتّنوير في الفكر العربيّ المعاصر قضايا ومذاهب وشخصيات: ١٢.

(٣) ينظر: النّحو الوصفيّ بين دكتور مهدي المخزومي ودكتور تمام حسان: ١٢٧.

مجرّدًا أو وعاءً جافًّا، بل تعاملَ معها بوصفها نسقًا ذا طبيعةٍ خاصّةٍ يستحيلُ صهرهُ في ظواهرَ خارجيّةٍ غيرِ لغويّةٍ. ومن هنا، نادى بوجوبِ تطبيقِ المنهجِ الوصفيّ الغربيّ الحديث كآليّةٍ إجرائيّةٍ لفحصِ اللّسانِ العربيّ(١). ويَعدُّهُ جمهورُ الدّارسين الأبَ الرّوحيّ والمؤسّسَ للوصفيّةِ العربيّةِ المعاصرةِ؛ إذ انتهجَ هذا السّبيلَ في مصنّفاتِهِ التّأسيسيّةِ، وسعى لبيانِ قواعدِهِ، مُستفيدًا من أطروحاتِ المستشرق (فيرث)، ومُكيّفًا إيّاها بذكاءٍ عبقريّ لترويضِ المادّةِ اللُّغويّةِ العربيّةِ وخصوصيّتِها البنيويّةِ(٢). وطبّقَ مبادئَ الوصفِ على مستوياتِ اللُّغةِ كافّةً (الصّوتيّةِ، والصّرفيّةِ، والنّحويّة، والمعجميّةِ، والدّلاليّةِ)، مركّزًا على جدليّةِ (الشّكلِ والوظيفةِ) لتجريدِ النّحو العربيّ من شروحِ التّقديرِ والعللِ الثّواني والثّوالثِ، ومحاولة بناء نحو وصفيّ حديثٍ يصفُ المادّةَ كما هي استعمالًا لا كما ينبغي أنْ تكونَ عَقلًا(٣).

(١) ينظر: اللّسانيّات وجديد سوسير: ٣.

(٢) ينظر: المناهج الكتابة اللّسانيّة العربيّة الحديثة بين التّأييد والمعارضة: ٩.

(٣) ينظر: مناهج البحث في اللُّغة: ٢٩.

# الخاتمة والنّتائج

## الخاتمةُ والنّتائجُ

خلصتِ الدّراسةُ إلى أنَّ الخطابَ اللُّغويَّ الاستشراقيَّ مثّلَ ميدانًا للتفاعلِ المعرفيِّ بينَ الشّرقِ والغربِ، وكانتِ اللُّغةُ العربيّةُ محورًا أساسًا في دراساتِهِ بمختلفِ مستوياتِها. كما تبيّنَ أنَّهُ لم يكنْ متجانسًا في منطلقاتِهِ وغاياتِهِ؛ إذ جمعَ بينَ إسهاماتٍ علميّةٍ خدمتِ التّراثَ اللُّغويَّ العربيَّ، وأخرى تأثّرتْ بخلفيّاتٍ غيرِ علميّةٍ؛ ممّا يقتضي تقويمَهُ وفقَ قراءةٍ نقديّةٍ متوازنةٍ تميّزُ بينَ إسهاماتِهِ ومواطنِ القصورِ فيهِ.

١_ أثبتتِ الدّراسةُ أنَّ المادّةَ الصّوتيّةَ كانتِ الميدان الأكثر استقطابًا للجهودِ الاستشراقيّةِ؛ لارتباطِها المباشر بالدّراساتِ المقارنةِ وبحثِ الأصولِ السّاميّةِ، وتفسير الظّواهرِ اللُّغويّة في ضوءِ القوانين الصّوتيّةِ، ومن ثمَّ جاءَ اهتمامُهم بالصّرفِ ثمَّ بالنّحو الذي انصبّ جلّهُ على تحقيقِ كتبهِ وترجمتها، ودراسةِ قضاياه، وتقويمِ أصوله، ومناهجه.

٢_ انتهتِ الدّراسةُ إلى أنَّ الدّرسَ الصّوتيّ العربيّ القديم يمثّلُ أحدَ أكثر جوانب التّراث اللُّغويّ العربيّ نضجًا وأصالةً، وأنَّ كثيرًا من المستشرقين أقروا بريادةِ علماء العربيّةِ الأوائل في تحليلِ الأصواتِ ووصفِ مخارجها وصفاتها، وتحليلِ الظّواهرِ الصّوتيّةِ المختلفة. وتبيّن أنَّ ما قدّمه الخليل بن أحمد الفراهيديّ، وسيبويهِ، وابن جنّي، وابن سينا لم يكن مجرّد ملاحظاتٍ وصفيّةٍ متفرقةٍ، بل كانَ بناءً علميًّا متكاملًا سبق في عددٍ من أسُسه النّظريّة والتّطبيقيّة كثيرًا من التّصوّرات التي استقرّتْ في علمِ الأصواتِ الحديثِ.

٣_ أثبتتِ الدّراسةُ أنَّ محاولاتِ بعضِ المستشرقين إرجاعَ نشأة الدّرس الصّوتيّ العربيّ إلى تأثيراتٍ هنديّةٍ أو يونانيّةٍ لم تستندْ إلى شواهد تاريخيّةٍ وعلميّةٍ كافيةٍ، ولا سيّما أنَّ البنيةَ المفهوميّةَ والمصطلحيّةَ للدّرسِ الصّوتيّ العربيّ تكشفُ عن استقلالِه المنهجيّ وارتباطِهِ الوثيق بالبيئةِ العلميّةِ العربيّةِ والإسلاميّةِ. وتبيّن أنّ عددًا من كبارِ المستشرقين أنفسِهم قد رفضوا هذه المزاعمَ ودافعوا عن أصالةِ الفكر الصّوتيّ العربيّ واستقلالِهِ.

٤_ كشفتِ الدّراسةُ أنَّ المادّةَ الصّرفيّةَ شكّلتْ أحدَ المحاورِ الرّئيسةِ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ، وأنَّ أكثرَ القضايا التي أثارَها المستشرقون لم تنصبّ على البنيةِ الصّرفيّةِ في ذاتِها، بل على أصولِها التّاريخيّةِ، وتطوّرها، وعلاقتها باللُّغاتِ السّاميّةِ؛ فتركّزَ اهتمامُهم على قضايا أصل الجذرِ بينَ الثّنائيّةِ والثّلاثيّةِ، وأصلِ الاشتقاقِ بين المصدرِ والفعلِ، وزمنِ الفعلِ، وظاهرةِ التّذكيرِ والتّأنيثِ، محاولين تفسيرها في ضوءِ المنظورِ التّاريخيّ والمقارنِ. ولم يتفقِ المستشرقون على رؤيةٍ واحدةٍ في المسائلِ الصّرفيّةِ التي درسوها، بل تباينتْ مواقفهم واختلفتْ مناهجهم، مِمّا أسهمَ في إثراءِ الدّرس الصّرفيّ وتوسيع آفاقه، وربطه بالدّراساتِ السّاميّةِ. إلّا أنَّ بعضَ استنتاجاتهم جاءتْ متأثّرةً بفرضياتٍ مقارنةٍ وتاريخيّة لم تجدْ ما يكفي من الأدلةِ اللُّغويّةِ لتأكيدِها، فظلّتْ موضع نقاشٍ ونقدٍ في الدّرسِ اللُّغويّ الحديثِ.

٥_ وضّحتِ الدّراسةُ أنَّ قضيّةَ الأصل الثّنائيّ والثّلاثيّ للجذورِ اللُّغويّةِ شكّلتْ إحدى أكثر القضايا الصّرفيّة حضورًا في الخطابِ الاستشراقيّ، وأنَّ المستشرقين انقسموا بشأنِها على اتّجاهاتٍ متعدّدةٍ، إلّا أنَّ عددًا منهم انتهى إلى الإقرارِ بمركزيّةِ الجذرِ الثّلاثيّ في البنيةِ الصّرفيّةِ للعربيّةِ مع الاعترافِ بوجودِ بقايا أو آثار تاريخيّة لبعضِ الأبنيةِ الثّنائيّة. وتبرزُ أهمّيّةُ هذه القضيّة في أنَّها كشفتْ عن عمقِ التّفكيرِ الصّرفيّ لدى المستشرقين ومحاولتهم تفسير نشأة الأبنية اللُّغويّة في ضوءِ المناهجِ التّاريخيّةِ والمقارنة.

٦_ بيّنتِ الدّراسةُ أنَّ المستشرقين لم يتعاملوا مع الصّرفِ العربيّ بوصفِهِ مجموعة من الأوزانِ الجامدةِ، وإنّما نظروا إليهِ بوصفِهِ نظامًا بنيويًّا متحرّكًا يخضعُ للتّطوّرِ التّاريخيّ والتّغيّر اللُّغويّ، ولذلك توسّعتْ دراساتهم لتشملَ قضايا الاشتقاق والتّطوّر الدّلاليّ والتّحوّلات الصّرفيّة وإعادة التّحليل المورفولوجيّ، ممّا أسهمَ في تقديمِ قراءاتٍ جديدةٍ للبنيةِ الصّرفيّةِ العربيّةِ وإنْ كانتْ بعضُ نتائجها قد اتّسمتْ بالمبالغةِ أو التّعميم.

٧_ أثبتتِ الدّراسةُ أنَّ النّحو العربيّ حظي بعنايةٍ واضحةٍ في الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقي؛ إذْ تنوّعتْ جهودُ المستشرقين بين تحقيقِ أمّات الكتبِ النّحويّةِ وترجمتها، ودراسةِ قضاياها، وإعادةِ

قراءةِ أصولها ومسلّماتها في ضوءِ المناهجِ الحديثةِ، مِمّا أسهمَ في توسيعِ مجالِ الدّرسِ النّحويّ وإثارة جملةٍ من القضايا النّقديّةِ والمقارنةِ.

٨_ انتهتِ الدّراسةُ إلى أنَّ المزاعمَ التي نسبتْ نشأة النّحو العربيّ إلى التّأثيرِ اليونانيّ أو المنطقيّ لم تستطعْ أن تقدّمَ أدلةً تاريخيّةً حاسمةً تثبتُ هذا التّأثير بصورةٍ مباشرةٍ، وأنّ ما استندَ إليه أصحاب هذا الرأي لا يتجاوزُ في كثيرٍ من الأحيان حدود التّشابهات العامّة أو المقارنات الشكليّة. وأثبتتِ الدّراسةُ أنَّ الخصوصيّةَ المنهجيّةَ للنحو العربيّ وطبيعته الوصفيّة والاستقرائيّة تؤكّدُ استقلالهُ النسبيّ عن النّظمِ النّحويّةِ الأجنبيّةِ.

٩_ كشفتِ الدّراسةُ أنَّ قضيّةَ الإعرابِ مثّلتْ إحدى أكثر القضايا إثارة للجدلِ في الدِّراساتِ الاستشراقيّةِ، وأنَّ محاولاتِ بعضِ المستشرقين تفسير الإعراب بوصفهِ ظاهرةً مصطنعةً أو متأخرةً تاريخيًّا لم تصمدْ أمام الأدلّة اللُّغويّة والنصّيّة والمقارنات السّاميّة. وتبيّن أنّ الإعرابَ يمثّلُ مكونًا أصيلًا في البنيةِ النّحويّةِ العربيّةِ، وأنّهُ يؤدّي وظائفَ دلاليّةً وتركيبيّةً تتجاوز الجانب الشكليّ الذي حاول بعضِ المستشرقين حصره فيه.

١٠_ أثبتتِ الدّراسةُ أنَّ المنهجَ التّاريخيّ كان من أكثر المناهج تأثيرًا في الدِّراساتِ اللُّغويّةِ الاستشراقيّةِ، إذ أتاحَ للمستشرقين تتبّع التّحوّلاتِ التي طرأتْ على الأصواتِ والصّيغِ والتّراكيبِ والدّلالاتِ عبرَ العصورِ المختلفةِ، وأسهمَ في الكشفِ عن ديناميكيّةِ اللُّغةِ العربيّةِ وقدرتها على التّطوّرِ والتّجدّدِ مع احتفاظِها بقدرٍ كبيرٍ من خصائصِها الأساسيّةِ.

١١_ بيّنتِ الدّراسةُ أنَّ المنهجَ المقارنَ شكّل الأداة الرّئيسة التي اعتمدَ عليها المستشرقون في دراسةِ العربيّةِ ضمنَ إطارها السّاميّ العامّ، وأنَّهُ أسهمَ في الكشفِ عن أوجهِ القرابةِ بينَ اللُّغاتِ السّاميّةِ، وفي تفسيرِ عددٍ كبير من الظّواهرِ الصّوتيّةِ والصّرفيّةِ والنّحويّةِ. وأكّدَ هذا المنهج المكانة المركزيّة للعربيّةِ بينَ أخواتها من اللُّغاتِ السّاميّةِ بسببِ محافظتها على عددٍ كبيرٍ من السّماتِ القديمةِ.

١٢_ كشفتِ الدّراسةُ أنَّ المنهجَ الوصفيّ أحدثَ تحوّلًا مهمًّا في مقاربةِ اللُّغةِ العربيّةِ داخل الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ، إذْ نقلَ الاهتمامَ من اللُّغةِ المعياريّةِ المجرّدةِ إلى اللُّغةِ في واقعِ استعمالها الفعليّ، وأسهمَ في إعادةِ النّظرِ في عددٍ من القضايا اللُّغويّةِ التّقليديّةِ بعيدًا عن الأحكامِ المعياريّةِ الصّارمةِ، وهو ما ترك أثرًا واضحًا في الدّرسِ اللُّغويّ العربيّ الحديثِ.

١٣_ أثبتتِ الدّراسةُ أنَّ جهودَ المستشرقين في جمعِ المخطوطاتِ العربيّةِ وتحقيقِها وفهرستها ونشرِها تمثّل أحدَ أهمّ منجزاتهم العلميّة وأكثرها أثرًا واستمرارًا، إذ أسهمتْ في إنقاذِ جانبٍ كبيرٍ من التّراثِ العربيّ من الضّياعِ، وأتاحتْ للباحثين المعاصرين الإفادة من نصوصٍ لغويّةٍ كانتْ حبيسةَ خزائنِ المخطوطاتِ لقرون طويلةٍ.

١٤_ انتهتِ الدّراسةُ إلى أنَّ أثرَ الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقيّ في الفكرِ اللُّغويّ العربيّ الحديثِ كانَ أثرًا عميقًا ومتعدّدَ الأبعادِ، فقد أسهمَ في إدخالِ المناهج اللّسانيّةِ الحديثةِ إلى الجامعاتِ العربيّةِ، وفي إعادةِ قراءةِ التّراثِ اللُّغويّ العربيّ وتطوّير أدوات البحثِ فيهِ، وانعكسَ أثره في أعمالِ عددٍ من كبارِ اللُّغويّين العربِ المعاصرين.

١٥_ خلصتِ الدّراسةُ إلى أنَّ التّراثَ اللُّغويّ العربيّ يمتلكُ من الأصالةِ والعمقِ المنهجيّ والثّراء العلميّ ما يجعلهُ قادرًا على محاورةِ المناهجِ اللّسانيّةِ الحديثةِ والإفادةِ منها دون أنْ يفقدَ خصوصيّته المعرفيّة. وأكّدتْ أنَّ الموقفَ العلميّ السّليمَ من الاستشراقِ لا يتمثّلُ في الرّفضِ المطلقِ ولا في القبولِ المطلقِ، وإنّما في القراءةِ النّقديّةِ الموضوعيّةِ التي تنصفُ الجهودَ العلميّةَ الرّصينةَ وتفنّدُ الأحكامَ غير العلميّةِ على وفق معاييرِ البحثِ الأكاديميّ الرّصينِ.

ختامًا، تمثّلُ هذه الدّراسةُ حصيلةَ ما بُذل فيها من جهدٍ في تتبّع الخطابِ اللُّغويّ الاستشراقي، والكشف عن تكوينهِ المعرفيّ، وبيان أبرزِ قضاياه ومناهجِهِ في مقاربةِ اللُّغةِ العربيةِ وعلومها. ولم تخلُ هذه الرّحلةُ العلميّةُ من صعوباتٍ وتحدياتٍ، غير أنَّها كانتْ تجربةً ثريةً عززتْ أهمّيّةَ الحوارِ المعرفيّ، وأكّدتْ أنَّ التّراثَ اللُّغويّ العربيّ ما يزال مجالًا خصبًا

للدّرسِ والتّجديدِ. وإذا كانتْ هذه الدّراسةُ قد سعتْ إلى تقويمِ المنجزِ اللُّغوي الاستشراقيّ والكشفِ عن جوانبِ الإفادةِ فيهِ، فإنَّها لا تدّعي الإحاطة بجميعِ جوانبِهِ، وإنَّما تمثّلُ جهدًا علميًّا يرومُ الإسهامَ في تعميقِ البحثِ في هذا الميدانِ. وأرجو من الله تعالى أنْ أكون قد وُفِّقتُ فيما سعيتُ إليهِ، فإنْ أصبتُ فمن فضلِ الله وتوفيقهِ، وإنْ أخطأتُ فحسبي أنّني بذلتُ ما استطعتُ، وما توفيقي إلّا باللهِ، عليه توكلت وإليه أنيبُ، والحمد للهِ ربّ العالمين.

# المصادر والمراجع

## المصادر والمراجع

*** القرآن الكريم**

**أولًا: الكتب المطبوعة:**


- آثار الفكر الاستشراقيّ في المجتمعات الإسلاميّة، محمّد خليفة حسن أحمد، عين للدّراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٧م.
- أبحاث جديدة في علم الأصوات والتّجويد، غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتّوزيع، عمان، ط١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.
- اتّجاهات البحث اللّسانيّ، مليكا أفيش، ترجمة: سعد عبد العزيز ووفاء فايد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،ط٢،٢٠٠٠م.
- الاتّجاهات النّحويّة لدى القداماء دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة، حليمة أحمد عمايرة، دار وائل للنشر، عمان ، الأردن، ط١، ٢٠٠٥م.
- الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر، محمّد محمّد حسين، مؤسسة الرّسالة، ط٧، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.
- أثر القوانين الصّوتيّة في بناء الكلمة العربيّة، فوزي حسن الشّايب، عالم الكتب الحديث للنشر والتّوزيع، الأردن، ط١، ١٤٢٥هـ_ ٢٠٠٤م.
- أجنحة المكر الثّلاثة وخوافيها، التّبشير_ الاستشراق_ الاستعمار، دراسة، وتحليل، وتوجيه، ودراسة منهجيّة شاملة للغزو الفكري، عبد الرحمن حسن حنبكة الميدانيّ، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٠هـ_ ٢٠٠٠م.
- إحياء النّحو، إبراهيم مصطفى، مؤسسة هنداوي، د.ط، ٢٠١٢م.
- أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار، الإمام أبي الوليد محمّد بن عبد الله بن أحمد الأزرقيّ، تح: عبد الملك بن عبدالله دهيش، ط١، ١٤٢٤هـ_ ٢٠٠٤م.

- الأدب الجاهليّ بين لهجات القبائل واللُّغة الموحدة، هاشم الطعان، منشورات وزارة الثّقافة والفنون_ الجمهورية العراقيّة، د.ط، ١٩٧٨م.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي (٧٤٥هـ)، تح: رجب عثمان محمّد، ورمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤١٨هـ_ ١٩٩٨م.
- أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، محمّد خليفة حسن، مكتبة المعتدين الإسلاميّة، ط١، ١٤٢١هـ_ ٢٠٠٠م.
- الاستشراق الاسرائيليّ في الدِّراسات العبريّة المعاصرة، محمّد جلاء إدريس، مكتبة الآداب للنّشر والتّوزيع، ط١، ٢٠٠٣م.
- الاستشراق الاسرائيليّ في المصادر العبريّة، محمّد جلاء إدريس، العربيّ للنشر والتّوزيع، د.ط، ١٤١٦هـ_ ١٩٩٥م.
- الاستشراق بين الحقيقة والتّضليل مدخل علميّ لدراسة الاستشراق، اسماعيل علي محمّد، دار الكلمة، ط٦، ١٤٣٦هـ_ ٢٠١٢م.
- الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، محمّد اركون، مكسيم رودنسون، آلان روسيون، بيرنارد لويس، فرانسيكو غابريلي، كلود كاهين، ترجمة: هاشم صالح، دار السّاقيّ، ط٢، ٢٠٠٠م.
- الاستشراق بين الموضوعيّة، والافتعاليّة، قاسم السّامرائيّ، دار الرّفاعيّ للنشر والطباعة والتّوزيع، ط١، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- الاستشراق _تعريفه_ مدارسه_ آثاره، محمّد فاروق النبهان، منشورات المنظمة الإسلاميّة للتربيّة والعلوم والثّقافة، موسكو، د.ط، ١٤٣٣هـ_ ٢٠١٢م.
- الاستشراق رسالة الاستعمار تطوّر الصّراع الغربيّ مع الإسلام، محمّد إبراهيم الفيومي، دار الفكر العربيّ، د.ط، ١٤١٣هـ_ ١٩٩٣م.
- الاستشراق السّياسيّ في النّصف الأوّل من القرن العشرين، مصطفى نصر المسلاتي، دار إقرأ، طرابلس _ ليبيا، ط١، ١٩٩٨م.

- الاستشراق الفرنسيّ والأدب العربيّ القديم ريجيس بلاشير أنموذجًا، محمّد الصبحيّ العلانيّ، ألفا للنشر، د.ط، ١٩٩٨م.
- الاستشراق في الأدبيّات العربيّة عرض للنظرات وحضر وراقي للمكتوب، علي بن إبراهيم النملة، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلاميّة، ط١، ١٤١٤هـ_ ١٩٩٣م.
- الاستشراق في الفكر الإسلاميّ المعاصر دراسات تحليليّة تقويميّة، محمّد عبد الله الشّرقاويّ، مطبعة المدينة، القاهرة، د.ط، ١٩٩٣م.
- الاستشراق في ميزان الفكريّ الاسلاميّ، أحمد عبد الرحيم السّابح، الدار المصريّة اللّبنانيّة، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ_ ١٩٩٦م.
- الاستشراق في وجه الاستعمار الفكري، عبد العال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
- الاستشراق ماهيّته فلسفته ومناهجه، محمّد قدور تاج، مكتبة المجمع العربيّ للنشر والتّوزيع، ط١، ١٤٣٥هـ_ ٢٠١٤م.
- الاستشراق، مازن مطبقاتي، المكتبة الشّاملة الذّهبية، د.ط، ٢٠١١م.
- الاستشراق: المعرفة، السّلطة الإنشاء، إدوارد سعيد، نقله إلى العربيّة: كمال أبو ديب، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، د.ط، ٢٠١٠م.
- الاستشراق (المفاهيم الغربيّة للشرق)، إدوارد سعيد، ترجمة: محمّد عناني، رؤية للنشر والتّوزيع، ط١، ٢٠٠٦م.
- الاستشراق والاتّجاهات الفكريّة في التّاريخ الاسلاميّ دراسة تطبيقيّة في كتابات برنارد لويس، مازن صلاح مطبقانيّ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنيّة، د.ط، ١٤١٦هـ_ ١٩٩٥م.
- الاستشراق والتّاريخ الإسلاميّ ( القرون الإسلاميّة الأولى)، فاروق عمر فوزي، منشورات الأهليّة، ط١، ١٩٨٩م.

- الاستشراق والتّبشير وصلتها بالإمبرياليّة العالميّة، إبراهيم خليل أحمد، دار المنار للطبع والنّشر والتّوزيع، ط١، ١٩٩٨م.
- الاستشراق والخلفيّة الفكريّة للصراع الحضاريّ، محمود حمدي زقزوق، إشراف: محيي الدّين عفيفي أحمد، مجمع البحوث الإسلاميّة، القاهرة، د.ط. ٢٠١٧م.
- الاستشراق والدِّراسات الإسلاميّة لدى الغربيّين، محمّد حسن زمانيّ، ترجمة: محمّد نور الدّين عبد المنعم، المركز القوميّ للترجمة، ط١، ٢٠١٠م.
- الاستشراق والغارة على الفكر الإسلاميّ (ويليه جدال مقارنة التّاريخ الهجري بالميلاديّ من سنة ١هـ_ ١٥٠٠هـ)، محمّد عبد الله الشّرقاوي، دار الهداية، القاهرة، ودار الصادقون، د.ط، د.ت.
- الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، مصطفى السّباعيّ، دار الوراق للنشر والتّوزيع، د.ط، د.ت.
- الاستشراق وموقفه من السّنّة النّبويّة، فالح بن محمّد الصغير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف بالمدينة المنورة، د.ط، د.ت.
- أسس علم اللُّغة، ماريو باي، ترجمة وتعليق: أحمد مختار، عالم الكتب، القاهرة ، ط٨، ١٤١٩هـ_١٩٩٨م.
- أسس علم اللُّغة العربيّة، محمود فهمي حجازي، دار الثّقافة للطباعة والنّشر، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٣م.
- أسس النّظريّة النّحويّة العربيّة في دراسات المستشرقين :جوناثان أونز" أنموذجًا، هبة فكري الصّباغ، تقديم: محمود أحمد نخلة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٢٣م.
- الإسلام – الأسس، كولين تيرنر، ترجمة: نجوان نور الدّين، مراجعة: سعود المولى، الشبكة العربيّة للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

- الإسلام، ألفريد جيوم، ترجمة: محمّد مصطفى هدارة، وشوقي اليمانّي، مكتبة النّهضة، مصر، ط١، ١٩٥٨م.
- الإسلام على مفترق الطّرق، محمّد أسد، ترجمة: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت_ لبنان، د.ط، ١٩٨٧م.
- الإسلام في التّاريخ الأفكار والناس والأحداث في الشّرق الأوسط، برنارد لويس، ترجمة: مدحت طه، مراجعة وتقديم: أحمد كمال أبو المجد، آفاق للنشر والتّوزيع، ط١، ٢٠١٨م.
- الإسلام في الفكر الغربيّ عرض ومناقشة، محمود حمدي زقزوق، دار القلم، الكويت، ط٣، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- الإسلام في القرون الوسطى، دومنيك سورديل، ترجمة: عليّ المقلد، دار التّنوير للنشر والتّوزيع، ط١، ٢٠٠٧م.
- الإسلام في وجه التّغريب: مخططات التّبشير والاستشراق، أنور الجندي، دار الاعتصام، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م.
- الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النّقد العربيّ الحديث تحليل الخطاب الشّعريّ والسّرديّ، نور الدّين السّد، دار هومة للطباعة والنّشر، الجزائر،ط١، ٢٠١٠م.
- الأشباه والنّظائر في النّحو، للشيخ العلامة جلال الدّين السّيوطيّ (ت ٩١١هـ)، تح: عبدال سالم مكرم، مؤسسة الرّسالة، ط١، ١٤٠٦هـ_ ١٩٨٥م.
- أشتات استشراقيّة– المستشرق لويس ماسينيوس واللُّغة العربيّة، حامد ناصر الظالميّ، دار ومكتبة البصائر، بيروت_ لبنان، ط١، ١٤٣٣_٢٠١٢م.
- الاشتقاق: فؤاد حنا طرزي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- الإشكاليّة اللُّغويّة في الفلسفة العربيّة دراسة تحليليّة نقديّة، د. جيرار جهامي، دار المشرق، بيروت_ لبنان، ط١، ١٩٩٤م.
- الأصوات اللُّغويّة، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بمصر، ط٥، ١٩٧٥م.

- أصول تراثيّة في اللّسانيات الحديثة، كريم زكي حسام، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ٢٠٠م.
- الأصول في اللُّغة العربيّة وآدابها، سميح أبو مغلي، مصطفى محمّد الفار، دار القدس، عمان، ط١، ١٩٩٠م.
- أصول اللّسانيات الحديثة وعلم العلامات، فرديناند دي سوسير، ترجمة: عزّ الدّين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ط١، ٢٠٠٠م.
- أصول النّحو العربيّ في نظر النّحاة ورأي بن مضاء وضوء علم اللُّغة الحديث، محمّد عيد، عالم الكتب، القاهرة، ط٤، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.
- أضواء على الدِّراسات اللُّغويّة المعاصرة، نايف خرما، عالم المعرفة، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٩٧٨م.
- الأعلام، خير الدّين بن محمّد بن علي بن فارس الزّركليّ الدّمشقيّ (ت١٣٩٦هـ) دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
- الألسنيّة التّوليدية التّحوّيليّة وقواعد اللُّغة العربيّة (الجملة البسيطة)، ميشال زكريا، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- الالسنيّة علم اللُّغة الحديث مبادئ والاعلام، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر، ط١، ١٩٠٠م.
- الألسنيّة، مفهومها، مبانيها المعرفيّة ومدارسها، وليد محمّد السراقبي، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة، العتبة العباسيّة المقدسة، دار ومخطوطات العتبة العباسيّة المقدسة، ط١، ١٤٤٠هـ_ ٢٠١٩م.
- إنشائيّة الخطاب في الرّواية العربيّة الحديثة، محمّد الباردي، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، ٢٠٠٠م

- الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين، كمال الدّين أبو البركات، عبد الرّحمن بن محمّد بن أبي سعيد الأنباريّ النّحويّ (ت ٥٧٧هـ)، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، ط١، ١٤٢٤هـ_ ٢٠٠٣م.
- أوربا والإسلام صدام الثّقافة والحداثة، هشام جعيط، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- الإيضاح العضديّ، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ (ت ٣٧٧هـ)، تح: حسن شاذلي فرهود، مركز النخب العلميّة، ط١، ١٣٨٩هـ_ ١٩٦٩م.
- البحث اللُّغويّ عند العرب مع دراسة لقضية التأثّر والتّأثير، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٦، ١٩٨٨م.
- بحوث في الاستشراق واللُّغة، إسماعيل أحمد عمايرة، دار البشير، ط١، ١٤١٧هـ_ ١٩٩٦م.
- البلاغة العصريّة واللُّغة العربيّة، سلامة موسى، سلامة موسى للنشر والتّوزيع، ط١، ١٩٤٥م.
- بناء الجملة العربيّة، محمّد حماسة عبد اللّطيف، دار غريب_ القاهرة، د.ط، ٢٠٠٣م.
- البيان والتّبيين، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تح: عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٧، ١٤١٨هـ_ ١٩٩٨م.
- تأثير الإسلام في أوربا في العصور الوسطى، وليام مونتغمري واط، ترجمة: سارة إبراهيم الذّيب، مراجعة: سحاب الأحدب، جسور للترجمة والنّشر، بيروت، ط١، ٢٠١٦م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد مرتضى الحسيني الزّبيديّ، تح: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، د.ط، ١٣٨٥هـ_ ١٩٦٥م.
- تاريخ آداب اللُّغة العربيّة، جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، د.ط، ٢٠١٣م.
- تاريخ الأدب العربيّ، كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم النّجار، دار المعارف، ط٥، د.ت.

- تاريخ الأدب العربيّ للمدارس الثّانويّة والعليا، أحمد حسن الزيات، دار المعرفة، بيروت_ لبنان، د.ط، ١٤١٣هـ_ ١٩٩٣م.
- تاريخ الدِّراسات العربيّة في فرنسا، محمود المقداد، عالم المعرفة، د.ط، ١٩٩٢م.
- تاريخ الدّعوة إلى العامّيّة وآثارها في مصر، نفوسة زكريا سعيد، دار نشر الثّقافة بالإسكندرية، ط١، ١٣٨٣هـ_ ١٩٦٤م.
- تاريخ الفلسفة في الإسلام، ت. ج. دي بور، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.
- تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، جورج تامر، مؤسسة كونراد_ أدوناور، بيرون، ط١، ٢٠٠٤م.
- تاريخ اللُّغات السّاميّة، إرسنت رينان، المطبعة الإمبراطوريّة، باريس، ١٨٥٥م.
- تاريخ اللُّغات السّاميّة، اسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر، ط١، ١٣٤٨هـ_ ١٩٢٩م.
- تاريخ حركة الاستشراق: الدِّراسات العربيّة والإسلاميّة في أوربا حتّى بداية القرن العشرين، يوهان فوك، نقله عن الألمانيّة: عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلاميّ، ط٢، ٢٠٠١م.
- تاريخ دراسة اللُّغة العربيّة بأوروبا، يوسف جيرا، مؤسسة هنداوي، د.ط، ٢٠١٩م.
- تاريخ علم اللُّغة منذ نشأتها حتّى القرن العشرين، جوج مونان، ترجمة: بدر الدّين القاسم، وزارة التّعليم العالي، دمشق، د.ط، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.
- تبسيط قواعد العربيّة وتبويبها على اساس منطقي جديد، أنيس فريحة، جونية، لبنان، ط١، ١٩٥٢م.
- التّبشير والاستشراق: احقاد وحملات على النبيّ محمّد وبلاد الإسلام، محمّد عزت إسماعيل الطهطاويّ، الهيئة العامّة لشئون المطابع الأميريّة، القاهرة، ط١، ١٣٩٧هـ_ ١٩٧٧م.

- التّبشير والاستعمار في البلاد العربيّة عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشّرق للاستعمار الغربيّ، مصطفى الخالدي، عمر فروخ. منشورات المكتبة العصريّة، بيروت، ط٢، ١٣٧٢هـ_ ١٩٥٣م.
- التّثقيف الذّاتيّ، لأبي محمّد عبد الله بن علي بن إسحاق الصّيمريّ، تح: فتحي أحمد مصطفى علي الدّين، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٢هـ_ ١٩٨٢م.
- تجديد النّحو، شوقي ضيف، دار المعارف، ط١، ١٩٨٢م.
- التّحليل النّحويّ اصوله وادلته، فخر الدّين قباوة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط١، ٢٠٠٢م.
- التّراث العربيّ والمستشرقون: دراسة عن ظهور الكتاب العربيّ ونفائس الكتب العربيّة التي طبعت في الغرب، عادل كامل آلوسيو دار الفكر العبري، د.ط، ٢٠٠١م.
- تربية سلامة موسى، سلامة موسى، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، د.ط، ٢٠١٢م.
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، أبو عبد الله جمال الدّين محمّد بن عبد الله ابن مالك الطائيّ الجياني (٦٧٢هـ)، تح: محمّد كمال بركات، دار الكتاب العربيّ للطباعة والنشر بالقاهرة، د.ط، ١٣٨٧هـ_ ١٩٦٧م.
- التّصريف العربيّ من خلال علم الاصوات الحديث، الطيب البكوش، تقديم: صالح القرماديّ، الهيئة العامة لمكتبة الاسكندريّة، ط٢، ١٩٩٢م.
- التّصريف الملوكيّ، أبو الفتح عثمان بن جني الموصليّ (ت ٣٩٢هـ)، تح: ديزيره سقال، دار الفكر العربيّ للنشر والتّوزيع، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ_ ١٩٩٨م.
- تطبيقات في المناهج اللُّغويّة، إسماعيل أحمد عمايرة، دار وائل للطباعة والنشر والتّوزيع، د.ط، ٢٠٠٠م.
- تطوّر التّأليف في الدّرس الصّرفيّ المصطلحات والمفاهيم والمعايير، ممدوح عبد الرحمن الرّماليّ، نشر خاصّ بالمؤلف، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

- التّطوّر اللُّغويّ مظاهره وعلله وقوانينه، رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجيّ بالقاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ_ ١٩٩٧م.
- التطوّر النّحوي للغة العربيّة، برجستراسر، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م.
- التفكير الصّوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب لابن جنّي، هنري فليش، تح: عبد الصبور شاهين، مجلّة مجمع اللُّغة العربيّة بالقاهرة، د.ط، ١٣٨٨هـ_ ١٩٦٨م.
- التفكير اللُّغويّ بين القديم والجديد، كمال بشر، دار غريب للطباعة والنّشر والتّوزيع، د.ط، ٢٠٠٥م.
- التّكملة، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ، تح: كاظم بحر المرجان، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت_ لبنان، ط٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.
- تكملة المعاجم العربيّة، رينهارت دوزي، نقله إلى العربيّة وعلق عليه: محمّد سليم النعيميّ، دار الرّشيد للنشر، العراق، د.ط ١٩٨٠م
- تيارات مسمومة ونظريّات هدامة معاصرة تحاصر الإسلام وتحمل لواء هدم قيمة الأساسيّة، أنور الجنديّ، مكتبة التّراث الإسلاميّ، ط١، ١٩٩٣م.
- تيسيرات لغويّة، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، د.ط، ١٩٩٠م.
- الجمل في النّحو، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، تح: فخر الدّين قباوة، مؤسسة الرّسالة، بيروت،ط١، ١٤٠٥هـ_١٩٨٥م.
- الجملة العربيّة: تأليفها وأقسامها، فاضل صالح السّامرائيّ، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م.
- الجملة العربيّة مكوناتها- أنواعها- تحليلها، د. محمّد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب للطباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.

❖ الجملة الفعليّة، د. علي أبو المكارم، مؤسّسة المختار للنشر والتّوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ_ ٢٠٠٦م.

❖ جمهرة اللُّغة، أبو بكر محمّد بن الحسن بن دريد الأزديّ (ت ٣٢١هـ)، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين_ بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

❖ الجنس ونشوؤه في اللُّغات السّاميّة، محمّد حسن إبراهيم، قسم اللُّغة الانجليزيّة وآدابها، د.ط، ٢٠١٠م.

❖ جهد المقل، محمّد بن أبي بكر المرعشيّ الملقب بساجقلي زادة(ت١١٥٠هـ)، تح: سالم قدوري الحمد، ط٢، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

❖ جهود المستشرقين اللُّغويّة في اللُّغة العربيّة المترجمة والمطبوعة، فارس السيد حسن السلطانيّ، مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة، ط١، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.

❖ الحضارات السامية القديمة، سبتينو موسكاتي، ترجمة: السيد يعقوب بكر، راجعه: الدكتور محمّد القصاص، دار الرقي_ بيروت، د.ط، ١٩٨٦م.

❖ حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداويّ للنشر والثّقافة، القاهرة_ مصر، د.ط، ٢٠١٢م.

❖ حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقيّ، سالم يفوت، المركز الثّقافي العربيّ، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

❖ حفريات المعرفة، ميشال فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثّقافي العربيّ، بيروت_ لبنان، ط٢، ١٩٨٧م.

❖ الحواشي المفهمة في شرح المقدّمة، أبي بكر شهاب الدّين أحمد بن محمّد بن محمّد بن علي بن الجزريّ (ت٨٣٣هـ)، تح: فرغلي سيد عرباوي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ط٤، ٢٠١٨.

❖ حول الاستشراق الجديد مقدّمات أوّليّة، عبد الله بن عبدالرحمن الوهيبيّ، مجلّة البيان، ط١،

١٤٣٥هـ.

- خصائص الأدب العربيّ في مواجهة نظريّات النّقد الأدبيّ الحديث، أنور الجنديّ، دار الكتاب اللّبنانيّ، ط٢، ١٩٨٥م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جنّي الموصليّ (ت ٣٩٢هـ)، تح: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة، ط٣، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- الخطاب والنّص: المفهوم_ العلاقة_ السّلطة، عبد الواسع الحميري، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٨م.
- الخلاف النّحويّ في ضوء محاولات التّيسير الحديثة، حسن منديل العكيليّ، دار الضياء، ط١، ٢٠٠٧م
- الخلفيات المنهجيّة في دراسات المستشرقين حول العربيّة، عبد الحليم الشّوربجيّ، كتاب المجلّة العربيّة، الرّياض، د.ط، ١٤٣٩هـ.
- الدِّراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة (المستشرقون الالمان منذ تيودور نولدكه)، رودي بارت، ترجمة: مصطفى ماهر، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧م.
- الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ميشال جحا، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٢م.
- الدِّراسات اللُّغويّة عند العرب إلى نهاية القرن الثّالث، محمّد حسين آل ياسين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت_ لبنان، ط١، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- دراسات في تفسير النّصّ القرآنيّ، مجموعة من المؤلفين، ترجمة: فريق التّرجمة في مركز الحضارة، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
- دراسات في الفكر العربيّ الإسلاميّ: أبحاث في علم الكلام والتّصوف، عرفان عبد الحميد فتاح، دار الجيل للطبع والنّشر والتّوزيع، ط١، ١٩٩١م.
- دراسات في اليهوديّة والمسيحيّة وأديان اليهود، محمّد ضياء الرّحمن الأعظميّ، مكتبة الرّشيد ناشرون، ط٢، ١٤٢٤هـ_ ٢٠٠٣م.
- دراسات في علم اللُّغة، كمال بشر، دار غريب للطباعة والنّشر، د.ط، ١٩٩٨م.

- دراسات في علم اللُّغة المقارن، محمّد عبد الصمد زعيمة، دار الثّقافة، ط١، ١٩٨١م.
- دراسات في علم اللُّغة الوصفيّ والتّاريخيّ والمقارن، صلاح الدّين صالح حسنين، دار العلوم للطباعة والنشر، د.ط، ١٤٠٥هـ_١٩٨٤م.
- دراسات في فقه اللُّغة، صبحي الصّالح، دار العلم للملايين، د.ط، ٢٠٠٩.
- دراسة الصّوت اللُّغويّ، أحمد مختار، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٥هـ_١٩٨٥م.
- دروس في علم اصوات العربيّة، جان كانتينو، ترجمة: صالح القرمادي، الجامعة التّونسيّة، مركز الدِّراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، د.ط، ١٩٦٦م.
- دلاله الالفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط٣، ١٩٧٦م.
- دليل الخليج القسم التّاريخيّ، ج.ج لوريمر، إعداد قسم التّرجمة بمكتب صاحب السّمو أمير دولة قطر، د. ط، د.ت.
- دور الكلمة في اللُّغة، ستيفن أولمان، ترجمة: د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة، مصر، ط١٢، د.ت
- ذهنيّة التّحريم سلمان رشدي وحقيقة الأدب، صادق جلال العظم، المدى، ط١، ١٩٩٧م.
- رجال اختلف فيهم الرأي من ارسطو إلى لويس عوض، أنور الجندي، دار الانصار، د.ط، ٢٠٠٩م.
- روح الحضارة العربيّة، هانز شبدر، ترجمة: عبد الرحمن البدوي، دار العلم للملايين، بيروت، د.ط، ١٩٤٩م.
- الرّؤية الاستشراقيّة للسيرة النّبويّة من خلال دائرة المعارف الإسلاميّة، طارق عبد الحميد عبد الرؤوف، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، الدوحة، ط١، ٢٠١٣م.
- رؤية إسلاميّة للاستشراق، أحمد عبد الحميد غراب، المنتدى الإسلاميّ، ط٢، ١٩٩٠م.
- رؤية حديثة في مناهج العلوم، د. زكي نجيب محمود، دار الشّروق، القاهرة، ط٤، ١٩٨٢م.

- ❖ الزّمن في اللُّغة العربيّة بنيته التّركيبيّة والدّلالة، أمحمّد الملاخ، دار العربيّة للعلوم، د.ط، ٢٠٠٩م.
- ❖ زيارة جديد للاستشراق مع دراسات للرؤية الاستشراقيّة المنصفة للرسول محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، أنور محمود زناتي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- ❖ سرّ الليال في القلب والإبدال: في علم معاني الألفاظ، أحمد فارس شدياق، دار الغرب الإسلاميّ، ط١، ٢٠٠٦م.
- ❖ سرّ صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت٣٩٢هـ)، تح: حسن هنداويّ، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٣هـ_ ١٩٩٣م.
- ❖ السياسة اللُّغويّة في البلاد العربيّة بحثًا عن طبيعة، عادلة، ديمقراطيّة، وناجعة، عبد القادر الفاسي الفهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٣م.
- ❖ السّيرة النّبويّة والتّاريخ الإسلاميّ، عبد اللّطيف عبد الشافي محمّد، دار السلام_ القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ
- ❖ سيكولوجيّة القصّة في القرآن، التّهاميّ نقرة، الشّركة التونسية للتوزيع، د.ط، ١٩٧٤م
- ❖ الشّامل: معجم في علوم اللُّغة العربيّة ومصطلحاتها، محمّد سعيد إسبر، وبلال جنيدي، دار العودة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- ❖ شرح التسهيل تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائيّ الجيانيّ الأندلسيّ (ن٦٧٢هـ)، تح: محمد عبد القادر عطا، وطارق فتحب السيّد، منشورات دار الكتب العلميّة، بيروت_ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ_ ٢٠٠١م.
- ❖ شرح الرضي على الكافية، رضي الدين محمّد بن الحسن الإستراباذيّ (ت ٦٨٨هـ)، تح: د يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، ط٢، ١٩٩٨م.
- ❖ شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيراقيّ الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت ٣٦٨هـ)، تح: أحمد حسن مهدلي، وعليّ سيّد عليّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.

- شرح المفصل، بن يعيش موفق الدّين النّحويّ (ت:٦٤٣هـ) ، قدم له : إميل بديع يعقوب ، ط١، دار الكتب العلميّة ، بيروت . لبنان الشّرق وحضارته: ٣٥.
- شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربيّة في أوربة"، زيغريد هونكة، نقله عن الألمانيّة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه: مازن عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، و دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ_ ١٩٩٣م.
- الصحاح تاج اللُّغة وصحاح العربيّة، أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهريّ (ت٣٩٨هـ)، مراجعة: أنس محمّد الشّاميّ، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٩م.
- صورة الإسلام في أوربا في العصور الوسطى، ريتشارد سوذرن، ترجمة: رضوان السيد، دار المدار الإسلاميّ، ط٢، ٢٠٠٦م.
- الصّيغ الزّمنية في اللُّغة العربيّة، د. مالك المطلبيّ، دار الشؤون الثقافيّة، العراق، ط١، ١٩٨٩م.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثّقافة، د.ط، د.ت.
- طبقات المستشرقين، عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبوليّ، د.ط، د.ت.
- الطّرازات المعلمة في شرح المقدمة، عبد الدّائم الأزهريّ (ت٨٧٠هـ)، تح: نزار خورشيد عقراوي، دار عمار للنشر والتّوزيع، ط١، ١٤٢٤هـ_٢٠٠٣م.
- ظاهرة الإعراب في النّحو العربيّ وتطبيقها في القرآن الكريم، أحمد سلمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، د.ط، ١٩٩٤م.
- العربيّة الفصحى الحديثة بحوث في تطوّر الألفاظ والأساليب، ستتكيفتش، ترجمة: محمّد حسن عبد العزيز، دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع، د.ط، ٢٠١٣م،
- العربيّة الفصحى دراسة في البناء اللُّغويّ، فليش، تعريب وتقديم: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، د.ط ١٩٦٨م.
- العربيّة الفصحى المعاصرة وأصولها التّراثية، عباس السوسوة، دار غريب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

- العربيّة بين امسها وحاضرها، إبراهيم السّامرائيّ، منشورات وزارة الثّقافة والفنون_ الجمهوريّة العراقيّة، د.ط، ١٩٧٨م
- العربيّة لغة العلوم والتقنيّة، عبد الصبور شاهين، دار الاعتصام، د.ط، ١٩٨٦م
- العربيّة، دراسات في اللُّغة واللّهجات والأساليب، يوهان فِك، ترجمة: رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجي، د.ط، ١٤٠٠هـ_ ١٩٨٠م.
- العربيّة، دراسات في اللُّغة واللّهجات والأساليب، يوهان فك، ترجمة: عبد الحليم النجار، الدّار المصريّة السّعوديّة، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٦م.
- العقل والتّنوير في الفكر العربيّ المعاصر قضايا ومذاهب وشخصيات، عاطف العراقيّ، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، ١٩٩٨م.
- علم الأصوات، برتيل مالمبرج، ترجمة عبد الصبور شاهين، مكتبة الشّباب، القاهرة_ مصر، د.ط، ١٩٨٤م.
- علم الأصوات بين القدماء والمحدثين، عادل محلو، مطبعة مزوار، ط١، ٢٠٠٩م.
- علم الأصوات، كمال بشر، دار غريب، د.ط، ٢٠٠٠م.
- علم الدّلالة، بيرجيرو، ترجمة: منذر عياشي، دار طلاس للدراسات والتّرجمة والنشر، ط١، ١٩٨٨م
- علم الصّوتيات، عبد العزيز أحمد علام، عبد الله ربيع محمود، مكتبة الرشيد، ط٣، ١٤٣٠هـ_ ٢٠٠٩م.
- علم اللُّغة، علي عبد الواحد الوافي، نهضة مصر للطباعة والنّشر، ط٩، ٢٠٠٤م.
- علم اللُّغة العامّ ( الأصوات )، كمال محمّد بشر، دار المعارف للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٠م.
- علم اللُّغة العربيّة مدخل تاريخيّ مقارن في ضوء التّراث واللُّغات السّاميّة، محمود فهمي حجازيّ، دار غريب للطباعة والنّشر، د.ط، ١٩٩٦م.

- علم اللُّغة المعاصر مقدمات وتطبيقات، يحيى عبابنة، وآمنة الزغبيّ، دار الكتاب الثّقافيّ، ط١، ٢٠٠٥م.
- علم اللُّغة المقارن، حازم علي كمال الدّين، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٧م.
- علم اللُّغة مقدّمة للقارئ العربيّ، محمود السّعران، دار الفكر العربيّ، ط٢، ١٩٩٧م.
- غرائب الغرب، محمّد كرد علي، المطبعة الرّحمانيّة، ط٢، ١٣٤١هـ_١٩٢٣م.
- الغزو الفكريّ والتّحدي والمواجهة، إسماعيل علي محمّد، دار الكلمة للنشر والتّوزيع، ط٢، ٢٠١٣م.
- الفروق اللُّغويّة، أبو هلال العسكريّ (ت٣٩٥هـ)، تح: محمّد إبراهيم سليم، دار العلم والثّقافة، د.ط، د.ت.
- فصول في فقه العربيّة، رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٦، ١٤٢٠هـ_ ١٩٩٩م.
- الفصول المؤيّدة للوصول إلى شرح المقدّمة الجزريّة، أبو الفتح المزي(ت ٩٠٦هـ)، تح: جمال السّيّد رفاعيّ، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ط١، ٢٠٠٥م.
- فضل الإسلام على الحضارة الغربيّة، مونتجوي وات، ترجمة: حسين أحمد أمين، دار الشّروق، ط١، ١٤٠٣هـ_ ١٩٨٣م.
- فقه العربيّة المقارن دراسات في أصوات العربيّة وصرفها ونحوها على ضوء اللُّغات السّاميّة، رمزي منير بعلبك، دار العلم للملايين، د.ط، ١٩٩٩م.
- فقه اللُّغات السّاميّة، كارل بروكلمان، ترجمة: رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، د.ط، ١٣٩٧هـ_ ١٩٧٧م .
- فقه اللُّغة العربيّة وخصائصها، إميل بديع يعقوب، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٢م.
- فقه اللُّغة في الكتب العربيّة، عبده الراجحي، دار النهضة العربيّة، بيروت، د.ط، ١٩٧٢م.

- فقه اللُّغة مفهومه– موضوعاته– قضاياه، محمّد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، ط١، ١٤٢٦هـ_٢٠٠٥م.
- فقه اللُّغة المقارن، إبراهيم السّامرائيّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.
- فقه اللُّغة وخصائص العربيّة دراسة تحليليّة مقارنة للكلمة العربيّة وعرض لمنهج العربيّة الأصل في التجديد والتوليد، محمّد المبارك، دار الفكر، ط٢، ١٩٦٤م.
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربيّ، محمّد البهي، مكتبة وهبة، ط٣، ١٩٦١م.
- الفكر اللُّغويّ بين اليونان والعرب، كيس فرستيج، دار الهدى للنشر والتّوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
- الفكر النّحويّ عند العرب أصوله ومناهجه، علي مزهر الياسريّ، تقديم: عبدالله الجبوري، الدّار العربيّة للموسوعات، ط١، ١٤٢٣هـ_٢٠٠٣م.
- فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربيّ المعاصر، أحمد سمايلوفتش، دار الفكر العربيّ، د.ط، ١٤١٨هـ_ ١٩٩٨م.
- فلسفه النّحو والصّرف واللُّغة والرسم ورد على رؤوف جمال الدّين، مصطفى جواد، مطبعة أسعد_ بغداد، د.ط، ١٩٦٨م.
- فن النّحو بين اليونانيّة والسّريانيّة، ماجدة محمّد أنور، ترجمة ودراسة لكتابي ديونيسوس ويوسف الأهوازيّ، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
- فوكو في الصحراء امام إله إبراهيم وهاجر واسماعيل، لويس مايسون، أيام الثلاثاء في دار السلام، د.ط، ١٩٥٩م.
- في الأصوات اللُّغويّة دراسة في أصوات المدّ العربيّة، غالب فاضل المطلبيّ، دائرة الشؤون الثقافيّة والنّشر، الجمهورية العراقية، د.ط، ١٩٨٤م.
- في أصول النّحو، سعيد الأفغانيّ، المكتب الإسلامي، د.ط، ١٤٠٧هـ_ ١٩٨٧م.

- ❖ في تاريخ العربيّة أبحاث في الصّورة التّاريخيّة للنحو العربيّ، نهاد الموسى، دار كنوز المعرفة العلميّة، ط١، ٢٠١٤م.
- ❖ في الغزو الفكري/ المفهوم/ الوسائل / المحاولات، نذير حمدان، مكتبة الصّديق، ط١، د.ت.
- ❖ في اللّهجات العربيّة ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٣م.
- ❖ في النّحو العربيّ نقد وتوجيه، مهدي المخزوميّ، دار الرائد العربيّ، بيروت_ لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ_ ١٩٨٦م.
- ❖ في سيسيولوجيا الخطاب من سيسيولوجيا التّمثيلات الى فسيولوجيا الفعل، عبد السلام حيمر، الشبكة العربيّة للأبحاث والنشر، د.ط، ٢٠٠٨م.
- ❖ في علم الأصوات المقارن التّغيير التّاريخيّ للاصوات في اللُّغة العربيّة واللُّغات السّاميّة، أمنة صالح الزعبي، دار الكتاب الثّقافيّ، د.ط، ٢٠٠٨م.
- ❖ في علم اللُّغة التّاريخيّ _ دراسة تطبيقيّة على عربية العصور الوسطى، البداوي زهران، دار المعارف_ القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.
- ❖ في علم اللُّغة العامّ، د. السّعيد بدوي، دار المعارف، القاهرة، د.ط، ١٩٩٤م.
- ❖ في علم اللُّغة، غازي مختار طليمات، دار طلاس، دمشق، ط٢، ٢٠٠٠م.
- ❖ قاموس اللّسانيّات عربيّ_ فرنسيّ، فرنسي_ عربيّ مع مقدّمة في علم المصطلح، عبد السّلام المسديّ، الدار العربيّة للكتاب، تونس، ط١، ١٩٨٤م .
- ❖ القراءات القرآنيّة في ضوء علم اللُّغة الحديث، عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجيّ بالقاهرة، د.ط، د.ت.
- ❖ القرارات النّحويّة والتّصريفيّة لمجمع اللُّغة العربيّة بالقاهرة جمعًا ودراسة وتقويمًا إلى نهاية الدّورة الحادية والسّتين عاما ١٤١٨هـ_ ١٩٩٥م، خالد بن سعود بن فارس العضيمي، دار التدمرية، السعودية، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ_ ٢٠٠٣م.

- القرآن، ريجي بلاشر، ترجمة: رضا سعادة ، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
- القرآن الكريم في الدِّراسات الاستشراقيّة _ دراسة تقويميّة نقدية_، الشّيخ محمود علي سرائب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة، العتبة العباسية المقدسة، ط١، ١٤٤٢هـ_ ٢٠٢١م.
- القرآن الكريم من المنظور الاستشراقيّ، دراسة نقدية تحليليّة، محمّد محمّد أبو ليلة، دار النّشر للجامعات، ط١، ١٤٢٣هـ_ ٢٠٠٢م.
- القرآن الكريم وأثره في الدِّراسات النّحويّة، عبد العال سالم مكرم، المكتبة الأزهرية للتراث، د. ط، ١٩٦٥م.
- القرآن والمستشرقون، دراسات نقديّة لمباني المستشرقين حول القرآن الكريم، مجموعة باحثين، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة، العتبة العباسيّة المقدسة، النّجف_ العراق، ط١، ١٤٤٣هـ_ ٢٠٢١م.
- قضايا اللُّغة العربيّة في اللّسانيّات الوظيفيّة بنيه الخطاب من الجملة الى النّصّ، احمد المتوكل، دار الأمان، د.ط، ٢٠٠١م.
- قضايا الشّعريّة، رومان جاكسون، ترجمة: محمّد الولي، ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدّار البيضاء المغرب، ط١، ١٩٨٨م.
- قواعد اللُّغة الاوغاريتيّة، إلياس بيطار، جامعة دمشق، دمشق، د.ط، ١٩٩٢م.
- كتاب الأصنام، عن أبي المنذر هشام بن محمّد بن السّائب الكلبيّ، تح: أحمد زكي باشا، مطبوعات دار الكتب المصريّة بالقاهرة، ط٣و ١٩٩٥م.
- كتاب الشّعر أرسطو طاليس في الشّعر نقل أبي بشر متى بن يونس القناني من السّريان إلى العربيّة، شكري محمّد عياد، تقديم: الدكتور زكي نجيب محمود الهيئة المصريّة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.

- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٧٠هـ)، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكنب العلميّة، ط١، ١٤٢٤هـ_٢٠٠٣م.
- الكتاب، أَبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت١٨٠هـ)،تح: عبدالسلام محمّد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٦م .
- الكلمة دراسة لغويّة معجميّة، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعيّة، ط٢، ١٩٩٨م.
- لحن العامّة والتّطوّر اللُّغويّ، رمضان عبد التواب، مكتبة زهراء الشّرق، ط٢، ٢٠٠٠م.
- لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور(ت٧١١هـ)، صححه: أمين محمّد عبد الوهاب، محمّد الّصادق العبيديّ، دار إحياء التّراث العربيّ، مؤسسة التّاريخ العربيّ، بيروت_ لبنان، ط٣، ١٤١٩هـ_ ١٩٩٩م.
- اللّسان والإنسان مدخل الى معرفه اللُّغة، حسن ظاظا، دار القلم، دمشق، والدار الشّاميّة، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ_ ١٩٩٠م.
- اللّسانيّات العربيّة الحديثة، دراسة نقديّة في المصادر والأسس النّظريّة والمنهجيّة، مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٢٤م .
- لغات البشر، ماريو باي، ترجمة: صلاح العربيّ، قسم النّشر بالجامعة الأمريكيّة، القاهرة، مؤسّسة فرانكلين للطباعة والنشر، د.ط، ١٩٧٠م.
- اللُّغات السّاميّة، ثيودور نولدكه، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة دار النهضة العربيّة، ط٢، ١٩٦٣م.
- اللُّغة بين المعياريّة والوصفيّة، تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط٤، ١٤٢١هـ_ ٢٠٠٠م.
- لغة الشعر دراسة في الضّرورة الشّعريّة، محمّد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، ط١، ١٤١٦هـ_ ١٩٩٦م.
- اللُّغة العربيّة كائن حيّ، جرجي زيدان، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثّقافة، د.ط، ٢٠١٢م.
- اللُّغة العربيّة معناها ومبناها، د. تمّام حسّان عمر، عالم الكتب، ط٥، ١٤٢٧هـ_٢٠٠٥م.

- اللُّغة، فندريس، ترجمة: عبد الرحمن الدّواخليّ، ومحمّد القصاص، مكتبة الأنجلو المصريّة، د.ط، ١٩٥٠م.
- اللُّغة والخطاب الادبيّ، ادوارد سابير، تزفيتان تودوروف، رولان بارت، روجر فاولر جي. بي. ثورن، روبرت شولز، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربيّ، ط١، ١٩٩٣م.
- اللُّغة والمجتمع، علي عبد الواحد الوافي، شركة مكتبة عكاظ للنشر والتّوزيع، ط٤، ١٤٠٣هـ_ ١٩٨٣م.
- اللّمع في العربيّة: أبو الفتح عثمان ابن جنّي الموصليّ (ت ٣٩٢هـ)،، تح: فائز فارس، دار الكتب الثقافيّة، الكويت، د.ط، ١٩٧٢م.
- لهجات العرب في القرآن الكريم، دراسة استقرائيّة تحليليّة. عبد الله عبد الناصر جبري، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- اللّهجات العربيّة الغربيّة القديمة، شام رابين، ترجمة (د. عبد الرحمن أيوب)، منشورات جامعة الكويت، د.ط، ١٩٨٦م.
- اللّهجات العربيّة في التّراث، د. أحمد علم الدّين الجنديّ، الدار العربيّة للكتاب، ليبيا، تونس، د.ط، ١٩٨٣م.
- لهجة تميم وأثرها في العربيّة الموحدة، غالب فاضل المطلبي، منشورات وزارة الثّقافة والفنّون، الجمهوريّة العراقيّة، ١٩٧٨م.
- لورنس العرب على خطى هرتزل، تقارير لورنس السّريّة، زهدي الفاتح، دار النّفائس، بيروت، ط١، ١٣٩٠هـ_ ١٩٧١م.
- مباحث في اللّسانيات، د. أحمد حساني، منشورات كلية الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة، ط٢، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.
- مباحث في علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ، نور الهدى لوشن، المكتبة الجامعيّة الإسكندرية، ٢٠٠٠م_٢٠٠١م.
- مبادى علم الأصوات العامّ، ديفيد ابركرومبي، ترجمة: محمّد فتيح، مطبعة المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٨م.

- مبادئ في اللّسانيات العامّة، اندريه مارتيني، ترجمة: أحمد الحمو، دار الأفاق، المطبعة الجديدة، دمشق، د.ط، ١٩٨٤م.
- مبادئ اللّسانيّات/ أحمد محمّد قدور، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٨.
- المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمّد البهي، مطبعة الأزهر، د.ط، ١٩٦٩م.
- المتخيل والتّواصل مفارقات العرب والغرب، محمّد نور الدّين أفاية، دار المنتخب العربيّ، ط١، ١٤١٤هـ_ ١٩٩٣م.
- المتنبي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمّد شاكر، دار المدني بجدة، د.ط، ١٤٠٧هـ_ ١٩٨٧م.
- مجمع اللُّغة العربيّة في خمسين عامًا، شوقي ضيف، مجمع اللُّغة العربيّة، ط١، ١٤٠٤هـ_ ١٩٨٤م.
- محاضرات في علم اللُّغة العامّ مع دراسة تطبيقيه في علم اللُّغة المقارن، عمر صابر عبد الجليل، جامعة القاهرة، كلية الآداب، د.ط، ٢٠٠٠م_٢٠٠١م
- مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة، محمود أحمد نحلة، دار النهضة العربيّة، بيروت، د.ط، ١٩٨٨م.
- مدخل إلى دراسة النّحو العربيّ، علي أبو المكارم، دار غريب، ط١، ٢٠٠٦م.
- مدخل الى علم اللُّغة، محمود فهمي حجازي، دار قباء، القاهرة، د.ط، د.ت.
- المدخل إلى علم اللُّغة ومناهج البحث اللُّغويّ، رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجيّ بالقاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ_ ١٩٩٧م.
- مدخل الى اللُّغة العبريّة: قواعد، نصوص، تطبيقات، أحمد شحلان، مكتبة المهتدين، ط٢، ١٩٨٤م.
- مدخل إلى نحو اللُّغات السّاميّة المقارن، سباتينو موسكاتي، ادفارد أولندورف، أنطون شيتلر، فلرام فون زورن، ترجمة وتقديم: مهدي المخزومي، عبدالجبار المطلبي، عالم الكتب، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

- مذاهب فكريّة معاصرة، الديمقراطيّة، الشّيوعيّة، العلمانيّة، العقلانيّة، القوميّة الوطنيّة، الإنسانيّة، الإلحاد، محمّد قطب، دار الشروق، ط٣، ١٩٨٨م.
- المذاهب النّقديّة دراسة منهجية مقارنة، ماهر حسن فهمي، منشورات دار البندقيّة للنشر والتّوزيع، ط١، ٢٠١٧م.
- المركزيّة الأوربيّة؛ نقد أيديولوجيّة واستعراض تاريحيّ، سمير أمين، أنثروبوس_ إيكونوميكا، باريس، فرنسا، ١٩٨٨.
- المستشرقون الألمان، تراجمهم وما أسهموا به في الدِّراسات العربيّة، جمعها وشارك فيها: صلاح الدّين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت_ لبنان، ط١، ١٩٧٨م.
- المستشرقون البريطانيون، ا. ج. آربري، شركة اديرنت لمتد، ط١، ١٩٤٦م.
- مستشرقون سياسيون جامعيون مجمعيون، نذير حمدان، مكتبة الصديق للنشر والتّوزيع، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م
- المستشرقون نجيب العقيقي دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٦٤.
- المستشرقون والإسلام، محمّد قطب، مكتبة وهيبة، ط١، ١٤٢٠هـ_ ١٩٩٩م.
- المستشرقون والتّاريخ الإسلامي، علي حسني الخربوطليّ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، ١٩٨٨م.
- المستشرقون وتأثّرهم بالفكر اللُّغويّ الغربيّ في دراسة العربيّة، عصام فاروق، الألوكة، د.ط، ١٤٣٦هـ_ ٢٠١٥م.
- المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربيّة بحث في الجذور التّاريخيّة للظاهرة الاستشراقيّة، اسماعيل أحمد عمايرة، دار حنين، ط٢، ١٩٩٢م.
- المستشرقون والتّراث، عبد العظيم الدّيب، دار الوفاء، ط٣، ١٤١٣هـ_ ١٩٩٢م.
- المستشرقون والتّراث النّحويّ العربيّ، عبد المنعم جدامي، دار كنوز المعرفة العالميّة، ط١، ٢٠١٦.

- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، عرض موجز بالمستندات لمواقف وآراء وفتاوى بشأن ترجمة القرآن الكريم، محمّد صالح البندق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ_١٩٨٠م.
- المستشرقون والدِّراسات القرآنيّة، محمّد حسين علي الصّغير، دار المؤرخ العربيّ، بيروت_ لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م .
- المستشرقون ودعوى الأخطاء اللُّغويّة في القرآن الكريم: دراسة تطبيقية لبعض الإشكالات في المطابقة، آدم بمبا، دار الكتب العلميّة، ط١، ٢٠١٥م.
- المستشرقون وخدمة التّراث العربيّ، عبد العزيز بن سعد الدغيثر، الألوكة، ٢٠١٦م.
- المستشرقون والمناهج اللُّغويّة، إسماعيل أحمد عمايرة دار حزين، عمان _الأردن، ط٢، ١٩٩٢م.
- المستشرقون والمناهج اللُّغويّة الحديثة، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعيّة، د.ط، د.ت.
- المستشرقون ومشكلات الحضارة، عفاف صبره دار النّهضة العربيّة للطبع والنشر والتّوزيع، د. ط، ١٩٨٥.
- المستشرقون ونظريّاتهم في نشأة الدِّراسات اللُّغويّة، د. إسماعيل أحمد عمايرة، دار حنين، عمان_ الأردن، ط٢، ١٤١٢هـ_ ١٩٩٢م.
- المسيح والتّثليث، محمّد وصفي، تقديم: محمّد عبدالله السمان، مراجعة: علي الجوهريّ، دار الفضيلة، د.ط، د.ت.
- المسير في فقه اللُّغة المطور: محمّد محمّد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة_ بيروت، ط١، ٢٠٠٩.
- مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين استقراء للمواقف، علي بن إبراهيم النّملة، مكابة الملك فهد الوطنيّة، الرياض، د.ط، ١٩٩٣م.
- المصطلحات الأدبيّة الحديثة دراسة ومعجم انجليزيّ _عربيّ، محمّد عناني، الشّركة المصرية العالميّة للنشر، لونجمان. ط٣، ٢٠٠٣م.

- مظاهر التّجديد النّحويّ لدى مجمع اللُّغة العربيّة في القاهرة حتّى عام ١٩٨٤، ياسين أبو الهيجاء، جدار للكتاب العالميّ، عمان الأردن، وعالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١، ١٤٢٩هـ_٢٠٠٨م.
- المعاجم العربيّة رؤية تاريخيّة وتقويميّة، بوشي العطار، الجديدة، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، د.ط، ١٩٩٠م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الفراء (ت٢٠٧هـ)، تح: أحمد يوسف نجاتي، محمّد النجار، دار الكتب المصريّة، القاهرة،، ط١، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م.
- معايير عناصر اللُّغة العربيّة للناطقين بغيرها، هاني إسماعيل رمضان، تقديم: ساجدة فاروق، مصطفى لبيب يوسف، المنتدى العربيّ التركي، ط١، ٢٠١٩م.
- المعجزة العربيّة، ماكس فانتاجو، نقل من الفرنسيّة: رمضان لاوند، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٥٤م.
- معجم أسماء المستشرقين، يحيى مراد، دار الكتب العلميّة، ط١، ٢٠٠٤م.
- معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو_ دومنيك منغنو، ترجمة: عبد القادر المهيري_ حمادي صمود، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨م.
- المعجم العربيّ _ نشأته وتطوره، حسين نصار، دار مصر للطباعة، ط٤، ١٤٠٨هـ_ ١٩٨٨م.
- المعجم اللُّغويّ التّاريخيّ، فيشر، الهيئة العامة لشؤن المطابع الاميريّة، مجمع اللُّغة العربيّة، القاهرة، ط١، ١٣٨٧هـ_ ١٩٦٧م.
- معجم المصطلحات العربيّة في اللُّغة والأدب، مجدي وهبه، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

- معجم المصطلحات اللُّغويّة الانجليزيّة العربيّة، رمزي بعلبك، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م.
- المعجم المفصل في مصطلحات فقه اللُّغة المقارن، مشتاق عباس معن، دار الكتب العلميّة، بيروت_ لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ_ ٢٠٠٢م.
- معجم مقاييس اللُّغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تح: محمّد عوض مرعب، فاطمة محمّد أصلان، دار احياء التّراث العربيّ، بيروت _لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ_ ٢٠٠١م.
- المعجمية العربية، جون آ هيود، ترجمة: عناد غزوان، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ٢٠٠٤م.
- المغني في تصريف الأفعال، محمّد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، ط٣، ١٤٢٠هـ_ ١٩٩٩م.
- مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الانصاري (ت ٧٦١هـ)، تح: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، د. ط، ١٤١١هـ_ ١٩٩١م.
- مفاتيح الألسنيّة، جورج مونان، عربه وذيله بمعجم عربي فرنسيّ: الطيب البكوش، تقديم: صالح القرمادي، منشورات الجديد تونس، ١٩٨١م،
- المفصل في تاريخ الأدب العربيّ (للمدارس الثانوية)، أحمد الأسكندريّ، أحمد أمين، عليّ الجارم، عبد العزيز البشرى، أحمد ضيف، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ط١، ١٩٣٦م.
- المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشريّ (ت ٥٣٨هـ)، تح: علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- مقالات ممنوعة، سلامة موسى، مؤسسة هنداوي، د.ط، ٢٠١١م.

- المقتضب، أبي العباس محمّد بن يزيد المبرِّد (ت٢٨٥هـ)، تح: محمّد عبد الخالق عظيمة، ، مطعبة الاهرام التجارية، القاهرة، ط٣، ١٤١٥هـ_ ١٩٩٤م.
- مقدّمة سريعة للعربيّة الفصحى (Initiation rapide à l'arabe classique)، ماريوس رينيه، باريس، د.ط، د.ت.
- مقدمه في فقه اللُّغة العربيّة واللُّغات السّاميّة، عبدالفتاح عبد العليم البركاوي، الجريسي للكمبيوتر والطباعة والتّصوير، ط٢، د. ت.
- مقدّمه لدراسة فقه اللُّغة، محمّد أحمد أبو الفرج، دار النّهضة العربيّة للطباعة والنشر والتّوزيع، ط١، ١٩٩٢م.
- من أسرار اللُّغة، براهيم انيس، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط٦، ١٩٧٨م.
- من نقد الاستشراق الى نقد الاستغراب ( المثقفون العرب والغرب)، أحمد الشيخ، المركز العربيّ للدّراسات الغربية، ط١، ٢٠٠٠م.
- مناهج البحث في اللُّغة، تمّام حسّان، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، د.ط، ١٩٩٠م.
- مناهج البحث اللُّغويّ بين التّراث والمعاصرة، نعمة رحيم العزاويّ، مطبعة المجمع العلميّ، د.ط، ١٤٢١هـ_ ٢٠٠١م.
- مناهج المستشرقين في دراسة الأدب العربيّ: جاك بارك أنموذجًا، عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللّبنانيّ، د.ط، د.ت
- المنح الفكريّة شرح المقدّمة الجزريّة، ملا علي بن سلطان محمّد القاري، شرح: شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، د.ط، ١٣٦٧هـ_ ١٩٤٨م.
- منهج البحث التّاريخيّ، د. حسن عثمان، دار المعارف .ط٨ ، د.ت.
- منهج البحث العلميّ، حلمي المليجي، دار النهضة العربيّة، بيروت، .ط، د.ت.

- منهج البحث اللُّغويّ بين التّراث وعلم اللُّغة الحديث (دراسات)، علي زوين، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ط١، ١٩٨٦م.
- المنهج المقارن مع دراسات تطبيقيّة، عاطف علبي، مجد المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، ط١، ١٤٢٦هـ_ ٢٠٠٦م.
- موجز تاريخ علم اللُّغة (في الغرب)، ر.هـ. روبنز، ترجمة: د.أحمد عوض، عالم المعرفة، د.ط، ١٩٩٧م.
- الموسوعة الإسلاميّة العربيّة، أنور الجندي، دار الكتاب اللّبنانيّ_ بيروت، د.ط، ١٩٨٢م.
- موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.
- موسوعة مرجعيّة لمصطلحات علم اللُّغة النفسيّ، جلال شمس الدّين، مؤسسة الثّقافة الجامعيّة، ط١، ٢٠١١م.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومتابعة: د.مانع بن حماد الجهنمي، دار الندوة العالميّة للطباعة والنشر، ط٤، ١٤٢٠هـ.
- موقف النّحاة المعاصرين من القراءات (الشّيخ محمّد عبد الخالق عضيمة نموذجًا)، مراجعة وتقديم: سليمان إبراهيم، جامعة أم القرى، د.ط. ٢٠٢٣م.
- المولّد في العربيّة دراسة في نمو اللُّغة العربيّة وتطوّرها بعد الإسلام، حلمي خليل، دار النهضة العربيّة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ_ ١٩٨٥م.
- النّحو الجديد، عبد المتعال الصعيديّ، دار الفكر العربيّ، ط١، ١٩٤٧م.
- النّحو العربيّ والدّرس الحديث، د.عبده الراجحي، دار النّهضة العربيّة، بيروت، د.ط، ١٩٧٩م.
- نحو عربية ميسرة، أنيس فريحة، دار الثّقافة، بيروت، ط١، ١٩٥٥.
- نحو معجم تاريخيّ للغة العربيّة (فيشر)، عبد العزيز الحميد وآخرون، المركز العربيّ للأبحاث دراسة اللّسانيّات، ط١، ٢٠١٤م.

- نحو النّصّ نقد النّظريّة وبناء أخرى، عمر محمّد أبو خرمة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط١، ١٤٢٥ هـ_٢٠٠٤م.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبي بركات كمال الدين عبد الرحمن الأنباريّ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ،١٤١٨هـ_ ١٩٩٨م.
- النّشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير محمّد بن محمّد الدمشقيّ بن الجزريّ (ت٨٣٣هـ)، دراسة وتحقيق: د.السالم محمّد محمود الشنقيطيّ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د.ط، ١٤٣٥هـ.
- نشوء اللُّغة العربيّة ونموها وآكتهالها، الأب أنستاس ماري الكرملي، المطبعة العضديّة، القاهرة، د.ط، ١٩٣٨م
- النّصّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: د. تمام حسّان، عالم الكتب_ القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ_ ١٩٩٨م.
- نظرات في التّراث اللُّغويّ العربيّ، د. عبد القادر المهيريّ، دار الغرب الإسلامي، بيروت_لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
- نظريّات في اللُّغة، أنيس فريحة، دار الكتب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.
- نقد الخطاب الاستشراقيّ: الظّاهرة الاستشراقيّة واثرها في الدِّراسات الإسلاميّة، ساسي سالم الحاج، دار المدار الإسلاميّ، ط١، ٢٠٠٢م..
- هندسة اللُّغات، فيفن لو، ترجمة: أحمد شفيق، د. ط. د.ت.
- الوجيز في فقه اللُّغة، محمّد الانطاكيّ، المطبعة الحديثة، حلب، سوريا، ط١، ١٩٦٩م.
- وحي الله، حقائقه وخصائصه في الكتاب والسّنّة، نقص مزاعم المستشرقين، جسن ضياء الدّين عتر، دار المكتبي، ط١، ١٩٩٩م.
- الوصفيّة في اللّسانيّات العربيّة الحديثة، د. حافظ إسماعيليّ علوي، دار الأمان، الرّباط، ط١، ٢٠٠٩م.

**ثانيًا: الرّسائل والأطاريح:**


- الأبنية الصّرفيّة ودلالتها في سورة يوسف عليه السلام، بن ميسية رفيقة، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطنيّة، كلية الآداب واللُّغات، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٤م.
- اتّجاهات البحث في قضيّة الإعراب عند اللُّغويّين العرب المحدثين، خالد بن صالح الحجيلان، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، قسم اللُّغة العربيّة وآدابها، ١٤٢١هـ.
- اشتراك الصّيغ الصّرفيّة في العربيّة، عبد العزيز بن سعيد بن مجحود الزهرانيّ، أطروحة دكتوراه، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، قسم اللُّغة العربيّة، المملكة العربيّة السعودية، ١٤٤١هـ_ ٢٠٢٠م.
- البحث اللُّغويّ في دراسات المستشرقين الالمان، عبد الحسن عباس حسن الجمل الزوينيّ، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ١٤٣١هـ_٢٠١٠م.
- البديل المنهجيّ لدراسة العربيّة عند المستشرقين هنري فليش في كتاب "العربيّة الفصحى" نموذجًا، رسالة ماجستير، كريمة بوكرش، كلية الآداب واللُّغات والعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، جامعة زيان عاشور بالجفلة، ٢٠٠٩م_ ٢٠١٠م.
- التّراث اللُّغويّ العربيّ في كتابات المستشرقين، نادية معاتقي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللُّغات، جامعة مولود معمري_ تيزي وزو، ١٤٤٢هـ_ ٢٠٢١م.
- التّطوّر اللُّغويّ في دراسات المحدثين: دراسة في الأصوات والأبنية والتّراكيب، علي سامي أمين العبيدي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠١٤م.
- جهود المستشرق الألمانيّ "برجشراستر" اللُّغويّة ودورها في إثراء الدّرس اللُّغويّ العربيّ، صبرينة علماس، وفريوة خابر، رسالة ماجستير، جامعة أكلي محند أولحاج_ البويرة_ كلّيّة الآداب واللُّغات، ٢٠١٨م_ ٢٠١٩م.

- دراسة تقويميّة لمحتوى الأصوات اللُّغويّة في منهاج اللُّغة العربيّة في ضوء المعايير الواجب توافرها فيه، شبل عودة عبد الله اللحام، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلاميّة عزة، كليّة التربية، فلسطين، ١٤٣١هـ_٢٠١٠م.
- الدّرس الصّوتي العربيّ بين التّأصيل والتّأسيس –دراسة مقارنة بين ابن جنّي وابراهيم أنيس، نسيمة بن مانة، شميسة بوشباط، رسالة ماجستير، جامعة عبد الحميد بن باديس_ مستغانم، كلية الآداب العربيّ وفنونه، الجزائر، ٢٠٢٣م.
- السّيرة النّبويّة في كتابات المستشرقين البريطانيّين، أمل بنت عبيد بن عوض الثّبيتي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كليّة الشّريعة والدِّراسات الإسلاميّة، السّعوديّة، ١٤٢٤هـ_ ٢٠٠٣م.
- ظاهرة الأصول المهملة في العربيّة أبعادها وعللها، كفاح إبراهيم محمود نواس، رسالة ماجستير، جامعة النّجاح الوطنيّة، كلية الدِّراسات العليا، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٩م.
- ظاهرة التّطوّر اللُّغويّ عند يوهان فك من خلال كتابه العربيّة، بن يوسف شتيح، رسالة ماجستير، جامعة زيان عاشور_ الجلفة، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم الآداب، ٢٠٠٩م.
- قراءة الخطاب الاستشراقيّ في الثّقافة العراقية المعاصرة: مجلّة الاستشراق العراقية إنموذجا، محمّد جاسم محمّد الأسدي، أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة_ كليّة التّربية للعلوم الإنسانية، قسم اللُّغة العربيّة، ٢٠١٦م.
- القضايا الصّوتية في اللُّغة العربيّة بين التّراث واللّسانيّات العربيّة الحديثة_ دراسة مقارنة، كريفة شهرة، أمال شويتح، مذكرة ، جامعة محمّد البشير الإبراهيميّ_ برج بوعريريج_ كليّة الآداب واللُّغات، الجزائر، ١٤٤٣هـ_ ٢٠٢٢م.
- مناهج الدّرس النّحويّ في العالم العربيّ في القرن العشرين، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنيّة، كلية الدِّراسات العليا، ١٩٩٢م.

❖ المنهج التّاريخيّ والمقارن في الدِّراسات النّحويّة الحديثة عند العرب، عدي حسين عليّ، أطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصريّة، كلية التربية_ قسم اللُّغة العربيّة، ٢٠١٣م.

❖ المنهج التّاريخيّ والمنهج المقارن في الدِّراسات الصّوتيّة والصّرفيّة العربيّة الحديثة، عليّ حسن السّرايّ، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية ابن رشد، ١٤٣٠هـ_ ٢٠٠٩م.

❖ واقع النّحو العربيّ في ضوء محاولات تجديده في العصر الحديث، مأمون سليمان محمّد الغنام، أطروحة دكتوراه، جامعة الإمارات العربيّة المتحدة_ كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، ٢٠٢٠م.

**ثالثًا: البحوث والمجلات:**

❖ اتّجاهات المستشرقين في دراسة الحياة اللُّغويّة في العالم العربيّ الحديث، محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنّشر، السنة ١٠، العدد ١١٤، ١٩٦٦م.

❖ اختلاف الصّرفيّين في وزن الكلمة بين القياس والسّماع، مروة محمّد أحمد، مجلّة المدارات العلميّة للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلد ٣، العدد٢، ٢٠٢٥.

❖ الأدب المقارن في العالم العربيّ (إشكالية النظرية والمنهج والمصطلح)، لطيفة صفوي، المجلّة الدّولية لنشر البحوث والدِّراسات، المجلد الرابع، الإصدار ٤٣، ٢٠٢٣م.

❖ الاستشراق بين النّشأة والأهداف، إسماعيل عبد الفتاح مصطفى، حولية كليّة أصول الدّين والدّعوة الإسلاميّة بطنطا، مجلّة سنوية علميّة محكمة، المجلد٨، العدد ٨، ٢٠١٦م.

❖ الاستشراق الجديد وقضايا وحدة الآمّة الإسلاميّة، علي بن مبارك، مجلّة الكلمة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، لبنان، السنة ٢٤، العدد ٩٥، ١٤٣٨هـ_٢٠١٧م.

❖ الاستشراق الفرنسيّ ضرورة مثيره للجدل، فلوريال ستاغوستان، حوليات جمعية كليّة الآداب، مجلّة علميّة محكمة، إربد_ الأردن، المجلد ١، العدد١، ٢٠٠٤م.

- الاستشراق اللُّغويّ في القرن التّاسع عشر والعربيّة اللّهجيّة بالمغرب عند خوصي ماريا لور شندي (١٨٣٦_ ١٨٩٦)، عبد العالي احمامو، مختبر اللُّغة والمجتمع، ابن طفيل، ٢٠١٦_ ٢٠١٧م.
- الاستشراق وأثره في الدِّراسات اللُّغويّة وعلاقته بالسّياسة، مقبل بن علي بن مشيعل الدعدي، مجلّة مجمع اللُّغة العربيّة على الشّبكة العالميّة، السّعوديّة، العدد ٣،٤، ١٤٣٥هـ_ ٢٠١٤م.
- الاستشراق والاستغراب، هاشم أبو الحسن عليّ، مجلّة الجمعية المصرية، السّنة الخامسة والعشرون، العدد ٢٥، ٢٠١٦م.
- الاستشراق والسّيرة النّبويّة، مصطفى المسلوتي، الواضحة مجلّة علميّة محكمة، تصدر عن دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلاميّة العليا بالرّباط، العدد٢، ٢٠٠٤م
- الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر، عدنان محمّد وزان، عالم الكتب، دار تثقيف للنشر والتّوزيع، السّعوديّة، مجلد ٥، العدد ١، ١٤٠٤هـ_ ١٩٨٤م.
- أسس المنهج الوصفيّ في ضوء الدِّراسات العربيّة القديمة والحديثة، مبروك بركات، قضايا لغويّة، المجلد٣، العدد ٢، ٢٠٢٢م.
- أصالة النّحو العربيّ، عبدالله بن حمد الخثران، بحث مستل من أبحاث جامعة الأمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، مجلّة كلية اللُّغة العربيّة، العدد ١١، ١٩٨١م.
- الأصوات العربيّة بين الخليل وسيبويه، عليان الحازمي، ، بحوث كلية اللُّغة العربيّة، جامعة أم القرى، العدد ٢، ١٤٠٤هـ_١٤٠٥هـ.
- أهداف الاستشراق ووسائله، سعد آل حميد، جامعة الملك سعود، كليّة التّربية، قسم الثّقافة الإسلاميّة، العدد ١، د.ت.
- أهمّيّة المنهج الوصفيّ للبحث في العلوم الإنسانيّة، إسماعيل الحاج عبد القادر سيبوكر، مجلّة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح_ ورقلة، الجزائر، العدد ١٦، ١٤٤٠هـ_ ٢٠١٩م.

- بقايا اللّهجات العربيّة في الأدب العربيّ، أنو ليتمان، مجلّة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأوّل_ كلية الآداب، المجلد ١٠، جزء ١، ١٩٤٨م.
- البنية الصّرفيّة ونظريّة الأصول المقدرة، زغدودة ذياب مروش، مجلّة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد ١١، ٢٠١٣م.
- التّأثيرات الاستشراقيّة في مسيرة اللُّغة العربيّة الفصحى –بينَ الإنصاف والإجحاف، محمّد عيساوي، مجلّة تاريخ العلوم، العدد السابع، ٢٠١٧م.
- التّباين اللُّغويّ بين الأصول والجذور، سيدي محمّد غيثريّ، مجلّة الآداب واللُّغات، جامعة ورقلة، الجزائر، العدد٤، ٢٠٠٥م.
- تحوّلات اللّسانيّة العربيّة الحديثة من المنحى الوصف إلى المنحى الوظيفيّ، عمر بوغدير، مفيدة بن وناس، مجلّة إشكالات في اللُّغة والأدب، المجلد٩، العدد٤، ٢٠٢٠م.
- التّطوّر اللُّغويّ في العربيّة المعاصرة (إطلالة عامة)، عبد الناصر إسماعيل عساف، مجلّة مجمع اللُّغة العربيّة بدمشق، سوريا، المجلد ٩٢، الجزء ٣،٤، ١٤٤١هـ_ ٢٠١٩م.
- التّغييرات الصّوتيّة في اللّهجات العربيّة والتّطوّر النّطقيّ بين اللّهجات القديمة والحديثة: دراسة مقارنة، ليث شاكر محمود جراد، مجلّة المدارات العلميّة للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلد٣، العدد ٢، ٢٠٢٥م.
- الثّنائيّة في اللُّغة، محمّد مصطفى رضوان، مجلّة كلية الآداب، عدد٤، ١٩٧٢
- الجملة في كتاب سيبويه، عبد الرحمن الحاج صالح، مجلّة مجمع اللُّغة العربيّة، العدد ٧٨، ١٩٩٦م.
- جهود المستشرق الألمانيّ يوهان فك في اللّهجات العربيّة دراسة ابيستيمولوجيّة، د. سامي الماضي، دراسات استشراقية، العدد ٢٢، ١٤٤١هـ، ٢٠٢٢م
- حوار مع المستشرق فلاديمير شاغال، ترجمة حسب الله يحيى، مجلّة الاستشراق، دار الشؤون الثقافيّة العامة، بغداد _العراق، العدد٢، ١٩٨٧م.

- ❖ حوار مع المستشرق مكسيم رودنسون، مجلّة الاستشراق، دار الشؤون الثقافيّة العامة، بغداد _العراق، العدد٢، ١٩٨٧م.
- ❖ خصائص العربيّة المعاصرة: مظاهر حداثتها في المفردات والتّراكيب، محمّد حسن عبد العزيز، اللّسان العربيّ، جامعة الدّول العربيّة، المنظمة العربيّة للثقافة والعلوم، المغرب، العدد ٤٥، ١٤١٩هـ_ ١٩٩٨م.
- ❖ الخطاب دراسة إجرائيّة، مويلح سمية، مجلّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، المجلد ١٧، العدد ١، ٢٠٢٣م.
- ❖ الدِّراسات الاستشراقيّة في اللُّغة العربيّة ولهجاتها: المغرب انموذجا، اسليماني رضوان، مجلّة دراسات استشراقية، العدد ٢٩، ١٤٤٣هـ_٢٠٢٢م.
- ❖ الدِّراسات العربيّة والإسلاميّة في أوربا، ميشال حجا، يحيى حمود، مجلّة الفكر العربيّ، معهد الإنماء العربيّ، المجلد ٥، العدد ٣٢، لبنان، ١٩٨٣م.
- ❖ دراسة نقدية لبعض المناهج الوصفيّة وموضوعاتها في البحوث الاجتماعيّة والتّربويّة النّفسيّة، موسى بن إبراهيم حريزي، صبرينة غربي، مجلّة الباحث في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة قاصدي مرباح_ ورقلة، الجزائر، العدد١٣، ٢٠١٣م.
- ❖ دوافع المستشرقين من ترجمة معاني القرآن الكريم، عبد الحليم محمّد، مجلّة النّصّ، المجلد ٢، العدد١، ٢٠١٥م.
- ❖ دور اللُّغة العربيّة في تاريخ العلوم من خلال آراء بعض المستشرقين، فارح مسرحيّ، https://taqueen.com/%D٨%AF%D٨%٨٨%D٨%B١-

%D٧A%٨%D٤%٨٤%D٩%٨٤%D٨%٨D%BA%٩-

%D٧A%٨%D٨%٨D%١B%٨D%٩B%٨D%٨٤%D٩%٧A%٨%D٨%٩D%٨A%٨D%٨%٩-

%D٨١%٩D%٨-A

%D٨%AA%D٧A%٨%D١B%٨D%٩D%٨A%٨-AE

-٨٥%٩D%٨٨%٩D%٨٤%٩D%٩B%٨D%٨٤%٩D%٧A%٨%D

/٨٤%٩AE%D%٨-%D٨٦%٩D%٨٥%٩%D

- رأي أ. ولفنسون في أصالة الفعل في اللُّغات السامية: عرض وتوجيه ، عبد القادر سلامي، مجلّة مجمع اللُّغة العربيّة بدمشق، المجلد ٨١، الجزء ١، ٢٠٠٦م.
- راي المستشرق الالمانيّ فولف ديتريش فيشر في تطوّر اساليب الكتاب العربيّة ومسائل لغويّة شتّى، فولف ديتريش فيشر، ظافر يوسف، مجلّة مجمع اللُّغة العربيّة بدمشق، المجلد ٧٧، الجزء ٣، ٢٠٠٢م.
- الرّحلّة وكتب الرّحلّات الأدبيّة إلى الشّرق حتّى نهاية القرن الثّامن عشر، جبور الدويهي، مجلّة الفكر العربيّ، العدد ٢٣، ١٩٨٣م.
- سمة التّعاون العلميّ بين المستشرقين في نشر الدِّراسات التّاريخيّة (تاريخ المغرب والأندلس نموذجًا)، محمّد جمعة عبد الهادي موسى، مجلّة دراسات استشراقيّة، العدد ٢٨، ١٤٤٢هـ_ ٢٠٢١م.
- ظاهرة الاقتصاد اللُّغويّ في الدّرس اللُّغويّ العربيّ، عطاء الله بوسالمي، مجلّة جسور المعرفة، جامعة حسينيّة بن بو عليّ الشّلف، مخبر تعليميّة اللُّغات وتحليل الخطاب، مجلد ٩، العدد ٥، ٢٠٢٣م.
- ظاهرة التّخلص من التقاء الساكنين في العربيّة الفصحى، عبد القادر الخليل، أبحاث اليرموك_ سلسلة الآداب واللُّغويّات_ الأردن، المجلد١٥، العدد١، ١٩٩٧م.
- العربيّة في ضوء المنهج المقارن دراسات المستشرقين الألمانيّ إنموذجا، عبد الحسين عباس حسن، مجلّة اللُّغة العربيّة وآدابها، جامعة الكوفة_ كلية الآداب، العدد١٢، ٢٠١١م.
- علل التّغيّر اللُّغويّ، مصطفى زكي التوني، حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العلميّ _جامعة الكويت، مجلد ١٣، عدد ٨٤، ١٩٩٢م.

- علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، شاده، بحث صحيفة الجامعة المصريّة، العدد ٥، ١٩٣١م.
- علم الأصوات عند سيبويه وعندنا. للمستشرق آرتو شاده، دراسة وتعليق، د. صبيح محمود التّميميّ، مجلة آداب الرافدين، الموصل، العدد ٥٨، سنة ٣٩، ٢٠١٠م.
- علم اللُّغات السّاميّة المقارن، إدورد ألندرف، تعريب: د. عرفة مصطفى، مجلة بين النهرين، مجلة فصليّة حضاريّة تراثيّة، الموصل، العراق، العدد ٢٣/٢٢، السنة ، ١٩٧٨م
- الفهرس الوصفيّ للمنشورات الاستشراقيّة المحفوظة في مركز البحوث في جامعه الامام محمّد بن سعود، قاسم السّمرائي، المملكة العربيّة السعودية: إدارة الثّقافة والنّشر، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، ١٩٨٨م.
- قراءة جديدة في قضية الدّعوة إلى العامّيّة، عبد الله أحمد خليل إسماعيل، مجلّة الجامعة الإسلاميّة، العدد ٢، ١٩٩٧م.
- قضية الإعراب في العربيّة عند المستشرقين، اليزيد بلعمش، مراد شرفي، مجلّة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإنسانيّة، كلية أصول الدّين، الجزائر، المجلد ٢٦، العدد ٦٥، ٢٠٢٢م.
- اللّسانيّات الحديثة في الجامعات الأردنيّة وأثرها في تنمية اللُّغة العربيّة ومعالجة قضاياها: الواقع وسبل النهوض، سمير شريف استيتية، الموسم الثقافيّ السّابع والعشرون لمجمع اللُّغة العربيّ الأردنيّ، الأردن، عمان، رقم المؤتمر٢٧، ٢٠٠٩م.
- اللّسانيّات وجديد سوسيور، خالد محمود جمعة، علامات، الجزء ١٩، ١٩٩٦م.
- لغة اكلوني البراغيث بين العربيّة الفصحى ولهجات شبه الجزيرة العربيّة، ميساء صائب رافع، مجلّة حوليات التّراث، الجزائر، العدد ١٨، ٢٠١٨م.
- اللُّغة العربيّة بين التّشدّد والتّيسير، ممدوح محمّد خسارة، قضايا لغوية، دمشق العدد١٠، ٢٠١٨م.

- لفظ الجيم عند العرب أهو حلقيّ كما في مصر أم شجريّ كما في بلاد الشام، للأب لامنس اليسوعيّ، مجلّة المشرق، السنة الأولى، العدد ٣، ١٨٩٨م.
- لمَ الاهتمام بالاستشراق، شكري النّجار، الفكر العربيّ، مجلّة الإنماء العربيّ للعلوم الإنسانيّة، العدد ٣١، السنة ٥، ١٩٨٣م.
- اللّهجات العربيّة في الفكر الاستشراقيّ، عبد العالي احمامو، مجلّة دراسات استشراقيّة، العدد ١٥، السنة ٥، ١٤٣٩هـ_ ٢٠١٨م.
- اللّهجات العربيّة وعلاقتها باللُّغة العربيّة الفصحى دراسة لغويّة، محمّد شفيع الدّين، دراسات الجامعة الإسلاميّة العالمية شيتاغونغ، المجلد ٤، ٢٠٠٧م.
- لهجة العنعنة: ظاهرة لغويّة قديمة تنتشر في بعض القبائل العربيّة الحديثة، رانيا سمير، https://sqawoa.com/archives/٤٥٠٨٧#google_vignette
- ماهيّة الخطاب الاستشراقيّ في فكر إدوارد سعيد، نعيمة بن صالح، دراسات فلسفية، قسم الفلسفة _ كلية العلوم الإنسانيّة_ جامعة الجزائر، المجلد ١٦، العدد٢، ٢٠٢١م.
- مبدأ الجهد الاقل في العربيّة أنماطه وأغراضه التّداوليّة في كتاب سيبويه، البندري بنت عبد العزيز العجلان، أمل بنت محمّد الشقير، مجلّة الآداب، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، المجلد ٣٣، العدد ١، ١٤٤٢هـ_ ٢٠٢١م.
- مخارج الأصوات الصامتة عند الدّكتور غانم قدوري حمد في ضوء الدِّراسات القديمة والحديثة، حيدر فخري ميران، علي جواد كاظم، مجلّة مركز بابل، الدِّراسات الإنسانيّة، المجلد ٢، العدد١، ٢٠١٢م.
- مخاطر استهداف المستشرقين للغة العربيّة، صالح زهر الدّين، مجلّة دراسات استشراقية، العدد ١٤، السنة الخامسة، ١٤٣٩هـ_ ٢٠١٨م.
- المراجعات اللّسانيّة الحديثة للصرف العربيّ وأبعادها التّعليميّة، الزايدي بودارمة، والعمري صوشة، مجلّة العلوم الإنسانيّة، المجلد ٣٢، العدد ٣، ٢٠٢١م.

- مساهمة المستشرقين في نشر التّراث الإسلاميّ الخاصّ بعلم الكلام، آلبير نصري نادر، مجلّة الانتماء العربيّ للعلوم الإسلاميّة، الفكر العربيّ، السنة الخامسة، العدد ٣١، ١٩٨٣م.
- المستشرق شورد فان كوننكزفيلد، صلاح عبد الرزاق، https://www.azzaman.com/%D%٨A%٩D%٨٤%٩D%٨٥%٨D%٣B%
-٨٢%٩D%١B%٨D%٤B%٨AA%D%٨D
AF-%٨D%١B%٨D%٨٨%٩D%٤B%٨%D
-٨٦%٩D%٧A%٨D%٨١%٩%D
%٨١%٩D%٢B%٨D%٨٣%٩D%٨٦%٩D%٨٦%٩D%٨٨%٩D%٨٣%٩%D
/AF%٨D%٨٤%٩A%D٨%٩D
- المستشرقون جهودهم في خدمة التّراث العربيّ الإسلاميّ المخطوط ، رائد أمير عبد الله، آداب الرافدين، جامعة الموصل_ كلية الآداب، العدد ٦٧، ١٤٣٤هـ،٢٠١٣م.
- المصطلح الصّوتيّ العربيّ في دراسات المستشرقين، سليمة شعيب، التّعليميّة، جامعة جيلالي ليابس بلعباس، كلية الآداب واللُّغات والفنون، الجزائر، المجلد ٥، العدد ١٤، ٢٠١٨م.
- مظاهر التّخفيف في بنيه الكلمة العربيّة دراسة في مسالك التّعليل في ضوء علم اللُّغة الحديث، حسين عباس محمود الرفايعة، مجلّة جامعة الزّيتونة الأردنية للدراسات الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلد ١، العدد ١، ٢٠٢٠م.
- معجم علم اللُّغة النّظريّ، محمّد عليّ الخولي، مجلّة المعجميّة، جمعيّة المعجميّة العربيّة، العدد ٢، ١٩٨٦م.
- ملامح المنهج الآني الوصفيّ في التّراث اللُّغة العربيّ مقاربه لسانيّة بنيويّة، غويرق حميد، مجلّة الأثر، المجلد ١٧، العدد١، ٢٠١٨م.

- من دراسات المستشرقين للصوت اللُّغويّ العربيّ، حامد ناصر الظالمي، دراسات استشراقية، العدد١٣، السنة ٥، ٢٠١٨م.
- مناهج البحث اللُّغويّ، عبد القادر شاكر، مجلّة حوليات التّراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد٩، ٢٠٠٩م.
- مناهج البحث اللُّغويّ ومدارسه، محمّد إبراهيم محمّد عثمان، مجلّة المختار للعلوم الإنسانية، مجلد ٢٥، العدد ١، ٢٠١٤م.
- المناهج الكتابة اللّسانيّة العربيّة الحديثة بين التّأييد والمعارضة، هدى حواش، مجلّة بدايات، المجلد السّابع، العدد٢، ٢٠٢٥م.
- المنهج المقارن عند المستشرقين ودوره في الدّرس اللُّغويّ المعاصر، عمر صابر عبد الجليل، مجلّة رسالة المشرق، جامعة القاهرة_ مركز الدِّراسات الشّرقيّة، المجلد ١٦، العدد ١٤، ٢٠١١م.
- المنهج الوصفيّ بين التّراث اللُّغويّ العربيّ واللّسانيّات الحديثة، رياض بوزنية، مجلّة الناص (جامعة جيجل)، المجلد ١٣، العدد ٢٤، ٢٠١٨م.
- المنهج الوصفيّ في كتاب في النّحو العربيّ نقد وتوجيه للدّكتور مهدي المخزومي(ت١٩٩٣)، مجلّة، سر من رأى، سهيلة طه محمّد البياتي، المجلد ٤، العدد١١، السنة الرابعة، ٢٠٠٨م.
- المنهج الوصفيّ وتطبيقاته في الدّرس اللُّغويّ الحديث، كمال حسين أحمد، مجلّة ديالى، كلية التربية، العدد ٤٤، ٢٠١٠م.
- المنهج الوصفيّ ومظاهره في اللّسانيّات الغربيّة الحديثة، نبيل محمّد صغير، مجلّة الممارسة اللُّغويّة، جامعة مولود معمري تيزي وزو_ كليّة الآداب واللُّغات_ مخبر الممارسات اللُّغويّة في الجزائر، المجلد ٢٠١٣، العدد ١٨، ٢٠١٣م.

- ❖ موقف الحركة الاستشراقيّة من تاريخ النّحو العربيّ ونقده، د. حمداد بن عبد الله، مجلّة الدِّراسات الاستشراقيّة، العدد ١٧، ٢٠١٩ م.
- ❖ نحن والمستشرقون مع دراسة تحليليّة لأثر المستشرق دوزي في المعجمة العربيّة، علي توفيق الحمد، مجلّة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد ١٥، ٢٠٠١م.
- ❖ النّحو العربيّ ومنطق أرسطو، الحاج صالح، مجلّة كلية الآداب، الجزائر، العدد ١، ١٩٦٤م.
- ❖ النّحو الوصفيّ بين الدكتور مهدي المخزوميّ والدكتور تمّام حسّان دراسة في موارد الانفاق والاختلاف بينهما، حيدر جبار عيدان، جامعة الكوفة_ كلية الآداب، المجلد ٥، العدد ١٤، ٢٠١٢م.
- ❖ نشأة النّحو في ضوء كتاب سيبويه، جيرار تروبو، مجلّة مجمع اللُّغة العربيّة الاردنيّ، العدد١، ١٩٧٨م.
- ❖ نظرية الصّرف العربيّ دراسة في المفهوم والمنهج، محمّد عبد العزيز عبد الدايم، حواليات الآداب والعلوم الاجتماعيّة_ الحولية الحادية والعشرون_ ١٤٢٢هـ_ ٢٠٠١م.
- ❖ هذا الصّرف ! وهذا النّحو ! أما لهذا الليل من آخره أنيس فريحة الأبحاث مجلّة تصدرها الجامعة الأميريكيّة في بيروت – السنة ٨ ، آذار ١٩٥٥ .
- ❖ هنري فليش ومنهجه في دراسة الأصوات العربيّة من خلال كتابه العربيّة الفصحى، ظافر كاظم عبد الرزاق السلمان، مجلّة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانيّة، جامعة الكوفة، مجلد ١٦، العدد ٣١، ١٤٤٤هـ_ ٢٠٢٢م.
- ❖ واقع اللُّغة العربيّة وأثر المستشرقون عليها، نسمة نابي، مجلّة الممارسات اللُّغويّة، جامعة كولود معمري_ تيزي_ وزو، كلية الآداب واللُّغات، العدد ٣٥، ٢٠١٦م.
- ❖ الوجهة الاجتماعيّة في منهج سيبويه في كتابه، نهاد موسى، الناشر: مصطفى السّباعيّ، حضارة الإسلام، مج: ١٥، العدد ١، ١٩٧٤ م.

❖ الوحي والتجربة الدّينيّة من وجهة نظر المستشرقين، محمد جواد إيكندرلو، مجلة دراسات استشراقية، العدد ٢٩، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م.

**رابعًا: المصادر الإنكليزيّة:**

❖ A functional view of language, ANDERE MARTIENT, Oxford:clarendon press.1962.

❖ Deux Traités Grammaticaux Arabes Traduits En Latin, Gérard Troupeau, Journal of Arabic Revue d'études arabes and Islamic Studies et islamiques, T. 10, Fasc. 3, 1963.

❖ Etude de la phonologie et de la morphologie de la koinè arabe, André Roman, Publications de l'Université de Provence, 1983.

❖ Grammaires générale et grammaire arabes en France, ANDRÉ ROMAN, Arabica, tome LII.3, 2005.

❖ Islam and the west: the making of an image, NORMAN DANIEL, at the University Press EDINBURGH, 1962.

❖ Oxford English: Dictionary Oxford University, Press, 1989.

❖ The Development of western Grammer if Arabic Carolyn G. Killean, Journal of Near Eastern Studies, The University of Chicago Press, Vol. 43, No. 3. 1984.

❖ The foundations of Grammar: An Introduction to medieval Arabic grammatical theory , Jonathan Owens, JOHN BENJAMINS

PUBLISHING COMPANY AMSTERDAM/PHILADELPHIA, ISSN 0720_0304; v. 45, 1988.

- The principle of economy as a phonetic force in transactions of the American philological association, William Dwight Whitney,the American Philological Association (Volume 8),1877.
- the principle of least effort within the hierarchy of linguistic preferences external evidence from English. Małgorzata Kul, Praca doktorska, w Instytucie Filologii Angielskiej Uniwersytetu im. Adama Mickiewicza, 2007.
- voir Le dictionnaire des sciences humaines, sous la direction de Jean-François Dortier, Auxerre-France, 2008.

## Abstract

This dissertation examines Orientalist linguistic discourse, exploring its intellectual and methodological foundations and its approaches to the study of the Arabic language and its linguistic sciences. It investigates the factors underlying the emergence of Orientalist linguistic scholarship and analyzes the extent to which scientific, religious, political, and colonial motivations influenced Orientalist interpretations and conclusions. It also considers Orientalist linguistic discourse as a diverse intellectual and scholarly field whose orientations varied according to the historical contexts, intellectual backgrounds, and methodological perspectives of individual Orientalists. Accordingly, the study avoids treating Orientalism as a homogeneous movement governed by a single motivation or intellectual position.

The study traces Orientalist contributions to the investigation of Arabic phonology, morphology, and syntax, highlighting their positions on major linguistic issues, including the origins of Arabic grammar, phonetic theory, linguistic roots, derivation, and inflection. It demonstrates that many Orientalists recognized the pioneering achievements of early Arab linguists, particularly in the field of phonetics, while others sought to attribute these achievements to external influences without providing conclusive evidence. In the field

of phonetics, the dissertation examines Orientalist discussions of the articulation and classification of Arabic sounds, their distinctive features, historical development, and variation across Arabic dialects. It further considers the extent to which modern phonetic approaches contributed to the reinterpretation of the descriptions provided by early Arab linguists.

In the field of morphology, the study addresses Orientalist views on the structure and historical development of Arabic and Semitic roots, particularly the relationship between biliteral and triliteral roots, as well as morphological augmentation, derivation, verbal tense, and grammatical gender. It demonstrates the diversity of Orientalist positions on these issues and examines them within their historical and comparative contexts.

With regard to syntax and grammatical thought, the dissertation discusses Orientalist interpretations of the origins of Arabic grammar, the traditional classification of words into noun, verb, and particle, grammatical inflection (irāb), and the concept of the sentence. Particular attention is given to claims concerning possible external influences on early Arabic grammatical thought. The study maintains that formal similarities between grammatical traditions do not, by themselves, provide sufficient evidence of direct borrowing unless they are supported by clear historical, conceptual, and linguistic evidence.

The dissertation further examines the principal methodologies employed by Orientalists in their study of Arabic, notably the historical, comparative, and descriptive approaches, and evaluates their impact on modern linguistic research and the interpretation of the Arabic linguistic heritage. The historical method is examined in relation to phonetic, morphological, and syntactic change, whereas the comparative method is considered in relation to Arabic within the wider Semitic language family and to attempts to reconstruct earlier linguistic forms. The descriptive method is also discussed in terms of its role in observing, classifying, and analyzing linguistic phenomena within their structural systems. The study shows that these methodologies often interacted and complemented one another rather than operating as entirely separate approaches.

The study concludes that Orientalist linguistic discourse was not a unified intellectual movement but rather a diverse field encompassing both objective scholarly contributions and ideologically influenced perspectives. It also confirms the central position of Arabic within comparative Semitic studies due to its preservation of many original Semitic features.

At the same time, the dissertation distinguishes between Arabic as a historically documented Semitic language of considerable importance for comparative research and the reconstructed Proto-

Semitic language, emphasizing the need for methodological caution when dealing with hypothetical historical reconstructions.

The findings also indicate that Orientalist scholarship contributed significantly to expanding the historical and comparative study of Arabic and to reconsidering a number of issues within the Arabic linguistic heritage. Nevertheless, the value of these contributions varies according to the methodological foundations, available evidence, and intellectual assumptions underlying individual studies. Therefore, Orientalist judgments should be examined within their specific scholarly and historical contexts rather than accepted or rejected as a single body of thought.

Finally, the dissertation emphasizes the richness and originality of the Arabic linguistic heritage and argues for a balanced critical engagement with Orientalist scholarship that distinguishes between valuable scientific contributions and judgments shaped by extra-scholarly assumptions. Such an approach makes it possible to benefit from the methodological and linguistic achievements of Orientalist scholarship while critically examining its assumptions and conclusions, thereby contributing to a more comprehensive understanding of Orientalist linguistic discourse in terms of its formation, linguistic material, and methodological foundations.

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education and Scientific Research
Wasit University /College of Education for Human Sciences
Department of Arabic Language




# Orientalist Linguistic Discourse

# A Study of Its Origins, Content, and Methodology

Thesis submitted by the student

Saja Qasim Abdulhussein

To the Council of the College of Education for Human Sciences, University of Wasit

It is part of the requirements for obtaining a Master's degree in Arabic Language and Literature

Under the supervision of Professor

A.Dr.Ali Hassan Abdul Hussein Al-Dulafi

1446 A.H 2026 A.D